



وزارة الثقافة والتعليم العالي

الثورة .. والحرية

# سندباد مصرى

جولات فى رحاب التاريخ

تأليف: حسين فوزى





سندباد مصری







کتابخانه و اسناد ملی جمهوری اسلامی ایران

الثورة .. والحرية (٦)

# سندباد مصرى

جولات فى رحاب التاريخ

تأليف

حسين فوزى

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة  
(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)



الهيئة العامة  
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة  
أ.د. محمد صابر عرب

فوزى، حسين.

سندباد مصرى: جولات فى رحاب التاريخ/ تأليف  
حسين فوزى .. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ،  
2011-

٣٩٨ ص؛ 20 سم. - (الثورة .. الحرية)  
تدمك 4 - 0808 - 18 - 977 - 978  
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث  
أ - العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

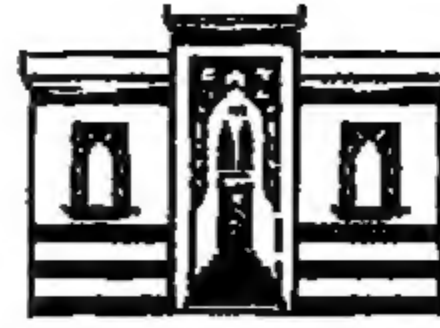
لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى  
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى  
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

[www.darelkotob.gov.eg](http://www.darelkotob.gov.eg)

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٨٦٤٢

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0808 - 4





مركز الكتب والأناضول القومسي

## الثورة .. والحرية سلسلة غير دورية

رئيس مجلس الإدارة  
أ.د. محمد صابر عرب

إشراف  
أ.د. أحمد زكريا الشلق

سكرتارية التحرير  
ميادة مدحت عاشور

الإشراف الفني  
محمد على الشريف

تصميم الغلاف  
محمد عماد







## فهرست

صفحة

مقدمة

٩

### I

## الظلام

١٧	الجمعة الحزينة .
٣٠	يتزل الستار .
٤٥	نكتة الفرنسية .
٥٧	الباشا والمصرية .
٧١	زبانية عتاة .
٩٣	ولدى .
٩٩	مصر والحضارة الغربية .

### II

## الخيط الأبيض والخيط الأسود

١١٣	ألف عام .
١٣٩	صراع القومية المصرية .
١٦٥	ثلاث ملكات .
١٦٥	— أم خليل .
١٧٣	— بنت الزمار .
١٩١	— الصعيدية .
٢٠١	القيراط الخامس والعشرون .

### III

#### الضياء

صفحة	
٢١١	قطاريم بن قبطيم
٢٢٦	يرفع الستار
٢٤٦	مرملة بنى سلامة
٢٥٥	أنويس يرقص
٢٦٧	الفلاح الفصيح
٢٧٤	وقفه الحائر
٢٨٥	ثلاثة آلاف عام
٢٩٢	الصفحات الأخيرة
٣٠٧	الحضارة المصرية
٣٤٤	خاتمة
٣٥٠	( أ ) مجمل تاريخ مصر
٣٨٨	( ب ) ثبت المراجع

## مقدمة

لا فضل لي في هذا الكتاب إلا أن رسمت خطته ، ونظمت فصوله تبعاً لانتعالاتي الشخصية بتاريخ بلادى ، وتركيز فكرى قرات طويلة في أحقاب هذا التاريخ الذى عشت في طفولتى نهاية حقبة منه . فقد ولدت ومصر لربالة عثمانية ، أو ما كان يعرف في اللجل السياسى باسم السيادة الاسمية لتركيا على مصر ، وسمعت وأنا حدث خطباء مساجد القاهرة يدعون لسلطان محمد رشاد ، ولعبت الجميز في المدرسة الابتدائية على تداوات لغة لا أعرفها ، قيل إنها التركية ، ثم شهدت تغير الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة الواحدة ، إلى ذات الأهلة الثلاثة بنجومها ، فالعلم الأخضر المثلث النجوم في هلال واحد ، فراية الجمهورية العربية المتحدة ذات الألوان الثلاثة والنجمين الأخضرين . . كما شاهدت جنود الاحتلال يبدلون أربيتهم الحمراء الفاقمة ، باللباس الكاكي . وكانت أنى تتبين رائحة الجندى البريطانى على بعد خطوات ، ويقول أهلى بأننى في طفولتى كنت أفرع لمراى أولئك الحمر وجوهاً ولياساً .

أدركت من شئون بلادى ، وبعض أمور العالم ، ما يدركه غلام ، عند إعلان الحرب العالمية الأولى . وجشت في خضم ثورة ١٩١٩ طلباً ، وراقت أعقابها بعقل شباب المدارس العليا ، حتى غادرت البلاد عام ١٩٢٥ لأتابع تعليمى ، وغبت عنها خمس سنوات ، غشت أثناءها مع أهل الغرب بعقلية أوربية وقلب مصرى . وعودتنى حياتى العلمية في مصر والخارج أن لا أصدر حكماً قبل أن أتين الأمور بكل ملايساتها . وعرفت أن الحقيقة في مسائل الراى بعيدة المثال ، على العكس من بعض المسائل العلمية التى تقوم على قوانين الطبيعة ، كالبدييات الرياضية ، أو المؤسسة على المنخص المباشر وتسجيل الملاحظات . أقول بعض المسائل العلمية ، لأنه حتى العلم لا يقف عند حدود الوصف التشريعى ، والتسجيل الموضوعى ، وإنما يتقدم بخطوات يعمل الاستقراء فيها عملاً كبيراً ، فتجربى على العلم أحكام سرمدية ، لأن العقل يخطئ كما يصيب .



واجتزت الحرب العالمية الثانية في وعي كامل لأهدافها القريبة والبعيدة ،  
على الرغم من أكاذيب المتحاربين ، وصراع المذاهب السياسية التي عرفتها فيما بين  
الحريين . فقد درجت أيام التحصيل بأوروبا على أن أطلع في صحف المساء رأياً  
ينقض ما طالعت في صحف الصباح ، فلا أمل يمتد أو يسرة . ودربت نفسي  
على فهم موضوعي لا بأس به لأهل اليمين وأهل اليسار ، بفضل تلك المتابعة  
اليومية لصراع الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا . وقد أعدني  
ذلك ، بعد عودتي إلى بلادي ، للحياة فوق المعترك السياسي ، لا في غماره ،  
لا سيما أن دوري في الكفاح كان ميدانه العلم وتطبيقاته .

أومن بوطني ، وشعب بلادي ، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة ،  
ومن التعليم ، ومن الرفاهية الاجتماعية والعقلية . لذلك كانت من أسعد اللحظات  
التاريخية التي عرفتها في حياتي ، لحظة أبلغت تليفونيا من القاهرة ، وأنا في  
الإسكندرية ، خبر قيام الضباط الأحرار بثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ ، وأحسست  
فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً ، صحيحاً لا كاذباً ، قد طلع في أفق التاريخ  
المصري . وربما كان ذلك الفجر هو الذي أنار لي طريقاً إلى تأليف هذا الكتاب  
الذي لم يكن في الإمكان كتابته قبل قيام هذه الثورة .

والحق أنني منذ زمان طويل أطمع في وضع كتاب على هامش التاريخ ،  
أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها ، صورة صادقة لما اختلجت به نفسي منذ  
تيقظ في الشهور والإدراك ، سواء أمام النيل ، وفوق واديه الخصب ، أو في  
عرض البحر مقبلاً من البحر الأحمر ، بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندي ، عابراً  
قناة السويس إلى بحرنا الأبيض ، أو جواباً على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ،  
أو منتقلاً بين بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو محترقاً الصحراء إلى الواحات النائية ،  
أو مختلياً بآثار أجدادي في المتاحف هنا ، وفي الخارج ، أو مرتاداً أطلال بلادي  
القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ،  
وآثار العهد القبطي ، والعصور الإسلامية .

أحسست في هذه التجارب بالوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات  
المتعاقبة ، في السراء والبأساء ، الوحدة القوية المتأسكة التي جعلتني أشعر بأنني

ابن أهرق الشعوب ~~فوقه~~ . فلمست تلك الوحدة فعرقتها في حقيقتها الإنسانية ،  
عرقتها في المصري فرداً وشعباً ، مهما تعدد حكامه ، وتداولته الإحكن والأرزاء .

كتابي صور من ملحمة هذا الشعب الذي أفخر بأنني واحد من آحاده .  
لست مؤرخاً ، لا بالفكر ولا بالمهنة ، وإن كنت غير مجرد تماماً من  
الإحساس بالتاريخ . اعتمدت في كتابته على الخلجات الروحية التي أشرت  
إليها ، وعلى ما طالعت من كتب الأولين والآخرين في تاريخ بلادى ، وعلى  
القليل الذي عشته من ذلك التاريخ بلحمى ودى وتفكيرى .

كتبته في مجبوحة الأدب والفن : حرية في الفكر ، وتحرر في الأسلوب ،  
وتصرف في نقل النصوص المصرية القديمة التي التزم العلماء في ترجمتها الترامات  
لم أر أن أقيد نفسى بها ، بعد أن لمست المفارقات في ترجمة النص الواحد ،  
ما دمت محتفظاً بالروح والمعنى اللذين تبيينهما خلال اختلاف المترجمين .

وفي صفحات غير قليلة ، استعرت نصوص المؤرخين المصريين في القرون  
الوسطى ، وفي القرنين الماضيين ، وبخاصة نصوص ابن إياس فيما يتصل بالغزو  
العماني ، ونصوص الجبرتي فيما يتعلق بالمماليك ، والفرنسيين ، ومحمد علي ، منذ  
أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر . ولم تخرج بعض الفصول  
الأولى من الكتاب عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، مع إحداث تعديلات  
طفيفة جداً في نصوص تلك الحوليات العظيمة .

ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول في أول مقدمتي بأن لا فضل لي  
في وضع هذا الكتاب ، ولترعم في شيء من السخرية بأنفسنا أن دورنا فيه كان  
أشبه بدور المخرج السينمائي الذي لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ،  
ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يبينه ، ولا يعمل على أجهزة الإضاءة ،  
ولا يمثل ولا يصور . إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعها وفن  
رجالها ونسائها بين يديه من إمكانات ، ليجمع ذلك في صورة تتجلى في ذهنه أولاً .  
وقد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية ، وقد يخيب .

وهذا هو حظى نفسه في كتابي : أن أكون وفقت ، أو أكون قد أخفقت  
في إخراج الصور الذهنية الوجدانية التي طبعها في نفسى تاريخ مصر كله ،

كوحلة متكاملة ، أو كما قلت في ثنايا الكتاب ، كرواية كبيرة ذات فصول  
بطلها الشعب المصري ، لا كجموعة قصص منفصلة لكاتب واحد ، أو لكاتب  
عديدين .

كتابي أدب محض ، أحاسب عليه في حدود الأدب والفن . إلا أن واجبي  
نحو حقائق التاريخ اقتضاني أن أذيله بمجمل لتاريخ مصر ، أرجو أن يلقى  
عليه القارئ نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب ، على أن يعود إليه كلما دعاه  
إلى ذلك داع . كما أن واجبي نحو الأمانة في النقل ، وإرجاع الفضل لذويه — مع  
تجنب الغوامش — فرض على أن أضع ثباتاً بالكاتب التي طالعتها إعداداً للكتاب .

ولقد قلت أن حرية التأليف الأدبي لا تلزمني بمطالعة « كل » ما كتب  
في تاريخ مصر ، ولو كنت مؤرخاً لكان من أوليات واجبي أن أدرسها عن بكرة  
أبيها ، ولعل القارئ غير المختص لا يتصور ما وراء هذه الدراسة من جهد قد  
يستنفد العمر كله . فالجغرافيا الكاملة لتاريخ مصر وحضاراتها ، في اللغات  
الحية والميتة ، قد يضيق بها مجلد في حجم هذا الكتاب . والمؤرخ يعرف حدوده ،  
فهو ممنوع بحكم الدقة العلمية من أن يحاول مثل هذه المحاولة .

أما الأديب — وقد يفتن القارئ بحجته أو لا يقتنع ، مادمت أتحمّل وحدي  
وزر عملي — فقد انتفع انتفاعاً كاملاً بحرية الفن والأدب . وكل ما أرجوه أن لا أكون  
أسأت كثيراً إلى الحرية التي يمنحها الفكر المطلق .

الإسكندرية من ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ إلى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٥  
القاهرة من ٨ يناير ١٩٥٩ إلى ١٠ يولية ١٩٥٩  
الإسكندرية من ١١ يولية ١٩٥٩ إلى ١١ سبتمبر ١٩٥٩  
القاهرة من ١٢ سبتمبر ١٩٥٩ إلى ٤ أكتوبر ١٩٥٩

ملحوظة : خالفت بعض ما انتهى إليه العرف من تسمية آلهة المصريين حور ، أو حوريس ،  
وأوزير ، وقنوت ، وحاتور ، ومن تسمية أسرة اللاجيديين — وصفتها اللاجوسيين ، أبناء لاجوس —  
البطالة ، وفصلت المودة إلى الأسماء الأكثر ذيوماً ، مثل : هوروس ، وأوزيريس ، وقنوت ، وهاتور ،  
لأنني إذا قلت أوزير تنم أن أقول « إيز » . كما أني لا أستطيع أن أقول حور ، وبعض بلادنا ما تزال



تحمل اسم الإله الصقر : مشهور ، مشهور ، مشهور ، ولا أقول تحورت وحاتور ، وأشهرنا القبطية  
تحتوي على اسمها في شهرى « توت » و « حاتور » .

وجمع بطليموس على بطالمة ، صحيح لغة ، ولكن مؤرخى مصر ، وعلى رأسهم شيخهم العظيم  
تق الدين المقرئى ، درجوا على صيغة الجمع « بطالمة » ، فأخذت بهذا الجمع سفائلا على القديم .

وفى استعارق أسلوب ابن إياس والشيخ عبد الرحمن الجبرق لم أحاول تصحيحاً لغوياً ، كأن أقول  
« تفرج بالأهرام » بدل « تفرج على الأهرام » ، لا مجرد المحافظة على أسلوب ذاهب : بل لأن تطور  
اللغة يلزمنا هنا بتغيير حرف الجر . فبكلمة تفرج ، من فرج وفرج ، معنى كشف المم ، وتنصرف إلى  
الترويح عن النفس . ولكنها تحولت فى الاستعمال إلى معنى « الفرجة » - الكلمة العامية ، لأن الكلمة العربية  
منها : كل متفرج بين شيتين ! - وبذلك أضاف استعمالها فى هذا المعنى شيئاً جديداً ، غير كشف  
الفة ، وهو : الرؤية والمشاهدة . وهنا نقطر إلى القول « تفرج على » ، لأن تفرج : تنصرف إلى  
شئ آخر ، كأن تفرج بسجادة ، وتفرج بلحن موسيقى ، وتفرج بعشرة طاولات .

وأما تحول إلى العامية فى بعض الألفاظ ، وبعض التراكيب ، فهو مذهب لى قديم ، وضعت موضع  
الامتحان فى أول كتاب لى ، نشرته سنة ١٩٣٧ ، وهو « سنباد مصرى » وزادتنى الأيام تمسكاً به ،  
فهو لا يبدو اليوم ناشراً كما كان يبدو منذ نصف وعشرين عاماً ، لأن الجيل الحى من كتاب اليوم  
أخذ به ، وأبدع فيه .



## الظلام

الجمعة الحزينة

يتزل الستار

نكتة الفرنساوية

الباشا والمصرية

زبانية عتاة

ولدى

مصر والحفارة الغربية





## الجمعة الحزينة

كانت نهاية عام ٩٢٢ من الهجرة يوم جمعة ، وختم أئمة المساجد بمصر والقاهرة خطبهم بهذا الدعاء : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البحرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحة مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين . »

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٩٢٣ [ ١٥١٧ م ] ، جلس كاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، في وطاقه بالروضة تجاه المقياس ، يقضى الأسابيع الأخيرة من إقامته بالديار المصرية في لعب الشطرنج مع أبطال اللعبة ، من أمثال النصر محمد بن الوردى ، والشهابى أحمد الإسكندراني .

كانت أيام هناء ورفاهية ، فقد استطاع ابن بايزيد في نصف عام أن يضيف إلى ملك آل عثمان إمبراطورية بالتمام والكمال ، هي تلك الدولة الكبرى التي أقامها المماليك في مصر منذ ثلاثة قرون ، والتي امتدت من اليمن جنوباً ، حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً ، وعلى شاطئ بحر الروم من خليج الإسكندرونة حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أخالي التوبة .

تفرج سليم على الأهرام وتعجب من بنائها ، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية ، وما أظنه عني بالمسلة ، أو بقصة استراحة يوسف التجار ومريم العذراء وطفلها في ظلال الحميزة الألفية . وسافر إلى الإسكندرية ليأمر بحبس ألفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات وكبار المباشرين والتجار إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين ، حبسهم في أبراج الإسكندرية وخاناتها ، انتظاراً لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية . وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أئمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزينة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة ، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكي والكراسي النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمتابر .

هذه هي الحرب الهجزية ، وذلكم كان الغزو الأكبر : أن يعود سليم وأجناده  
العثمانية محملين بالأسلاب الغالية ، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة ، حتى ليصبح  
أقل عسكره أغنى من أى أمير من أمراء المماليك ، أولئك المتفطرسين المنفوخين .  
إنه ليذكر رسالته إلى كبيرهم السلطان طومان باى : « أما بعد ، فإن الله أوحى  
إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذو القرنين ، وإنك لملكوك  
تباع وتشرى ، ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ابن ملك إلى عشرين جدياً » .

جلس الخنكار سليم شاه فى وطاقه ، يحيط به رهط من المرد ، مع بعض  
أمرائه الإنكشارية والإصباحية يتسامرون ويتحارفون ، وقد مدت بين أيديهم  
الأسمطة يتخاطفونها كالذئاب ، وافتضت برسمهم الدنان ، ثم نصبت لهم شاشة  
بيضاء فى صدر الإيوان ، وقف خلفها واحد من الخايلين ، بعد أن أطفأ الأنوار ، إلا  
مصباحاً كبيراً خلف الشاشة ، تلعب عليها ظلال تصاوير من الورق ، ترسم رجة  
باب زويلة ، تحيط بها أجناد غرباء . ويخرج من البوابة رجل يركب أكبديشاً ،  
وربما جملاً ، ويترجل مرفوع الرأس ، طويل اللحية ، يتسلمه المشاعلية ليضعوا  
الحبل فى عنقه ، ويشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فينقطع الحبل بالمشنوق ،  
ويعود المشاعلية إلى وضع اللحية مرة أخرى حول عنق الرجل ، وينقطع الحبل مرة  
ثانية ، وفى الثالثة يتدلى الرجل وتستدير لحيته إلى أعلى ، وتلعب سيقانه فى الهواء  
هنيهة ، ثم يسكن حراكه . والمحبط يصطحب مخايلته بأزجال وفكاهات يضحك  
الصبيان المرد من فحشها وسلاطتها ، ويضحك العثمانيون دون أن يفهموا حرفاً ، والسلطان  
منشرح الصدر لهذه الخايلة . فإذا مثل المحبط بين أيديه ، أنعم عليه بثمانين ديناراً ،  
وبقطنان من الخمل المذهب ، وهو يقول له : « تعال معنا إلى إسطنبول حتى  
يتفرج ابنى على ذلك » .

بماذا انشرح صدر الخنكار سليم شاه ؟ وعلام الخلعة والدنانير للمخايل  
السفية الفاحش ؟ وفيما يطلب إليه السفر إلى إسطنبول حتى « يتفرج ابنه على ذلك » ؟  
يتفرج على عملية شق ، والشتق أهون ما تعرفه العثمانية من ضروب الإعدام ؟  
علام يتفرج ابن سليم ، وقد جاء قومه إلى مصر بضروب من القصاص والتعذيب  
فاقت ما جرت به عادة المماليك ، مع ما كان عليه هؤلاء من القسوة والوحشية ،



فأخيف الخازوق بالطريقة الرأسية ، وعلى طريقة شك الباذنجان ، إلى التكليل والتوسيط وتشمم الرأس بالطبر ، وقطع الرأس ونشرها على الخيال ، ورشقها في المدارى والرماح ، أو فوق الأسوار .

طاب سعد السفاح العثماني بمنظر انتصاره على عدوه طومان باي آخر سلاطين المماليك . وكان الأشرف طومان باي عدواً عنيداً ، وصنو مقاومة لا تعرف في الحرب هزيمة . تركه السلطان قانصوه الغوري نائباً للغيّة ، عندما ذهب إلى شمالي حلب ليلاقى ابن عثمان على مرج دابق ، وليموت هناك بخلط فالج ، وسلط عسكره المدحور .

وكان طومان باي في أربعيناته راغباً عن سلطنة مصر ، قبلها بإلحاح العارف بالله الشيخ أبي السعود ، وقد اقتاده إليه ، بتلّ الجارح عند مصر العتيقة ، مقدموا الألواف ، وأمراء الطبلخانات والعشراوات . فأحضر لهم الشيخ المصري مصحفاً يحلفون عليه بيمين الإخلاص للدودار طومان باي إذا سلطوه ، و « ألا يخونوه ولا يغدروه ، وألا يخامروا عليه » . ثم حلفهم ألا يعودوا إلى ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعي ، وأن يبطلوا ما أحدث الغوري من المظالم ، وأن يجرؤا الأمور على ما كانت عليه في أيام الأشرف قايتباي ، « فإن الله تعالى ما كسركم وأذلکم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، إلا بدعاء الخلق عليكم في البر والبحر » . فقال أمراء الجراكسة : « تبنا إلى الله تعالى عن الظلم من اليوم . »

ويظهر أنهم فسروا توبتهم عن الظلم بأن يتوبوا أيضاً عن الحرب — صنعهم وحرفهم — حتى لو كان دفاعاً عن رزقهم وإقطاعاتهم ! فهذا الأمير طقطبباي حاجب الحجاب يقول ، إذ يأمره الأشرف طومان باي بالسفر لقتال ابن عثمان : « أنا عزمتم على السفر إلى البحيرة ، وقد جعلتني متحدثاً في كشوفيتها ، ويرد عليه السلطان : « الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج إلى البحيرة » .

وعندما يطلب السلطان إلى الآخرين الخروج لملاقاة ابن عثمان ، ويتفق عليهم — لكل مملوك — ثلاثين ديناراً ، وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً ، يرمون بذلك النفقة في وجهه ويقولون : « لا نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك ! » . ويصيح السلطان حانقاً : « هذا ابن أستاذكم سيدي محمد ابن السلطان الغوري ، أسأله

هل ترك أبوه شيئاً من المال ؟ ولقد أخذتم من الأشرف قانصوه الغورى ثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً ، وكسرتم السلطان وخستموه حتى قتل . اسمعوا ! إني نازل عن السلطنة ، ومتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد ، فولوا من تختارونه . »

ويرد المماليك الذين ربوا على الحرب ، والذين يطالبهم السلطان بالقتال دفاعاً عن بلادهم ورزقهم وإقطاعهم : « إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وإن رحت فلعنة الله عليك ، وغيرك ينجى » ويعمل سلطاناً . »

أولئك هم المماليك الذين حلقوا بين يدى العارف بالله أبى السعود الجارحى يمين الولاء والإخلاص لسلطانهم ، والذين تابوا إلى الله تعالى !

وتقوم ضجة كبيرة فى الرملة ، فيشاع أن عسكر ابن عثمان وصلوا إلى قرب المطرية ، فيصرخ السلطان : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ، وأنتم لا ترضون أن تسافروا . ! »

ثم تكذب الإشاعة ، إنما الصحيح أن ابن عثمان زاحف على مصر ، وأنه بلغ قطيا ، ودخل الشرقية ، واقترب من بركة الحاج وعسكر الريدانية . فيرضى الأمراء بتفرقة خمسة وعشرين ديناراً للمملوك ، وثمن الأضحية على العادة ، فنحن فى شهر ذى الحجة . . .

• • •

ماذا تنتظر من هؤلاء الأجناد المرتقة ، لا يعرفون حرمة لمصر ، ولا لأى بلد آخر ، ولا قرابة تجمعهم أكثر من أن يكونوا قرائنة ، أو من جليان أستاذهم السلطان ، جمعهم الياسرجى الذى باعهم فى « ذكة المماليك » بالقرب من باب زويلة ؟ ما أشبههم بالمغاربة الذين استدعاهم السلطان إلى القلعة ، وطالبهم أن يجندوا من بينهم ألف إنسان يخرجون فى التجريدة لملاقاة ابن عثمان ، وإذا بهم يرفضون بحجة أنهم لا يقاتلون إلا الإفرنج ، وأنهم لا يقاتلون مسلمين ، ويضيفون « ونحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر . »

هذه علة بمصر لملاقاة السلطان العثمانى ، وعساكره كالجراد المنتشر ، ومدفعيته تعتمد على أحدث ما كان يصنع منها فى ذلك الزمان . أى أمل فى فوز الأجناد

الحراسة ، وهذا روحهم ؟ وكيف تدفع مصر عداتها ، وأبنائها لا يعرفون من  
أمر الحاربة شيئاً ؟ نسوا بعض الزمن صنعة الجندية ، منذ غزاهم الفرس ، بل قبل  
ذلك في أواخر عهد الأسرات !

غزاتهم لا يريدون منهم إلا أن يظلوا البقرة الحلوب . فهذا الإمبراطور الروماني  
طباريوس يكتب لعامله : « أرسلتك لتجز صوف الغنم ، لا لتسلخ جلده » .  
وهذا الخليفة الراشد يفرح بزيادة الخراج على يد الوالي الذي أرسله ، بعد إقالة  
عمرو بن العاص ، وينادي على فاتح مصر ليقول له : « لقد درت اللقمة بعنك  
يا عمرو » ، فيجيبه القائد الكبير القلب : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ! » .

نحن الفرس ، نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب ،  
المغاربة ، الكرد ، أبناء فرغانة وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب والضرب ، ونتولى  
عنكم أيها المصريون صناعة الحرب . لأن صناعتهكم يا أهل مصر هي إحياء موات  
الأرض ، وصناعتنا القتل والنهب والسلب ، والكفر والفقر والدفاع والغزو . نحرقون  
وتبذرون وتحصلون ، ونخرب وندمر ونسطو . حرقتم بناء القصور والمعابد والمدارس  
والمساجد والخوانق والترب ، ونسج الحرير والكتان ، والتكفيت والتذهيب والنقش ،  
وحرقتمنا الحكم ، والظلم والاستيلاء ، صناعتهكم — يا أولاد مصر — هي الحضارة  
والتعمير ، بس !

ولم يتجهز ابن عثمان لغزو مصر بأسلحة القتال العلى وحدها ، بل ضم إليه  
في السر جماعة من المماليك الخونة تأمروا على السلطان الغوري من أمثال خاير بك  
الحرکسى ، وجان بردى الغزالي ، ويونس العادلي ، والسمرقندي ، وقد كوفئ  
خاير بك — أو خاين بك على لسان المصريين — بالنولاية على مصر ، بعد استتباب  
الأمر لأولاد عثمان ، كما تولى جان بردى أمر بلاد الشام . ويعيش خاير بك سوط  
عذاب على المصريين حتى وفاته : يشق ، ويوسط ، ويخوزق ، ويكلب ،  
ويقطع الأبدى ، ويمجدع الأنوف بجريرة وبغير جريرة ! أما جان بردى الرجل  
القلق الطموح . فلم تبلغه خيائته إلى أرفع مما بلغه أيام أستاذه وسلطانه ، فراح  
يستقل بالشام ، وحاربه ابن عثمان وهزمه . وانتهى الغزالي برأيه مرشوقاً بطرف  
رمح . وتسمى العدالة حشياً إلى يونس العادلي والسمرقندي ، فيحمل رأسهما في

علة إلى القاهرة قبل أن تطأ الإنكشارية والإصباحية أرضها الطاهرة .  
هؤلاء الخونة وأمثالهم رحلوا الطريق لابن عثمان ، وكشفوا له عن أسرار العساكر  
المصرية ، ومهدوا للغزو منذ خرج الخنكار سليم لمواجهة الأشرف قانصوه الغوري  
في مرج دابق .

كان ذلك يوم أحد ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، حين ركب  
السلطان الغوري ، الذي أوفى على السبعين ، بتخفيفة صغيرة وملوطة ، وعلى كتفه  
طبر ، وحوله أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر يحملها جماعة من الأشراف  
على رؤوسهم ، ومن بينهم مصحف بخط سيدنا عثمان بن عفان ، وجماعة من  
أرباب الطرق الصوفية . وكان الصنم السلطاني خلفه بنحو عشرين ذراعاً .  
وبرز أول من برز إلى القتال سودون العجمي أتابك العسكر ، ومعه ملك الأمراء  
سيبى نائب الشام ، ثم المماليك القرانصة دون الجلبان . فهزموا عسكر ابن عثمان  
هزيمة هائلة ، وأخذوا منهم سبعة سناجق ، وغنموا المكاخل التي كانت على العجل ،  
وأسروا رماة البندق . وفي رواية قائد عثمانى في جيش سليم أن هجم المماليك الأول  
كان هجوماً ساحقاً ، وكانوا يهجمون بأفراسهم ، ويصيبون ، ثم يستديرون في  
خفة ، فلا يلحق بهم لاحق . ومع أن جنودنا الإصباحية لم يكونوا أقل شجاعة  
منهم ، فإن كرمهم لم يكن في سرعة أولئك ، ولا في حسن دربتهم : أما الإنكشارية  
رماة البندق فقد أضاعوا على المماليك تفوقهم ، وذلك بأن ركزوا طلقاتهم على  
جباه الخيل ، فما إن يسقط المملوك عن فرسه حتى يفقد قوته ، ويتكعبل في رمحه  
الطويل الثقيل .

ويقول ابن إياس بأن ابن عثمان هم بالهرب أو طلب الأمان ، ولكن الخونة  
سعوا بالفتنة بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان ، وأفهموا أولئك بأن الأشرف  
قانصوه الغوري ضنين بمماليكه الجلبان ، فما عثم القرانصة أن انحلت عزائمهم  
عن القتال ، وسقط الأتابكي سودون العجمي صريعاً ، يتبعه ملك الأمراء سيبى  
نائب الشام . وتنهزم اليمين وتتقهقر الميسرة بقيادة خاير بك نائب حلب المتآمر  
على السلطان .

أما الضابط العثماني فيقول في مذكراته : « ويهرب خاير بك وغزالي بك ،



من قواد السلطان قانصوه ليشحازوا ورجالم إلينا . وغيرت هذه الحياة شكل  
الموقعة ، وكانت أساس انتصارنا .

وفي رواية ابن إياس أن السلطان الغورى صار واقفاً تحت الصنجق في نفر  
قليل وهو ينادى : « يا أغوات هذا وقت النجدة » ، فلم يسمع له أحد قولا ،  
وصاروا ينسحبون من حوله ، وهو يقول لأرباب الطرق : « ادعوا الله بالنصر ،  
فهذا يومكم » ، وصار لا يجد له معيماً ولا ناصراً ، وانطلقت في قلبه جمرة نار  
لا تطفأ ، وجاءه الأمير تمر الزردكاش يقول — وقد أنزل الصنجق السلطاني وطواه  
وأخفاه : « يا مولانا السلطان ، عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك » . فلم  
يجب السلطان ، وقد أصابه خلط فالج أبطل شقه وأرخص فيه ، فأشار يطلب ماء  
شربه منه قليلاً ، ولوى عنان فرسه ومشى به خطوتين ، ثم انقلب عنه إلى الأرض ،  
وفقت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ، وأقام نحو درجة ثم طلعت روحه من  
شدة القهر ، ولم يعلم له خبر بعد الموقعة ، ولا وقف له على أثر ، فكان  
الأرض ابتلعت في الحال ، كما ضاع معه مصحف سيدنا عثمان ، ودبت أعلام  
أرباب الطرق ، وصنائج الأمراء .

أما الرواية العثمانية فنقول : « وأطبق السلطان محققاً غاضباً ، والسيف بيده ،  
يضرب الإصباحية يميناً وشمالاً ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويتنادى على السلطان  
سليم ، ويزعق طالباً إليه أن يتقدم ، وسليم مشغول بقيادة إنكشاريته في مكان آخر .  
ويفقد كبير المماليك [ أى السلطان ] اتزانه ، وتخور قواه ، كما يسقط فرسه  
تحت إعياء ، ومشغناً بالجراح . ويموت كبير المماليك لغياً وحنقاً ، وسط المعركة .  
وتختم المدفعية العثمانية أمر المعركة ، وقد أسفرت عن أحد عشر ألف مملوك تغطي  
أجسادهم الأرض ، ولم تكلفنا الموقعة أكثر من ألفي قتيل » ( ؟ )

• • •

لم يكتف سليم شاه بكثرة أجناده ، وقوة مكاحيله ، وفرسانه الذين يحملون  
رماحاً بكلايب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض ، ولم يرض بعيونه  
وجواسيسه من خونة المماليك ، بل يحاول قتل الأشرف طومان باي سلطان مصر ،  
بعد الغورى ، وهو في وطاقه بالريدانية يتأهب للإقامة ابن عثمان . فقد ضبقت

بالوطاق امرأة فدائية تلبس زنبلاً أحمر ، وعلى وجهها لثام ، وتحت ثيابها زردية ،  
وهي متحملة بختنجر كبير من تحت ثيابها .

تلك هي المصائب ترى على الديار المصرية منذ خرج السلطان الغورى إلى  
أقصى مملكته ليوقف زحف ابن عثمان شمالى حلب ، حتى وطئت جنود سليم شاه  
أرض مصر .

لم يعرف اليأس سبيلا إلى قلب الرجل الكبير طومان باى . أقام التحصينات  
من الجبل الأحمر حتى غيط المطرية : خندقاً ومكاحل عليها تساتير ، وأكواماً  
من القش أقام فوقها الصناجق . بل قد أراد أن يخرج لللاقاة ابن عثمان وجنوده عند  
أطراف الصحراء الشرقية ، من ناحية الأرض المترعة ، قبل أن يسريح السلطان  
العثمانى وجنوده ، عقب اختراقهم تلك الصحراء ، ولكن أمراءه وماليكه — أصحاب  
الثقة والجامكية — كانوا مهلودى الحيل ، فاقضى العزيمة ، فآثروا الانتظار  
خلف تحصيناتهم حتى كبس عليهم سليم ، وزعق النفير فى الوطاق ، ودقت  
الكوسات والطبول حريباً ، وركب العسكر قاطبة ، وأقبلت أجناد ابن عثمان  
كالحراد المتشر . فكانت بين الفريقين واقعة أشد من واقعة مرج دابق . وقتل  
من العثمانيين ما لا يحصى عدده ، ومن بينهم سنان باشا أكبر وزراء ابن عثمان ،  
حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك  
الدوادار . وتدب الروح من جديد فى العثمانية ، ويحيثون من كل ناحية أفواجا  
كأنهم قطع الغمام ، وينقسمون فرقتين : فرقة تجىء من تحت الجبل الأحمر ،  
وفرقة تهجم على وطاق الريدانية ، وطرشوا الأجناد المصرية بالبندق والرصاص ،  
وكبسوا عليهم ، فلم تلك إلا ساعة يسيرة حتى تمت الكسرة على عسكر المماليك ،  
وثبت الأشرف طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه . مع نفر قليل من  
العبيد والرماة والمماليك السلحدارية ، فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية طوى  
الصنجق السلطانى وولى واختفى .

• • •

دخل العثمانيون القاهرة ، وطومان باى لا يريد أن يعترف بالهزيمة ، فإن النفس  
التي لا تعرف الذل قل أن تطأطئ رأسها لواقع الهوان .

**هزب الأشرف طومان باى** وجمع قلوب أمرائه ، بعد أن نزل سليم بوطاقه عند بر بولاق ، وبعد أن تردد اسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة آخر أيام سنة ٩٢٢ هجرية ، وإذا بآخر سلاطين مصر يكبس بليل على ابن عثمان في وطاقه ، بعد أن أطلق على الوطاق جمالا عملة بالدريس المشتعل . فاضطربت أحوال العثمانية ، وانضم العياق والزعر والخرافيش ببولاق إلى طومان باى يملكون له يد المساعدة . . . بالمقاليع والحجارة ! واستمر القتال ليلة الخميس وليلة الجمعة حتى يوم السبت الثامن من المحرم . وامتدت الموقعة على طول خط إلى الشرق من الخليج الناصري ، من الناصرية حتى قناطر السباع ، إلى الصليبية ، فمسجد ابن طولون حتى الرملة . واتخذ طومان باى جامع شيخون العمري بالصليبية مركزاً لقيادة هذه الحرب الرهيبة .

ولو قد انتقلت شرارة واحدة من النار التي تضطرم في قلب طومان باى إلى كل ممالكه لأزاحوا العثمانية عن القاهرة ، وثأروا ليومهم العصيب في الريدانية . ولكن الجند العثماني يكسب اليوم ، ويختفى طومان باى . وسنسمع به مرة ثالثة في الهنسا ، وستجري بينه وبين سليم مفاوضات ، يرفض فيها طومان باى أن يعترف لسليم بالزعامة ، ويعود الأشرف طومان باى إلى الشمال ، ويتحدى ابن عثمان أن يخرج إليه في بر الخيزة عند منوات . ولكن طومان باى ينهزم مرة أخرى ، ويهرب إلى الدلتا ، حيث يتزل ضيفاً على شيخ العرب حسن بن مرعي . وكان ابن مرعي هذا من أعز أصحاب السلطان ، ولطومان باى عليه غاية الفضل والمساعدة ، من أيام السلطان الغوري .

ويحضر شيخ العرب مصحفاً شريفاً يحلف عليه ، هو وشكر ابن أخيه ، أن لا يخرجوا السلطان ، ولا يغدرا به ، ولا يدلّسا عليه بشيء من الأشياء . ما أسرع ما تخرج المصاحف في تلك الأزمنة الفادرة ! وما أكثر ما يلتقي عليها من أيمان ! وقد استراح أخيراً مصحف سيدنا عثمان في مرج دابق ، بعد أن تلقى ما تلقى من أيمان المماليك للسلطان القائم ، وبعد أن حثوا ما حثوا بأيمانهم !

فليغفر المصحف الشريف لأولاد مرعي ، ولغير أولاد مرعي ، في هذه المرة — ولن تكون الأخيرة في تاريخ مصر ! — فما إن ارتفع صياح الديكة في نجع

شيخ العرب حتى كان أولاد مرعى قد أرسلوا يخبرون ابن عثمان بأن آخر سلاطين مصر وقع بين أيديهم ، ويحتاط الأعراب بضيفهم الكريم حتى يصل عسكر سليم شاه ويضعوه في الحديد ، ويتوجهوا به إلى ابن عثمان في وطاقة بير إنباية .

دخل الأسير لايساً ملابس العرب المواراة ، على رأسه زنط وشاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكام طوال ، فقام له ابن عثمان ، لا احتراماً ، بل خفة ورهجاً ، وجعل يلقي على مسمعه كلاماً كله غل وقسوة .

وفي رواية : تقدم طومان باي نحو السلطان ، وحياه باحترام ، فرد عليه وأمر له بالجلوس . وخيم السكوت على المجلس فترة ، قطعها السلطان سليم بأن أخذ في لوم طومان باي على قتل رسل الصلح الذين أنفذهم إليه في البهنسا . فأجاب طومان باي بأن البيكوات الممالك فعلوا ذلك وهم في حالة هياج . فسأله سليم عن رفضه الاعتراف بسلطته ، هو ، سليم ، ابن الملك إلى عشرين جداً . فأجاب طومان باي بأنه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها ، ويجب عليه حمايتها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ثم أضاف : أما أنت ، فلا أدري كيف تبرئ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا . فاندفع السلطان سليم يبرر مسلكه بأنه لم يباشر هذه الحرب إلا بعد فتاوى العلماء ، وبعد مداخلات السلطان الغوري للاتفاق مع شاه العجم .

[ وحقيقة هذه الفتاوى ذكرها فون هامر في تاريخه الكبير للدولة العثمانية . أرسل السلطان سليم يستفتي على جمالي أفندى في ثلاث مسائل :

الأولى : إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة المارقين ( أى العجم ) ، فصادفته عواقب بسبب المساعدة التي يطلبها لم سلطان آخر من سلاطين المسلمين ، فهل تبيح الشريعة الغراء لأولهما أن يقتل الثاني ويستولي على مملكته ؟

أجاب جمالي أفندى : من نصر كافراً فهو كافر .

الثانية : إذا كانت أمة من الأمم التي تدين بالإسلام ( يقصد المصريين ) تؤثر ترويج بناتها من الكفار ( يعنى الممالك الجراكسة ) ، بدلا من تزويجهم بالمسلمين ، فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟

أجاب جمالي أفندى : بلا مبالاة ولا مقاضاة .



الثالثة : إذا كانت أمة تتأفق في احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتتقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة ، فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغي معاملة هذه الأمة ؟

أجاب المفتي العثماني : إن هذه الأمة ، إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار ، جاز إبادتها .

واصل سليم حديثه : وعدا هذا فإن الملك لا يليق بممالك يبعوا واشتروا .

أجاب طومان باي : لست بملموم ، يا سلطان الروم ، فالذنب كل الذنب على الخونة . وأشار إلى خاير بك وجان بردى الغزالي ، وكانا بالجلس .

فقال سليم للجميع : ليس من العدل قتل رجل شهم صادق كهذا الرجل . وأمر أن يقيم في وطاقه مكرماً ، حتى يستتب الأمر في البلاد .

والقصة على هذا الوجه لا تستقيم لمن يعرف سليم بن بايزيد ، وورعته وشراسته . وتزعم القصة أن خاير بك وجان بردى خشيًا عاقبة خيانتهم إذا بقي طومان باي على قيد الحياة . فأوعزا إلى بعض أشياعهم أن ينادوا بأعلى أصواتهم ، عند مرور السلطان سليم في طريق ذهابه وإيابه ، قائلين : « الله ينصر السلطان طومان باي » . وكان هذا النذير كافياً لتغيير رأي السلطان العثماني ، وإيثار صدره على طومان باي ، وصدور أمره بشقه .

وصار أهل مصر والقاهرة بين مصدق ومكذب لخبر القبض على سلطانهم ، حتى رأوه بعيونهم يوم الاثنين الواحد والعشرين من ربيع الأول وكان من أيام الخماسين . شاهدوه يركب أكديشا ، وكانوا يحيونه على جانبي الطريق من بر إنابة حتى بولاق . ثم شق موكب السلطان الأسير من المقس وباب البحر حتى بلغ سوق مرجوش ، وشق القاهرة حتى باب زويلة . وهناك ألقى نظرة على رحبة الباب ، ورفع بصره إلى قواعد الأبراج فعرف ما يراد به : رأى الإنكشارية والإصباحية ورماة النفط تحيط بالميدان . وعرف المشاعلية يرخون الحبال من قواعد البرج الغربي تحت مأذنة جامع السلطان المؤيد شيخ . فترجل عن الأكديش ،

وشمل الناس بنظره وقال : « اقرءوا لى الفاتحة ثلاث مرات » ، وبسط الناس أيديهم يرددون الفاتحة بصوت عال . ثم استدار السلطان الشهيد إلى رئيس المشاعلية وقال له : « اعمل شغلك » . فلما وضعوا الحية فى عتقه ورفعوا الحبل انقطع به ، وسقط الأشرف طومان باى على عتبة باب زويلة . وانصرم الحبل مرة ثانية ، وجاءت « الثالثة ثابتة » ، وارتفع آخر سلاطين المماليك معلقاً برقبته ، مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه من جوخ أحمر ، فوقها ملوطة بيضاء بأكام كبار ، وفى رجله لباس من جوخ أزرق ، ونحف أحمر . فلما قضى صرخ الناس عليه صرخة عظيمة . فقد كان طومان باى حسن الشكل ، كريم الخلق ، بطلاً تصدى لقتال سلم بن بايزيد فى أسوأ الظروف ، وخزينة مصر خاوية ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وقتل فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكثرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العاترة .

هذه نهاية سلطنة المماليك ، كل المماليك ، صالحة بحرية ، وجركسية برجية ، خاتمة السلطنة الكبرى التى أقامها بيبرس البندقدارى بسيفه وطهره على أجساد الصليبيين والتتار ، ودعمها الناصر محمد بن قلاوون بالعقل والسياسة . عز لمولانا السلطان ، ثم شئى لمولانا السلطان !

هؤلاء الأجناد المغامرون ، بيعوا فى أسواق النخاسة صبياناً بدنانير معدودة ، واستطاعوا أن يتشثوا إمبراطورية مصرية تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة ، وأن يتمموا عمل صلاح الدين يوسف الأيوبي فيجهزوا على الصليبيين ، وأن يردوا جحافل التتار عن الشام ومصر . هؤلاء المماليك الغادرون السفاحون الطامحون ، الذين لا يؤمنون إلا بالسيف والنشاب والطبر والخيل ، أولئك المنافقون — يخشون الله فى العلن ، ويعصون أحكامه فيما بينهم — هؤلاء الزناة اللواط المارقون ، كانوا مع ذلك حماة الحرمين وأصحاب كسوة الكعبة والمقام الشريف ، يوجهون الحمل المصرى والحمل الشامى فى كل عام إلى الأرض المقدسة . كانوا الأمرين بكتابة المصاحف والتعم بماء الذهب والزعفران ، بناء المدارس والمساجد والخوانق وأضرحة الأولياء تقوم اليوم شاهداً على أن جلوة الفن ، ونخوة العمارة ، لم تنطفى فى

نقوس متشقة الأهرام والمصاطب والمعابد والمقابر والكنائس والأديرة على مدى  
آلاف السنين .

جاءت نهايتهم شبيهة ببدايتهم عندما انتهت قباقيب مطلقة عز الدين إبيك  
التركماني على رأس ضرثها شجرة الدر ، أول سلاطين المماليك ، وألقيت رمة « الجبهة  
الصالحية » ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل  
والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، أقيمت جثة شجرة الدر من فوق القلعة  
إلى خندقها تلغ فيها الكلاب ، ويتزل الخرافيش إليها يسرقون تكة لباسها من الحرير  
الغالي وفي عقدتها نوافج المسك وخالص الدر .

دولة المماليك التي زينت أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها برعوس القتل وأجساد  
المكبلين ، وتركت أشلاء الوسطين في مفارق الطرق ، الدولة التي كانت تخلع  
السلطان وترسله إلى سجن الدهيشة ، أو إلى قلعة الإسكندرية ثم ترسل خلفه  
من يخنقه في الترسيم ، الدولة التي نذر أن يموت سلطان من سلاطينها في فراشه  
موتاً طبيعياً ، يبدو أن التاريخ حتم أن تنتهي هذه النهاية الدرامية ، فموت سلطان  
مصر معلقاً بباب زويلة ، كأنه شيخ منسر ، أو واحد من أهل الزغل في المعاملة !  
ويجيء أحد « المحبطين » أو « المغزلكين » أو « الخايلين » فيرسم بأوراقه صوراً  
لطومان باي ، وللمشاعلية ، ولباب زويلة ، وللأجناد العثمانية ، وللجبال المعلقة  
بالبرج الغربي ، ويخايل بظلالها على شاشة بيضاء ، في وطاق الخنكار سليم شاه  
بالروضة ، يحف به الصبيان المرد وأمراء الإنكشارية والإصباحية وهو لا يكاد يعي  
في سكره . هل كانت حميا العقار أم نشوة الظفر هي التي أطاحت بآخر مشاعر  
الرجولة والكرم في نفسه ؟ فلم يحسن هذا السفاح العثماني بدناءة الخايل وتعريضه ،  
ولم يأمر بالمحبط أن يخوزق جزاء له على « خيال ظله » العاهر ، بل ينشرح صدره ،  
ويأمر له بثمانين ديناراً ذهباً ، وفراجة من الخمل المذهب ، ويربت على كتفه  
قائلاً : « يجب أن تأتي معنا إلى إسطنبول ليري ولدي ذلك » .

عار على مولانا السلطان ابن السلطان ، إلى عشرين ملكاً ، كما يقول سيد  
البرين وخاقان البحرين ، ملك العراقين وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر  
سليم شاه !

## ينزل الستار

عندما يتحدث ابن إياس عن عام ٩٢٣ هـ [١٥١٧ م] يقول في بساطة :  
« انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ٩٢٣ ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، ،  
ولا نحسبه هنا إلا متيناً ، يحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه . لأن حقيقة  
تلك السنة أقرب إلى ما جاء في تنمة تعليقه حين يقول إنها كانت « سنة صعبة  
شديدة على الناس » . وحتى في هذا كان العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس  
الحنفي المصري ، مقتصدًا في التعبير ، فهو نفسه القائل تعليقاً على غزو العثمانيين  
لمصر ، وعودة سليم بن عثمان إلى إسطنبول : « ومن العجائب أن مصر صارت  
نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه  
خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين حيث  
قال " أليس لي ملك مصر " ، وقد تباهى ملك مصر على سائر ممالك الدنيا .  
ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وغنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ولا حول ولا قوة ..  
ومن عهد عمرو بن العاص فاتح مصر سنة ٢٢ من الهجرة عنوة بقاءم سيفه ،  
لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة ، سوى سليم شاه ، ولم يقع مثل ذلك  
إلا لبختنصر في قديم الزمان . . . ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط ،  
إلا ما كان في زمن بختنصر البابلي لما أتى من بابل ، وزحف على البلاد بعسكره ،  
وأخربها ، وهدم بيت المقدس ، ثم دخل مصر وأخربها عن آخرها ، وقتل من  
أهلها مائة ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهي خراب ليس  
بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الأراضي ،  
ولا يتنفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو أئى سنة ، وهي قبل ظهور عيسى بن مريم  
عليه السلام . ثم وقع مثل ذلك لبغداد في فتنة هولاكو . »

أصدر ابن عثمان في أواخر شهر ربيع الثاني من تلك السنة أمره لأمير المؤمنين



العباسي : « اعمل برقك حتى تسافر إلى إسطنبول » . وخرج أمير المؤمنين  
« المتوكل على الله » يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى قاصداً السفر إلى إسطنبول ،  
ومعه أولاد عمه وصهره وآخرون من الأعيان . فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين  
من مصر غاية الأسف ، وقالوا : انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت بإسطنبول ،  
وهذه من الحوادث المهولة .

وخرج جماعة من المباشرين ، وبعض نصارى من كتاب الخزينة ، ومن  
جماعة البزددارية والرسل ، وأرباب الصنائع من كل فن ، وشيخ سوق الغزل ،  
والزردكاشية والسيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين ، وتجار الباسطية وتجار سوق  
مريجوش ، ومقدي السقائين والتجارين والمرخين والمبلطين والخراطين والمهندسين  
والحجارين والفعلاء ، وجماعة من اليهود السامرية وطائفة النصارى ، حوالى  
١٨٠٠ نفس .

وحملت مراكب سليم بن عثمان حتى الشباييك الحديد ، والطبقان والأبواب  
والسقوف .

وحمل سليم معه ، بطريق البر ، على ألف جمل — كما أشيع — أحمالا من  
الذهب والفضة والتحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت ، ثم أخذ الخيول  
والبغال والجمال والرخام الفاخر ، ومن كل شيء أحسنه . وكللك غنم وزواجه  
من الأموال الجزيلة ، وكللك عسكريه فأنهم غنموا من الذهب ما لا يحصى ،  
وصار أقل فرد منهم أعظم من أمير مائة ، مقدم ألف .  
وبطلت من القاهرة نحو خمسين صنعة .

وسلك رجال الدرك الناس على أبواب القاهرة من رئيس ووضيع ووضعهم  
في الحبال ، حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وطلعوا بهم إلى القلعة ، وهناك  
ربطوهم ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار ، ويترلوا بها إلى شاطئ النيل ، ويضعوها  
في المراكب . وكان الرجال يربطون بالحبال في رقابهم ، ثم يسوقونهم بالضرب الشديد  
على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس .

وكانوا قد نزلوا قبل ذلك بالعامودين السماي اللذين قلعوهما من إيوان القلعة ،  
وارتجت لهما الصليبة ، وقامى الناس في سحبيهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة

من الضرب والصك وخطف العمائم .

ومن حوادث السنة أنهم أخرجوا من الخليفة العباسي نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان ذلك بين الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم ، وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، ومن الصدوق الذي تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور .

وقطع سدّ الخليج وجرى الماء في الخليج الحاكي والناصري ، بحضور يونس باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة .

وتصب العثمانية خيمة في وسط الرميّة ، وجعلوا فيها دنان بوزة ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة ثالثة فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعادتهم في بلادهم .

وفي يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد . وأشيع بأن ابن عثمان باع خيمة المولد للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها وباعوها للناس ستائر وسفر . وهذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، قيل إن تكاليفها على السلطان الأشرف قايتباى كانت ثلاثين ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك . وكانت كهيئة قاعة ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات ، والكل من قماش . وكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان ، حتى ينصبوها في الحوش السلطاني .

ونزل رخام القلعة ووضع في صناديق وحمل إلى المراكب ، وهو الرخام الذى أمر ابن عثمان بفكه من قاعة اليسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد الساقية التى كانت في الإيوان الكبير .

وصار يحيى بن بكار يركب معه جماعة من المرخين ، فيهمجون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقي والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى بيولاق ، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش التى على بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات

المباشرين والتجار وأولاد الناس ، والمدارس التي فيها الكتب النفيسة ، فلم يعرفوا  
الحلال من الحرام .

وفي السنة التي شتق فيها طومان باي آخر سلاطين مصر على باب زويلة ،  
وأقام وهو معلق حتى قاحت رائحته ، وفي اليوم الثالث أحضروا له تابوتاً ،  
ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه ، فغسلوه وكفنوه ،  
وصلوا عليه ، ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة .

ومضت دولة السلاطين كأنها لم تكن .

وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة المختفين في الرب ، ومساقي  
الموق ، وغيطان المطرية ، وتضرب أعناقهم .

وقبض مشايخ العربان على الأتابكي سودون الدوادار ، وأحضروه بين يدي  
سليم الذي وتجه بالكلام . وكان جريحاً مكسور الفخذ في حالة الأموات ، فلم  
تأخذه عليه شفقة ، بل أركبه على حمار ، وألبسه عمامة زرقاء ، وجرسه في  
وطاقه ، وقصد أن يشهره في القاهرة ، ولكنه مات وهو على ظهر الحمار ،  
فحز رأسه وعلقوها في الوطاق .

وضرب العثمانية في يوم واحد ٣٣٠ رأساً ، وصاروا يكبسون الخارات والبيوت  
ويقبضون على المماليك الجراكسة من إسطنبولهم ، ويتوجهون إلى الوطاق  
بالريدانية ، ويضربون أعناقهم . ونقبوا حوائري وعليها حبال علقوا عليها رؤوس  
من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم ، حتى قيل قتل في الريدانية فوق ٤٠٠ إنسان  
ما بين جراكسة وعربان من الشرقية والغربية ، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان  
إلى تربة الأشرف قايتباي ، فجافت منهم الأرض ، وصارت لا تعرف جثة الأمير  
من جثة الصعلوك ، وهم أبدان بلا رؤوس .

هذه بعض حوادث سنة ٩٢٣ هجرية التي يقول عنها ابن إياس إنها : « خرجت  
على خير » ، ولا ندري بعد ذلك ماذا تكون السنة التي تخرج على شر ، ثم يزيد  
قليلاً فيقول إنها : « كانت صعبة شديدة على الناس » . وإنا لنعذر لابن إياس هذه  
السذاجة في الأسلوب ، وبحسبنا أنه عرف ووزن ثقل الرزة القوي الفادح الذي  
تزل بمصر . ثم أخذت مذكراته ، فيما تبقى للرجل من عمر ، تصور الآثار المباشرة

للغزو العثماني في أوائله ، وقد عرفنا نحن أواخره !

نزل الستار على تاريخ مصر ، وأرخت الظلام سدوله على القاعة بعد خروج الممثلين والنظارة ، وهم أولئك العلماء والفنانون والتجار وأهل الحرف والصنائع والمباشرين والكتّاب ، الذين أخرجوا في ركاب سليم العثماني . وإذا كانت مصر لم تخل تماماً من أهلها - كما حدث لها بعد غزوة بختنصر في الألف الثانية قبل ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ! - فإن التاريخ المصري سوف يصاب بظلام تاريخي يشبه ما أصابه بعد غزو الهكسوس ، ولو أننا في العهد الحديث لا نجهل تماماً ما حدث بعد آخر صفحة من صفحات ابن إياس ، وابن زنبيل الرمال ، حتى أول صفحة من مذكرات الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . فعندنا بعض ما كتبه المؤرخون العثمانيون ، وما جاء في مذكرات رجالهم ، وعندنا أقوال الرجال الأوروبيين الذين زاروا مصر فيما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي ، وأحقهم بالذكر كتاب قولنيه ورسائل سافاري في خواتيم القرن الثامن عشر .

والظلام الذي نتحدث عنه ليس ظلاماً تاريخياً تاماً ، بل كان ديجوراً روحياً . ولا أحسب مصر في تاريخها الطويل عرفت عهداً أظلم من تلك القرون الثلاثة بل الأربعة التي مرت على مصر بعد موقعة مرج دابق بالشام ، وموقعة سبيل علان بمشارف القاهرة .

وقبل أن نتابع ابن إياس في يومياته عقب الغزو العثماني يجدر بنا أن نعرف الصورة العامة التي تبدو لنا نتيجة لهذا الاحتلال . وأول ما يجبهنا هو سرعة عودة المماليك إلى التحكم في أقدار البلاد ، لا كسلاطين يحكمون إمبراطورية مستقلة ، ولكن كفلول عصابة اجتمعت على نهب مصر ، والضحك على ذقن الباشا العثماني الذي يحكم مصر بالنيابة عن الباب العالي . وسيصل المماليك إلى غرضهم عندما ترضى إسطنبول أن يعترف الباشا لواحد منهم بالزعامة على المصريين باسم « شيخ البلد » ، ولوكيل له باسم « أمير الحج » .

وسيلخ واحد من مشايخ البلد مرتبة الحاكم المستقل فعلاً عن الأستانة في القرن الثامن عشر ، ذلك هو علي بيك الكبير ، البروثة الأول لحمد علي باشا ، حتى يقضى عليه مملوكه وخدنه وصهره محمد بيك أبو الذهب ، وتعود الأستانة إلى



إيفاد باشواتها للقبض ، ولكن الزعامة الفعلية في البلاد ستظل في أيدي المماليك ، حتى يهيئ عسكرونا بونابارته ليكسر شوكتهم بعض الوقت ، ويتولى محمد علي بعده مهمة القضاء الأخير عليهم في مذبح القلعة .

ومن السهل فهم سيطرة المماليك هذه إذا عرفنا حقيقتين : أولاها أن الذي تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثماني ، بعد سفر سليم ، كان أميراً من أمراء المماليك المصرية ، الذين خامروا على السلطان الغوري ، وكانوا سبباً في خراب الديار المصرية والديار الشامية ، لأنهم حسنوا لسليم بن عثمان عبارة أخذ مصر ، وضمنوا له أخذها من غير مانع ، وعرفوه كيف يصنع حتى يملكها ، فيجري ما جرى من هزيمة جيوش السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق إلى الشمال من حلب ، وموت السلطان واختفاء جثمانه في المعركة ، ثم ما حدث بعد ذلك من هزيمة السلطان طومان باي ، وشنقه على باب زويلة ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكمة . وكان كل ذلك بترتيب ودوليت الأمير المملوكي خاير بيك — أو خاين بيك كما لقبه المصريون — والأمير المملوكي جان بردي الغزالي .

كوفي الحائنان أحدهما بولاية الشام ، والثاني بولاية مصر ، أي بجمهورية الإمبراطورية المملوكية . ولن يهمنا أمر الحائنان جان بردي الغزالي ، والرجل لم يتمتع طويلاً بأجر خيانتته ، فقد استقل بالشام عام ٩٢٧ هـ ، وأرسل السلطان سليمان القانوني تجريدة لإخضاعه .

وزل لسان مملوك من ممالك يشبك الدوادار المصري إذ قال في مجلس له : « إن خاير بيك يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام ، فأمر خاير بيك بتوسطه ، وحاول الأمير قايتباي الدوادار أن يوقع له خاله : فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به . ووسط المملوك بسوق الخيل ، واستمر مرمياً في الرميطة ، والكلاب تنهش جثته في الليل ، ورسم ملك الأمراء أن لا أحد يدفنه . . . وكان هذا المملوك شيخاً مسناً له أولاد وغيال .

وانتهى أمر جان بردي الغزالي عاجلاً بعد أن انكسر في أكثر من موقعة أمام عسكر السلطان سليمان القانوني ، وكانت كسرته الأخيرة مهولة ، وقبض عليه وحز رأسه وأرسل إلى إسطنبول .

أما خاير بيك — المدعو ملك الأمراء وكان جوكسى الأصل ، ومن ممالك  
الأشرف قايتباى — فقد مات فى فراشه ، بعد أن حكم مصر خمسة أعوام ؛ مات  
غير مأسوف عليه من أحد ، ويقول ابن زنبيل الرمال إن أمراء الممالك لم يكونوا  
يقرون الفاتحة عليه وهم يمرون بترتته تحت القلعة ، لا هم ولا الباشوات ولا الأغوات  
ولا السناجق ؛ ويدعى عوام مصر أنه كانت تخرج من قبره أصوات أنين فى  
الليالى الخالكة .

ويبدو أن يونس باشا كبير وزراء سليم بن عثمان كان طامعاً فى تولى نيابة  
السلطنة بمصر . وقد تولاها فعلاً أثناء إقامة سليم بالديار المصرية ، فلما سافر  
مع ابن عثمان ، وقد ولى على مصر واحداً من الممالك المصرية ، زل لسان يونس  
باشا ، ونعى على السلطان أن أعاد مصر إلى ملاكها القدامى ، وكان جزاؤه أن  
أطاح سليم برأسه .

ويظهر أن سليم كان قد وعد خونة الممالك بإعادة رزقهم وإقطاعاتهم كما  
وعد خاير بيك وجان بردى الغزالى بولاية مصر والشام مدى الحياة .

وما إن يسافر سليم حتى يأمر خاير بيك بأن « يظهر البحرأكسة وعليهم الأمان » ،  
فظهر منهم البحرأكسة الكبير وهم فى أسوأ حال ، عليهم زنوط قرع ، وبرد سود ، وقمصان  
بأكمام كبار ، فإذا رأهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وطلع الأمير قايتباى الدوادار إلى القلعة لصرف جوامك الممالك ، واجتمع  
بملك الأمراء خاير بيك وأقام بالقلعة إلى قريب الظهر والبحراكسة فى انتظاره على  
باب بيته ، فلما نزل إليهم قال : « يا أغوات ، شاورت ملك الأمراء فى أمركم  
فقال : أنظرونا حتى يجتمع المال ، ونفق عليهم الجوامك ، ولم يواعلنى على  
يوم معين . »

فرجعوا بغير طائل ، وقد صارت وجوههم فى غاية الذل من الفقر والعري ،  
ومنهم من سأل الناس فى رغبة يقتات به ، ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل  
التجار والسوقة فى درهم يشتري به كبشة فول يأكلها . ويضيف ابن إياس — وهو  
من أهلهم وعترتهم — « وكان هذا جزاء بما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر  
الجبابة بعزه وسلطانه . »

ولم تلبث المراسيم أن حضرت من عند الخنكار سليم شاه ، وكان مضمونها أن يصرف خاير بيك لأولاد الناس [ أى أبناء الممالك وأحفادهم ] ، وللممالك الجراكسة ، جوامكهم ، وأن يجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير . وكما لم يشعر الناس بأفراح قلع الخليج ولا بالمولد النبوى عام الفزو ، فإن أحداً منهم لم يشعر بالمولد النبوى فى حكم خاير بيك ؛ وقيل بأن ملك الأمراء أحضر عنده للمولد عشر جوخ للمقرئين ، فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى المولد النبوى الذى كان يعملهُ السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف تأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين . ثم مد سباطاً بعد العصر تخاطفته العثمانية فى لمح البصر ، وبات غالب الفقهاء بلا عشاء .

وحدث أن شخصاً من العوام دخل بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبّر ووضعها فى قفة ، فقبض عليه الخولى ، وكان ملك الأمراء خرج على بيع خيار شنبّر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . فرسم الوالى بشنقه ، وأشهر بالقاهرة وعلمت القفة فى رقبته ، وشنق على القنطرة التى بزقاق الكحل ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن . . .

هذا وملك الأمراء خاير بيك بيت يسكر طول الليل ويصبح فى خيال السكر يحكم بين الناس بما يقوله له عقله المتأرجح . . .

وكأنه لم يكفه ما حمل الخنكار سليم من خيرات مصر ، فما كان أسرع إلى إهداء السلطان العثمانى الحديد سليمان بن سليم مقدمة عظيمة : تفاصيل سكندرية ، وأبدان متزلاوية ، وقماشاً فارسكورياً ، وغير ذلك من شاشات ومقاطع خمسينى ، ونحام رفيع ، وأحمال شقادات ضمنها مرطبانات أشربة مربي .

وسافر إلى الشرقية جان بيك دوا دار الأمير قايتباى الدوا دار الكبير ومعه شادّ الشون والقاضى عبده الفتاح وآخرون من المباشرين . ، لمسحوا جهاتها ، ويميزوا الشرائى من الرى ، ويمسحوا الأقاطيع والرزق إلخ . وصاروا يتزلون إلى البلاد ويقررون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونها من الأموال . وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ،

ورحل عنها الفلاحون ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد في حق الناس .  
وفي رمضان تشجعت الأسعار في سائر البضائع ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضاً ، وجلس ملك الأمراء في المقعد بالقلعة ، فتكاثر عليه المماليك الجراكسة ، فحنق منهم وقال للإتكشارية : « تضربوهم واطردوهم من المقعد .  
فضربوهم بالعصى على وجوههم ضرباً قاحشاً ، وحصل للمماليك في ذلك اليوم كسر خاطر .

ولكنهم عاودوا الطلوع إلى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وفرق الأطلاق فأعطى جماعة منهم فدان طين ونصفاً ، والبعض فداناً ، والبعض نصف فدان . فتضرر المماليك وقالوا : إيش يكفيننا النصف فدان ! فسبهم القاضي سبباً قبيحاً وقال لهم : « يا كلاب يا زرايين ! أنتم بقی لكم باب ولا راس حتى تتكلموا . ييضم وجوهكم في إيش حتى تستحقوا أطلاقاً » ، وبهلم غاية البهولة .

وفي آخر رمضان أرسل ملك الأمراء أمير علم إلى بيت الأمير قايتباي الدوادار - وكان بين الاثنين حظ نفس - وقال له : قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك في هذه الليلة طبلخانات وكؤوسات . فأرسل الأمير الدوادار يسأل : أدق في هذه الليلة فقط ، أو أدق الطبلخانات على بابي دائماً ؟ فلما بلغه أن القصد الليلة فقط ، لم يوافق وقال : « أدق الطبلخانات على بابي ليلة واحدة حتى تضحك الناس على ؟ » وامتنع .

وكان هذا آخر ما سمع عن التقليد القديم من تقاليد المماليك ، وهو دق الطبل على أبواب الأمراء منذ ترقيةهم إلى أمراء أربعين - أي أمراء طبلخانات - حتى بلوغهم أعلى المراتب . ويقول في ذلك ابن إياس : « وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء حين دخل ابن عثمان إلى مصر ، وبطل ما كان يعمل فيها في يوم العيد من المواكب الجلييلة ، والخلع المتمرات ، والتشريف السنية ، وبطلت الطرز اليلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . . . وتودى في القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل ، ولا مغاني عرب ولا غير ذلك » . وفي هذا ندرك خشية ملك الأمراء من الروح



المصري الساخر ، القادر على أن يدخل في مغايه وقصصه وتشخيصه كل ما يفرج  
به كربته ، ويشتل به من شئون الحكم .

وتزايد الضرر من عساكر الإصباحية في حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء  
من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند مسلم جامع  
المؤيد ، تحت دكان الذي يبيع الكعك ، والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ،  
فلم يجسر أحد أن يخلصها منهم .

واستمر النيل في التوقف عن الزيادة ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات  
من النبيل والحشيشة والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ، وقبض الوالي  
على امرأة يقال لها أنس ، كانت ساكنة في الأذربكية ، تجمع عندها بنات الخطا  
اللاتي يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده للوالي كل شهر ، ضريبة  
عن صناعتها ، وكان أمرها مشهوراً ، فرسم ملك الأمراء بتفريقها هي وامرأة أخرى  
يقال لها بدرية ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه .

فلما زاد النيل رجع كل شيء إلى حاله ، وسبب ذلك أن العثمانية تمصبوا  
في إعادة ذلك ، لأن أكثرهم كان يبيع البوزة في الدكاكين ، ورسم ملك الأمراء  
بأن لا يعارض أولاد أنس فيما يفعلون من جمع بنات الخطا كما كانت تفعل  
أمهم أنس .

وأمر ملك الأمراء مرة بقتل ثمانية أنفس في يوم جمعه ، فشق منهم جماعة ،  
وخوزق منهم جماعة واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ،  
ويسمون ذلك طريقة شك الباذنجان .

• • •

ثم حدث التغير الذي أشرنا إليه من قبل في معاملة الأمراء الجراكسة ، فقد  
قال لهم أمير الأمراء يوماً : « والله لولا أنا ما خلى الخنكار سليم منكم مملوكاً يلوح  
على وجه الأرض ، فلاني شفعت فيكم من القتل » ، فقال له الأمير قايتباي  
الدوادار : « الكل صاروا رعييتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ،  
والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك » .

وآية ذلك أن السلطان سليمان بن سليم كان حريصاً على أولئك الأجناد

المتازين ، وأحسن ملك الأمراء بذلك ففسير سياسته نحو المماليك ، وأقام هؤلاء صلورهم بعد موت سليم ، وصار ملك الأمراء يترضى خواطرهم ، وأخذ القاضي شرف الدين الصغير - وهو الذي كان قد دعاهم بالكلاب والزرايين - يخاطبهم بقوله : يا أغاوات يا أمراء !

ورسم السلطان سليمان القانوني بعودة بقية الأسرى المصريين في إسطنبول ، فيما عدا أولاد السلاطين ، وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد البليغان ، لحاجة السلطان إلى مراجعة حساب الديار المصرية ، وفيما عدا الأمراء البحراكسة والمماليك ، فإن السلطان لم يأمرهم بالعودة ، ولم يقبل منهم شفاعة ، واستمروا في بلاد الروم ، ذلك أن سليمان كان قد اعتزم الانتفاع بهم في حروبه ، وطلب فعلا إلى خاير بيك أن يرسل إليه فرقة منهم لتساعده في فتح جزيرة رودس .

ولقد وصل الأمير قايتباي بالتجريدة المصرية لملاقاة السلطان بجزيرة تجاه رودس أقاموا بها ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث أوكب السلطان وجلس للعسكر جلوساً عاماً ، فلما نظر قايتباي الدوادار ، عظمه وأكرمه ، هو والأمراء صحبته ، ووقف المماليك البحراكسة قدامه ، فشكرهم وأثنى عليهم ، وقيل إن السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذي قتل المماليك وقال : أمثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ! وقيل بأنه أنزل العسكر المصري وطاقه عند الوزير الأعظم .

ونعرف بعد ذلك أن وجاقاً سابغاً - أي فرقة - ألف من المماليك البحراكسة وضم إلى الوجاقات العثمانية ، أي إلى جيش الاحتلال العثماني ، وفي القرون التالية يندس أجناد المماليك بين الوجاقات العثمانية ذاتها .

وليس المماليك البحراكسة ملابس على هيئة العثمانية ، واختلطوا بهم حتى صاروا لا يعرف هذا من ذاك إلا بشيء واحد ، هو أن المماليك تعرف بذقونهم ، والعثمانية بغير ذقون .

وحتى هذه اللحى لم يقدر لها أن تبقى ، إذ يبدو أن « القانون » العثماني كان ينص على حلق لحى الجنود ، فاستعرض خاير بيك المماليك البحراكسة ، وصار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها بعضها ويضعها له في يده ويقول له : « امش على القانون العثماني في قص اللحى وتنسيق الأكام ، وفي

كل ما فعله العثمانية ، فقتل المماليك من القلعة وهم في غاية النكد .

قلم يكن المماليك — في العهد الأول للاحتلال — يحضرون حفل استقبال رسول السلطان العثماني ومطالعة مراسيمه . وكان الناس يؤمرون بإقامة الزينات والاحتفالات لاستقبال من كان يدعى القاصد ، وجاء قاصد ابن عثمان يحمل خلعة على ملك الأمراء ، وأقامت الناس الزينة نحو عشرة أيام ، وتكلفوا بسبب ذلك كلفة عظيمة من قيد وقناديل ومشتري زيت ، وحصل في هذه الزينة من العثمانية غاية الفساد ، من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصي ليلاً ونهاراً ، حتى خرجوا بذلك عن الحد ، لا سيما ما كان يفعل في خان الخليلي من الفسق .

ولا يعنينا أمراً أولئك الجراكسة الذين لم يحسنوا الدفاع عن ملكهم وإمبراطوريتهم بقدر ما يعنينا ما أصاب أهل البلاد الأصالي من رزايا وعجن . فقد أشيع أولاً — ثم ثبتت الإشاعة بعد قليل — أنه حاضر محبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاضي قضاة ابن عثمان ، وعلى يديه مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر في وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثاً على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية [ أي المماليك الجراكسة والأتراك ] ولا يعارض أحد من الناس في ذلك ، وأن يأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر ليست المال ، ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من الجراكسة ، وأولاد الترك قاطبة ، وأرباب الدولة ، ولا الإصباحية والإنكشارية [ وبقية الوجاقات ] يعقد عقداً إلا عند القسام ، الذي يأخذ على عقد البنت ستين نصفاً [ الأشرقي يساوي ٥٠ نصفاً ] واليتيم ثلاثين نصفاً . فأخذ بذلك قسائم على قضاة القضاة ، واضطربت أحوال الناس ولم يتعصب أحد من القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الإسلام في أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم ، وقد ترادفت في تلك الأيام الحوادث المتكررة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة .

وفي أواخر الشهر نفسه حضر « أولاق » من إسطنبول في البحر المالح إلى الإسكندرية ، وطلع إلى ملك الأمراء بمصر ، وعلى يده مرسوم من عند سليمان

ابن عثمان ، وبضمونه أن الواصل إلى الديار المصرية ، الذي يسمى سيد جلبي هو أعظم قضاة السلطان وأكبرهم ، وأن سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة ، ويصير قاضي العسكر الذي هو قادم يتصرف في الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة .

ولهذا معنى خطير جداً ، فإن قضاة المذاهب الأربعة — وجلهم من المصريين الأصالي — كانوا قوة الشريعة في الدولة المصرية ، تنفذ كلمتهم على سلاطين الممالك . وقد أراد السلطان بقوق يوماً أن يستولي على الأوقاف ، فعقد مجلساً بالقصر الكبير مع الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والأمراء ، وتكلم السلطان في أمر محاربة تيمورلنك ، وفي أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ، فلم يوافق الشيخ البلقيني على ذلك ، ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية ، والعدو زاحف على البلاد ، وإن لم يخرج العسكر بسرعة ، وصل العدو إلى حلب والشام ، والعسكر لا تسافر بلا نفقة . فوقع في المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان ، وأغلظوا عليه في القول ، فلما طال الأمر وقع الاتفاق بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضي ستة كاملة ، وتبقى الأوقاف على حالها ، وانفض المجلس على ذلك .

وتكرر ذلك في سلطنة الأشرف أبي النصر سيف الدين قايتباي الحمودي الظاهري ، عندما حاول في تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف ، مبيناً أن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصده الإبقاء منها على ما يقوم بالشعائر فقط ، ويدخل الفائض إلى الخيرة . قال الخليفة وقضاة الجاه إلى شيء من معنى الإجابة إلى ذلك ، وبينما هم على هذا إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصري الحنفي ، وكان قد تأخر عن الحضور . . . ولا سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار ، وقال في الملأ العام من ذلك المجلس : لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي ، وإذا فقد جميع ما في بيت المال ، ينظر إلى ما في أيدي الأمراء والجنود وعلى النساء من حل ، فيأخذ ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بالحاجة ، فعند ذلك ينظر في المهم ، فإن كان ضرورياً في الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة . وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك



على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإننا نخشى الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ، ويقول لنا لماذا لم تنهوا السلطان عن ذلك ، وتوضحوا له الحق . وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . . . ثم قام ، فانجبه منه السلطان وانفض المجلس على غير طائل ، وكثر القيل والقال ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين الدين الأقصرائي ، وعد هذا المجلس من النوادر .

كان هذا هو سلطان القضاة الأربعة على سلطنة المماليك ، وإذا بذلك السيد خلجي قاضي ابن عثمان وقد حضر وبهدل القضاة المصريين ، ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالبحور بين الناس ، وقد قتلك بهم في تلك الأيام فتكاً ذريعاً ، وجمع بين قبح الشكل والعقل ، فإنه كان أعور بفرد عين ، بلحية بيضاء ، وقد طعن في السن ، وكان قليل الرسمال في العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئاً في الأحكام الشرعية ، وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء .

ووقعت من ملك الأمراء حادثة مهولة ، وهي أنه أمر بضرب المباشرين ، وأولهم الشهابي أحمد بن الجيعان ، فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضرباً مبرحاً ، حتى يقال تبدل عليه خمس وعشرون نوبة يضربونه بالعصى ، وكذلك القاضي شرف الدين كاتب المماليك ، وقد ضرب مثل سابقه وحمل مريضاً ، وكذلك القاضي شرف الدين صوفى ، فحجى الدين بن أبي إصبع ، ثم رسم بسجن الجميع في العرقانة .

ويقول ابن إياس إن أولاد الجيعان خدموا سبعة عشر سلطاناً ، وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزائن في أوائل دولة الأشرف برسباي : وكان أول أشتارهم وظهورهم في دولة السلطان المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا قط . ولا صودروا ، ولا جرى عليهم تشويش . وهم في كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابي أحمد .

وفي تجريدة المماليك لمعونة سليمان القانوني في غزو رودس ، رسم ملك الأمراء للوالى أن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل أن يجدفوا في المراكب التي تحمل العساكر المسافرة ، فتزل الوالى وأطلق في الناس النار ، وشرع

يقبض على كل من رآه في الرميّة ، وفي الطريق ، وكل من قبض عليه وضعه في الحديد وأرسله إلى السجن حتى خروج العسكر ، وتعدى الأمر من القبض على جماعة من السوق والعبيد السود ، إلى القبض على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترّون أنفسهم بمبلغ له صورة ، ثم صار الولى يركب ويكبس على سواحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل . ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الخيضة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقلوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يخشون في المطامير ، وكادت مصر أن تخرب ، وقيل مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى إنسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ومات في سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبضوا عليهم ، ماتوا من الجوع وشدة الحر والرنج ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك .

• • •

سيستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون التالية بل ويسوء : باشا ينجى وباشا يذهب ، لا تعدى إقامة الباشا منهم العام أو العامين ، ولا يسلم أمره لمن يليه إلا بعد أن يقدم حساباً عن إدارته ، فكل باشا يعرف مقدماً أنه مضطر في النهاية إلى دفع ما سيقدر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط .

ومعنى ذلك أن ينهب كل ما يستطيع نهبه ، استعداداً للطارئ المحتوم . وقد نهبوا كلهم ، وسلبوا وقتلوا وعذبوا ، ومن حولهم شيخ البلد وأمير الحج وبقية أمراء الجراكسة وماليكهم : كلهم يسرقون وينهبون ويعذبون ويقتلون .

هذه صورة مصغرة تصور حال مصر في الثلاثمائة سنة التي انقضت على الغزو العثماني ، وهي الثلاثة القرون التي تسلمنا إلى يوميات الجبروت ، إلا إذا توقفنا عند مذكرات قولنیه وغيره من الرحالة الأجانب ، لنعرف ما آل إليه حال مصر .

## نكتة الفرنساوية

يسهل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الجزء الثالث من مذكراته استهلالاً بليفاً ، وكان قد انتهى بمجلده الثاني عند سنتي ١٢١١ و ١٢١٢ هجرية ، جامعاً لهما في باب واحد ، معلقاً عليهما بقوله : « لم يحدث فيهما سوى ما تقدمت الإشارة إليه من أسباب نزول النوازل ، وموجبات ترادف البلاء المتراسل ، ووقوع الإلتدارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية » وكان يمكنه أن يضيف إلى هذا التعليق ما قاله عن سنة ١٢٠٩ ، وهو عندي أقوى ما جاء في كل تاريخ الجبرتي من تصوير : « سنة ١٢٠٩ : لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » . أقوى ما جاء في تاريخ الجبرتي لأنه بهذه الحملة القصيرة قد تلخص تاريخ مصر كله دون قصد .

حقاً لم يقع في تاريخ مصر منذ فجر التاريخ سوى جور الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، جور الولاة والحكام والأمراء والسلاطين والمماليك والباشوات والحدويين وتتابع مظالمهم .

فلماذا جاءت سنة ١٢١٣ هجرية [ ١٧٩٨ م ] ، أول سني الجزء الثالث من كتاب « عجائب الآثار » ، أشعرك الشيخ عبد الرحمن بأن أمراً جللاً سوف يحدث في هذه السنة ، « أولى سني الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل المائلة ، وتضاعف الشرور . وترادف الأمور ، وتوالي المحن ، واختلاف الزمن ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وتوالي التدمير . »

ثم هو يلقي بالموعظة قائلاً : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . إنما الذي لا يفصح عنه هنا : من هم أهلها ! إذا كان أهلها هم الأجناد العثمانية والأمراء المصرية ، فقد جاء عقابهم عدلاً لا ريب فيه . أما إذا أهلك ربك القرى بمن فيها من الفلاحين ، والمدن يسكنها من مساتير الناس والسوقة والعوام ، فلا نعرف إلا أن أهل مصر على مدى تاريخهم لا يستحقون ظلماً لامن الخالق ولا من المخلوق .

يكتب الجبرتي مذكراته عن سنة ١٢١٣ وهو عارف بالحوادث التي سوف تترادف ، ويكاد اعتقادي يرقى إلى مرتبة اليقين بأن الشيخ عبد الرحمن لم يفكر في كتابة تاريخه بالصورة التي انتقلت إلينا في جزئيه الثالث والرابع إلا بعد إدراكه أهمية الحوادث التي تمر بالبلاد ، وبخاصة نكته [ واقعة ] الفرنساوية ؛ لأن تفكيره في المبتدأ كان متوجهاً إلى تأليف كتاب للتراجم ، على غرار الجزء الأول من « عجائب الآثار » .

في عاشوراء عام ١٢١٣ ، وردت إلى القاهرة المكاتب بأن عمارة إنجليزية من نحو ثلاثين مركباً وقفت بعرض البحر أمام الإسكندرية ، وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، « الرئيس المشار إليه بالإبرام والنقض في الإسكندرية » وذلك بأنهم جاءوا للدفاع الفرنسية الذين يتهددون بر مصر ، وقد علم الإنجليز أن عمارة فرنساوية كبيرة خرجت من فرنسا برئاسة بوناپارته ، ولا يعلمون مقصدها ، ويخشى الإنجليز أن يدمم الفرنسيون الديار المصرية ، « فلا تقدرُوا على دفعهم » ، ولا يطلب الإنجليز من المصريين إلا إمدادهم بالماء والزاد بثمانه ، مع وقوف مراكبهم في البحر من بعيد ، محافظة على الثغر .

ولم يقبل محمد كريم ومصابه ، وأجابوهم بكلام خشن : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل . »

أما أمراء القز بالقاهرة فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به ، اعتماداً على قوتهم وزعمهم « إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقاتلتهم ، وأنهم يدسونهم بخيلهم . »

وكان للفرنسيين - برغم هذه الفطسة - سبيل على بلاد السلطان ، بعد أسبوع من هذا الكلام . وداس الفرنسيون على الماليك وبلاد السلطان في أسبوعين . دخلوا الإسكندرية من جزيرة العجمي ، في جنح الليل ، ودخلوا القاهرة بعد موقعة مع مراد بيك في مديرية البحيرة لم تدم ربع ساعة ، وموقعة مع بقية الماليك في بر إنابة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

لم يدس الفرنسيون الماليك بخيلهم ، وإنما دامت خيول الماليك أصحابها في موقعة بر إنابة ، وكان مصير الأمراء المصرية واضحاً محمداً : القتل برصاص



المربعات الفرنسية ، والفرق في النيل ، والحرب ، وقد انتشرت بحث القتلى من الرجال والنخيل في ميدان المعركة ، وطفئت عنائم الفرق على سطح النيل في ذلك الوقت من يولية .

ولن يهتنا أمر هؤلاء الممالك العتاة يداسون تحت أقدام خيلهم ، ويحصدهم رصاص الفرنسيين ، ويغيبهم النيل ، فقد دالت دولتهم منذ الغزو العثماني في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وإن رفعوا رموسهم بعد حين ، كما سبق القول .

ربما كان لم العذر أيام الدولة المملوكية الكبرى في العسف والبحور ، إذ استطاعوا أن يدفعوا عن مصر غارات الصليبية والتتار ، وأقاموا لمصر إمبراطورية عظيمة ، امتدت من جبال طورس شمالاً ، إلى بلاد اليمن والنوبة جنوباً ، ومن الفرات والخليج الفارسي شرقاً ، حتى بلاد لويية غرباً .

أما بعد الغزو العثماني ، فقد انقلبوا ، مع الباشا التركي وأجناد الوجاقات ، منسراً من الطغام ، ومجموعة من البلطجية ، يعيشون على سمعة بطولتهم العسكرية . وقد آذنت شمسهم بالمغيب ، وسوف ينجل برمهم عندما يجيء مغامر أرنؤدي ، من صنفهم وجبلتهم وإن لم ينشأ مملوكاً ، بل كان تاجر دخان ، ليقضي على بقيتهم بواسطة أجناده الأرنؤد .

إنما نؤكد هنا ظاهرة فذة في تاريخ مصر ، لم نعرفها منذ ألى عام إلا نادراً ، ألا وهي خروج الشعب المصري إلى الحرب . فقد مرت القرون ولم نسمع أن المصريين اشتركوا في قتال بالداخل أو بالخارج إلا قليلاً ، ولعل آخر ما سمعنا من حروبهم كانت في عهد الأسرات حتى الأسرة العشرين . وفي آخر عهد الأسرات الفرعونية ، كان الجيش المصري مؤلفاً من الليبيين والإغريق والنوبيين ، وسوف نسمع على مدى التاريخ بغزوات وحروب مصرية ، تقوم على أذرع وأسلحة جيش مصري مؤلف من . . . المقدونيين واليونانيين والليبيين وفرسان العرب والبدو والأكراد والمغاربة والفرغانيين والأتراك والبلقانيين والتتار والقبچاك والجركس والقوزاق . . . وبعض الجرمان الذين أرسلوا إلى مصر ممالك صغاراً اختطفوا من سواحل البلطيق !

يجب أن نعي ذلك كل الوعى ، وأن لا نتخضع بمواقع صلاح الدين وأسرته ،

ولا بغزوات يبرس والناصر محمد وقايتباي ، وكلها قامت على كواهل الأجناد الأجنبية . فذلك الوعى له أهمية فى فهم ما سوف يحدث بمصر بعد « نكبة الفرنساوية » . وهذا الحدث سيكون نذيراً بيقظة الشعب المصرى ، وإعلاناً بأن هذا الشعب سوف يستغرق مائة عام حتى يرى أول الغيث فى « هوجة عراقى » ومائة وخمسين عاماً حتى ينهمر الغيث أثناء حركة الجيش المصرى الصميم ، حركة البعث الكبرى « فى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » .

هذا الحدث الكبير ، كان تطوع أهل القاهرة للذود عن حياضها ، ومحاولة الوقوف فى وجه الغزاة .

لم يخرج المصريون لمحاربة الإسكندر ، ولا لمقاتلة أوكثافيانوس أغسطس قيصر ، ولا لصدد عمرو بن العاص ، ولا لصدد جنود هولاجو ، ولا لمحاربة الصليبيين ، ولا الفاطميين ولا العثمانيين . ولكنهم أمام كل غزو بكوا ضبايع الحرية وأحسوا — وهم الشعب المتحضر العريق — بزوال سؤددهم ، وانحطاط دولتهم . وكان شعورهم بالمأساة قوياً جداً كلما اقتحم عليهم الغزاة عقر دارهم ، وقوضوا عرشهم [ حتى حين يكون الجالس على هذا العرش أجنبياً عنهم ] ليتزل بوطنهم إلى مرتبة الولاية يحكمها إمبراطور فى روما ، وخليفة فى شبه جزيرة العرب ، وخاقان فى الأستانة .

وسرى منذ هذا الحرم سنة ١٢١٣ هجرية — أى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى — أن شيئاً جديداً قد حدث ، عندما قام شعب القاهرة يدفع عداته ويدافع عن حومته .

ولم يكن هذا الحدث فريداً ، بل جاء بعد مقدمات وعلامات لا بد من الإشارة إليها واحدة واحدة : . فى سنة ١١٩١ [ ١٧٧٧ م ] كان يوسف بيك الكبير ، من أمراء محمد بيك أبو الذهب ، رجلاً سهل الاحتداد والتخليط فى الأمور ، ولا يستقر بالمجلس ، بل يقوم ويقعد ويصرخ . ولما تولى إمارة الحج ازداد عتواً وعسفاً وانحرافاً ، وبخاصة مع طائفة الفقهاء والمعلمين . وقد وجد فى حادثة الشيخ صادومة قرصة للنيل من المشايخ . وكان الشيخ صادومة من سمود ، وله باع طويل فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات والسيات ، ويكلم الجن ويشافهم ويظهرهم للعيان ؛ كان الشيخ أحمد صادومة ، بلغة عصرنا ، دجالاً

كبيراً ، وقد كشف يوسف ييك ذات يوم عن حجاب خباته إحدى محظياته  
بمكان من جسمها ، وقررت أن الشيخ كتبه لها ليحييها إلى سيدها . فقبض  
يوسف ييك على الشيخ ، وأمر بقتله وإلقائه في البحر ، ثم احتاطوا على داره ،  
وأخرجوا أشياء كثيرة ، منها تمثال من قطيفة على هيئة عضو الإنسان . واحتفظ  
يوسف بك بهذا التمثال القطيفة ، ليظهره لمن يجلسون معه ، ويتعجبون ويتفاحكون  
وهو يقول : « انظروا أفاعيل المشايخ » .

ثم اتفق أن الشيخ حسن الجداوى المالكى طلق امرأة في غيبة بعلمها ،  
وزوجها من الشيخ عبد الباقي ، وحضر زوجها الأول من القيوم ، وذهب إلى ذلك  
الأمير يشكو له الشيخ عبد الباقي ، فقبض على هذا الأخير في منية عفيف ،  
وأهانته ، ووضع الحديد في رقبته ورجليه . وجبسه في حاضن أرباب الجرائم ،  
فركب الشيخ على الصعيدي العدوى ، والشيخ الجداوى ، وجماعة كثيرة من  
المعممين ، وذهبوا إليه ، وخاطبه الشيخ الصعيدي وقال له : « ما هذه الأفعال  
وهذا التجارى ؟ » فقال له : « أفعالكم يا مشايخ أقبح ! من يقول إن المرأة تطلق  
من زوجها إذا غاب عنها ، وعندها ما تنفقه وما تصرفه ، ووكيله يعطيها ما تطلبه ؟ »  
فقالوا له : « هذا قول في مذهب المالكية معمول به ، ونحن أعلم بالأحكام  
الشرعية » . فقال : « لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح . . . » فقاطعه الشيخ  
الجدادى : « أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبي » ، فقام الأمير على أقدامه  
وصرخ قائلاً : « والله أكسر رأسك » . فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه  
وقال له : « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ،  
ومن جعلك أميراً » . وتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون حديثه وحدثهم ،  
وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس ، وأخرجوا به وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم .  
وحدث ما يشبه ذلك عندما قبض هذا الأمير على الشيخ عبد الرحمن العريشى ،  
وجبسه عند الحازندار ، فركب الشيخ السادات إليه ، وكلمه في أمره ، وطلبه من  
محبسه ، فلما علم الشيخ عبد الرحمن بحضور شيخ السادات ، روى عمامته وفراجه ،  
وتطور وصرخ ، وأخرج يده مسرعاً وهو يقول : « يخرب بيتك يا يوسف ييك » ،  
ونزل إلى الحوش صارخاً بأعلى صوته ، واحتد يوسف ييك وقام على أقدامه يصرخ

(١)

على خدمه ويقول : « امسكوه ! اقتلوه ! » ونحو ذلك ، وشيخ السادات يهدته قائلا :  
« اجلس يا مبارك » ثم أخذ الشيخ عبد الرحمن إلى داره وتلافوا القفصية .

وفي حادثة أخرى أرسل يقبض على شيخ من رواق المغاربة ، فاجتمع  
المجاورون وطردوا المعينين للقبض وشتموهم . وأخبروا الشيخ الدردير ، فكتب هذا  
إلى يوسف بك بأن لا يتعرض لأهل العلم ، ومعاينة الحكم الشرعى ، وأرسلها  
صحة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر . فنهروهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم .  
فقام الشيخ الدردير وإخوانه وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات بالأزهر ، وأقفلوا  
أبواب الجامع ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يدعون  
على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق الخوانيت ، وعندما حاول إبراهيم بك الكبير  
تهديته الحال وأرسل أغايت المال ، اجتمعت على الرسول طائفة من المغاربة ،  
ومعهم بعض العوام ، وبأيديهم العصي والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورجموه  
بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو وبماليكه ، فقتل ثلاثة من  
المجاورين ، وانجرح عدد منهم ومن العامة . وانتهت الفتنة بإعطاء كل ذى حق  
حقه ، واشترط المجاورون عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر .

وفي سنة ١٢٠٠- [ ١٧٨٥ م ] ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل  
من هجوم حسين بك شعت على دار شيخ دراويش البيوى ، أحمد سالم الجزار ،  
وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والنفت عليهم جماعة كثيرة من أوباش  
العامة والجعيدية وبأيديهم نيايت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير ، فوثسهم  
وساعدهم وقال لهم : « أنا معكم » ، فخرجوا من نواحي الجامع ، وقفلوا أبوابه ،  
وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا  
بالأسواق في حالة منكرة ، وأغلقوا الخوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « في غد  
نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب  
بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » . فلما كان بعد  
المغرب ، حضر سليم أغا مستحفظان ، ومحمد كتخدا أرتؤد الحلنى ، كتخدا  
إبراهيم بك ، وجلسوا في الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه ،  
وخافوا من تضاعف الحال وقالوا للشيخ : « اكتب لنا قائمة بالمشهورات ونأتى بها



من عمل ما تكون . . . واتفقوا على ذلك وقرروا الفاتحة وانصرفوا .  
وركب الشيخ في صباحها إلى إبراهيم بك فأرسل إلى حسين بك وأخضره  
بالمجلس وكلمه في ذلك ، فقال : « كلنا نهايون - أنت تهب ، ومراد بك يهب ،  
وأنا أنهب كذلك » ، وانفض المجلس وبردت القضية .  
وفي سنة ١٢٠٩ ، جاء الأهالي للشيخ الشرقاوى يشكون من محمد بك الأتلي ،  
وذكروا له أن أتباعه ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ ،  
وذهب إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وأقفلا الأبواب ، وأمرؤا الناس بإغلاق الأسواق  
والخوانيت . وفي ثاني يوم ركبوا ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وذهبوا  
إلى بيت الشيخ السادات ، ومنه إلى بيت إبراهيم بك ، وأخذوا يصيحون : « نريد  
العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي  
ابتدعتموها وأحدثتموها . »

• • •

هذه أمثلة من الحركات الشعبية التي كانت تحدث في ذلك الزمان برعاية  
الشيخ الدردير وغيره من المعتمدين . ولنا أن نتساءل : كيف صبر الشعب المصري  
طوال هذه الأجيال والقرون وهو يعاني الضيم والجور ؟  
المهم أن غزواً أجنبيّاً حدث في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ومن جيش  
أمة لا تدين بالإسلام .

أما في الإسكندرية فقد تجمع أهل الثغر وانضم إليهم العربان وكاشف  
البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعة الفرنسيين . ولم يثبتوا لحربهم . وانهمزم الكاشف  
ومن معه من العربان . ورجع أهل الثغر إلى الترس في البيوت والحيطان . ودخل  
العدو البلد لخلو الأبراج من آلات الحرب ، ولكثرة العدو وغلبته . فطلب أهل  
الثغر الأمان ، ورفع عنهم القتال .

وفي مصر حاولوا الدفاع بإرسال رسول إلى إسلامبول على طريق البر . ليأتيهم  
بالترياق من العراق ، كما يقول الجبرتي متندراً . وانهمزم مراد بك ومن معه أمام  
طلائع الفرنسيين بقيادة الجنرال ديزيه ، قرب الرحمانية . واشتد انزعاج الناس

بمصر ، وبدأ إبراهيم بك في عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وتولى إبراهيم بك الدفاع عن بولاق ، بينما قام المشايخ والأزهر على قراءة البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك أرباب الطرق والأشايير ، وأطفال المكاتب ، وكانوا يذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء ، وحضر مراد بك إلى بر إنابة ، وعمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وضناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشيته ، وحصنوا النيل بالمراكب الكبار والغلايين ، قصار البر الشرق والغربي ويجري النيل مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . ومع ذلك فالأمراء لم يعلمثوا ، بل نقلوا أمتعتهم إلى الخواصل والبيوت الصغار غير المعروفة ، وأرسلوا البعض منها إلى الأرياف . فلما رأى أهل البلد منهم ذلك ، داخلهم الفرع ، واستعد الأغنياء وأولو المقلنة للهرب .

ثم نادوا بالنفير العام ، وخرج الناس للمتاريس ، وقد أغلقوا متاجرهم ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانوا ينصبون الخيام بنقود جمعوها من كل طائفة ، أو يجلسون في مسجد أو مكان خرب ، وبعض الناس يتطوع بالإتفاق على البعض الآخر بحيث إن جميع الناس بدلوا وسعهم ، فلم يشع في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه .

وخرجت الفقراء وأرباب الأشايير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات ، وهم يصبجون بالذكر ، وصعد عمر مكرم إلى القلعة ، فأنزل منها يرقاً كبيراً أسمته العامة « البيرق النبوي » ، فسار به إلى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنباييت والعصى والمساق ، يهللون ويكبرون . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يسهلون إلى الله بالنصر .

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ، ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها . وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والبحيزة والصعيد والخيرية وأولاد على والمنادى وغيرهم .

هذه إذن حركة وطنية عارمة بالقاهرة وضواحيها ، تحاول أن تؤدي ما عليها نحو الوطن ، وأن لا تقوت القرصة التي ضاعت على أهل الإسكندرية . فهي

من ناحية الشعب المصري بقطة وتساند في الدفاع عن الحمى .

ولكن الشعوب لا تدافع بهذه الطريقة ، ولا على هذا النمط من « المرحلة » .  
ولا شك أن فوضى حكم العثمانيين والمماليك ظهرت بأجل صورها في تلك اللحظات  
الحاسمة . لم يجهز الشعب لقتال ولم يعد له . فالحال لم يتغير عما كان عليه في أية  
حقبة سابقة من التاريخ المصري ، الإسلامى أو المسيحى أو الوثنى ، منذ فتوحات  
الرعامة : أجناد أجنب مهمتهم القتال ، وشعب مسلم يتابع صناعات « السلام » .

وسرى أن هذه الجموع الحاشدة لم تعمل شيئاً أكثر من الصياح والدعاء  
والتكبير ، والتلويع بالنبايت والمساوق . بل إن الحركة لم تعد القاهرة وأرباضها ،  
وقد انقطعت الطرق ، وتعذى الناس بعضهم على بعض . وأغار العرب على الأطراف  
والتواحي . وأخذ الأمراء المصرية يتحفظون على التجار الإفرنج ، ويحبسون بعضهم  
بالقلعة . وكذلك جرى التفتيش على بيوت نصارى الشوام والأروام والكنائس  
والأديرة : وهددت العامة بقتل النصارى واليهود .

فهى لم تكن حركة وطنية بالمعنى الحديث ، إنما هى « هوجة » فى شعب القاهرة  
المسلم ، لم تترك من غزو الفرنسيس إلا معنى واحداً ، وهو « عودة الحرب الصليبية » ،  
فهؤلاء نصارى يغيرون على بلاد الإسلام .

استمع إلى الجبرى : « وضع العامة بالبر الشرقى يصيحون : يا رب ويا لطيف ،  
ويا رجال الله ! ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان  
العقلاء يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك قائلين لهم إن الرسول وأصحابه والمجاهدين ،  
إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والنباح .

وبعد أن حلت الهزيمة بمراد بك فى البر الغربى [ موقعة إنباية ] حول الفرنسيس  
المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها ، فركب إبراهيم بك والباشا والأمراء  
والعسكر والرعايا ، وتركوا جميع الأثقال والحيام ، وسار الكبار إلى العادلية شمالاً ،  
أما الرعايا فهاجوا وماجوا ، وعادوا إلى المدينة بضجون بالعويل والتعجب :

ثم خرجت القاهرة بعد ذلك بما يشبه الإجماع : يهاجر أهلها شرقاً وشمالاً  
وجنوباً ، وما إن توسطوا القلاة ، حتى تلقاهم العربان والفلاحون وأخذوا متاعهم

وأحماهم ولباسهم ، فلم يتركوا لهم ما يستر عورة ، أو يسد جوعاً ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن ، « وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة » .

هذه الحركة الشعبية المشهورة — وسوف تتلوها حركتان أشد خطورة لمقاومة المحتل الفرنسي — فيهما دلالة على يقظة الروح القوي ، ولكن في حدود ديانة الأغلبية ، وما لا يتعدى أحياء القاهرة وبعض مناطق الصعيد — وسوف ينتظر الشعب المصري أكثر من قرن حتى يثوب إلى الشعور بعصريته .

فهؤلاء هم المصريون يطلب إليهم الفرنسيين أن يقيموا من بينهم حكماً فيكون جوابهم : « إن سوق مصر لا يخافون إلا من جنس الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم » . فاضطر الفرنسيين على كره أن يسندوا « أغات مستحفظان » وولاية الشرطة وأمانة الاحتساب إلى جنس الماليك ، بل قللوا برطلمين الرومي النصراني — « فرط الرمان » بلغة العامة — « كتخدنا مستحفظان » ، وهو من أسافل نصارى الأروام القاطنين بمصر ، وله حانوت بخط الموسيقى يبيع فيه القوارير .

ومهما كان من ضلالة هذه الحركات ، فإن مجرد إضافتها إلى ثورة الشعب على ظلم الماليك ، بقيادة الشيخ الدردير ، يجعل لها معنى عميقاً . فقد كانت بدء مصر هذا الشعب المسكين منذ ثورته الدينية على جنود بيزنطة أيام الصراع بين مسيحية الأقباط ( أى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح ) ومسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية ( الاعتقاد بازدواج طبيعة المسيح ) ، وذلك في القرن الخامس الميلادي ، ثم بين سكان الحوف الشرق من الأقباط وبين أحد الولاة المسلمين في عهد المأمون .

ولن تقوم للشعب المصري قائمة بعد فن الاحتلال الفرنسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر عندما يتحرك الضباط المصريون ويثورون على رؤساء البلند من الجراكسة ، وتبلغ ثورتهم من العنف ما يحمل القوات الأجنبية على التدخل لتسند الحديرو المتخاذل الواهن .

وكما قضى الاحتلال البيزنطي على ثورة المصريين في القرن الخامس ، والاحتلال العباسي على ثورة الأقباط في القرن الثامن ، والاحتلال الفرنسي على ثورة القاهريين

في القرن الثامن عشر ، فإن حركة عرابي سوف ترتفع تحت ضربات البريطانيين ،  
يساندهم الجراكسة والأتراك والأسرة الأرثوذكسية ، وتخبر نار الوطنية المتأججة تحت  
أقدام الاحتلال البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر .

سوف يرتفع صوت مصر بلسان مصطفى كامل ومحمد فريد في العشر السنين  
الأولى من القرن العشرين ، وسوف تجيء جنازة صاحب « اللواء » مظاهرة من  
أروع المظاهرات الشعبية ، ثم تعود مصر إلى غفوة لن يطول أمرها هذه المرة .

سوف يشرق فجر القومية المصرية في سنة ١٩١٩ . وحركة الشعب المصري  
في مارس من ذلك العام وما تلاه ، جديرة بعناية المؤرخين ، لأنها تميزت بكل  
صفات القومية الكاملة ، لا أثر فيها للدين ولا للملة . ولا زينغ فيها نحو خلافة  
الباب العالي ، أو نحو المحتل . ومع أنها كانت حركة تحرير من الرقبة الأجنبية ،  
فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربية ولم تنبذها . فالكل مصريون قبل كل  
شيء ، يقاومون الغاصب . ويطلبون لبلادهم الاستقلال السياسي والتحرر  
الاقتصادي والفكري . أي أنهم يهاجمون الرجعية في كل صورها .

ثورة سنة ١٩١٩ لن تتوقف بعد هذا . ونارها لن تخبو ، وإن تأمر عليها .  
بالدس والخديعة ، الأغنياء والملك وبطائنه ، يظاهرون الإنجليز عياناً بياناً في  
بعض الأحيان ، ومن خلف الستار في أغلب الأوقات ، وما كان أسير اللعبة على  
المحتل وعلى صاحب العرش : لعبة فرق تسد . فالملك ينحرف عن الحركة الشعبية  
— وكان كارهاً لها في السر والعلن — مستنداً إلى قوة المحتل . ثم هو يشاكس الغاصب  
في سبيل أغراضه الخاصة ، مستنداً إلى فريق من المارقين . جمعهم جامعة الجشع  
وروح الإقطاع والرجعية والتزلف للألباني ابن الألباني الجالس على العرش .  
فئة ملعونة من محترفي السياسة وجامعي المال والألقاب ، لا يراعون للوطن جريمة ولا حقاً .  
لو لم تقم ثورة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، لحق للمؤرخ أن  
يحرر شهادة الوفاة لثورة سنة ١٩١٩ ، ولا استطاع أن يحدد بالدقة ظروف موتها .  
وكان ذلك بعد تأليف وزارة الوفد الأخيرة ، وقد قامت على أكتاف الشعب في  
انتخابات حرة نسبياً ، قامت ضد الملك المستهتر ، وعلى كره منه ، لما كان



أسرع تلك الوزارة إلى خطاب ود الملك ، ونوال مرضاته .  
كلا ، لم تمت ثورة سنة ١٩١٩ ، ولقد شعرنا بالحياة تدب في أوصال القومية  
المصرية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وأحسنا بنارها تضطرم في  
قلوب الشباب ، طلبة وعمالا ، في كل وقت .  
للك أحييت أن أسمي حركة الجيش المصري سنة ١٩٥٢ « ثورة البعث الكبرى »  
لأنني عشت ثورة سنة ١٩١٩ ، وأنا من شبابها ، وراقبت في وعي كيف جارت  
عليها العوادي ، وهي ترفع رأسها بين الفينة والفينة ، لم أكد أستعد لتشيعها إلى  
قبرها ، بعد استسلام حكومة الوفد وبرلمان الوفد للملك العاشر ، ثم بعد حريق  
القاهرة في يناير ١٩٥٢ — أو ما أسميه حركة انتحار الشعب المغلوب على أمره ،  
وقد فقد كل أمله في ممثليه — حتى صحت يوم ٢٣ يولييه ١٩٥٢ على صوت البشير  
بنهاية الإقطاع والأرتودو والجراسية وعلى رأسهم « شبل إسماعيل » ، وسليل « محمد  
على باشا الكبير » .

أذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس ، أذكر حالتي التاسعة في الأسبوعين اللذين  
تقدما حركة الجيش ، كنت أصغر مبكراً لأجلس إلى نافذتي المطلّة على البحر ،  
أراقب شراع السفن البيضاء تظهر في البعد ، كأنها أجنحة النوارس . أجلس وحيداً  
ساعياً واجماً ، أبكي وطني ، وكأنني فقدت كل أعزائي في هذا العالم . ثم يدق  
التليفون ليزف إلي البشري ، فأشعر كأنني عدت من بلاد الغربية النائية ، لألتقي  
بأهلي في نشوة الفرح ، وأقدامى تظاً أرض الوطن الدافئ الحاني . وخرجت إلى  
الناس فوجدت شعورهم يلبس شعوري ، وأحسست في تلك اللحظات كأننا  
نعود جميعاً من ظلام القبور .

من كان يظن أن الشعب المصري ، الذي بدأ حركاته القومية بالنبايت والمساوق  
وقراءة البخاري ، يتولى أمر تحريره في النهاية أبنائه الأصالي من حملة السلاح ،  
رجال المدافع والدبابات والطائرات والطرادات ؟ ولكنه منطلق التاء يخ ، الذي لا يحسب  
أعمار الأمم بالأيام ولا بالأشهر . فقد كان هذا الشعب المصري ، الذي أغنى إخفاء  
أهل الكهف ، بحاجة إلى قرن ونصف قرن من الزمان ، ليصبح مصورة الأسد  
المعاني . ما هو قرن ونصف قرن في عمر أمة تحمل ألوية الحضارة منذ ستين قرناً ؟

## الباشا والمصرية

لم يكن محمد علي باشا إلا صورة كاملة من عهده ، خرج من دولة المؤامرات والنهب والتفصيل والرشوة برتبة «سرشمه» - لفتنانت كولونيل - في جنود العثمانيين الذين جاؤوا ليخلصوا مصر من حكم الفرنسيين . وما أسرع ما فهم هذا الثعلب نوع الوسط الذي يعمل فيه ، وما كان أشبهه بوسط الدولة العلية وإن كان أعمق فساداً وأكثر اختلاطاً ، فيه تقاية كل الأجناس والنحل : من الممالك أو ما يعرفون بالأمراء المصرية ، ومن الأربؤد والدلاة والتكرور والمخارية ، وفيه من أشات الوجاقات العثمانية البشكجيرية [الانكشارية] والإصباحية والإخاويشية والعزب والإحمران ، وكلها ذئاب عاوية جائعة إلى الأسلاب ، عطشى بالدماء ، اجتمعت في أرض الله المباركة ، أرض الخير العميم ، والشعب المسلم السليم النية ، الخائف على زراعته وفنونه وصناعاته ، بلاد الدين الخفيف يقوم عليه رجال فضلاء من شيفه الجامع الأزهر ، جلهم من أهل التق والورع ، متجردون عن الدنيا ، متفقهون مؤمنون .

والقصة التالية صورة صادقة من ذلك العهد الحالك الأخير ، تقصر نفسها بنفسها ، وتوضح أحداث مصر الداخلية في أواخر القرن الثامن عشر توضيحاً لا ليس فيه ، بل هي المقدمة لما تم على عهد «المصلح الأكبر» ، رأس الأسرة العلوية ، من مذبة الممالك ونفى السيد عمر مكرم والافتئات على حقوق الشعب المصري الذي لم يحسبوا له حساباً حتى انتصف القرن العشرون .

حدثت وقائعها بين الإسكندرية ورشيد والرجالية وشلقان وزقزقة ومنية السرج والقرين والقاهرة ، بطلها رجل من أصل جزائري اسمه علي باشا الطرابلسي ، بسبب توليته ولاية طرابلس . وكانت صفته أبيض اللون عظيم النية والشوارب ، قليل الكلام بالعربي ، يحب اللهو والخلافة .

منقولة بنصها من ذلك الكتاب العظيم : «عجائب الآثار» ، فشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، الوصافة الصادق والنظمي الكبير ، الذي عرك الحياة المصرية بكل تفاصيلها ، وترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق ، فيما بين نهاية القرن الثامن عشر وبطلع القرن التاسع عشر .

في موسم من مواسم الحج ، والقرن الثامن عشر في عشريناته الأخيرة ، روع الحجاج بخبر رجل فاسق يصطحب معه غلامين جميلين . وقد رأى الحجاج الطرابلسيون هذا الرجل . وعرفوا بأمر الغلامين فذهبوا من توهم لأهمل الحج الشامي ، وعرفوه عن الغلامين - وكانا من أولاد الأعيان في طرابلس - وعن الرجل الفاسق - وكان والياً من قبل إسلامبول على طرابلس - فأرسل أمير الحج جماعة من أتباعه في حصة مهمة ، وكبسوا على الباشا ، فوجدوه معه أحد الغلامين ، أو على حد قول الحريري في إحدى مقاماته : وجدوه «مساقناً لتلميذ» ، على جدي حنيد ، وكأس نبيذ . وتبعهم الطرابلسية ، وأخذوا يسبون ويلعنونه ويستفنون لحيته ، وقد

هموا بقتله ، وجرحوه جرحاً بالفا ، وأخذوا منه الغلامين ليردوهما إلى أهلها في طرابلس الغرب .

وذهب الرجل القاسق — واسمه علي باشا الطرابلسي — إلى مصر ، وأقام معزراً مكرماً عند مراد بك الأمير المصري ، حيث بقى ما يزيد عن ست سنوات . وحارب الفرنسيين مع الأمراء المصرية في موقعة إنابة ، وهرب معهم إلى قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل الشرقى ، وسار إلى الشام ومنها إلى إسلامبول ، وهناك طلب ولاية مصر . . . وقاز بولاية مصر .

وتبدأ قصتنا قبل ولايته بقليل ، عندما هرب محمد باشا خسرو إلى جزيرة بدران ، بعد أن نهب العساكر الأرثوذكسية في الأزيكية ، وأسقطوا بنبة على الباذاهنج ، ثم أحرقوا البيت . وانتقل الأرثوذكس إلى بيت المحروق ، وبيت حريم خسرو باشا ، وبيت المعلم جرجس ، فبهوها ، كل ذلك بقيادة طاهر باشا ، يساعده محمد علي سرششمه ، ذلك الضابط المغامر الذى ترك تجارة الدخان في قولة وانضم إلى الجنود العثمانية الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيين ، وتخليص ولاية مصر من حكمهم ، لتعود غنيمة سائفة للعثمانيين .

دامت ولاية محمد باشا خسرو سنة وثلاثة أشهر ، وكان سيئ التدبير ، سفاكاً للدماء ، يتكرم على من لا يستحق ، ويبخل على من يستحق . فأنقذ الله منه عباده ، وسلط عليه جنده وعساكره حتى خرج مرغوماً مقهوراً ، ووصل إلى قليوب حيث عشاء شيخ العرب الشواربى ، ومنها سار إلى دجوة . . .

ونستأذن القارئ في أن ننسى أمر هذا الخسرو في دجوة ، سواء بقى فيها إلى آخر الزمان ، أو غادرها إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم . ولنعد إلى مصر حيث تولي طاهر باشا قائممقامية البلد ، انتظاراً لفرمان من إسلامبول بتوليته . واعتماداً على عساكره الأرثوذكس قبض على أغا الإنكشارية وباش اختيارهم ، وعلى أغا العزب ، وكل من استطاع أن يضع عليه يده من كبار رجال الوجاقات . وامتد جوره إلى سرنجار مصر ، السيد المحروق ، فقبض عليه أيضاً .

وفي ذلك الوقت قبضوا على المعلم ملطى ، وكان قاضياً أيام الفرنسيين ، فرموا

رقبته على باب زويلة ، وكذا قطعوا رأس المعلم حنا الصبحاني ، من تجار الشام ،  
عند باب الحرق .

وشمخ الأرئود بأنوفهم على الإنكشارية ، وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم فخذ  
السلطنة ، والأرئود خدمهم . فضاق خناق الإنكشارية ، وركبوا من قلعهم بجامع  
الظاهر نحو المائتين وخمسين نفرأ ، وذهبوا إلى طاهر باشا يطالبونه بحماكيهم تحرشأ  
وكيدأ ، فعنفهم ونتر فيهم ، فبادره أحدهم بضربة يطبجان أطارت رأسه من الشباك  
إلى الحوش ، وسحبت طوائفهم الأسلحة ، ودب الحريق والنهب ووقع في الناس  
كرشات .

وكان طاهر باشا معروفاً بالمهوس والانسلا ب ، والميل للمجازيب والمسلوبين  
والدراويش . فلما رأى الأوباش منه ذلك ، ترياكل منهم بما سولت نفسه وشيطانه ،  
ولبس طرطورأ طويلأ ومرقعة ودلقأ ، وعلق له جلاجل وبهرجان ، وعصا مصبوغة  
وفيها شعاشيخ وشراريب ، وطبلة يدق عليها ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنة ،  
موهما بأنه من أرباب الأحوال .

انتقل الصراع بعد مقتل طاهر باشا الأرئودي بين أحمد باشا والى القاهرة  
وإنكشاريته ، وبين محمد على سرششمه وأرئوده ، وكان محمد على يمالئ الأمراء  
المصرية حتى عدتأ كثير منهم ، ومعهم العربان ، من الجبل إلى المدينة ،  
وساروا إلى باب النصر وباب الفتوح وأقاموا هناك . وبذلك انحل برم أحمد باشا  
وتفرق عنه غالب الإنكشارية . وجاءه الأمر من إبراهيم بك بتسليم قتلة طاهر باشا ،  
وبأن يخرج خارج البلد معه مهلة إلى حادى عشر ساعة من النهار ، ولا يقيم  
إلى الليل : فامثل وخرج في حالة شنيعة . وكانت ولايته يوماً وليلة لا غير .

وبذلك صفا الجو لإبراهيم بك . ومر الوالى ينادى بالأمان « حسب ما رسم  
إبراهيم بك ، وأفتدينا محمد على » ، وكثر مرور الغز والكشاف المصاروة ، وترددوا  
إلى المدينة وعلى أكتافهم البنادق والقرايين ، وخلفهم المماليك والعربان ، وهم  
يستندون سلطة إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على سرششمه .

وتخلصوا من الإنكشارية بالتعرية والطرد والقتل ، وقد نادى الوالى على الأتراك



والإنكشارية والبشناق والسجماق بالخروج من مصر ، فجلا منهم عن البلاد نحو ألفين وخمسمائة .

وما كاد إبراهيم بك يتولى قائمقامية مصر ، حتى وصل الخبر من الأستانة بتولية بطل قصتنا على باشا الطرابلسي على مصر ، وتأكد الخبر بوصول المذكور إلى الإسكندرية . وأرسل اليشا الجديد خطاب تأنيب للأمراء المصرية على ما حدث من طرد اليشا خسرو وقتل طاهر باشا .

لم يكن الأمراء المصرية ليقفوا مكتوفي اليد أمام هذا الوالي ، وهم ما صدقوا أن تخلصوا من الفرنسيين ، فليس لديهم أية رغبة في عودة الحكم العثماني إلا في أبسط صورة .

أسرع عثمان بك البرديسي إلى جر شكل الوالي الجديد على باشا الطرابلسي عند بلدة البرج شمالي رشيد . وأرسل إليه اليشا رسولا يواجهه البرديسي بقوله :  
— ما المراد ؟ إن كان حضرة اليشا والياً على مصر ، فليأت على الشرط والقانون القديم ، ونقيم معه على الرحب والسعة ، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا ، ولكم مهلة ثلاثة أيام .

وبعد ساعتين من انقضاء الإنذار ضرب عليهم البرديسي مائة وخمسين قنطاراً من البارود ، وأرسل خطاباً إلى إبراهيم بك يقول فيه « . . . وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم من البنب والمدافع والبارود » . فشهلوا المطلوب وأرسلوه في ثاني يوم ، مع محبة حسين بك الافرنجي .

وحاول الأحقق على باشا الطرابلسي أن يقطع طريق الإسكندرية على البرديسي ، فكسر السد الذي بناه أبي قير ، وهو السد الحاجز على البحر المالح ، وكان من قديم الزمان من السدود السلطانية العظام المتينة ، تتفقد الدول على مر الأيام بالمرمة والعمارة . فلما اختلت الأحوال وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات ، انشرم منه شرم فتسربت المياه المالحة على الأراضي والقرى ما بين رشيد والإسكندرية . ولا جاء الإنكليز والعثمانية لإخراج الفرنسيين ، شرموه أيضاً من الناحية البحرية لأجل قطع الطريق على الفرنسيين ، فبلغت المياه المالحة إلى قرب دمنهور ، واختلطت بخليج الأشرفية ، وشرقت الأراضي ، وتخربت القرى



وتلف الزرع وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البحر ، وامتنع وصول الماء إلى أهل الإسكندرية . ولا استقر العثمانية أصلحوا هذا السد ، ولم يكند يفرح الناس بهذا الإصلاح ؛ حتى جاء على باشا وفتحه ، ليمنع وصول البرديسي ورجاله إلى الإسكندرية .

فهب البرديسي رشيد ، وشحن برج مغيزل - أمام رشيد على الضفة الشرقية للنيل - بالذخيرة والحبخانة .

ونقص النيل في أيام النسيء ، وحلت المجاعة ، واجتمع مشايخ مصر وتشاوروا في الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، وذهبوا إلى إبراهيم بك فقال لهم : ما أحب ذلك إلي ! فقالوا له : ولكن كيف نحقق شروط الاستسقاء ، ومن جعلها رفع المظالم ورد الحقوق والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك ؟ فأجابهم : هذا أمر لا أقدر عليه وحدي ، ولا أحكم فيه إلا عن نفسي . فقالوا له : إذا هاجر من مصر . فأجابهم : ورجلي على رجلكم . . .

واضطرت المجاعة البرديسي إلى إخلاء رشيد والبرج وبرج مغيزل والعودة إلى مصر . وخرجت الفقراء بمقاطعتهم للآلاتهم ، وعبطوا في وجوههم ، فوعدهم البرديسي بخير ، وأرسل محمد علي سرشمه وخازن داره ، فقتلوا الخواصل في بولاق ومصر العتيقة ، ووزعوا الغلال بالبطاقات : رية غلة لكل شخص من الفقراء ، فحصل للناس اطمئنان . وما هي أيام حتى أزلوا بالشعب فردة ، وأقلب الوضع المشروع ، وانعكس الحال إلى أمر شنيع ، وتسلبت العسكر والماليك على خطف ما يصادفونه من الغلة والتبن والسمن ، وسرب الناس بهائمهم من عدم العلف . . .

وفي الإسكندرية كان على باشا الطرابلسي قد اطمأن إلى حاله بعد سفر البرديسي ، فرتب طائفة من عسكره على طريقة الإفرنج ، فكان يخرج منهم في كل يوم إلى جهة المنشية فيصطفون ويعملون « مارش وأردبوش » ثم يعودون . وفي مرة أثناء عبورهم بمساكن الإفرنج ووكالة القنصل ، أخرج الإفرنج رموسهم من الطيقان نساء ورجالا يتفرجون عليهم كما جرت العادة ، ويبدو أن بعض الإفرنج أفصح عن سخريته بنظام الجندية المتعريف عن طبيعتهم ، فضرب عليهم

المسكر بالبنادق من أسفل ، وضرب الإفرنج عليهم من الطيقان ، وهجم الجند عليهم في منازلهم ، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ، ونزلوا إلى البحر ، وطلعوا غليون الريالة ، وكتبوا كتاباً بصورة الواقعة ، وأرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم .

وأرسل على باشا الطرابلسي خورشيد باشا وإلى الإسكندرية إلى القناصل ، فأخذ بخواطهم وضمن لهم ما أخذ منهم .

وراح على باشا يجمع أهل الإسكندرية علماءها وأعيانها ، وطلب منهم كتابة « عرض محضر » على غير صورة الحال - محاولة منه لتبرئة نفسه في إسلامبول - فامتنعوا عن الكتابة بالزور والبهتان . وكان المنتصرون للرد الشيخ محمد المسيري المالكي ، ففقهه الباشا ووبخه .

• • •

خرج على باشا الطرابلسي من الإسكندرية لتسلم زمام الأمور بمصر ، وشرعوا في عمل المركب التي تسمى « بالعقبة » لخصوص ركوب الباشا . ووصل إلى ناحية شلقان .

ولإذا بشتك بك المعروف بالألني الصغير ورجاله يبلغون تلك الناحية ، وينصبون خيامهم قبال عرضي الباشا ، بل يداخل خيامه بخيام على باشا . فإذا احتج رجال الباشا قال الألني : هذه منزلتنا ومحطتنا من قديم الزمان . فلم يسع الباشا وأتباعه إلا قلع خيامهم والتأخر .

وأخذ رجال الألني الصغير جمالا ليحملوا عليها البرسيم من بعض الغيطان ، وحضر أمير أخور الباشا يجماله . لأخذ البرسيم من نفس الموضع ، ونهروا رجال الألني وطردوهم . فأمر الألني واحداً من كشافه بالركوب رهماً إلى الغيط . وصل هذا الكاشف وأحضر أمير أخور وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا الطرابلسي<sup>١</sup> ، ورجع إلى الألني بالجمل . . . ويرأس أمير أخور !

نادى الباشا على رضوان ، كتنخلنا إبراهيم بك ، وقال له : أهذا جزائي بعد أن صالحت عليكم الدولة ؟ وما زلت تضحك على ذقني وأنا أصدق تمويهاتك حتى جئت إلى هنا لتفعلوا برجالي هذه الفعال وترذلوني وتأخذوا حملي وجمالي ؟

فلاطفه رضوان كتحدا واعتلر إليه قائلا : « هؤلاء صغار العقول ، ولا يتدبرون في الأمور ، وحضرة أفندي شأنه العفو والمسامحة . »

وأرسل في طلب جمال الباشا من الأتلي . وردھا إلى وطاق الباشا ، ثم حضر إليه عثمان بك يوسف الخازندار ، وأحمد أغا شويكار ، وأخذنا بخاطره .

وإذا بالبرديسي يخرج هو الآخر إلى جهة شلقان ، ويتصب خيامه على موازاة خيام الأتلي الصغير ، وينصب باقي الأمراء خيولهم في اتجاه الجبل ، أما الأرثوذية فاصطفوا في مواجهة النيل .

ولكن ماذا جاء بهؤلاء الأرثوذية ؟ إن مجيئهم صورة من صور الغدر المتأصل في نفوس كل هؤلاء الناس ، من المصرية إلى العثمانية والأرثوذية والدلاة وغيرهم من الأنجاس ، فقد كان الباشا الطرابلسي قد كتب إلى محمد علي مرششمه وأرثوذه ، وإلى قبائل العربان ، مكاتبات يستميلهم ويستعديهم على الأمراء المصرية . ونقل الأرثوذ خبر هذه المكاتيب إلى المصرية ، فاتفقوا على مخادعة علي باشا الطرابلسي ، وإفهامه بأن الأرثوذ ناصروه . فإذا خرج الأمراء المصاروة بحجة ملاقاته والسلام عليه ، يقفون في مواجهته ، بينا الأرثوذية من خلفه ، فيأخذونه بواسطة . وتواعدوا على هذا اللقاء في شلقان ، وهونوا على الباشا أمر المصرية ، وأنهم في قلة ، وأن المنضمين إليهم على خلاف معهم ، وأن هؤلاء في الباطن مع الأرثوذية ومع الباشا الطرابلسي . وهكذا دبروا له تدابير ومناصحات تروج على الأباليس .

ولما وصل إلى الرحمانية أرسل له الأرثوذ مكاتبة سرًا ، بأن يعدّي إلى البر الشرقي . فاعتقد نصيحهم وعدّي ، ورتب عسكره في شلقان طوابير ، وجعل كل بنباشا في طابور ، وعملوا متاريس ونصبوا المدافع وأوقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضى .

وفي تلك الأثناء تسلل حسين بك الإفرنجي ومن معه بالعساكر في الغلايين والمراكب ، واستعلوا على مراكب الباشا وأحاطوا بها ، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع . وساقوهم إلى جهة مصر ، وأخذوهم أسرى ، وعلى رأسهم كبيرهم مصطفى باشا .

ولا تأخر الباشا واستقر بأراضي زفينة ، أحاط به المصريون والعربان وتحلقوا حوله ، ووقفوا لعرضيه بالرصد ، فكل من خرج من الدائرة خطفوه ، ومن الحياة أعدموه .

وأرسل إليه الأتلي رسولا يقول له : « حضرة ولدكم الأتلي يسلم عليكم ، ويسأل عن هذه العساكر المصحويين بركابكم ، وما الموجب لكثرتها ، وهذه هيئة النابذيين لا المسلمين ، والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون إلا بأتباعهم وخدمهم ، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بسكندرية ؟ »

فقال : « نعم ، وإنما هذه العساكر متوجهة إلى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخوارج ، وعندما تستقر بالقلعة ، نعطيهم جماكيهم ونشهلهم ونرسلهم . »

فقال على الكاشف ( رسول الأتلي ) : « يا حضرة أفندي ، لا تفكروا بالقلعة ، فإنهم أعلوا لكم قصر العيني تقيمون فيه ، لأن القلعة خربها الفرنسيين وغيروا أوضاعها ، فلا تصلح لسكنائكم . أما العساكر فلا يدخلون معكم ، بل ينفصلون عنكم ليذهبوا إلى بركة الحاج ناحية المطرية ، ويمكثوا هناك حتى نشهل لهم احتياجاتهم ، فالبلد في قحط وغلاء ، والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ، لا يستقيم حالهم مع الأرثودية ، ويقع منهم ما يوجب التعب لنا ولكم . »

فقال على باشا الطرابلسي : « إذا كان الأمر كذلك فلاني أرحل عائداً إلى الإسكندرية . » أجابه على كاشف : « هذا لا يكون ، وإن فعلتم حصل لكم الضرر . »

قال الباشا : « إن للعسكر عندي ٤٨٠ كيساً أحضروها من حسابي معكم ندفعها لهم فينصرفوا إلى بركة الحاج كما قلتم . »

ورجع على كاشف إلى الأمراء ، فرفضوا قائلين : « إما أن يحضر الباشا عندنا في جماعته وخدمه وخدم ، وينزل بمخيمتنا ضيفاً مكرماً ، وإما الحرب بيننا وبينه . »

وأصبح الصباح ، فركب المصرية بعساكرهم في طواير ، وزحفوا على عرضي الباشا من كل جهة ، فأمر عساكره بالمحاربة . . . فلم يتحركوا وقالوا له : « ليس معك فرمان بالحرب ، ولقد رأيت كيف أخذ إخواننا البحرية عن آخرهم ،

ولم تعطنا جامكية ولا تققة ، فإلّا طاقنا لنا بحرب المصريين . »  
فأضطر الباشا مرغماً إلى الركوب في خاصته ، والذهاب إلى المصاروة ،  
تاركاً خيامه وأثقاله ، فأضافوه في خيام البرديسي . وحضر كتحدا الجاويشية  
وكاتب حوالة الوالى وبقى أرباب الديوان ، وذهب بعض خدم الباشا وفراشيه إلى  
قصر العيني ليفرشوه ويرتبوه وينظموه .

أما عساكر الباشا فقد أمرهم الأمراء بالرحيل تحت حراسة حسين بك الوشاش  
وصالح بك الأتلى ، ليوصلوهم إلى شرقية بليس ومنها إلى الصالحية ، وكانت عدتهم  
ألفين وخمسمائة .

وانتقل على باشا الطرابلسي والأمراء المصرية إلى منية السيرج ، وطارت الإشاعة  
بأن الباشا سوف يركب بموكبه إلى قصر العيني على طريق بولاق بعد يومين .  
وجمع المحتسب خيول الطواحين لأجل الركبة ، وخرج كثير من الناس إلى  
جهة بولاق لأجل الفرجة ، وانتظروا فلم يحصل . وقيل إنهم أنخروا الباشا .  
ثم وصلت التنايه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا ، ولكنه  
لم يصل ، وتواترت الأخبار بأنهم أركبوا على باشا وسفروا إلى جهة بليس والصالحية .  
وإليك جلية الخبر :

احتنى المصرية بالباشا ، وأرسلوا له رضوان كاشف ، كتحدا عثمان بك  
البرديسي ، ومعه هدية : ألف نصفية ذهب ، وأبلغه السلام وإلّا طاقه . فقال الباشا  
مسروراً : « أنا منذ قلدينى ولاية مصر قلت للدولة إن أول حوائجى العقو والرضا  
عن الأمراء المصرية ، لأن لهم فى عنى جميلا منذ ما حضرت إليهم هارباً من  
طرابلس فأورنى وأكرهونى . »

أجابه رضوان كاشف : « إن الأمراء يراعون لك ذلك ، ولا ينسون عشرتهم  
معك ، وخصوصاً صداقتك لسيدهم مراد بك ، وهذا برغم ما وقع منك من مكاتبة  
الأرنؤد والعربان وغيرهم . »

قال الباشا : « هذا شىء مضى وراح ، ونحن أولاد اليوم . »

• • •

مكث على باشا فى عرضى البرديسي بمنية السيرج ، لا يرى من الأمراء الكبار  
( • )



سوى عثمان بك الخازندار وأحمد أغا شويكار وأرباب الخدم .  
وذا ليلة فزع حرس البرديسى لفارس يخرج من العرضى فى جنح الليل ،  
ويولى هارباً ، فجروا خلفه ولم يلحقوه .

واتجهوا إلى الباشا يسألونه عن ذلك فقال : « لعله حرامى أراد أن يسرق شيئاً  
وأخرج هارباً » . ومنذ هذا الحادث ، أجلسوا حول الباشا عدة من المماليك  
المسلحين ، فسأل عنهم فقليل له : « إنهم جلوس بقصد المحافظة عليكم من  
السراق . »

ولم يمض وقت طويل على هذا الحادث الليلى ، حتى قبضوا على هجان بناحية  
البساتين عند المعادى ، فى طريقه إلى قبلى ، ووجدوا معه مكاتبات من الباشا إلى  
عثمان بك حسن بقنا ، يطلبه للحضور ، ليكون معيناً له على إبراهيم بك والبرديسى  
والألئى ، ويعدده بإمارة مصر ونحو ذلك !

فجاءوا فى اليوم التالى إلى الباشا جماعة وسلموا عليه ، واستأذنوه فى الجلوس  
فأذن لهم ، فجلسوا وهم سكوت ينظرون إلى بعضهم البعض ، فقال على باشا : « خيراً » .  
وتكلم أخيراً رضوان بك قائلاً : « ألم نصطلح مع حضرة أفندينا وصفا خاطره  
معنا ؟ »

قال : « نعم »

قال رضوان بك : « هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك ؟ »

قال : « لا »

قال رضوان بك : « لعلكم أرسلتم مكاتبة إلى قبلى ؟ »

قال : « لم يكن ذلك أبداً »

فأخرج له مكتوباً وناول له إياه ، فلما رآه قال : « نعم ، هذا مما كنا كتبناه  
بسكندرية »

قال رضوان بك : « يا سبحان الله يا حضرة أفندينا ! لقد وجدناه أمس مع  
الهجان المسافر إلى قبلى عن طريق البساتين »

فسكت الباشا الطرابلسى ولم يحرج جواباً . . .

فقاموا على أقدامهم وقال رضوان بك : « يرون أفندينا ! »

فقال : « إلى أين ؟ »

فقال رضوان بك : « إلى غزة ، فإنه لا أمان لنا معك بعد ذلك . »

ولم يمهله لكلام يقوله ، ولا عذر يبيده ، حتى ولا لحجى ركوبته ، بل قدموا له فرساً لبعض المماليك . فلما رأى الأمراء المستعدين للذهاب معه وقوفاً في انتظاره ، رجاهم أن يكونوا متباعدين عنه في الخط والترحال ، فأجابوه إلى ذلك ، وسار معه محمد بك المنفوخ ، وسليمان بك صهر إبراهيم بك .

أما أتباع الباشا فركبوا أكاديش الطواحين ، وكان الطحانون ينتظرون متى يتقضى الموكب - وهم يظنون أن خيولهم استعيرت منهم لموكب الباشا بالقاهرة - ويأخذون خيولهم . فلما تحقق لهم سفر أعوان الباشا بأكاديشهم بعيداً عن مصر ، طارت عقولهم وذهبوا إلى صيوان البرديسى يشكون إليه عطل مطاحن البلد ، فقال لهم : « دونكم خيلكم ، اذهبوا فخذوها ! » فجروا خلف أعوان الباشا ، ومسك كل طحان فرسه ، وأنزل عنها راكبها ، وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم .

فركب الأعوان بدلاً جمالاً ، وحجز البرديسى طبلخانة الباشا ، وطقمه ، ومهاترته ، وغالب متاعه ، وذهب بها إلى حال سييله ، وقد ركب أمامه حسين بك الإفرنجى بعسكره المختصين بطبلهم ، مثل طبل الفرنسيس ، وعلى رأسهم برانيط من نحاس أصفر ، مثل برانيط الفرنسيس ، وهم نصارى وتكرور وأروام . وركب خلف البرديسى طبلخانة الباشا ونوبته ومهاترته يطبلون وي زمرون . ودخلوا على هذا الحال إلى القاهرة .

أما الأتلى الصغير ، فركب في أمرائه وكشافه ليعاقب العربان الذين والسوا مع الباشا ، وهم عرب بلى بالجزيرة . فطرقهم على حين غفلة ، وقتل منهم أناساً ، ونهب مواشيهم ونجعهم ، وضرب أيضاً زفينة وأجهور وعشرين بلداً أخرى ، وأخذ زراعتها ومتاعها .

هذا والقاهرة تنتظر الباشا على الطرابلسى ، المولى على البلد من قبل إسلامبول ، وقصر العيني معد لاستقباله ، والباشا على لا يصل ، ولا يسمع عنه خير . . .

إلا هذه المكاتبات التى جاءت من الأمراء الذين ذهبوا بصحبة الباشا مشرقيين . فهم يخبرون بموت الباشا بالقرين ! واستيقظت القاهرة على حس المدافع الكثيرة

تضرب بعد العشاء حتى نصف الليل !

يقول الأمراء المصرية في مكاتيبهم : « إن الباشا أراد أن يكبنا بمن معه ليلاً ، وقد عرفنا بأمر ذلك من سائس يعرف بالتركي ، حضر إلينا وأخبرنا بذلك ، فتحذرونا من الباشا ورجاله . فلما كبسونا كنا لهم مستعدين ، ووقعت بيننا محاربة قتل فيها عدة منا ، منهم خازندار محمد بك المنفوخ ، وانجرح محمد بك نفسه جرحاً بليغاً . أما الباشا فأصيب من غير قصد ، والليل ليس له صاحب ، فقضى نحبه ، وكان ذلك مقدوراً ، وفي الكتاب مسطوراً . وإنكم ترسلون لنا أماناً بالحضور إلى مصر . . . وإلا ذهبنا إلى الصعيد . »

وهذا كذب مصنى ! فإن الباشا لم يعد يملك حلاً ولا عقداً . . . ولا كبساً . لم يكن يصحبه من رجاله غير خمسة وأربعين ، وجميعهم محصورون بين عساكر المغاربة من أمام ، والأمراء المصاروة من خلف . فلما وصلوا إلى القرين نزلوا هناك ورتبوا مع المغاربة ترتيباً ، مقتضاه أن يعمل المغاربة مع الخدم مشاجرة ، تتجسم وتعظم ، حتى يتضارب الجميع بالسلاح . . . .

وتم تنفيذ التدبير في جنح الليل — والليل ليس له صاحب كما قال هؤلاء السفاحون ! — وقامت الأجناد المصرية من خلف الباشا يضربون ، بينما المغاربة يتضاربون مع الخدم من قدام ، فصار الباشا ، ورجاله الخمسة والأربعون ، محصورين في الوسط ، والضرب نازل ، وقد التحموا عليهم بالقتال . ففر من أتباعه أربعة عشر نفساً إلى الوادي ، وثلاثة عشر رموا بأنفسهم — من حلاوة الروح — في ساقية قريبة . أما الباشا فضربه أحد المماليك بقرايسته ، وقتل معه باقي الثمانية عشر نفساً .

سقط على باشا الطرابلسي وبه رمق ، ورأى أميراً مصرياً فقال له : « في عرضك يا فلان ! إن معي بداخل هذا الخرج كفن ، أستحلفك أن تكفني به ، وأن تدفني ، ولا تتركني مرمياً ! » . وأعطى الأمير المصري بعض العرب دنائير والكفن ، وقال له : « اذهب إلى مكان الموقعة ، وخذ الباشا وكفنه وادفنه في تربة » . فقال العربي : « أنا لا أعرفه » ، أجابه الأمير : « ستعرفه فإن له حية عظيمة من دون من قتل حوله » ، ففعل الأعرابي .

. . .

هذا ما كان من أمر مصرع الباشا الطرابلسي ، وفي مقتله صورة من جبروت  
الأمراء المصرية .

ولم يكن على باشا خيراً من قتلته ، فقد رد كيده إلى نحره ، وكان ذلك من  
وبال فعله ، وسوء سريرته . وما أثر عنه أن قال وهو بالإسكندرية : « إن بلغت  
مرادى من الأمراء المصاروة وظفرت بهم ، أبحت لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام » .  
وكان طول حياته فاسقاً ظالماً ، صادر الناس في أموالهم وبضائعهم ، ورذال أهل  
العلم وأهائهم ، فقد كان يسمى الشيخ محمد المسيرى بالزور ، لأنه رفض أن  
يوقع على عريضته ، التي حاول أن يدلس فيها على الدولة ويزور خبر مقتله  
الإفرنج . وكان إذا دخل الشيخة عليه ، ظل جالساً ، بل اتكأ ومد رجله في وجوههم .  
وقبل مجيئه إلى مصر ، كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، وأرسله سيده  
برسالة إلى حسين قبطان باشا بالأستانة ، فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس الغرب .  
وقد استولى على طرابلس ، وأباحها لمسكره ، ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرلكية ،  
نهباً وهدماً للنساء وسبياً للحریم ، وفرد على أهل البلد الفرد ، فثار الناس عليه ،  
ونزل إلى المركب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين  
من أولاد الأعيان ، وهرب إلى الإسكندرية ثم إلى مصر . والتجأ إلى مراد بك  
فاكرمه وأنزله منزلاً حسناً عنده بالجيزة . ثم حج بعد ذلك ، وراه الحجاج الطرابلسي  
بالحجاز ، وصحبته الغلامان الجميلان . فذهبوا إلى أمير الحج الشامي - لسبب  
بسيط هو أن الطرابلسي كان في حماية أمير الحج المصري - وعرفوه عنه ،  
وعن الغلامين وما يفعل بهما . فأرسل معهم جماعة من أتباعه في حصّة مهمة ،  
وكبسوا عليه ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين . فسبه الطرابلسي ولعنوه ، ونشقوا لحيته  
العظيمة وشواربه الشقراء ، وضربوه بالسلاح ، فجرحوه جرحاً بالغاً وأهانوه ،  
وأخذوا منه الغلامين .

وعاد إلى مصر وأقام في منزله عند مراد بك زيادة عن ست سنوات . ولما  
حضر الفرنسيين ، قاتل مع الأمراء ، وتغرب معهم في قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل  
عنهم وذهب خلف الجبل وسار إلى الشام ، ومنها إلى إسماعيل ، حيث طلب  
ولاية مصر ونالها .

وقد أراد أن يدبر أمراً للمصاروة ، ويصطاد العقاب بالغراب ، فلم تنفعه  
التدابير ، ولم تسعفه المقادير ، فكان كالباحث عن حشفه بظلفه ، والجنادع بيده  
مارن أنفه .

ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة .



## زبانية عتاة

وردت في فصل سابق كلمة عابرة تستأهل مني الرد على نفسي وأنا أقول :  
« ولا يعنينا أمر أولئك الأمراء الجراكسة وأجنادهم » . أحقاً أن أمر الأمراء الجراكسة  
لا يعنيني ؟ وهل لا يعنيني أيضاً أمر المماليك البحرية قبلهم ؟  
فلنحاول أن نكون صادقين مع أنفسنا ، ونسأل هذا السؤال : متى شعرت ،  
وأنا أطلع التاريخ المصري ، بأنني أعيش بين عشيرتي وبني وطني من أهل القرون  
الغابرة ؟ حدث هذا وأنا أطلع التاريخ المملوكي ، ثم ما تلاه بطبيعة الحال . فهما  
كان فهمي وإحساسي بحضارة أجدادي القراعة ، وجهاد أسلافي المسيحيين ،  
ومهما كان إدراكي لمعنى دخول مصر في حوزة الإسلام ، فلما لم أحس إحساساً  
عميقاً بحدوث تاريخي بقدر ما أشعرتني به التاريخ المملوكي . ولا أعرف ماذا يكون  
إحساس مواطني من أهل الصعيد أو الوجه البحري ، ولا إحساس مواطني القبط ،  
ولمّا أنا معبر عن نفسي كقاهري مسلم ، من أسرة قاهرية حتى القرن السابع  
عشر على الأقل ، ولدت في أحياء القاهرة التي نسجها المعزية نسبة إلى من أشار  
بينائها ، ولم يبق من آثار منشئها سوى القليل من القاهرة القديمة ، التي نشأت  
في حاراتها ، هي القاهرة المملوكية ، والطابع الغالب على آثارها هو الطابع  
المملوكي . ثمة بقايا طولونية وفاطمية وأيوبية وعثمانية ، ولكن جو القاهرة الذي  
غمرتني في طفولتي ، أحسست به وأنا أطلع تاريخ المماليك ، والحياة التي تجيش  
بها صفحات الشيخ تقي الدين وأبي المحاسن والسيوطي وابن إياس هي حياتي .  
لأول مرة شعرت حقاً بأنني أعيش بين عشيرتي وبني وطني من أهل القرون الغابرة .  
وأعود إلى مذكراتي لإعداد هذا الكتاب فأطالع : « أما الغز فلم آسف على  
سقوطهم ، لأنه غير كاف في الحكم على هذه الفئة أن نذكر محاسن الممتازين  
من سلاطينها وأمرائها ، من أمثال سيف الدين البندقداري ، والناصر محمد ،  
وبرقوق ، وقايتباي . ولن أنخدع بآثارهم الجميلة ، ولا بإصلاحاتهم ،

ولا بانتصاراتهم ، لأن هذه الطغمة كانت في مجموعها داعة سفاحة نهاية ، ولأن مجموع سلاطينها ، على الرغم مما حققوه للديار المصرية من مؤدد ، وما أنشئوه من جوامع ومدارس وخواتق ، لا يمكن أن يفلتوا من لعنة الأجيال على أولئك المستنزفين لدماء الشعب وماله ، المذلين له ، الحريصين على مماليتهم الجلابان والخاصكية والحشداشية والقرانصة ، يقطعونهم الإقطاعات ويفرقون عليهم المغل والرزق والجماكي ، وكأنهم ورثوا مصر بوثيقة شرعية . »

ويروقني حديث الرحالة « قولنيه » ، ذلك الرجل ابن الإنسكلوبيديين والقرن الثامن عشر ، وهو يعلق على ما سمعه من امتداح الجاليات الأجنبية في مصر لعل ييك الكبير ، شيخ البلد المملوكي ، الذي استقل بحكم مصر عن الباب العالي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان البروفة الأولى لمحمد علي باشا ، قال : « ولا أستطيع السكوت على ملاحظة سمعتها بالقاهرة ، على لسان التجار الأوربيين ، الذين عرفوا حكم علي ييك حتى نهايته ، وهم يشنون على حسن إدارته ، وحرصه على العدالة ، وحده على الإفرنج ! » فقد كانوا يتعجبون من أن الشعب المصري لا يبدى أسفاً على زوال حكمه ، ويتخلون من موقف هذا الشعب ذريعة للحكم عليه بنكران الجميل ، وعدم الثبات على مبدأ .

« ولكن من يتعمق البحث ، يتضح له أن ليس في الأمر غرابة كما يبدو . ففي مصر كما في كل البلاد ، ينهض حكم الشعب على مقدار ما يحصل عليه من غذاء وكساء ، وعما إذا كان حاكمه ييسر له أموره ، فيتعلق به ويؤازره ، أو لا ييسرها فيكرمه وينحى عليه باللائمة . وهذا سبيل في الحكم لا يمكن الطعن فيه بالتبجيز أو قصر النظر ، فن العيب أن يتحدث الحكام إلى الشعب بالفاظ عزة الوطن ومجده ، وبأن تشجيع التجارة والفنون والصناعات يقتضى هذا أو ذاك من التضحيات ، لأن لقمة العيش يجب أن تسبق كل شيء ، وعندما لا يجد الناس الخبز ، فإن من حقهم أن لا يعترفوا بجميل ، ولا أن يظهروا الإعجاب . ماذا يهم المصريين أن يتغلب علي ييك على ثورة الصعيد ، وعلى بلاد الحرمين ، وعلى سورية ، إذا لم تعد عليه تلك الفتوحات بالإسعاد ؟ بل على العكس ، زادت من شقائه ! لأن تكاليف تلك الحملات أثقلت من أعبائه . إن التجربة على

الأراضي المقدمة وحدها تكلفت ستة وعشرين مليوناً من الفرنكات ، وخروج  
الغلال مع أجناد الحملة ، بالإضافة إلى احتكار التجار حركة الغلال ، سببت  
مجاعة طاحنة ، دامت طوال عامي ١٧٧٠ و ١٧٧١ . فهل أخطأ القاهريون  
والفلاحون ، الذين يموتون من الجوع ، إذا ما استنكروا التجارة مع الهند ، عندما  
لم تعد هذه التجارة بفائدة إلا على فئة المخطوظين ؟ ألم يكن من حق الشعب أن  
ينعى ويكره الترف الذي يسمع لعل بك بدفع خمسة وعشرين ومائتي ألف درهم  
في مقبض خنجر ، ، فيسبح الجواهرجية بحمده ، ويشيدون بكرمه ؟ أما يحق  
للشعب أن يسمى هذا سفهاً ، إذ يعتبره المترلفون حسنة من حسنات على بك ،  
والشعب هو الذي دفع ثمن هذا البذخ والجلود ؟ وهل من الفضائل أن ينثر امرؤ ذهباً  
لم يتكلف مشقة في جمعه ؟ أمن العدالة في شيء أن يعطى ويمنع بحسويه . . .  
على حساب الشعب ؟ فليس بمنكر أن معظم أعمال على بك صدرت عن شهوة  
المطامع الشخصية والغرور ، لا عن مبادئ العدالة والإنسانية ، فلم تكن مصر  
إلا ضيعة له ، ولم يكن أهلها سوى قطيع يتصرف فيه تصرف المالك للأرض  
وما عليها . »

ثم إنني لا أعرف وصفاً للمالك أصدق مما وصفهم به ثاني سلاطينهم عز الدين  
إبيك التركماني ، في كتاب إلى سلطان سلاجقة الروم ، يحمله عن الأمير علم الدين  
سنجر الباشقردى ، زعيم المماليك الجندارية الصالحية ، الذين فروا من وجه  
إبيك ، ولجأوا إلى سلطان السلاجقة ، قال :

« . . . المماليك البحرية قوم مناحيس أطراف ( أى لا يقفون على محبة  
إنسان ) ، لا يقفون عند الإيمان ، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم ؛  
وإن استأمنهم خانوا ، وإن استحلقتهم كذبوا ، وإن رقت بهم غدروا . فتحرز  
منهم على نفسك ، فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك . »  
فاستدعاهم السلطان السلجوقي وسألهم : « يا أمراء ، مالكم ولأستاذكم ؟ »  
فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : « يا مولانا ، من أستاذنا ؟ »  
قال : « الملك المعز ، صاحب مصر . » فقال الباشقردى : « يحفظ الله مولانا  
السلطان ! إن كان المعز قال في كتابه إنه أستاذنا ، فقد أخطأ ؛ إنما هو خشداشنا ،

ونحن ولينا عينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنًا وقدرًا ، وأفرس وأحق بالمملكة ،  
فقتل بعضنا ، وحبس بعضنا ، وغرق بعضنا ، فهربنا منه ، وتشتنا في البلاد ،  
فالتجأنا إليك . »

ومع كل هذا ، ومهما استنكر الإنسان تاريخ الممالك الدموي ، فإنه  
لا يمالك أن يحن إلى لحظات باهرة تدين لهم بها مصر في تاريخها الطويل ، فإن  
دولة كدولة الظاهر بيبرس البندقداري الصالحى ، أو الناصر محمد بن قلاوون ،  
أو الأشرف قايتباى ، لا يمكن إلا أن تثير في نفوسنا الإعجاب ، وغير قليل  
من الزهو ، بأولئك الأجناد المبرزين ، حققوا لمصر إمبراطورية شبيهة بإمبراطورية  
أمنمحت الثالث . وكان السلطان المملوكى فرعوناً بكل ما تحوى هذه الكلمة  
من معنى السؤدد والسلطان . وكانت أمور الدولة المملوكية مرتبة منظمة ، وتقاليدها  
راسخة . وهذا ديوان رسائلها شاهد على كثير من هذه النظم . والشعب المصرى  
يستقى ظلال هذا النظام فى زراعته وتجارته وصناعاته وفنونه . وللجد وقت وللعيش  
واللهو أوقات ، سواء فى الأعياد القومية الكبرى ، كعبر الخليج ، أو الأعياد  
الدينية ، وأهمها طلعة الحج وعودته ، ومولد النبي .

وكانت متزهات القاهرة واسعة منتشرة ، تنعكس فيها أفراح الناس على صفحات  
الماء الذى يملأ فى الفيضان منخفضات الأزيكية وبركة القيل وبركة الناصرية  
وبركة الرطلى والخليج الحاكى الناصرى ، وتسير سفن اللهو والزهوة ، تמיד بالمطربين  
والآلاتية والمغاني ، وتتألق بأتوار الفوانيس تزين بها صواري المراكب ، أو تعلق  
على أبواب القواطين ، وتتبدل من الطيقان .

لا تمالك النفس الشاعرة أن تحس بما كان لهذا العصر من أبهة وفخامة وبهاء ،  
بملايس السلطان وأسلحته ، وركبته المزركشة ، والقبة تحمل على رأسه والطير ،  
والأمراء حوله يلعبون بالفاشية ، وأمامه الركبدارية ، يسبقهم الخليفة ، ويسير  
خلف السلطان الركبدارية ، والقضاة الأربعة ، وأتابك العسكر ، فنائب الغيبة  
وأمر أخور والدوادار والوزراء ومقدمو الألوف فأمراء المائة فأمراء الطبليخانات ،  
فأمراء العشروات ، وسائر الممالك ، فى أرويتهم القصفاضة البراقة ، وعلى رأسهم  
الكلوتات والقواويق ، يمتطون أصائل الخيل .

وما أكثر المناسبات التي كانت تُشيعُ لأهل القاهرة رؤية المواكب الملوثة  
الوضاءة اللامعة : في طلعة الحج وعودته ، وفي خروج السلطان وجيشه في  
التجريدات ، وقد علق الجاليش بالعرضي في الريدانية ، وعند بركة الحبش ،  
وفي عودة السلطان من سرحاته للصيد والقتص ، أو في ذهابه إلى ملاعبه ببر  
الجيزة وإنابة .

وحياة القاهرة الصاخبة بالنهار ، المضيئة بالليل ، حول حلقات الذكر ،  
أو جماعات المستمعين للشاعر ، المتحلقين حول المحبطين والمفرلكنين ، يشاهدون  
التشخيص ، أو أمام الشاشة البيضاء في الظلام يتابعون أشخاص خيال الظل ،  
أو حول البهلوانات يرقصون على الخيل ، أو ملاعبي القردة والحواة والمشعوذين .  
حتى لحظات الاضطراب ، لم تكن تخلو من رومانتيكية إذا استوحيناها  
على البعد ، عندما ترمع فرسان الممالك من هنا وهناك في كنيكة وصليل وصهيل ،  
وعندما تدق الكوسات جريئاً من القلعة ، ويجمع الأمراء الخامرون على السلطان  
في ميدان الرميّة أو بسوق الخيل ، ويتأهب السلطان بالقلعة للمقاومة ، ومعه  
بمالك الطباقي قرانصة وجلباناً . وتركب المكاحل على أسوار قلعة الخيل ، فتواجهها  
مكاحل المتآمرين ، ركبت على سطح مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل ،  
وتتبادل إطلاق القنابر . وعندما ينقض فريق منتصب على منازل الفريق المخلوب ،  
فيهبها ويسبي تسامها ويسطو على عبيدها وسرايها ، أو عندما يقبضون على الممالك  
المارين ، وقد تنكروا في لباس العرب ، زنوط قرع ، واختبثوا في مساق الترب .  
ويأوى أهل القاهرة إلى بيوتهم وأرباعهم ، ويقفلون أبواب دروبهم وحاراتهم ،  
بعد أن يخلوا متاجرهم ، وينقلوا متاعهم إلى الجواصل والمخاي ، منتظرين مرور  
العاصفة بسلام .

أقول إن استيعاء هذه اللحظات الحرجة على البعد ، قد يحرك بعض الجنين  
إلى هذا اللون من الحياة الرومانتيكية يقصى عنها الركود والملال والسأم .

لا شك أن القاهرة كانت شديدة القذارة ، مرتفعة العثير ، وأن كلابها  
السائمة كانت كثيرة ، والأوخام والطواعين كانت متقاربة الوقوع . وكانت روائح  
القاهرة العفنة بحاجة إلى حرق الكثير من البخور ، والتطيب بالأعطار . وإلا فكيف



يمكن تصور تلك الرؤوس المقطوعة تعلق بالأسبله والأسوار والأبواب ، وتلك الرمم  
الموسطة أو المكلبة أو المصلوبة أو المشنوقة تترك أياماً في عرض الطرقات أمام الرائح  
والغادى ، ويقول عنها المؤرخ في برود عجيب : « وبقيت رمته بلا رأس ثلاثة  
أيام ، وقد جافت وولغت فيها الكلاب » ؟ كيف يمكن تصور هذا في جو القاهرة  
الحار سبعة أشهر في العام ، دون التيقن بأن أنوف أجدادنا زكمتها روائح القمامة  
والعفونة والجيف في كل مكان ؟

نحن مع ذلك أقرب إلى التجاوز عن السيئات ، لنذكر حسنات منشىء  
الخوائق والمدارس والجوامع والبيمارستانات ، الأمرين بنسخ ألحتم المذهبة — أرايت  
مصحف السلطان شعبان ؟ — الموقفين الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ،  
ومساقى الحيوان ومستشفياته ، القوامين على صناعات جميلة متقنة ، سواء في البرد  
والطرز ، أو على النحاس المكفت بالفضة ، أو الفضة المكفتة بالذهب ، والأبنوس  
المطعم بالعاج ، وخشب الورد المطعم بالأبنوس ، أو صناعة الخراطين للمشريات  
والمنابر ، والزجاجين للمشاكى والمبناء والقسيفساء .

أولئك السلاطين يحكمون إمبراطورية امتدت حتى نهر الفرات وجبال طوروس  
شمالاً ، وحتى بر اليمن وحضرموت والنوبة جنوباً ، وحتى آخر بلاد برقة غرباً ،  
وعلى امتداد شاطئ البحر الأبيض من برقة غرباً حتى خليج الإسكندرونة ، إلى  
الشمال الغربى .

تلك الدولة المنيعة ، التى وطد دعائمها وأوسع فى رقعتها وصد عنها الصليبيين  
والتتار ، خليط عجيب من الناس ، نشأوا فى دهاس آسيا الوسطى ، وحول بحر  
قزوين ، وفى بلاد القوقاز ، ووادى نهر الفولجا والدون ، وضاف بحر البلطيق ،  
وبيعوا أطفالاً فى أسواق النخاسة ، وانتهوا إلى خانات الشرق الأدنى ، وخان مسرور  
بالقاهرة ، لا ليكونوا خداماً وعبيداً ، بل ليربوا تربية قوية جداً : تبدأ بالقراءة  
والكتابة وبعض الحساب ، وحفظ القرآن والتشقق بأداب الشريعة ، وملازمة  
الفروض ، فإذا قاربوا سن البلوغ أخذوا فى تعلم فن الحرب : من اللعب بالنشاب  
وركوب الخيل ، إلى الضرب بالسيف والطبر والتمجاة ، والصيد والكر والفر .  
ليتنظموا فى سلك جيش عظيم ، يسمح للأفذاذ منهم ببلوغ أرقى مراتب الدولة ،

حتى عرش السلطنة المصرية .

دولة دامت أربعة قرون عزيزة الجانب ، يخطب ودها الديلم والفرس والتتار والسلاجقة والروم والبنادقة والأماقيون والجنوبيون وسائر الفرنجة ، تحيا في حدود نظم ومراسيم ثابتة ، إلا فيما يختص بولاية السلطنة ، فلم تنجح دولة المماليك الأولى ولا الثانية في أن تضع نظاماً ثابتاً لوراثة السلطنة . ولا يغرنك أن يتسلطن أبناء قلاوون وأحفاده ، أو محاولة بيبرس تولية أولاده ، فإن أغلب أولئك السلاطين أبناء السلاطين كانوا أطفالاً وأحداثاً وغلماناً ، يرى فيهم الأتابكيون وسيلة ميسرة للحكم ، وسليماً يقفزون منه إلى دسست السلطنة .

لقد بدأنا رحلتنا عبر التاريخ المصري بمأساة انهيار السلطنة المملوكية تحت ضربات العثمانيين ، وتابعتهم بعض الطريق في أول عهد الاحتلال العثماني ، ويجدر بنا أن نتابع الآن هذه الطغمة الرائعة حتى نهايتها .

• • •

لم تكن المصائب لتأتي فرادى ، فإن ضربة سليم القاضية إنما جاءت في أعقاب نازلة اقتصادية عنيفة أصابت مصر في أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت حتى العصور الحديثة ، وربما حتى افتتاح قناة السويس .

فمصر ، التي تتوسط ثلاث قارات ، كانت معبراً من أعظم معاير التجارة العالمية ، وطريقاً من أهم طرق مبادلة المنافع والسلع ، وكانت دولة المماليك تتحكم في أسواق الشرق والغرب ، يخطب الغرب ودها ما دامت أوروبا في حاجة إلى الطيب والأعطار والأفاويه والحريير والكتان والجلود والغضار الصيني والأخشاب والمعادن .

ولكن تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر بدأت تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن اقتحم البرتغالي فاسكو دا جاما بحر الظلمات إلى البحر الشرق الكبير ، مستديراً حول الطرف الجنوبي للقارة المظلمة ، بالغاً ما ليندى على الشاطئ الشرقى لأفريقيا ، ثم عابراً المحيط الهندي شرقاً إلى قليقوط في بر الهند .

آذن هذا الكشف بصعود نجم البرتغاليين في الشرق ، ونجم مصر المثلث في كبد السماء انحدر إلى الأفول .

وكان ثراء مصر جديراً بأن يجعلها تتلقى الضربة البرتغالية برأس مرفوع ،

ولو استطاع المماليك الجراكسة أن يخففوا من بذخهم ، وأن يمدنوا أرجلهم على قدر  
أحفهم الجديدة ، لتمكنوا من الاستعداد لتلقى الضربة تصيبهم من الشمال على يد  
الخنكار سليم بن بايزيد آل عثمان .

أما عن المصريين فإني لا أعرف أن قد ارتفع لهم سعر أو انخفض بزوال  
دولة المماليك . ذل بذل تداولوه على أيدي الهكسوس والآشوريين والفرس والمقدونيين  
والرومان والعرب والأكراد والفرغانيين والغز ، وسيواصلون تحمل نير العثمانيين ،  
فالمماليك من جديد ، فالفرنسيين ، فالأرثوذ ، فالمرابن الأوروبيين ، فشركة  
قناة السويس ، فالإنجليز فالباشوات المصريين .

لن يجد المصريون في حكم الولاة العثمانيين سوى الإمعان في نهبهم وسلب أقاتهم  
وكرامتهم ، حتى لينحرم عليهم صنع رغيف الخنطة التي تعبوا في إعداد الأرض لها ،  
وبذرها ورزها وجمعها وحصدتها ، فالأوامر أن تسلم الغلال رأساً إلى الكشاف  
والملتزمين .

سوف يهرب الفلاحون من قراهم — للمرة كم ! لا أدري — أمام جباة الضرائب  
ومقارعهم وقلقاتهم وسياطهم ، فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة ..  
إن لم يكن أهلها هم أيضاً هاجروا .

ماذا يعني المصريون أن يعود المماليك إلى سابق عزمهم ، وأن يصبحوا من ذوي  
الحول والطول ، بعد أن يعجب بهم سليمان القانوني في معسكره أمام رودس ،  
وينعى على والده سليم أن أراد يوماً قطع دابرهم ؟

سيعود المماليك إلى ما يقرب من سطوتهم القديمة ، وستحول وجاقات  
العثمانيين إلى وجاقات مختلطة منهم ومن المماليك ، وسيول مشيخة البلد ، وإمارة  
الحج ، مماليك يبططون الباشا إلى صورة فوق الحائط ، أو يسمحون له بأن يندس  
بينهم لصاً من لصوص منسهم .

ولن يجدى المصريون استقلال على بيك الكبير عن اسطنبول ، ولا تغلب  
مملوكه محمد بك أبو الذهب عليه . ولقد طالعنا في أول هذا الفصل ما قاله فولنيه  
تعليفاً على عهد هذا السلطان المملوكي الصغير .

وأحب أن أنقل لك من تراجم الجبرتي ترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد

من المصريين ، وأقابلها بترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من أمراء المماليك ؛  
وستجد أن جميع تراجم الجبرتي ، باستثناء طفيف ، تتخذ صورة شبه واحدة  
للمصريين ، هي الصورة التي نقدمها للشيخ الحفناوي ، وصورة واحدة للمماليك  
هي ما نراه في ترجمة إيواظ بك :

« ومات الشيخ الإمام ، العلامة الهمام ، أوجد أهل زمانه في العلم والعمل ،  
ومن أدرك ما لم يدركه الأول ، المشهود له بالكمال والتحقيق ، والمجمع على تقدمه  
في كل فريق ، شمس الملة والدين ، محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلوقي ،  
وينتهي نسبه من ناحية أم أبيه إلى الإمام الحسين . ولد على رأس المائة ببلدة حفنا  
بالقصر ، قرية من أعمال بلبيس . . . ( ويسرد الجبرتي هنا قائمة مطالعته ومذاكراته  
ودراساته ، من حفظ القرآن إلى حفظ المتن ) . . . واجتهد ولازم دروسهم حتى  
تمهر وأقرأ ودرس وأفاد في حياته أشياخه ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأقرأ  
الكتب الدقيقة ، كالأشموقي وجمع الجوامع والمنهج ومختصر أسعد ، وغير ذلك  
من كتب الفقه والمنطق والحديث والكلام . وأشياخه الذين أخذ عنهم وتخرج  
عليهم : أحمد الخليقي ، الشيخ محمد الديري ، عبد الرؤوف البشيشي ، أحمد  
الملوي ، أحمد الشجاع ، عبد الله الديوي ، محمد الصغير ، البديوي ، النعياطي . . .  
وكان إذ ذاك في شدة من ضيق العيش والنفقة ، فاشتري دواة وأقلاماً وأوراقاً ،  
واشتغل بنسخ الكتب ، فشق عليه ذلك خوفاً من انقطاعه عن العلم . . . وذهب  
الشيخ إلى البيت ، وكسر الأقلام والدواة . . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ،  
وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره وطبقته ومن دونهم . . .  
ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء . . . فن تأليفه المشهورة : حاشية  
على شرح الشنشوري في القرائض ، وشرح الحمزية لابن حجر إلخ . . . وكان  
كريم الطبع جداً ، وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، جميل السجايا ، مهيب  
الشكل ، عظيم اللحية أبيضها ، كأن على وجهه قنديل من النور ، وكان كريم  
العين على إحداهما نقطة ، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك بحلالتة ومهابته ، وكان  
في الحلم على جانب عظيم ؛ جاءه تلميذ له ينشد موالا من تأليفه :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار  
والعيش الابيض تحبسه ؟ قلت والاكشكار

قالوا تحب المطبق ؟ قلت بالقنطار

قالوا اش تقول في الحضاري ؟ قلت عقلي طار

فضحك الشيخ الحفناوي وقال مماًزحاً : أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما :  
قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمسلي والبيض مشوي تحبه ؟ قلت والمقلي

• • •

في مقابل هذه الإنسانية السمحاء ، اسمع تراجم الممالك أو العثمانيين :  
« مات الأمير الكبير المقدم إيواظ بيك والد الأمير إسماعيل بيك ، وأصل  
اسمه عوض ، فحرفت بأعوجاج التركية إلى إيواظ ، فإن اللغة التركية ليس فيها  
الضاد ، وهو جركسي الجنس ، قاسمى تابع مراد بيك الدفتردار القاسمى ، ومراد بيك  
ابن رضوان بيك أبى الشوارب . . . ثم وقع الاتفاق على إخراج تجريدة ، وأميرها  
إيواظ بك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات . . . وخرج بموكب عظيم وتوجه إلى  
قبلى . . . واتفقوا على إمداده بخمسة من الأمراء الصناجق وهم أيوب بيك ،  
وإسماعيل بيك الدفتردار ، وإبراهيم بيك أبو شنب ( وما أعرفش مين بيك بارم ديله ،  
والأمير الملقب بـ « صنجق سينه » لأنه حصل على الثراء من زوجته ، وسليمان بيك  
قيطاس ، وأحمد بيك ياقوت زاده وأغوات الإصباحية ) . . . فورد الخبر أن  
إيواظ بيك تحارب مع العربان وهزمهم . . . وفي شوال نزلت جماعة من العربان  
بكرداسة ، فكبسهم ذو الفقار كاشف الخيزة ، وقتل منهم أربعة وأربعين رجلاً  
وطلع برءوسهم إلى الديوان . . . فتبعهم عبد الرحمن بيك ومن معه من الكشاف  
فأثخنوهم قتلاً ونهباً ، وأخلوا منهم ألفاً وسبعمائة جمل بأحبالها . . . وحضر  
إيواظ بيك إلى مصر ، ودخل في موكب عظيم ، والرءوس محمولة معه ، وطلعوا  
إلى القلعة ، ونخلع عليه الباشا ، وعلى أستاذاره الخلع السنية . . .  
« وقتل إيواظ بيك في تلك السنة في الفتنة ، وذلك أنه لما اشتدت الفتنة بين



العزب والينكجيرية . . . وبعد أمور وحروب ، وقعت أمور ، يطول شرحها ، مشهورة ، من قتل ونهب وخراب أماكن . . . وقعت حروب عظيمة بين الفريقين عدة أيام . . . وصار قانصوه بيك يرسل بيورلديات وتنابيه . . . فعندما وصل إليه البيورلدى ، قام وقعد واحتد ، واشتد بينهم الجلال والقتال ، واجتمع الأمراء والصناجق والأغوات عند قائمقام قانصوه بيك ، ورتبوا أمورهم ، وذهبت طائفة لمحاربة منزل أيوب بيك ، إلى أن ملكوه بعد دقائق ونهبوه . . . وانتهت بيوت الخارجين ، وبيت محمد بيك الكبير ، وأحمد جوريجى القنبيل . . . فوصل الخبر إلى إيواظ بيك ورمح خلفهم . وكان محمد بيك أجلس جماعة سجمانية بأعلى السواقى ، لمنع من يطرد خلفهم عند الانهزام ، فرؤوا عليهم رصاصاً ، فأصيب إيواظ بيك ، وسقط على جواده ، وحصل بعد ذلك ما حصل من الحروب ، ونصرة القاسمية والعزب ، وهروب المذكورين ، وعزل الباشا ، ودفن إيواظ بيك بتربة أبى الشوارب . . .

وتأمل قصة المذبحة الأولى للعماليك ، وقد نسبت إلى الباشا العثمانى حمزة : « وقيل إنها من على بيك الذى بالنوصات (وهو على بيك الكبير ، بروقة محمد على باشا) . . . فى ثانى شهر شوال من سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ركب الأمراء إلى قره ميدان ليهتوا الباشا بالعيد ، وكان معتاد الرزم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الضحى من يوم العيد ، وكذلك أرباب العكاكيز ، يتطلقون إلى القلعة ، ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر ، فيصلون صلاة العيد ، ويرجعون كذلك ، ثم يقبلون أنكه ويهتونه ويتزلون إلى بيوتهم فيبقى بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم ، ويتزل الباشا فى ثانى يوم إلى الكشك بقره ميدان ، وقد هيتت مجالسه بالفرش والمساند والستور ، واستعد فراشو الباشا بالتطلى والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ، ورتبوا جميع الاحتياطات واللازم من الليل ، واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون ، وجلس الباشا بذلك الكشك ، وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ، ثم يأتى الدفردار وأمير الحج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجيرية والعزب أصحاب الوقت والمقدام والأوده باشية واليتمات والبحريجية فيهتتون الباشا ويعيدون عليه ، على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ، ثم ينصرفون . فلما حضروا فى ذلك اليوم ، وهنا الأمراء الصناجق

الباشا ، وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون التزول ، وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم ، وضربوا عليهم ببنادق ، فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بسيف في وجهه ، وحسين بيك كشكش أصيب برصاصة تفلت من شقه ، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم ، واحتاط بهم مماليكهم ، ونط أكثرهم من حائط البستان من الجهة الأخرى ، وركبوا خيولهم ، وهم لا يصدقون بالنجاة ، وأركبوا عثمان بيك حصانه ، وهو يقول : باب العزب ، باب العزب ، وقد قطع السيف وجهه وخنكه ، وذهبوا إلى باب العزب ، وأنزلوه ، فكث هنية ومات ، فشالوه إلى بيته وغسلوه وكفنوه . وانجرح أيضاً إسماعيل بيك أبو مدفع ، ومحمود بيك ، وقاسم أغا ، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بيك .

• • •

افتح التراجم عند أية صفحة : العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين ؛ والحرب والضرب والغدر والقتل والهبب والعودة بالرعوس المقطوعة والجلود المحشوة بئس ، تجدها دائماً في تراجم المماليك والعثمانيين .

ولا تحسبن أن الفريقين يعيشان في عزلة تامة بعضهما عن البعض ، فهذا الشيخ الحفناوى ، الذى يحب المدمس بالمسلى ، والبيض المشوى والمقل ، يتداخل بين المتحاريين ، ويحاول منع تجريدة سارى عسكريها حسين بيك كشكش ، يسير إلى الصعيد لمحاربة على بيك الكبير : « يتكلم الحفناوى فى المجلس ، ويفحهم بالكلام ، ويمانع فى ذلك ويقول : أخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال . وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد . على بيك هذا رجل أخوكم وخشداشكم ، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم ، وأرحتم أنفسكم والناس . وأرسل الشيخ مكتوباً لعلى بيك وبخه فيه وزجره ، ونصحه ووعظه . . . ولم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياماً ، ومرض ورمى بالدم ، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ، ليتمكنوا من أغراضهم . »

• • •

« وذهب حسين بيك كشكش ومماليكه إلى طندتا وكرنكوا بها ، وبعد قتال عنيف ، يؤمن محمد بيك أبو الذهب الجماعة ، ثم يقتل منهم حسين بيك كشكش وخليل بيك السكران ، ثم حسن بيك شبكة ، ويستأمن خليل بيك ومن معه فى

ضريح السيد البدوي ، ثم ينفون إلى إسكندرية ، وهناك يخنق خليل بيك ، ومن معه . . . وتعود تجريدة محمد بيك أبو الذهب إلى مصر ، وتدخل من باب النصر ، وأمامها رموس القتلى محمولة في صوان من فضة ، وعدتها ستة : حسين بيك كشكش ، و خليل بيك السكران ، وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك ، وإسماعيل بيك أبو مدفع ، وسليمان أغا الوالي . والخدم ، حاملو الصواني ، يقولون : صلوا على النبي !

تلك هي الصورة الحقة لتاريخ مصر في عهد المماليك والعثمانيين : المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة ، والأجانب قطاع طرق سلايون نهابون . المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع ، بالفن والصناعة والفكر والعلم ، وغزاتهم الأجانب عنايتهم جمع الأموال ، وضرب السكة فيما فيه فائدة الولاة والأمراء ، والفن حول السلطة والنفوذ ، والاستيلاء على الأرض .

ما أبدعها صورة للمقابلة بين المصري وحكامه الأجانب : ترجمة الشيخ الحفناوي في مقابل ترجمة إيواظ بيك !

• • •

ولقد ظننتي بلغت أسفل سفلين إيان الحكم العثماني والسطو المملوكي وأنا أطلع الجبرتي ، سئمت نفسي وعافت أخبار القاسمية والفقارية ، وعلى بيك القازدوطل ، ومحمد بيك بارم ديله ، وإبراهيم بيك منجق سينه . وحسبت أن بونابرت وجنود الجمهورية الأولى قضوا نهائياً على أولئك الطغام ، فإذا الطغام غول كاهيدرا ، ما تقطع رأسها إلا ويثبت مكانها رأسان . فما إن عادت أجناد العثمانية ، بظاهرم البريطانيون جيشاً وأسطولا ، حتى بليت مصر بألوان جديدة من الطغام والظلمة . ولعلك تذكر أن من بين فرق الجيش العثماني ، الذي حرر مصر من الفرنسيين ، شردمة من الأرثوذ يقودها ضابط برتبة سرششمه ( أي بنياشي ) ، اسمه محمد علي ، جاءت من الروملي لتؤكد لشعب مصر أن ما ذاقوه من هول وإذلال وتقتيل لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأن الوجاقات السبعة الكرام كانت البرد والسلام بالقياس إلى وجاق الأرثوذ هذا .

وسيعود الباشوات بفرماناتهم ويولدياتهم ، وسيحمل أحدهم للمصريين هدية تهدي ، وبشرى بالحكم الصالح : طغمة الدلاة ذوى الطراطير السوداء ، جماعة من الأبالسة سابت من جهنم ، شرذمة جمعت ، فأوعت ، من خثالات المتأولة والأكراد ، ومن مناسر القتلة وقطاع الطرق ، ومن كل عات فاسق لفظته مجتمعات الشرق الأدنى ، التي لم تكن هي ذاتها نماذج باهرة للفضائل ! وإنى أعتذر هنا إذ أنخم على ذلة الشعب المصرى بأنكى وأفزع الوصمات . فأمر هؤلاء الدلاة لن يقف عند السطو والنهب والسبي والفسق العلقى ، بل سنسمع أن أولئك البلطجية كانوا « يلوطون فى الرجال الاختيارية » . . . . ولعلك تعرف معنى الرجل الاختيار ؟ فهو شيخ جاوز الخمسين أو قارب الستين ، اختلط البياض بسواد لحيته ، وظلمت على جبينه زبيبة الصلاة سمراء من غير سوء ! وتتصادم هذه الخثالات البشرية وتتطاحن ، ويقتلون مقدميهم ورؤساءهم ، بل يستديرون على الباشا الذى جلبهم فيعدمونه الحياة ، قبل أن يرسلهم جام غضب على أعدائه . . . . ومحكوميه .

فى هذا المعترك الجهنمى ، وذلك المول والبنى ، يعيش رجل واحد ، تعلق عيناه بشرار القسوة ، وتتسحرج مقلتاها كأنهما عيون الزط والنور . لاشك فى ذكائه وقدرته على تركيز جهوده نحو هدفه الواحد ، فهو يضع كل ما وهبته الطبيعة من قوة وحيلة ، وكل ما أفاءت عليه البيئة والمنبت ، فى خدمة غرضه الأوحى : ولاية مصر ، ثم الاستقلال بها عن الأمتانة ، كما فعل على بيك الكبير .

مع أنه ، كما يقول الجبرى ، من الأراذل الأصاغر فى دولته ، ممن لا تنتظر لهم ولاية ، حتى من الولايات التى يعين لها حامل طوخ أو طوخين ، بله ولاية مصر التى لا يتقلدها سوى باشا من ذوى الثلاثة أطواخ . هذا الرجل هو تاجر اللخان الألبانى ، الجندى المقامر ، بطل التاريخ المصرى الحديث ، محمد على مرششمه ، على سن ورمح .

الوحيد الذى لم يفقد رشده فى هذا الخضم العفن ، فهو البارد حساً ، يثير الجنود على الباشا آتياً ، وعلى المماليك آتياً آخر ، ويسمى بين المماليك بالوقية ، متمسكاً كل وسائل الإغراء والتهديد .



ولعل أكبر درس تعلمه في المدرسة الوحيدة التي طرق أبوابها — مدرسة شيعة ،  
رب الملاعب — هو طريقة اجتذاب المعتمدين المصريين ، وعلى رأسهم ذلك  
الرجل الطيب أكثر من اللازم ، كبير النفس نبيل المعتقد ، السيد عمر مكرم ،  
نقيب الأشراف بالديار المصرية .

ومهما استغلق الأمر على أغنياء الباب العالي ، فلا أقل من إدراكهم أن صفناً  
واحداً من الرجال يمكنهم أن يركنوا إلى رأيه بمصر — لأنه من جنس لا يصلح  
لرئاسة الجند ولا للولاية — ألا وهو صنف المعتمدين ، فهما كان طلابهم من الدنيا ،  
فلأنهم ، بعد ، رجال صلاح ودين ، ومحمد علي يعرف رجال دولته العلية جيداً ،  
يعرف تهالكهم على المال ، وجريهم وراء الرشوة ، وقبولها مع الغطوسة . ولكنه  
يعلم أيضاً أن فيهم شيئاً من الميل نحو الشيعة المصريين . سيجيء وقت يستطيع  
فيه شراء رجال دولته بذهب المعز ، كما سوف يعرف كيف يشهر على دولته  
في اللحظة المناسبة سيف المعز . أما في الآونة الحاضرة فلا مال عنده يهديه ،  
وهو أحوج ما يكون إلى أن يحميه المعتمدون بولاية مصر على طبق ، فجاموا بها  
إليه في مكبة فاخرة ، حملها إليه الرجل الطيب القلب ، الكريم ابن الكرام ،  
السيد عمر أفندي . وقبل أن تبرد الهدية في صحنها الفاخر ، كان الغادر قد بلغ  
غرضه ، فكافأ نقيب الأشراف . . . بالنقود !

ومحمد علي يصالح المماليك ليؤيهم على الأتني الكثير ، ويستعمل على هذا  
عثمان البرديسي ، ذلك « المتخرق الغشوم » . وكان محمد علي والأتني — على تعدد  
قول محمد علي نفسه — يلعبان على الحبل كيهلوانين . استطاع الهلوان الألباني أن  
يشيط طبخة الهلوان المملوكي بالدس والوقعة ، مستغلاً في ذلك حسد البرديسي ،  
وغيره الأمراء من « عظمة الأتني وتعاظمه » .

وكان الأتني قاب قوسين أو أدنى من تملك مصر ، مستغلاً عن إستبول ،  
بمعونة الإنكليز . فيرسل محمد علي تجريلة عظيمة لمخارية الأتني ، فيها جميع  
عساكر الدلاة — هواة الرجال الاختيارية — وجميع الأرئود ، برئاسة حسن باشا  
ظاهر ، وبها أتراك ومخارية وغير ذلك ، فيكسرهم الأتني شر كسرة .  
ولو حرص أن يطارد المغلوبين لأخرجهم جميعاً من القاهرة على وجوههم . ولكن



مدينة دمنهور امتنعت على الأتلى ، وكان قصده أن يجعل منها معقلاً يقيم فيه حتى تأتية النجدة الإنكليزية الموعودة . كما أن بعض إخوانه ونشداشيه خذلوه ، فاضطر أن يرحل عن البحيرة بجيوشه ، ومن معه من العربان ، حتى وصل إلى الأنحصاص . فنادى محمد على باشا على العساكر بالخروج ، فخرجوا أفواجا بالليل والنهار ، حتى بلغوا ساحل بولاق ، وعدوا إلى بر إنابة ، وجيشوا بظاهرها .

فلما وصل الأتلى إلى كفر حكيم ، وانتشرت جيوشه بالبر الغربي ، فيما بين إنابة والحيزة ، ركب محمد على وعساكره ، ووقفوا على ظهور خيولهم ، واصطففت الرجال بينادقهم وأسلحتهم . ومر الأتلى حيالهم في هيئة عظيمة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على وعرب الهنادى والشرق ، في كبكبة مروعة .

رأى محمد على ذلك فتعجب وأخذ يقول عن الأتلى : « هذا طهماز الزمان والا إيش يكون ! » . ثم يأمر الدلاة والحيالة بالتقدم ، ويرغبهم بالمال الكثير ، فلا يتقدمون . واستمر الأتلى سائراً في جيوشه حتى بلغ إلى قرب قناطر شبرامنت ، فترل على رهوة هناك ، وزاد به الهاجس والقهر .

ماذا حدث ؟ لماذا لم يهجم الأتلى على تلك الأجناد المرتزة فيقتحمها إلى القاهرة ؟ أريدنا الجبرتي أن نفهم بأن عين اللئب الغادر أصابت طهماز الزمان ؟ الواقع أن الأتلى لم يكن متمتعاً بصحة كاملة ، وأنه في ذلك اليوم اتجه ببصره الزائع نحو الضفة الأخرى من النيل ، وهو يرى القاهرة أمامه بمآذنها العديدة ، من قناطر شبرامنت ، وأخذ يقول :

« يا مصر ! أنظري إلى أولادك وهم حولك مشتين متباعدين مشردين . لقد استوطنك أجلاف الترك واليهود ، وأراذل الأتزود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولداتك وحورك » وبرجالك الاختيارية ؟ « ويطمسون على بهجتك ونورك . . . »

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، حتى تحرك به خلط دموى — وقيل أصيب بالكوليرا ، وهذا غير معقول — فتقايأ ذمناً ، وعرف أن قد دنت نهايته ، فقال :

« قضى الأمر ! وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم . »  
ثم جمع مماليكه وأوصاهم بالألفة ، وحذرهم من التفاضل ، ومن مخادعة عدوهم .  
ثم أوصى إذا مات أن يحملوه إلى وادي البهنسا ، ليدفن بجوار قبور الشهداء .  
وهذه الفكرة الإسلامية العميقة تدهشني من أولئك المماليك السفاحين ،  
الذين ولدوا في أرض غير إسلامية : أن يذكر الأتلي العرب الأولين ، وقبور  
من استشهد منهم في قتال جيش عمرو بن العاص ضد دوق الفيوم في وادي  
البهنسا !

ولكن المؤرخين قد اتفقوا على أن المماليك كانوا يجمعون المتناقضات في  
خلقهم . فهم أهل صلاح وتمسك بالفرائض والسنة ، فيما يشبه سلوك المجرمين  
المحترفين في الصعيد ، الذين يصلون العشاء ، ثم يجوسون في الظلام لتفليح زراعة ،  
أو إزهاق روح ، مقابل مبلغ من المال . وقيل بأن أحدهم أخذته الشهامة فقال  
لامرأة فقيرة تطالبه بأخذ ثار : « طيب روحى يا وليه ، حاجتلك لوجه الله ! »

ولا عرف محمد على بموت الأتلي قال : « طابت لي مصر ، وما عدت أحسب  
لغيره حساباً » ، وألبس المبشر فروة سمور ، وأجزل له العطاء ، وأمره أن يركب  
بالحلقة ، ويشق القاهرة ليراه أهل البلد ، ويسمعه معلناً لنهاية الأتلي .

طابت له مصر حقاً ، ولأولاده ، وأعقابيه من بعده ، ولم يعد هو ، أو هم ،  
يحسبون لأخذ حساباً ، إلا للفرنسيين أيام سعيد وإسماعيل ، وللإنجليز منذ عام ١٨٨٢ ،  
حتى جاءتهم ساعة الحساب على أيدي أولاد الفلاحين والصعايدة ، ذات فجر  
من شهر يولييه سنة ١٩٥٢ .

طابت له مصر ، وانقض على المماليك مرتين : كانت الأولى بروفة صغيرة  
لثانية ، عندما دخلوا القاهرة بحجة الاشتراك في موكب جبر الخليج ، فما انحشر  
موكبهم في شارع النحاسين ، حتى انطلق الرصاص يدوى من النواقد والأسطحة  
والقيمان ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى البرقوقية ، وهناك دخل وراءهم  
أجناد محمد على ومسكوكهم وقتلهم .

أما في المرة الثانية ، وهي الأخيرة ، فقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون

لحاربة الوهابيين . ثم عرف كيف يتصيدهم واحداً واحداً في منحدر باب القلعة ، بمطهرهم أرزوده بالرصاص ، ويأخذونهم بالقتل من كل جانب ، فلا هم قادرون على التقدم ، وقد أقفل باب القلعة ، ولا هم يستطيعون التأخر وقد اختلط حابلهم بنابلهم في الممر الضيق .

وفي نفس اليوم كانت أوامره قد صدرت إلى مشاعليته بقتل كل من يجدونه من المماليك في أنحاء البلاد ، حتى تمكن من القضاء على نيف وألف مملوك ، وبينهم أكثر أمراءهم .

ويقال بأن عدد من ذبح بالقلعة كان نحو ثمانين وأربعمائة أمير مملوكي وأتباعهم ، وفي رواية أنهم كانوا أكثر من ذلك ، ماتوا عن آخرهم إلا أمين بيك الذي تسلى السور وهرب إلى الشام .

وكانت تلك نهايتهم كقوة محاربة وكحزب سياسي ، وبذلك حقق محمد علي ما لم يحققه سليم العثماني في مطلع القرن السادس عشر ، ولا بونابارت الكورسيكي في سلخ القرن الثامن عشر .

« طابت لي مصر وما عدت أحسب لغيره حساباً »

وله أن يصبح سوط عذاب وأمس الرزايا ، بليت به مصر ، وسترزاً بأسرته كابرًا عن كابر ، طوال القرن التاسع عشر ، وإلى عامين بعد انتصاف القرن العشرين .

قال الكونت دي سان فريول ، من كبار الزائرين الفرنسيين لمصر ، في خطاب خاص إلى أهله بفرنسا ، يصور حالة البلاد فيما بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٢ [ وتاريخ الخطاب ٤ يولييه سنة ١٨٤٢ ] :

« فرغت مصر طولاً وعرضاً ، وأحسبني مستطيعاً التوكيد بأن الشمس لا تطلع على شقاء أو تعاسة أشد مما يوجد بهذه اللجنة الأرضية . . . ولقد هبط تعداد البلاد بمقدار الخمس ، بفضل نظام في الحكم لحمته استغلال الفرد ، وسداه السطو المنظم » .

وإذا أردت أن تعرف تفاصيل استغلال الفرد ، وبعض هذا السطو المنظم ، فاقراً الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي ، أو طالع ما كتبه الدبلوماسي البريطاني

باتون ، وقد خبر ذلك العهد عن رؤية ومشاهدة .  
مات الأتلي فباض محمد علي وصفر ، واستدار لبقية المماليك ، يقضى  
عليهم بطريقة وحشية لا يمكن تبريرها ، من أية ناحية إنسانية .

• • •

ولقد حانت اللحظة التي نتابع فيها نهاية المماليك بعد المذبحة ؛ لأن من حق  
سلاطين مصر علينا ، من حق شجرة الدر وبيبرس وقلاوون وأبنائه ، وبرقوق  
وقايتباي والغوري وطومان باي ، أن يعرف الجيل الحاضر خاتمة ممالك الصالح  
أيوب ، ومن جاء بعدهم ، الذين حكموا مصر اسماً وفعلاً حتى الغزو العثماني ،  
وفعلاً حتى موت الأتلي ومذبحة القلعة ، أي من عام ١٢٥٠ م حتى عام ١٨١١ م .  
والجبرتي ، الذي تنقل عنه الصور النهائية للمأساة ، كان كارهاً لهؤلاء المماليك  
القتلة الفاسقين . بيد أنه لا ينالك من إبداء الأسف على ما آل إليه حالهم . فهو  
في ذلك ، وفي غيره ، إنسان بكل ما في هذه الكلمة من معنى أخلاقي رفيع قال :  
« وفي منتصف رمضان سنة ١٢٣٢ [ ١٨١٦ م ] وصلوا برمة إبراهيم بيك  
الكبير — زميل مراد بيك — من دنقلة . وذلك أنه لما وصل خبر موته ، استأذنت  
زوجه ، أم ولده ، الباشا في إرسال امرأة تسمى نفيسة لإحضار رمته . فأذن بذلك ،  
وأعطى المتسفرة ، فيما بلغنا ، عشرة أكياس ، وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه  
القبل بالمساعدة . وسافرت ، ونحطرت به في تابوت . وقد جفف جثته على حبله ،  
لنحاته ، وذلك بعد موته بنحو ستة شهور . وعملوا له مشهداً ، وأمامه كفارة ،  
ودفنوه بالقرافة الصغرى عند ابنه مرزوق بيك . »

ولقد سبق ذلك أن حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرية البواقي ،  
في حالة رثة وضعف وضع واحتياج ، وكانوا أرسلوا إلى محمد علي باشا يطلبون  
الأمان . كما حضر بعدهم طائفة من بواقيهم من دنقلة إلى بر الجيزة ، وهم نحو  
الخمسة وعشرين شخصاً ، وملابسهم قمص بيض لا غير ، فأقاموا في خيمة  
يتظرون الإذن .

ويعود الجبرتي إلى تلخيص ما جرى على المماليك من العوادي ، وذلك في نهاية  
ترجمته للأمير إبراهيم بيك عين أعيان أمراء الألوف المصريين :

« عاثوا فساداً إلى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزائرلى عام ١٢٠٠ ، وساعدته  
الرعية ، وخرجوا من المدينة إلى الصعيد ، وانتهكت حرمتهم . ثم رجعوا فى سنة ١٢٠٦  
إلى إمارتهم ودولتهم ، وعادوا إلى حالتهم الأولى وأزيد منها فى التعدى ؛ فأوجب  
ذلك ركوب الفرنساوية عليهم ؛ ولم يزل الحال يتزايد ، والأهوال يتلو بعضها بعضاً ،  
حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية ، وزالت حرمتها بالكلية ، وأدى الحال بالمرجم  
[ إبراهيم بيك ] إلى الخروج والتشتيت والتشريد ، هو ومن بقى من عشيرته ، إلى  
بلاد السودان ، يزرعون الدخن ، ويتقوتون منه ، وملابسهم القمصان التى يلبسها  
الخلافة فى بلادهم ، إلى أن وردت الأخبار بموته فى شهر ربيع الأول من  
سنة ١٢٣١ ..

« وفى أواخر ربيع الثانى من العام نفسه ، حضر شخص يسمى سليم كاشف  
من الأجناد المصرية ، مرسلًا من عند بقاياهم من الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم  
الزمان بكل كلة ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم ، واستوطنهم دنقلة من بلاد  
السودان ، يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن ، وبينهم وبين أقصى الصعيد  
مسافة طويلة ، نحو من أربعين يوماً ، وقد طال عليهم الأمد ، ومات أكثرهم  
ومعظم رؤسائهم . . . . . وبقى ممن لم يموت منهم إبراهيم بيك الكبير ، وعبد الرحمن بيك ،  
تابع عثمان بيك المرادى إلخ . . . . . وبواقى صغار الأمراء والمماليك . وقد كبر سن  
إبراهيم بيك وعجزت قواه ووهن جسمه . فلما طالت عليه الغربة ، أرسلوا هذا  
المرسل بمكاتبة إلى الباشا [ محمد على ] يستعطفونه ، ويسألون فضله ، ويرجون  
مراحمة ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم ، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة إلى  
أية جهة من أراضى مصر يقيمون بها ، ويتعيشون فيها بأقل العيش ، تحت أماته ،  
ويدفعون ما يجب عليهم من الخراج الذى يقرره عليهم ، ولا يتعلون مراسمه  
وأوامره .

« فلما حضر وقابل الباشا ، تكلم معه ، وسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات  
ومن لم يموت منهم ، وهو يخبره .

« ثم أمره بالانصراف إلى عمله الذى نزل فيه ، إلى أن يرد عليه الجواب ،  
وأنعم عليه بخمسة أكياس . فأقام أياماً حتى كتب له جواب رسالته ، مضمونها



أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم بشروط شرطها عليهم ، إن خالفوا شرطاً واحداً ،  
كان أمانهم منقوضاً ، وعهدهم منكوثاً ، ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم .  
ويذكر الجبرتي سبعة من الشروط التي سمع بها ، ثم يقول :

« فسبحان المعز المذل ، مقلب الأحوال ومغير الشئون ! فمن العبر أنه لما حضر  
المصريون [ يقصد المماليك المصرية ] ، ودخلوا مصر بعد مقتل طاهر باشا ،  
وتأمروا وتحكموا ، كانت عساكر الأتراك في خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم ،  
وكانت علائقهم [ علائق الأتراك ] تصرف عليهم من أيدي كتابهم [ كتاب  
المماليك ] وأتباعهم . وإبراهيم بيك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد علي باشا هذا  
من الخبز واللحم والأرز والسمن الذي عينه له إبراهيم بيك من كيلاره ، نعوذ بالله  
من سوء المقلب ! »

وفي مراسم استقبال الباشا محمد علي لقنصل إنجلترا : يصف پاتون ، مساعد  
القنصل ، منظر استقبال الباشا للمفوضين الأجانب وصفاً دقيقاً ، ثم يلتفت إلى  
جانب من البهو الكبير ، فيرى آخر المماليك واقفاً مع خدم الديوان ، وقد أحنت  
الشيخوخة ظهره ، ولبس عمامة كبيرة ، وقطاناً أحمر ، أثراً من آثار العز الدارس .  
ويستحضر پاتون في ذهنه أطراف مراد بيك وإبراهيم بيك والصراع بينهما وبين  
بوناپرت وكليبر .

ونستحضر نحن أطراف الظاهر ببيرس وقطر وفارس الدين أقطاي وقلاوون  
والناصر محمد وقايتباي ، أولئك الذين دونخوا فرسان الصليبيين ، وإلخانات التتار ،  
ونخطبت ودهم جمهوريات البنادقة والأماقيين والجنوقيين وإمبراطرة بيزنطة .

المهوان بعد السلطان ، والذلة بعد العز ! فهل يليق أن أضيف إليها صورة  
المماليك وقد استحالت إلى كرنفال كنا نراه في طفولتنا أمام زفة المطاهر والعروس ؟  
وهي صورة « ملك الزمان » يركب أكديشا ، ويلبس قاووقاً ، كما صورتها في فصل  
« ملك الزمان » من كتاب « سندباد عصى » . أي أن ملابس التشريف المملوكية  
كانت قد انتهت إلى مخازن الأكسوار بشارع محمد علي واللوادية .

ولا أنفك أفكر بصورة في متحف « اللوفر » للمصور دافيد ، تمثل القائد  
البيزنطي بليزار يوس ، حامي ملك يوستينانوس ، في صورة شيخ كفيف يستجدي

المارة ، ووقف بين ساقيه حفيده الصغير ، يمد ذراعيه بخوذة القائد ، ويتلقى الإحسان من يد عابرة سبيل . ويظهر أن لا أساس في التاريخ لهذه النهاية المحزنة لقائد من أحسن قواد بيزنطة ، حماها من جيوش كسرى أنو شروان ، وانتصر على القائدال في أفريقيا ، وخلص روما وناپولي وراقينا وسردينيا من الغوط الشرقيين ، وحمى القسطنطينية من الهون . ولكن شناعة الشائنين ، وغيره الإمبراطور يوستينيانوس ، بتحريض الإمبراطورة تيودورا ، أودت به .

وحى لو صدقت حكاية استجداء بليزاريوس ، فلم تكن سوى مأساة رجل واحد ، وهذه مأساة مجموعة بشرية كبيرة ، بدأت من لاشيء ، وفدت على مصر من أسواق النخاسة بالشرق الأدنى ، ومن وراء سيحون وجيحون ، وجبال كردستان والقوقاز وأودية القوقاز بأرض قوبان ، ومن الأناضول والبلقان وضياف البحر الأسود وبحر أزوف وبحر قزوين ، وقيل من شواطئ البلطيق أيضاً ، وبدموا خطاهم إلى المجد من خان مسرور إلى ذكة الممالك ، سوق الرقيق الأبيض الكبير بالقاهرة ، وحكموا أكبر إمبراطورية مصرية عرفها التاريخ ، بعد إمبراطورية أمينمحت الثالث ، إمبراطورية واسعة الأرجاء ذات موقع جغرافي في الدرجة الأولى من الأهمية الحضارية والاقتصادية والسياسية ، رأسها ودعائمها بلد واسع الثراء ، لا بأرضه ونيله وشمسه وزراعته وصناعاته وتجاراته فحسب ، بل بشعب من أعرق الشعوب حضارة ، وأميزها شخصية ، وأقدرها على الحياة .

## ولدى

« أماء ويا أمهات الناس ! من لى يمن يعيد إلى ولدى !  
سافر مع العسكر إلى بلاد العثماني ، انتزعوه من بين أحضاني ،  
حملوه السلاح قسراً لينحارب عدواً يعيداً ، في بلاد نائية .  
غادرنا وهو يبكي ، فارق زوجته الشابة تحمل طفلها ، وهو يبكي ،  
حمل قرابيته على كتفه ، ومشى في الصفوف مع رفاقه ،  
تبعناه يوم رحيل الأورطة ، ورأيناه يخطف السير في منحرج الطريق ،  
يزودنا بنظراته الخاطفة ، آخر نظراته ، وهو يودعنا إلى الأبد ،  
ثم اختفى !

ماذا دماه ؟ ماذا جرى له ؟  
لم أسمع بخبره حتى عاد رفاقه ، ولم يعد معهم :  
« أين ولدى ؟ »  
« ولدك يا غلبانة ، سقط صريعاً بأيدي العدو ،  
« هناك بعيداً في البلاد النائية . »

.....  
أماء ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟  
مات ولدى ولم أكن بجانبه ،  
لا أنا ولا زوجته الشابة ،  
مات ولم يمن عليه مخلوق يرثي جفونه !  
يا أمهات الناس ! من يعيد إلى ولدى ،  
ولدى !

.....

وأنا من يدلني على أصل هذه الأنشودة الحزينة التي كان يرددوها الشعب  
المصري تحت حكم عباس الأول ، بعد عودة الجيش المصري من محاربة المسكوف

على ضفاف نهر الطونة ؟ فانا أترجمها عن لغة أجنبية ، بلغة فصحي ، لم تكن لغة الأغنية الشعبية .

ثم هل حان الوقت لنصحح التاريخ ؟ وهل ما زلنا نخجل من الإشارة إلى ما كان يحدث إلى عهد قريب منا ، عندما كان الأهالي يشقون الجيوب ، ويولولون على أبنائهم وقد « راحوا الجهادية » ؟ أليس الأولى من الخجل ، أن نعرف الحقيقة ، والعلة التي جعلت الشعب المصرى يبكى أبناءه المجندين ؟ سوف تفهم وترثى معي أشد الرثاء للشعب المصرى .

قالناس كانوا على حق فى عويلهم على أولادهم « فى الجهادية » ؛ استمع إلى هذه الصفحة من تاريخ مصر ، كتبها أديب من أصل سويسرى اسمه شارل ديديه ، أقام بمصر أيام عباس الأول وسعيد ، وترك لنا كتاباً عنوانه « ليلى القاهرة » ، جاء فى الصفحة الثامنة بعد الثلاثمائة من طبعة باريس عام ١٨٦٠ ، ما يلى :

« حان الوقت لأحدثكم بأمر الجهادية فى مصر ، وكيف نظمها محمد على وحفيده عباس ، الذى لم يحتفظ من أعمال جده إلا بأشدها نكراً وسوءاً . وما تزال شئون الجهادية تجرى على هذه الوتيرة إلى اليوم ، تحت حكم " المصلح العظيم " سعيد .

يجند الناس بمقتضى نظام جائر ثور له النفوس . فالتجنيد هنا عملية سطو ضارية ، تقوم بها عصابة من الباشى بوزق اختيروا لهذه المهمة على أساس استعدادهم لها ، وخلق قلوبهم من أى أثر لمشاعر الإنسان .

تنزل هذه العصابة بالقرية المسالمة نزول الجوارح والفضول على الحيوانات الأليفة ، فتضرب عليها حصاراً وثيقاً لا ينجو منه إنسان . . . وتعيش على حساب أهل القرية حسب ما يحلو لها ، وتقرر على القرية العدد المطلوب للجهادية من شبابها الأقوياء ، وشيخ البلد هو الموكل بتحرير قوائم المجندين .

فأول ما يفعله هذا الشيخ ، هو إبعاد أسماء أولاده ، وأولاد أقربائه ، من القوائم ، فأولاد أحبائه ومحسوبيه ، حتى لا يتبقى فى القائمة سوى أسماء الغلبة من عباد الله .

ونظارة الجهادية لاتعنى بنوع المجندين ، إنما يهمها العدد المحدد من الأتقار ...  
وإذا اكتشفت تلاعب شيخ من مشايخ البلاد ، أو اتضح لما تغاليه في الإعفاء ،  
فإن الجهادية تفصل في الأمر ... بفصل رأس الشيخ عن جسده ، ليذهب  
في المشايخ مثلاً.

لن يحشد إذن أبناء الأعيان في سلك الجهادية ، والبركة في شيخ البلد ، وبمالاته  
لم ؛ هذا إن لم تكن في حكم الجهادية نفسه ، الذي تخصص في باب من فنون  
الطب غير معروف في الكليات الطبية . ولهذا الباب علاقة مباشرة بثروة أهل من  
يجرى الكشف عليهم من المرشحين للجندية ، ويظهر أثر هذا التخصص الطبي  
في نتائج الكشف ؛ فجميع أولاد الأعيان تفريهم العلل ، وتقلدهم عن العسكرية  
شئى العاهات . أما أولاد الإيه ، فكلهم ، بقدرة قادر ، يتمتعون بالصحة والعافية ،  
لا تعرف العاهات طريقها إلى أكوأخهم .  
وهى ظاهرة عجيبة ، لعلها من أسرار علم الإحصاء . والأعجب أنها تتكرر  
عاماً بعد عام .

لا شك أنها تكلف الأهلىن مالاً له صورة ... وأنها مصدر ثراء للحكماء  
الذين يضعون علمهم في خدمة الأصفر الرنان . ويشفقنى أن أقرر بأن أغلب  
أولئك الأطباء من الإفرنج ، وما أقل من يمكن أن يترك منهم بين المصريين شيئاً  
من حسن الأحدثنة وطيب الذكر .

جيش مصر في عهد محمد على وأبنائه وأحفاده ، لا يجند إلا من بين أولاد  
الفلاحين المعدمين . فما إن ينتهى شيخ البلد من حشد حشوده ، حتى يسلمها  
للباشى بوزوق ، وهؤلاء يسوقون المجندين إلى مصر المحروسة ، موثقى الأيدى  
مقيدى الأرجل ، في حراسة قوية ، وكأنهم من عتاة المجرمين .

كنت أرى جماعاتهم تمر بي كل يوم ، وأنا جالس إلى قهوة تحت دأرى  
بحى الأزبكية ، في رتل طويل يسوقه الباشى بوزوق إلى القشلاقات سوق السائمة ؛  
منظرهم يفتت الأكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهلهم ، ومن بين أحضان  
الحرية ؛ يسرون مثنى مثنى ، مربوطين برقابهم إلى جبل من مسد ، يمتد على طول  
الرتل . فتية ترتسم على وجوههم وفي أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع ،



لا تكاد تستر عورتهم أسمال قلرة كانت فيما مضى هدوماً زرقاء .  
وسرب من النساء يتبع قطع الآدميين : أمهات وأخوات وزوجات يتبعن  
أعزاهن من القرية حتى العاصمة ، يتحملن ما يتحمل رجالهن من عناء السفر ،  
ويحاولن ما استطعن أن يخففن عنهم وطأة الجوع والعطش بجرار من الماء ، وقليل  
من خبز الأذرة والبلع .

أما رعاة هذا القطيع البشري ، فكانوا من فرسان الأرباوط ، يحفون بالصف  
وسيوفهم تضرب بطون أفراسهم ، والطبنجات تنغم مناطقهم ، والكرباج مفلول  
إلى أرساغهم .

وفي القشلاق يتسلمهم « جاويزية العلام » ، وهم أضل سبيلاً وأسوأ منقلباً .  
ومن لغو القول أن أذكر بأن هؤلاء المجهدين لا يبلغون شيئاً في أورطهم ،  
لأن الرتب العسكرية من حق المحظوظين ، دون قاعدة أو قانون ، والغلمان من أبناء  
القوات ، وأخذان عباس باشا ، وأصحاب مزاجه ، ومحاسيب سعيد باشا ، يلعبون  
بالرتب العسكرية لعب الأولاد بالأكر .

طبيعي أن يكره المصريون عموماً ، والفلاحون بخاصة ، الجهادية اسماً ورسماً ،  
حتى يهرب من يستطيع الهرب منهم إلى البادية وكهوف الجبال ، ليجنب نفسه  
الذل والهوان . مع أن الفلاح المصري من أرق الناس بأهله وقريته ، ومن الصق  
أهل الأرض تعلقاً بالأرض التي أنبتته . . .

وكيف يمكن أن تحب النساء والأولاد والآباء العجزة هذه الجهادية ، تنترع  
من بينهم القائم على أودهم ، ليغادر ضفاف النيل الحاني . . . ويذهب إلى الحرب  
أمام قلاع نهر الطونة ؟

هذه أقوال شاهد عيان ، أثبتا ونشرها بين الناس . فهل كان صعباً على  
أساتدتنا في المدارس أن يذكروا لنا هذه الحقائق ، كلما أبدينا نخجلنا ونحن  
نسمع « ضرب الصوت الحيائي » يرف المجند يوم يستدعى ؟ ربما ! فمن كان يحسر  
على ذكر الحكام بغير الخير ، وكانوا أولياء النعم ونخدم « البادشاه » الأعظم ،  
ظل الله على خفاف القرن الذهبي في الأستانة العلية !

. . .

وقبل خمسين عاماً من كتاب شارل ديدييه ، قال اليوزباشى تورمان ، ذلك الشاب الأتراسى الذى كلف من قبل سارى عسكر بونايرته بإقامة التحصينات على طول الساحل المصرى الشمالى ، وعاش فترة فى منطقة برارى الحامول وبلغيم والبرلس ودسوق وفوه [صفحة ١٣٣ من كتابه «بونايرت فى مصر» طبع باريس عام ١٩٠٢] :

«لن تترك مهما بلغ بك الخيال مدى فقر الفلاح وبؤسه ، فهو لا يكاد يجد ثمن جلباب أزرق يلبسه طوال العام ، يعيش مع أهله ومواشيه وكلابه ، فى مساكن هى مباءة الحشرات : يتكشف فى مأكله إلى درجة أن الغذاء اليومى لواحد من أبناء بلادنا على ضفاف الراين قد يكفى عائلة الفلاح المصرى لبضعة أيام . ولست فى هذا متغالياً ، فالبؤس هنا بلغ قرارته .

ومع كل هذا ، فإن المصريين أهل مرح وإشراق ، يأسرك لطفهم . وإذا تعمقت الملاحظة أدركت رقة شعورهم ، وتوقد ذهنهم الذى يفوق ما نلاحظه فى فلاحينا . أما السمعة اللاصقة بهم فى أوروبا عن ضراوتهم ، فلأنها أثر من آثار غضبتهم السريعة . فطويتهم سليمة ، وطباعهم كلها دماثة ، حتى الحيوانات التى توالفهم تبدو كأنها اكتسبت طبيعتهم ، فالثور يجر المحراث هادئاً مطيعاً ، والطلائق لا تعرف الشراسة ، والثعابين تتسلل تحت حصير الفلاح ، وتعيش معه دون أن تؤذيه ، وكلابه قليل منها ما يصاب بالسعار . . . إن البحر المحيط بهؤلاء الناس يفيض بنفحات الحضارة . . . .»

فإذا عدنا إلى صاحبنا شارل ديدييه ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، وجدناه يردد بعد اليوزباشى تورمان بنخمسين عاماً : «ولا يوجد فى أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء القراغة هؤلاء . فالمصرى يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكرى العثمانى ، ذلك الخلف الجافى ، الذى يفاجئك هو وضباطه بفظاظتهم ، على حين أن المصرى يحتفظ ، مجنداً ، بهلوه سريره ، وكرم طباعه ، وسماحة سجاياء .»

ووصف ديدييه للجندى العثمانى يذكرنى بما قاله ابن إياس أيام الغزو العثمانى ، يصور الجنود العثمانية بالقاهرة :

«وأما عسكر السلطان سليم فكانوا ، جميعاً ، عيونهم دنية ، ونفوسهم قلرة ،  
ياكلون الأكل وهم راكبون على خيولهم في الأسواق ؛ وعندهم عفاشة في أنفسهم  
زائدة ، وقلة دين ؛ يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس . ولا جاءهم  
شهر رمضان ، كان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجامع ، ولا صلاة الجمعة ،  
إلا قليلاً منهم . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف ؛ لا هم  
ولا أمراؤهم ولا وزراءهم وهم همج كالبهائم .»

• • •

أماه ، ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟

ولدى !

## مصر والحضارة الغربية

درج الناس على القول بأن مصر فتحت أبوابها للحضارة الغربية بعد غزو الفرنسيين لها في أواخر القرن الثامن عشر ، وبعد تقلد محمد علي باشويتها في أوائل القرن الماضي . وهذا صحيح في ظاهره ، من ناحية أن بعض المصريين تنبها إلى أشكال حضارة غربية عنهم ، رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسية بالقاهرة . ولو أن هذه الأشكال ، في بعضها ، لم تكن إلا نموذجاً سيئاً لتلك الحضارة ، فلسنا بحاجة إلى تصور سلوك الجنود الفرنسيين وضباطهم في شوارع العاصمة ، فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احتراموا تقاليده . وربما كانت معاقرة الحمر علناً ، ومعاشرة النسوة الخليعات ، والسير بهن في الطرقات ، والجلوس معهن في الحانات ، أول ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوربية . وكانت فتاة مصرية من بيت كريم أول ضحايا التبرج والتفريج ، لما حمل والدها على قتلها بعد أن خرج المعتدون . وسلوك جنود الجمهورية الأولى كان تكليفاً صارخاً لادعاء بونايرت الإسلام ، أو على الأقل تبجحهم في بلاغاته بأنه جاء لحماية المسلمين من ظلم المماليك . ولقد سئل نابليون في منقاه بجزيرة سانت هيلانة عن حكاية لبسة العمامة والقراصة ، وادعائه الإسلام ، فقال لقد أخذته الكونت لاسكازيس : « كانت شعوذة ما بعدها شعوذة ، ولكن من الضرب الرفيع » . وصور فكتور شوفان ، في بحث صغير نشره بدورية محلية في بلجيكا عام ١٩٠٢ ، سخريته المصريين بادعاءات بونايرت وكرههم للفرنسيين . وكلب الأساطير التي أذاعها كتاب الغرب المظنون بالمحمة النابليونية ، وأشار إلى بعض قصائد عربية ، ألفها مشاعرون سخفاء في مدح بونايرت ، ومنها قصيدة لأحد الشوام ، المسمى نقولا البرك ، قدموها لساري عسكر في مقابل دراهم معدودة . وندد بفلاكة كاتب ألماني ادعى أن كلمة Lions ليست غريبة عن العرب ، فهم يصورون بونايرت في صورة بطل خرافي يطير في السماء ، ثم يهجم على أعدائه هجمات الأسود ، واسمه عندهم « أبو ليون » أي « أبو السباع » !

ويظهر أن المحتل الفرنسي لم يأل جهداً في أن يعلن عن تقدمه العلمي بكل الوسائل ، ومنها حكاية البالون الذي حاولوا أن يطيروه من ميدان الأزبكية ، فإذا به لا يريم . وكانت « كسفة » للفرنسيين ما بعدها كسفة ، كما يظن الجبرتي . وفي حكاية أخرى ، جمع بونابرتة شيوخ الديوان ، ليشاهدوا تجارب المجمع العلمي ، ومنها بعض التجارب « الخلقانية » ، يسلط فيها تيار كهربائي على أعصاب حيوانات شبه ميتة — وهي تجربة العصب والعضلة ، التي يجريها طلبة الفسيولوجيا بكليات الطب والعلوم — وإذا بعضلاتها تنقلص وتنفرج . وقد احتفظ الشيوخ ، ذوو العمامات الكبيرة واللحي الطويلة ، بوقارهم طوال التجارب . وسأل أحدهم برتوليه ، الذي قام بتجربة « إعادة الحياة إلى الأموات » ، إن كان في استطاعته أن يراه الناس في القاهرة ومراكش في وقت واحد ، فلم يجر برتوليه جواباً بل هز كتفيه ، وإذا بالشيخ يقول له : « رأيت إلى قصور سحرك عن بلوغ المقاصد ؟ »

كل ذلك لم يحل بين المصريين وبين ملاحظة ظواهر أخرى لحضارة الغرب . ومن قبيل هذا إعجاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بنظم الفرنسيين في حياتهم ، وطريقة فرض ضرائبهم ، وأسلوبهم في المحاكمات وفي حركاتهم العسكرية . وتنبه الشيخ عبد الرحمن إلى عنايتهم بدراسة الطبيعة المصرية ، وشاهد بعينه وسائلهم لتدوينها وتسجيلها ، وحفظ نماذج من نباتها وحيوانها وتربتها ومغورها ، وكتب في ذلك صفحة لا تخلو من سذاجة ، يصف زيارته لدار المعهد العلمي ، واطلاعه على كتبهم وصورهم ومجموعاتهم الحيوانية المحفوظة في قرطميرات من زجاج .

ثم هو يلاحظ اتجاههم نحو استخدام الظواهر الطبيعية ، على أساس من العلم بها ، فيما يوفر على الإنسان مشقة ، ويختصر جهداً . ومن أدق ملاحظاته في رأي — على بساطتها — تلك التي أبداهها بعد أن راقب الجنود الفرنسية — وهم يزيلون متاريس التائرزين المصريين — يستخدمون عربات يد صغيرة ذات عجلة واحدة في نقل الدبش والأتربة بدل نقلها بالعلق . فكأن الشيخ عبد الرحمن فهم القيمة العملية للعلم ، واستخدامه للسيطرة على قوى الطبيعة .

كل تلك الملاحظات البسيطة في ظاهرها ، العميقة في دلالتها ، سوف يلاحظها شيخ آخر بعد موت الجبرتي بسنوات قليلة ، وفي عاصمة فرنسا ، ولكنها



تسعى هناك لتشمل أهم معالم الحضارة الغربية ، ظواهرها وبواطنها . وكان هذا الشيخ الآخر تلميذاً أثيراً عند الشيخ حسن العطار ، صديق الجبرتي الحميم . والشيخ حسن هذا هو الذي شجع تلميذه على السفر إلى فرنسا إماماً لأول بعثة علمية أوفدها محمد علي إلى أوروبا . فلما عاد من بعثته عرض كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » على أستاذه حسن العطار الذي قدم له وحثه على نشره . وبعد خروج الفرنسيين ، أخذ بعض المماليك في تقليد النظام العسكري الفرنسي ، أو ما يسميه الجبرتي « مارش وأردبوش » ، وعرف أحدهم منذ ذلك الحين باسم حسين بيك الإفرنجي ، لتماذيه في هذا التقليد . وحدث أن سارت بعض طواير الجند على طريقة « مارش وأردبوش » في استعراض بالإسكندرية ، وإذا الجند يلحظون على ثغور الأجانب المطلقين عليهم من الطيقان علامة الابتسام ، فيحسبونها — وقد تكون — سخرية بهم ، ويفربون عليهم بالبندق ، ويرد عليهم الأجانب بإطلاق النار من النواقد .

وكما أن السلطان العثماني محمود — وهو الذي أطلق محمد علي اسمه على التربة القديمة التي أعاد حفرها فيما بين النيل والإسكندرية ، وما زالت تعرف بتربة محمودية — حاول إدخال نظام أوربا في الجيش العثماني ، وثار عليه الإنكشارية ، فإن محمد علي طبق هذا « النظام الجديد » في مصر ، وتدمر منه الجند المنسوب على الطريقة القديمة .

ومحمد علي كان يكره حتى تلك اللحظة أن يرى المصريين ضمن جنوده . وقد جهز تجريدة لفتح السودان طمعاً في استجلاب العبيد من جنوبه للتجارة بهم ، وإنشاء جيش منهم ، أقل كلفة من جيوش العثمانية . وعندما ثار حماس المصريين وطلبوا الخروج لمحاربة الإنكليز . . . ولكنني أفضل هنا أن نترك الجبرتي يتكلم :

« ولا جاء الخبر بانهزام الإنكليز من رشيد ، جاء أيضاً أنهم رجعوا إلى الإسكندرية ، واستعدوا استعداداً هائلاً ، « فأرسلوا لنا النجدة حالاً » . فقرأ عمر مكرم الجواب على الناس ، وحثهم على التأهب والخروج للجهاد — وكانوا قبل ذلك قد شرعوا في حفر الخندق حول القاهرة ، ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والحنانات ، وكذلك أهل بولاق والنصارى في ديوان المكس ،

والأروام والشوام ، وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبتية — فامتلأوا ولبسوا الأسلحة ، وجمع إليه طائفة من المغاربة وأتراك خان الخليل وكثيراً من العلوية [ أى عرب بنى عدى ] والأسيوطية وأولاد البلد . وركب في صبحها إلى كتخدابيك ، واستأذنه في الذهاب ، فلم يرض وقال : « حتى يأتي أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك » . ولا وصل محمد علي — وكان في ملوى — خرج عمر مكرم والمحروقي والمشايخ ، ودار بينهم الكلام في أمر الإنكليز ومحاربتهم ، فقال محمد علي : « ليس على رعية البلد خروج ، وإنما عليهم المساعدة بالمال . . . لعلائف العسكر » ! وسيضطر محمد علي اضطراراً إلى استخدام المصريين — ولن يأسف على ذلك عندما يتحدث إليه ابنه القائد العام يحسن بلائهم ، وقوة احتياهم ونظامهم — سيضطر إلى استخدامهم عندما يهب لمعاونة أسياده وأولياء نعمته في إسطنبول ، ثم لمحاربتهم . وقد اطمأن إلى أن « النظام الجديد » لا قيمة كبيرة فيه للأنفار بغير ضباطهم . وما دام هؤلاء الضباط من الجراكسة والأرثوذ وبعض الفرنجة ، فلا خوف عليه وعلى آله وصحبه ، ولا هم يحزنون .

كان « النظام الجديد » خيراً وبركة على محمد علي ، وعلى مرتزقته من الضباط غير المصريين . كما كان الباعث الأكبر له على « النهوض بمصر » ، عندما أفهمه مستشاروه الأجانب أن تأليف قوة مصرية محاربة يقتضى إنشاء مدارس الحرب والهندسة والأركان والطب والبيطرة والفنون والصناعات ، ومصانع الأسلحة والذخيرة ، ودار الصناعة والترسانة ، ومصانع النسيج والطرايش ، والمطبعة لطبع الكتب وغيرها مما نحتاج إليه كل تلك المنشآت .

تلك كانت الخطوات العملية لإدخال الحضارة الأوروبية إلى مصر . وكان أهم مظهر لها تغيير في اللباس ، فخلع محمد علي العمامة ولبس الطربوش هو وابنه إبراهيم وأركان حربه ، وضباطه الغرياء ، وعساكره المصريون . والعجيب أن الطربوش الذى كان رمزاً لمجاعة روح العصر والتجديد في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، انتهى أمره إلى أن يصبح ، في أواخر عهد أسرة محمد علي ، عنواناً على الرجعية والتمسك بالتقاليد ، وما كانوا يدعونه « القومية » !

وظل ابن البلد تفرأ في الجيش لا يرق إلا إلى الرتب الصغيرة ، ومستخدماً

لا يرتفع في الدواوين إلى أعظم من باشكاتب ، وظلت الدولة إقطاعاً لمحمد علي ولأولاده من بعده ، ولأقاربهم وأنسابهم والفصائيتهم وقواديتهم ورجال أعمالهم من الأرثوذو والجرأكسة والعثمانية ومن إليهم ، ومن شر ما كان يلقي به علينا الشرق الأدنى من أشكال وألوان .

بدأ عهد الإصلاحات في حكم محمد علي ، وهي إصلاحات هامة ليس من ينكرها ، انتظم بها الأمن ، وانحل برم البدو العابثين ، وتلاشت سطوة المماليك وشقت الترع وأنشئت القناطر ، ونظم الري والصرف ، على أيدي جهابذة المهندسين والعلماء الأجانب ، واستثقلت زراعات جديدة ، وأصلحت الأراضي البور ، واختطت الشوارع ، وقامت بالقاهرة مصلحة للتنظيم باسم « ديوان القدارة » ، ودبت الحياة في الإسكندرية بفضل تجديد مينائها وإنشاء ترسانتها . ولم يكن المقصود بهذه الإصلاحات أي خير يصيب الشعب المصري ، فالمصري لا يملك شيئاً في بلاده ، حتى ولا حفنة الأذرة التي يصنع منها بتاوه .

ويرد عليك الرجال العمليون قائلين : المهم أن أعمال الإصلاح أجريت ، وميناء الإسكندرية فتح للتجارة ، واستتب الأمن ، فجاء الأجانب بمرس أموالهم (١) — أو بعقولهم وعلمهم — يعملون في خدمة الاقتصاد المصري . ويمكن بريد الهند من اختزال طريق رأس الرجاء الصالح ، بالعبور براً من الإسكندرية إلى السويس ، ثم مواصلة السفر بالمراكب إلى الشرق .

مثلاً يتحدث إليك المدعو إيفلين بيرنج ، وشهرته لورد كرومر ، في كتابه « مصر الحديثة » ، بنعمة الإمبراطورية البريطانية على مصر ، وفرضها الحضارة الغربية عليها — دون أن يكون مؤمناً بأن مصر متقبلة لتلك الحضارة — لا شيء إلا لإشاعة الأمن وتنظيم الاستقلال . فلنصدق هذا الكذاب حتى باب الدار ، أو حتى بطرد من الديار ، ولنؤمن على إصلاحاته ، ولنسلم له بالنجاح في خلق نوع من الدولة المصرية .

إنما تأمل عدالة التاريخ عندما يتراج الستار ، وإذا هذا المتحضر المصلح ، ينقلب إلى مجرد وال أجنبي أو باشا من العثمانيين . لقد كشفت مأساة دنشواي عن روح ذلك المستعمر العاني ، إيفلين بيرنج ، فهذا المتشدد بالنثر والشعر من الآداب اليونانية

واللاتينية والإنجليزية ، الذى يتمثل بأقوال توكيديد وبوفيتال ودرايدن ، المدعى تزعم حركة التحضر والتقدم العمرانى فى مصر ، سرعان ما ينقلب إلى مجرد سفاح سوق ، وباشا عثمانى ، وقائد برابرة فى بلد محتل . أية عدالة تاريخية أبرع وأصدق من أن يتعم هذا النصاب حياته « المتحضرة المحضرة » بمقتلة رخيصة ، وظلم رهيب ، أمام قرويين أبرياء ، وقرويات ساذجات ، لم يفعلوا أكثر من الاحتجاج على ضباط بريطانيين يصيدون حمامهم الأليف ، ويصيبونهم برصاصهم الأهوج فى عقر دارهم .

كلا يا سيدى ! لن تجد ، لا فى نهضة محمد على ، ولا فى إصلاحات المدعو كرومر ، ما يمثل شيئاً آخر غير « الحضارة المادية » . ومصيبة مصر أن طرقها حضارة الغرب على هذا الوجه الأغبر . جاءت بها بخيرها فى الصور المادية لهذا الخير ، وحملت إليها شرورها فى الصور الروحية للشر . مصر لم تتطور عقلياً ولا فكرياً فى محاذاة تلك الانقلابات العمرانية التى حققتها حضارة أوروبا بمصر منذ عهد محمد على . وما فتئت الصور المادية للحضارة الغربية هى المتغلبة ، تسبق ، بمراحل طويلة ، الحالة العقلية والشعورية لبلاد وادى النيل .

وما أسهل استعارة العنصر المادى فى حضارة أجنبية والاقتباس منها . وأرجو أن نكون تنبها إلى هذه الحقيقة الخطيرة ، وهى أن إدراك عنصر واحد من حضارة غربية عنا ، يجب أن يستلزم عناصرها الأخرى ، إذا أريد لتلك الحضارة الأجنبية أن تؤتى ثمارها الثقافية . ولكننا ألبسنا الحضارة الغربية كما يلبس قميص المجانين ، أقحمت علينا من عل فى شكلها المادى ، وفى جبروت أهلها ، شهوة أطماعهم البشعة .

وبذلك اختلطت علينا سبل الإصلاح الروحى ، وتاهت منا المقومات الحقيقية للنهضة ، وكنا إذا آمنا بحضارة الغرب الفكرية والفنية والعلمية ، كمجموع متكامل لا يتفصل عن حضارته المادية ، قام الرجعيون فى وجوهنا ، يهتموننا بمالأة الغاصبين والمستعمرين . فلا نحن مستطيعون أن نخطو خطوات التطور الطبيعى للانتفاع الكامل بتلك الحضارة ، ولا الرجعيون قادرون على الاستغناء عن أدواتها وأجهزتها



المادية . ولبتنا وقفنا من حضارة أوروبا عند علومها وتكنولوجياها ! ولكن ما كان  
أسرعنا إلى استعارة مظاهرها البراقة الأخرى ، وتطوراتها الدنيوية ، دون أن نتطور  
روحياً فيما يقابل تلك المظاهر . أخذنا بعض العلم وعرفنا بعض تطبيقاته ، ونحرص  
على الاستزادة منه ومنها . ولكننا أيضاً نتفنج في اللباس والأثاث والزينة ، وفي  
حفلاتنا ومجتمعاتنا ، نرقص في الكباريه ، ونعيش في شبق الأغاني والأفلام  
الجنسية والأدب المكشوف ، وكأن هذه المظاهر الغربية أصبحت لازمة لنا ، لزوم  
الثلاجة والسيارة والطيارة والراديو تليفزيون . فإذا طالبنا بالاستزادة من فنون الغرب  
الرفيعة ، وفكره وفلسفته ، آهمننا بالتفنج ، والتقليد الأعمى ، والاعتداء على  
الأصالة والقومية . أما القواد ، منظم حفلات ملكات الجمال ، وصاحب الماخور  
المسمى «صندوق الليل» ، وملحن الكباريه على إيقاع السامبا والوجي - بوجي ،  
أما المنتج السينمائي الناقل لأحط ما يرمينا به الغرب من أوزار ، فليس هم المعتدين  
على الأصالة والقومية !

إن حديثي في هذا الكتاب لا شأن له بالحاضر ، ولغيري أن يراقب حاضره ،  
ليقلر إن كنا ما زلنا سادرين في غفلتنا ، أو أن العناصر العاقلة الواعية بدأت  
تقودنا من ظلام الفلاكة ، إلى نور الفطن الجميل والفكر العالي . لغيري أن يفحص  
ويشخص علامات النقاة من ذلك المرض الانفصامي العجيب ، الذي هانينا  
طويلاً نتيجة تقبل أدوات الحضارة المادية ، وأبوا مظاهرها الاجتماعية ، دون  
أساسها الفكري والفني والروحي .

مصر التي أتحدث عنها حتى الماضي القريب ، ما فتئت في أواخر عصرها  
الوسيط ، تحاول أن تعود إلى نفسها بعد إغفاءة أهل الرقيم بضواحي إفسوس .  
رأيتها تحبو ما بين عصرها الوسيط وعصر الإحياء ، وكان عهدى بها أن اتخذت  
الحضارة الحديثة لباساً وزخرفاً مزيفاً وطلاوة ، من تلك الطلاوات التي حرص  
أمراء أسرة محمد على أن يلبسوها بها جسم مصر ، لتتم لهم صورة مزوقة ، تحشرهم  
في زمرة الأمراء والملوك المتحضرين ، حتى ليتبجح إسماعيل ، غير المفترى عليه ،  
بقالته المشهورة إن بلاده لم تعد من أفريقيا ، بل هي قطعة من أوروبا .

حركة الإحياء الأوربية ، في القرن الخامس عشر ، لم تنبعث من أمثال



هذه القنجرة والقشجرة ، إنما جاءت على إثر يقظات في الفكر والمشاعر ، وتخلص من ربة الغيبات ، والترمت في العقائد ، وتنبه إلى آثار الحضارات الكلاسيكية ، من عمارة وتمائيل وصور ، وعلم وأدب وفلسفة . وعندما لم تعثر على بعض الآثار الفكرية في أصولها القديمة ، التجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم ، ممن تغلوا بتلك الحضارة ، وترجموها ، ودرسوها وعلقوها عليها ، لم يصددها عن ذلك تعصب صليبي ، ولا ذكريات فتوح الأندلس ، وصقلية ، وغزو جنوب إيطاليا وفرنسا .

وتحولت تلك الحركة في بعض البلاد الأوروبية من انصياع أعمى للجالس على كرسي بطرس الرسول ، إلى شعوب تستقل فكراً وعقيدة عن روما . بل كانت تحرراً للفكر الإنساني في صميم البلاد الكاثوليكية ، وانطلق الناس هنا وهناك يناقشون الظواهر الطبيعية ، ويفحصونها ويفسرونها ، دون التزام لما جاء في كتبهم المقدسة ، أو حتى في كتب أرسطاطاليس . بل على أساس من الملاحظة المباشرة ، يساعدها الإدراك والتدوين ، والمقارنة والمقابلة ، والقدرة على الانتقال من التفاصيل إلى العموميات . هكذا خرج الأوروبيون من عصورهم الوسطى .

أين مصر من كل هذا في ماضيها القريب ؟ متى بدأ المصريون يشعرون بواجبهم الروحي في هذا التطور ، ويعلمون بأن البقاء على القديم فكرياً هو الركود والموت ؟ وأن عليهم واجب اللحاق بركب الحضارة ، إذا أرادوا أن لا يداخوا كالدواجن ، ويدلوا كالأنعام ؟ ومثل هذا الشعور لا يتأتى إلا عن طريق واحد ، هو طريق التعليم الصادق ، وأقول الصادق لأن التعليم قد يكون هو أيضاً مجرد دهان وقشرة على سطح الفكر ، ودغدغة خسية للمشاعر .

ولو أن بعثات محمد علي اتجهت إلى الإحياء ، أي لو أنها كانت بعثات فكرية علمية ، بلخاءت بخير كثير ، وبأسرع مما آتت . ولكن محمد علي لم يوفد « الأفندية » إلا ليتعلموا حرفاً ومهناً تتصل بشئون الحرب . ومع هذا فإن تلك البعثات تركت في أغلبهم أثراً عميقاً ، وساعدتهم على التحرر ، ووضعت أقدامهم على أولى درجات السلم الحضاري . ولو كان « الأفندية » مصريين ، لاستطاعوا أن ينقلوا إلى مصر بعض لقاح الثقافة . ولكنهم ، في أغلبهم ، عادوا إلى بيئاتهم

الأستقراطية التركية ، وعاشوا حياتهم بمعزل عن الشعب .  
لقد استعرضت تاريخ البعثات التي أوفدها محمد علي وخلفاؤه الأقربون ،  
وفيها بعثات صناع ، وضباط بحرية وبحرية ، ومهندسة عسكرية ، وطب وبيطرة  
وصيدلة وكيمياء صناعية ، والقليل منها اتجه لدراسة الرياضة والفلك والجغرافيا ،  
وواحد من كل تلك البعثات كان من حظ مصر أن يوفد لا ليتعلم شيئاً ، بل  
لمجرد أن يؤم « الأفندية » في الصلاة . فيتعلم الشيخ الفرنسية ويحذقها ، ويقوم  
على رأس حركة الترجمة في القرن التاسع عشر . من هنا يبدأ تطور الفكر المصري  
حقاً . فالشيخ رفاعه رافع الطهطاوى هو ظاهرته الكبرى ، الجدير حقاً بلقب  
« باعث النهضة المصرية » .

هذا المجاور المتحفظ ، المصر على الإسجاع ، إلا حينما يكتب فيما لا يحتمل  
التلكؤ الذى تقتضيه القيود اللفظية ومحسنات البديع ، حينما كانت الأفكار في  
نظره أهم من الاحتفال باللفظ ، هذا المجاور ، لم تمنعه بيئته المحافظة الأولى من  
أن يوسع أفقه ، ويلاحظ الناس والوقائع في أوروبا ، ويطلع ويترجم ما يختار من  
مطالعاته ، ليفيد به أهل وطنه . يعلق على الحوادث ، ويفصح عن آماله في مستقبل  
بلاده ، بنوع من التورية والاختباء خلف ما يسرد من مواعظ ، ويستشهد به  
من شعر . إنه ليرجم كتاب مونتسكيو عن تدهور الحضارة الرومانية ، ولا أشك  
في أنه قرأ كتاب مونتسكيو الأشهر وهو « روح الشرائع » ، ولكنه لم يجسر على  
ترجمته ، خشية أن تكشف الترجمة عما يحول بخاطره من كره للاستبداد ومقت  
للاستعباد . ثم هو يترجم حياة بطرس الأكبر « باعث النهضة الروسية في اتجاه  
الغرب » .

عاد رفاعه إلى وطنه ، سنة ١٨٣١ ، زاحر النفس بمعاني حياة جديدة ،  
متحفزاً لإصلاح المجتمع المصري ، بتعليم الشعب وتنبيه الأذهان . عاد ليلبس  
وينشئ المدارس ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . راح يستعرض كتب  
الثقافة الغربية ، ويترجم ، ويتخرج على يديه المترجمون ، يتولون معه ، وبإشرافه ،  
ومن بعده ، نقل تلك الكنوز المكشوفة . مضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات  
والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم

الآراء الفاسدة ، وييلز بذور التقدم ، يبصر أمته بروعة ماخيا ، وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها ، لا يكل في ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الخلود والقيود ، ولا نفي عباس باشا له إلى السودان ، إنه رائد عملاق ، لولاه ، ولولا الفريق الذي رباه ، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل .

رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس ، كانت أول اتصال روحى بالغرب أنخسبت به عقول أهل مصر ، « وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج ، وشعر الفتى الصعبدى بمكانه من الدنيا والتاريخ ، وأدرك روعة الدور الذى يتظره في بلاده بعد أوبته . »

بعثات عسكرية أو هندسية أو علمية أو طبية ، أعضاءها من المتصرين أو من المصريين ، لا شك في أن تلك البعثات قد وهبت مصر رفاعة رافع الطهطاوى ، كما وهبتها على مبارك ، وعمود الفلكى ، ونخبة من الحكماء والبحرانية والكحالين .

ولباحث في تطور المجتمع المصرى أن يدرس أثر أولئك الرواد العظماء ، وأن يتعمق الدراسة وهو يترجم لم ، بدل أن يضيع وقته وجهده في تحليل حياة محمد على وسعيد وإسماعيل ، مدحاً أو قلدحاً . لأن القليل الذى عرفته مصر ، فتحوّلت عن غفلتها ، جاء بتفكير أولئك الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا في القرن التاسع عشر . ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه وخبروه من آثار الحضارة الأوربية .

وما أطول الطريق برغم هذا ، وما أبعث الشقة ! فقد أصابنا الاحتلال البريطانى بنكسة عقلية وخلقية ، عندما أوقف تلك البعثات ، ثم حولها إلى قلة - كقطرات الماء - توفد إلى كليات ثانوية من أمثال كلية برورود ، التى اشتهرت في تاريخنا الثقافى بثورة أعضاء بعثة عليها . وكان محجوراً على المصريين أن يوفدوا على حساب الدولة إلا إلى إنجلترا ، ومحجوراً عليهم أن يحصلوا فيها من الدرجات الجامعية ما قد يضعهم على قدر من المساواة العلمية بأترابهم البريطانيين ، الذين يجهثون إلى مصر غلماناً ، ليعينوا لها رؤساء وحكاماً .

وجاءت ثورة ١٩١٩ تصحح ذلك ، وعادت البعثات ترد موارد العلم والثقافة والفن حيثما وجدت في بلاد الغرب .. وأنشئت جامعتنا الكبرى ، حصناً للحرية

الفكرية ومنارة للعرفان . فإذا الرجعية تبرص بها ، وتتجمع تحت راية «منشئ» الجامعة ، الملك المستبد ، وتعمل على تطغيش الشباب «روحياً» ، وإبعاده عن معين الحضارة الحققة ، بحجة «المحافظة على تراثنا وقوميتنا» . وأشهر وزير للمعارف إذ ذاك باسم وزير «التقاليد» ، في وقت اندفعت فيه البلاد اندفاعاً في طريق التطور المادي ، فلم تعرف إلا قليلاً من معنى الحضارة : فهي انطلاق الفكر وصدق الشعور ، على أساس من الخلق القويم والثقافة . فالحضارة الأصيلة لا تنبت إلا في حقل النفوس الملهذبة الآلية ، ولا تثبت إلا من صميم الروح المطلق .

كان الشباب يتخرج موزعاً بين تقاليد ورواسب وغيبات راسخة ، وبين علم وفن وحضارة لازمة لرقبه مادياً وروحياً . فهو مقيد موثق الأقدام ، يخطو في حياته خطوات متثاقلة ، لأن سلاسل الرجعية توقر أقدامه ، وقد ترنخى له القيود إلى مدى ، لتجذبه كلما أحست في حركاته من ضعف ، وفي مقاومته من اضمحلال . لقد عرفت كل هذا في تربيته وتعليمه ، وراقبت كل هذا في تربية طلبتي بالجامعة وتعليمهم . قد ينجح الشاب في كسر قيوده وفك عقاله ، ولكن ثمن هذا الفكاك والانطلاق ، يكون في الغالب على حساب الأخلاق . لأن الشاب لم يحصن الحصانة الكافية بشيء أهم من الأوامر والنواهي ، وأهم من العلم والمعرفة ، ألا وهو الثقافة ، بكل ما تحوي هذه الكلمة من تفكير صادق ، وإحساس سليم بشئ ما تنشئه العقول الجبارة ، والمشاعر المزهفة شرقاً وغرباً .

ما هي الحضارة إذن إن لم تكن في هذا التفكير الصادق والإحساس السليم؟ يندفع الإنسان بقوتهما في رحاب الحياة الحرة ، لا تتفاعل في نفسه رواسب الخزعبلات ، مع رحيق العلم والتحصيل ، والتمكن من المعارف النافعة .





## II

### الخيط الأبيض والخيط الأسود

ألف عام

صراع القومية المصرية

ثلاث ملكات

أم خليل

بنت الزمار

الصعيدية

القيراط الخامس والعشرون



## ألف عام

دخلت مصر في حوزة الإسلام عام ٦٤٠ م ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ .  
وليس أمر الفتح العربي مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويداً ، أو حتى مجرد لغة  
حلت شيئاً فشيئاً محل اللغة الرسمية للبلاد ، وهي اليونانية ، ثم انتهت بالتغلب على  
اللغة القومية القديمة . ولكن ما حدث نتيجة للفتح العربي هو أن مصر أصبحت ،  
منذ ذلك التاريخ ، ركناً هاماً من أركان العالم الإسلامي ، وارتبطت مصائرهما  
بمصائر الإسلام ، وأصبحت لغتها القومية هي لغة العالم الإسلامي السائدة ، وهي  
اللغة العربية . فصر اليوم ، بحكم لغتها ، قطاع من العالم العربي ، وبحكم ديانتهما  
الرسمية ، شطر من العالم الإسلامي الذي يشمل شعباً وأماً احتفظت بلغاتها  
الأصلية ، مثل إيران وتركيا والباكستان وإندونيسيا . مصر اعتنقت الإسلام ديناً  
واتخذت الضاد لغة ، ولعبت دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي كله ، دوراً سياسياً  
بحكم ثرائها ونظامها ومركزها الجغرافي ، ودوراً ثقافياً بفضل جامعها الإسلامية  
العديدة .

وهذا التحول الكامل في حياة مصر فصلها فصلاً تاماً عن تاريخها السابق على  
الفتح الإسلامي . ولكن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعاً انفصال  
مصر عن تاريخها الفرعوني ، لأنها في الواقع كانت تبلت تاريخها القديم عند ما تحولت  
من الوثنية إلى المسيحية في القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطأ أن نحمل  
المسلمين المصريين تبعاً تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا  
التخريب هم المصريون المسيحيون . فما إن أصدر الإمبراطور تيودوسيوس عام ٣٩٥ م  
أمره بإيقاف العبادات الوثنية في أنحاء الإمبراطورية ، حتى راح المسيحيون المصريون  
يهدمون أو يخربون تلك المعابد ، أو يحولونها إلى كنائس وبيع . وإذا كان  
المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة ، فإنهم يتحملون تبعاً ضياع مفتاح الكتابة  
المصرية الهيروغليفية والديموطيقية ، حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم

خمس عشرة قرناً ، إلى أن كشف شامبوليون رموزها في أوائل القرن التاسع عشر . فلم يكن ثمة ما يدعو المسيحيين المصريين إلى الاحتفاظ بأسرار الكتابات القديمة وقد بسرت لهم الأحرف اليونانية كتابة لغتهم ، التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم اللغة القبطية . وليس معنى ذلك أن الأقباط نبذوا كل شيء من تاريخهم السابق على المسيحية — وهو أمر لا يقبل عقلاً — فلا شك أنهم احتفظوا بتراث علمي وطبي غنثظ بالسحر . ولعل الحرص على دقة التلفظ بالتعاويذ السحرية ، هو الذي شجعهم على كتابة اللغة المصرية بأحرف يونانية ، لها من حروف العلة والحركة ما لا يوجد في الكتابات القديمة ، مما يحفظ لهذه التعاويذ صحة النطق بها ، فمن شروط فعل السحر دقة التلفظ بكلماته وتراكيبه وجميله ، وقد يكون من المهم المحافظة على تنعيم التعاويذ .

ومع ذلك فإن الشعب المصري المسيحي كان يمثل في غالبيته الكبرى شعب مصر القديم ، الذي احتفظ بخصائصه ، فضائله وعيوبه ، على طول الاحتلال المقدوني والروماني والبيزنطي . ولكن لغته تأثرت دون شك باللغة اليونانية السائدة في الهيئات الرسمية ، فاستألفت ألفاظاً ومصطلحات يونانية كثيرة ؛ كما تأثرت طقوسه وألحانه الكنسية ، وطرزه المعمارية وزخرفته ، بالفن البيزنطي ، بعد أن تحول الإمبراطرة الرومانيون إلى الديانة المسيحية .

وحين اعتنق المصريون في غالبيتهم الإسلام ، لم يحتفظوا لا بلغتهم القبطية ، ولا حتى بجنسهم ، تمام الاحتفاظ ، فيما عدا القلة التي تمسكت بالمسيحية ، وجاهدت في الإبقاء على لغتها حية حتى قرون متأخرة . ولكن هذه اللغة انتهت ، بعد القرن السادس عشر أو السابع عشر ، إلى أن تكون لغة الطقوس الكنسية فحسب . بل آلت إلى أن تكتب بحروف عربية ، ويتعلمها ، من يحرص على تعلمها ، في كتب مؤلفة بالعربية .

أما المصريون المسلمون فقد اختلطوا بالعرب وبغير العرب ، من المسلمين الذين توافدوا على مصر في مختلف العصور ، واستقروا فيها .

ومع أن الباحثين في علم الأجناس يرون أن الجنس المصري لم يتأثر في غالبيته بذلك الاختلاط ، وبرغم ما يقوله — وهو على صواب — المؤرخ إرمان من « أن

الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش حتى الآن في السكان الحاليين لهذه البلاد ، ،  
فإن الحقيقة الواقعة ، وما نراه من إحساس المصريين بغروبتهم ، تدل على انقسام  
كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها . فالمصري المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس  
لحضارته ؛ ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهى  
أمره . والمصري غير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته .  
وإذا أردنا تقسيماً أدق ، فلنأخذ نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : إما مسلم  
يحب إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامية ، بحكم اقتضار دراسته وفهمه على التاريخ  
الإسلامي ، والنور الذي أدها الإسلام للحضارة ، وإما مسلم - أو مسيحي - يشعر  
بجامعة اللغة والراث الحضاري ، وهي التي تجمع شمله بالشعوب التي تتكلم  
اللغة العربية .

والنتيجة العملية لكل هذا ، هي أن سكان مصر ، من المسلمين ، يبدأون  
تاريخهم الحضاري بالفتح الإسلامي ، ومن غير المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضاري  
بكراسة مرقس الرسول ، ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين في ثقافتهم العربية .  
ولكن مصر لم تبق ، ولا يمكن أن تبقى ، بمعزل عن العالم الذي تطور منذ  
القرون الوسطى ، وأنشأ في أوروبا حضارة نبشت أصولها من حضارة اليونان والرومان  
والتوراة والإنجيل ، وأخصبها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليوناني ، فإذا أضفنا  
إلى هذا أن حضارة اليونان تعرفت على مصر القديمة ببعض التفصيل ، وأن الحضارة  
العربية تأثرت في بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطي ، فإن السلسلة الحضارية  
التي تجمع بين مصر القديمة ، ومصر المسيحية ، ومصر الإسلامية ، والحضارة  
الأوربية الحديثة ، سوف تضيق حلقاتها .

وما إن تنقبط مصر ، وتفتح عيونها على حضارة أوروبا ، حتى تكتشف  
أمراً عجيباً ، هي التي نسيت تاريخها القديم : ستكتشف أن لتاريخها الذي نسيت ،  
حساباً أكبر حساب ، عند أصحاب هذه الحضارة الحديثة . ستكتشف أن هؤلاء  
يعتبرون الحضارة الفرعونية أقدم نقطة للفكر والضمير والإحساس الإنساني ،  
عرفها التاريخ . فلم يعد مقبولا أن يظل المصريون على جهلهم بحضارة أجدادهم  
المنسيين منهم وحدهم : ويتنبه المصريون إلى هذه الحقيقة ، وبخاصة في عهد



التحرر ، وعقب حركة سنة ١٩١٩ ، وكان هذا منشأ المدرسة التي نادت بالفرعونية في عشرينات هذا القرن . ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة ، فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً في صدارة كتاب العربية ، ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامى . إنما كانت حركة تحاول أن تمحو عن المصريين سبة وعاراً ، سبة جهلهم بتاريخهم ، وعار ازدهارهم بأعجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ . فإذا كنا قد صححنا ، إلى حد ما ، موقفنا من الحضارة المصرية القديمة ، فلأننا ما زلنا ، مع شديد الأسف ، نتنكر أو نتجاهل حقبة هامة من حقبات التاريخ المصرى ، وهى الحقبة المسيحية ، ونكتفى منها بكلمة أو كلمتين عن اضطهادات دقلديانوس ، ثم نقفز فجأة إلى مقدمات الفتح الإسلامى .

وتاريخ مصر فى طريقة كتابته — ما زال شللياً مقطعاً ، لا نرى فى فصوله أكثر من التتابع التاريخى . فهى فصول لا تكاد تجمعها صلة ، أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف . وحقيقة التاريخ المصرى هى فى أنه قصة واحدة طويلة ، تدور حوادثها حول أشخاص عديدين ، من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة ، ولكن بطلها واحد ، هو الشعب المصرى .

والعلة فى هذا التقطيع هى : أولاً طول التاريخ المصرى — وليس يعرف تاريخ غيره بهذا الامتداد والاتساع — ثم اختلاف وسائل دراسته ، تبعاً لكل حقبة : دراسة النصوص القديمة ، والمعابد والمقابر الباقية ، والحفر والتنقيب على ما يوجد منها تحت الأرض ، يقضى فيها الأثريون والمؤرخون طول حياتهم بحثاً وكشفاً ونقلًا وتسجيلاً وفك رموز وترجمة نصوص ، وتطبيق ذلك على ما جاء فى تواريخ اليونان والرومان ، وأقوال رجالهم وجغرافيتهم عن مصر الفرعونية . ودراسة اللغة الإغريقية واللاتينية والقبطية ، والتمرس بقراءة البرديات والشققات والأوستراكا ، والتبحر فى التاريخ اليونانى والرومانى والبيزنطى ، لغة وحضارة وديانة ، لمن يعنى بتاريخ مصر الهلينستية ، أو مصر الرومانية الوثنية أو ، مصر المسيحية . وفى العهد الإسلامى ، يضطلع المؤرخ اضطلاً كاملاً بالحضارة الإسلامية عامة ، ويعمل فى مطالعة النصوص على شواهد القبور وفى البرديات والشققات وما إليها ، بالإضافة إلى دراسة كل من أرنخوا لمصر والإسلام دراسة مستفيضة .

وينشأ عن هذا الاختلاف الكبير في الوسائل ، انفصال بين مؤرخي مصر ، انفصال علمي مدرسي ، يجعل من الصعب على المطلع العام أن يلم بتاريخ بلاده إلاماً موحداً . ومن يكلف نفسه مشقة قراءة هذا التاريخ مسلسلاً ، ينسى في آخره أوله ؛ ويصده عن تاريخ الفراعنة بعد الشقة ، وانقطاع الصلة الحضارية ، وصعوبة فهم الديانة ، وقلة النصوص الأدبية ، وشعور قارئها بأن ترجمتها مهزوزة ؛ ويصده عن تاريخ البطالسة والرومان أنه تاريخ أسرة مقلونية وحضارة هليستية ، أو امبراطرة رومانيين ، وحضارة لاتينية ، لا يكاد المؤرخون فيها يذكرون شيئاً عن الشعب المصري ؛ ويصده عن تاريخ مصر المسيحية ، جهله بحضارة بيزنطة ، وصعوبة متابعة المناقشات الدينية التي نشبت في العالم المسيحي ، وكان الكرسي الرسولي الإسكندري في القرون الأولى للمسيحية طرفاً هاماً ، ومناوئاً خطيراً ، لما تقدم به كل من روما وبيزنطة وأنطاكية . هذا إلى أن القارئ العام لا يجد بين يديه تاريخاً للحقبة المسيحية يبسط له أمور العقيدة ؛ لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول في بعض التفاصيل ، كما يتحرج المؤرخ القبطي من التبسط فيها ، إذا كان يكتب لمواطنيه جميعاً ، وغالبيتهم من المسلمين . وبذلك ظلت الحقبة المسيحية تعيش في شبه ظلام تاريخي .

ولا أحسبنا نفهم الفتح العربي ، إلا إذا عرفنا مقدمات الحوادث التي تحولت فيها مصر من الوثنية إلى المسيحية ، وأهملت طريقة كتابة لغتها القديمة بالحروف الديموطيقية ، والظروف التي عاشت فيها مصر المسيحية ، يحكمها إمبراطور مسيحي في بيزنطة ، ويضطهد أهلها اضطهاداً أنكى وأشد من اضطهاد الإمبراطرة الوثنيين . عندئذ يمكن أن نفهم كيف انتقلت مصر من المسيحية إلى الإسلام ، وكيف أهملت لغتها القديمة ، لتتخذ من لسان العرب لغتها الوحيدة .

كما لا أظن أننا نبني قوميتنا بناء سليماً مؤسساً ، إلا أن ندرس تلك التحولات الروحية ؛ فإن مجرد سرد بعض الوقائع ، فيما يشبه التعمية ، قد قصم ظهر تاريخنا من وسطه . يتعين علينا أن نطالع خلال حوادث الألف عام ، التي انقضت بين غزو الإسكندر والفتح الإسلامي ، حياة مصر الروحية ، وحياة الشعب المصري خلف ستار البطالسة ، والأمبراطرة الرومانيين والبيزنطيين ؛ لأننا بدون فهم تلك

الحياة ، لن نعرف من تاريخنا شيئاً غير تاريخ مصر الإسلامية ، فهو التاريخ الحى فى نفوسنا إلى اليوم .

ويمكن أن نعرف أولاً أن الملكية المصرية القديمة كان قد تغير وجهها منذ أمد طويل ، قبل أن يقضى الفرس القضاء النهائى على استقلال مصر . فلم يعد الفرعون فى أغلب الأسر المتأخرة مصرياً ؛ ونلاحظ أن شعبين أو ثلاثة من الشعوب الأجنبية بدعوا التغلغل فى الحياة المصرية . أولها شعب لوبيا ، وقد كان كبير الكهنة فى طيبة يحمل اسماً لوبيّاً وهو « مصحرتا » . والغالب أن التوغل اللوبى كان أبرز فى الطبقة العسكرية . وكانت الأسرة الثانية بعد العشرين ، عندما ارتقى شيشونق عرش مصر فى بوباسطيس ، لوبية خالصة . وجاء بعدهم الإثيوبيون ، ولم يكونوا سوداً بل كانوا من أصل لوبى ، ويحملون أسماء لوبية . وكان ملوك الأسرتين الرابعة بعد العشرين ، والسادسة والعشرين ، — وهذه الأخير هى الأسرة الصاوية — من أصل لوبى أيضاً . والغالب أن ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين ، والثلاثين ، كانوا غير خلصاء الدم المصرى . والدم الأجنبى قبل أن يجرى فى عروق الفراعنة ، كان قد جرى فى أوعية العسكريين المعروفين بالمشاوشة ، ووقعت على عاتق هذا الجيش الأجنبى مهمة الدفاع عن الاستقلال المصرى .

وجاءت الجنود المرتزقة الإغريق بعد ذلك ، ومرتزة آسيا الصغرى ، ليحلوا محل المشاوشة . ولم يتناول هذا المزج سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية ؛ وبقى المصريون ، كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن ، خلصاً ، يحتفظون بصفاتهم الأصيلة ، ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون ، مثل أجدادهم .

ومراكز الحكم ، فى الأسر الفرعونية الأخيرة ، تحولت من الجنوب إلى الشمال ، وتبعها المراكز الدينية . وإذا كانت طيبة ، وثالوثها « آمون — موت — خونسو » ، قد احتفظت بمقامها إبان حكم الأسرة الثانية والبوباسطية ، فقد بدأت تزوى رويداً ، وتفقد أهميتها حيال معابد منف وصا وأتريب وبوطو ومنديس وسمنود ، وحيال آلهة هذه المعابد من أمثال إمحوتب بن قتاح ، ونيط إله السماء ، وبسليط الهرة ، وهاتور البقرة . ولا يبق من الباطنيين القديم سوى إله العالم

السفلى ، أوزيريس ، وأخته وزوجته إيزيس ، وابنتهما هوروس . وظل المصريون ينقشون النصوص المقدسة على نواويسهم وتوابيتهم ، ويرسمون صور الحياة العامة والحياة المنزلية على جدران مقابرهم ، ويجمعون نصوص كتاب الأموات في نحو مائتى فصل . وظاهر أن العبادة المصرية القديمة كانت في طريقها إلى الانحلال والتدهور ، حتى أمست مجرد طقوس ومتون قديمة ، غلب عليها السحر ، كما أن عبادة الحيوانات أخذت تنتشر ، ولم تعد تلك الحيوانات ، كما في الماضي ، رموزاً للآلهة ، بل أخذت تعبد لذاتها .

وكانت مصر قد فتحت أبوابها للتجار الأجانب ، فدخلت السفن الفينيقية إلى مصر عن طريق فروع الدلتا ، وعليها التجار الآسيويون ، وجاءها تجار الإغريق وميليتيا . وعندما استقر حال البلاد ، واستتب الأمر لبساماتيك ، من ملوك آخر الأسرات الفرعونية ، كان هؤلاء التجار قد ألفوا جاليات تجارية وصناعية هامة . ولم تعد صا ونوقراطيس ، وحدهما ، مراكز الجاليات اليونانية ، بل إن منف ، ومدن الدلتا الكبرى ، احتوت على أحياء إغريقية كاملة . وبذلك توصلت العلاقات بين بلاد اليونان ومصر ، وتبادلا السلع التى يتتجأها ، أو يستوردانها من فينقيا وبابل وبلاد العرب السعيدة وإثيوبيا ، كالزيت والشيذ والفلال والذهب والنحاس والبخور والأعطار والعنبر والأقايير والعاج واللازورد والأخشاب .

وكان رواج التبادل التجارى مصلو لراء نظرية فرعون ، مما يسر له إنشاء المعابد الكبرى فى صا ومنف وواحة آمون . وأخذ الإغريق ينقلون إلى بلادهم حكايات عن وادى النيل ، وأوصافاً تختلط فيها الحقائق بالأساطير والخرافات ، مما أثار فضول مجي المعرفة من أهل المدن اليونانية ، فوفدوا على مصر ، ليحققوا بأنفسهم ما سمعوه على ألسنة التوائية والتجار الثرارين .

أى أنه كان لتلك الشائج الاقتصادية الفضل فى أن يزور مصر رجال كبار ، من أمثال المشرع الأثينى صولون ، والفلاسفة والعلماء من أمثال يودكسيس الكينيدوسى وفيثاغورس وطاليس ، بل وأفلاطون العظيم بذاته . وقضى هؤلاء بمنف أعواماً يدرسون ويتعلمون ، وذلك قبل أن يفد على مصر ذلك الخير الصحنى الأول فى التاريخ ، المولد فى هاليكارناس ، ليدبج مقالاته المثيرة عن مصر ، ويجمعها



في الكتاب الثاني ، من تاريخه المشهور ، بعنوان « أوتريا » . وكان لهذه المقالات أكبر حظ من الذبوع في العالم القديم والحديث على السواء ، ضمن ما ذاع بما يعرف باسم « تواريخ هيرودوتس » . ونقول العالم الحديث ، لأن العالم لم يكن يعرف عن مصر ، حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، غير ما ورد في كتابات هيرودوتس وديودورس واسطرابون وبوليبيوس ويوسيفوس وجرجس سنسبلوس ، إلى حد أن يقول برستيد عام ١٩٣٣ ، في الفصل الأول من كتابه عن الفكر المصري ، المسمى : « فجر الضمير » ، بأن الكشف عن آلاف الأعوام من تاريخ الشرق ، أمره قريب منا ، فالترجمة الإنجليزية لكتاب رولان المسمى « التاريخ القديم » - مع أن مؤلفه لم يكن تحت يده أكثر إلا قليلاً من كتاب هيرودوتس والتوراة كمصادر لتاريخ الشرق القديم - كانت ما تزال تعرض منها نسخ في واجهات المكتبات بالبلاد الأمريكية ، ويذكر برستيد جيداً أن كتاب رولان هذا كان ذاتاً أيام حدوثه . والواقع أن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة ، تركت أثرها في حياة الإغريق الأوائل ، وغير الإغريق ، من شعوب العالم القديم ، هذا إلى أن عبادة إيزيس ، بالذات ، انتشرت في العالم الهلينستي والروماني .

وعندما جاء الإسكندر إلى مصر ، اعتبر نفسه وريثاً لحضارتين : الفرعونية واليونانية . وأخذ عنه بطليموس بن لاجوس سياسته في معاملة المصريين معاملة شعب عريق صديق . وحرص البطالسة بعده على هذه السياسة ، بل حاولوا أن يوائموا بين عقائدهم السطحية ، وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار . ولكنهم أخفقوا أمام احتفاظ المصريين بديانتهم ، وكرههم أن يتدخل الغرباء في طقوسهم وأن ينقلوا إلى دخائل إيمانهم .

وليس معنى هذا أن البطالسة تنكروا لحضارتهم ، فلم يكن بطليموس سوتر ولا أولاده وأحفاده ، في غنى عن وطنهم الأصلي . ولكن مبادئ الإسكندر في المواءمة بين الشرق والغرب [ أي بين حضارات الشرق الأدنى والحضارة اليونانية ] هي التي أقام عليها البطالسة والسلوقيون الحضارة المعروفة بالهليستية .

وأنشأ سوتر لأهل وطنه مدينة بطليموسة [ بطوليمايس ] في الطيبائيدة ، فأضاف بذلك مدينة جديدة إلى مدن الجاليات اليونانية بمصر .



ولا نعرف مصدر الهداية في إنشاء عبادة مزدوجة ، انخلت أهمية خاصة في العالم الغريقوروماني ، وهي عبادة سيرابيس [أوزير - آيس] ، أي العجل آيس الذي مات وارتفع إلى مرتبة الآلهة ، فأصبح أوزيريس . وهذا الإله البزميط ، يتمص عند اليونانيين شكلا إغريقياً محضاً ، يشبه كبير آلهتهم زفس ، أو إله العالم السفلي آديس . ويجتمع سيرابيس مع إيزيس والابن هوروس [ وهو هاربوكراتس اليونان ] في الثالث الذي كان يعبد بهيكل الإسكندرية الأكبر ، أي السرايوم مقام سيرابيس . والغالب أن يكون بطليموس الأول هو الهادي إلى تلك العبادة .

وليس معنى حرص المصريين على تقاليدهم وطقوسهم ، أن لم يأخذوا عن اليونان شيئاً البتة . فقد نقل المصري عن اليونانيين طريقة رى الأراضي بواسطة الساقية والطنبور ، كما تخلى عن مثره المصري القديم ليلبس الجلاية اليونانية .

وسينقل إلى المصريين بعض الفن اليوناني ، ويظهر أثره المهجن في مقابر كوم الشقافة ، والصور الجناثرية الملونة على ألواح الخشب ، التي عرفت في الفيوم ومصر الوسطى . وستأثر مصر الرومانية بالفن البيزنطي ، وهو نفسه فن هليينسي ، امتزج فيه الفن اليوناني والروماني والفارسي ، ومن بعض ذلك المزيج سوف يخرج الفن الإسلامي في مطالعه .

والحياة الهلينستية كانت تتشابه حول الخوض الشرق لبحر الروم ، وهواصمها كانت الإسكندرية وأنطاكية وأثينا ، ثم برسمامة فيما بعد . واحتفظت الفلسفة في أثينا بمكانها المفضل ، بينما نزعَت الإسكندرية إلى البحوث العلمية واللغوية والأدبية في مدرستها الكبرى [ الموزيون ] ، ومكتبة القصر الملكي المشهورة ، والمكتبة الفرعية الملحقة بالسرايوم ، معبد الإله سيرابيس .

وظهرت بالإسكندرية أسماء إقليدس وأرشميدس ، عندما وفدا على مدرستها لينصلا بالعلامة إراطوسطين ؛ وكان هبارخوس يمثل مدرسة الفلك في القرن الثاني قبل الميلاد ، وهيرون يختص بالميكانيكا إبان القرن الأول ، واشتهر في الطب هيروفيلوس الخلقندوني ، وإرازسراطس اليولي ، وفي تاريخ أدب اللغة كليماخوس . أما التحقيق العلمي للنصوص الأدبية ، وبخاصة أشعار هوميروس ، فقد أفلق فيه زينودوتس الإفيسوسي ، وأرسطوفانس البيزنطي ، وأرستارخوس .

لم يكن للمصريين أدنى علاقة بما يجري في مدرسة الإسكندرية من دراسات وبحوث ، فهم يواصلون بناء معابدهم الكبرى في إدفو وكوم امبو ودندرة . أما يهود الإسكندرية ، وكانوا يؤلفون جالية كبيرة وغنية ، فكانوا يمالئون الغالب ، ويتملقون الحكام — مثلما فعل أحفادهم ، يهود شمال أفريقيا في القرن التاسع عشر بعد احتلال الفرنسيين للجزائر — ويبلغون في تصنعهم الحضارة الإغريقية حد نسيان غالبيتهم اللغة العبرية ، حتى ليضطّر فقهاؤهم إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية ، وهي الترجمة المشهورة باسم السبعينية إشارة إلى الاثني وسبعين عالماً الذين اشتركوا أو أشرفوا على تلك الترجمة .

فلتصور الحالة على وجهها الصحيح : حكام أجانِب وجاليات أجنبية ، تعيا حياتها الهلنستية ، وتنظر إلى الأهالي نظرة تشبه إلى حد كبير نظرة الجاليات الأجنبية إلى المصريين فيما بين القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . نظرة فيها تعال واستهتار ، لا يحدها إلا مجرد الاحترام الظاهري لعقائدهم وطقوسهم . ولم يكن أولئك الأجانب يغنون لا باللغة الوطنية ، ولا بالتاريخ الفرعوني ، مع أن الكاهن المصري مانيتون وضع تاريخاً للأسرات باللغة اليونانية . ولو كان هذا التاريخ متداولاً لعثرنا على بعض نسخه ، أما أن يحتق تماماً في حريق مكتبة الإسكندرية ، فهذا دليل على عدم انتشار الكتاب . وإنما ألفه الكاهن السنودي بتكليف رسمي من بطليموس الثاني ، ووضعه هذا في المكتبة الكبرى سجلاً ومرجعاً لا غير ! ولولا أن المؤرخ يوسفوس اضطر اضطراراً إلى الرجوع إلى هذا الكتاب ليرد على أبيون الذي وسم اليهود بكل نقيصة ، ولولا بعض المؤرخين المسيحيين ، فيما بعد ، لضاع حتى اسم ذلك المؤرخ المصري القديم .

وكان أهل البلاد المحقرون المهانون لا يتفكرون بضرعون إلى آلهتهم ليخلصوهم من كل أولئك الغرياء ، وتتحرك ألسنة آلهتهم بالنبوءات ، تبشرهم بالتخلص وشيكاً من النير اليوناني . وتنشب ثورة مصرية في الدلتا ، وتنتقل إلى الصعيد ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، ويحكم الأمير هارماخيس في الصعيد كملك مستقل ، ويتحصن الثوار في معبد إدفو ، وتستمر هذه الثورة حتى يقضى عليها بطليموس العاشر ، ويلتزم العاصمة القديمة طيبة . ويحدثنا المؤرخ بوليبيوس عن زعماء تلك الثورة ،

ويسمىهم الأمراء الملكيين ، والغالب أن جلهم كانوا من كبار الكهنة .

وفي هذا القرن الثاني قبل الميلاد ، يبدأ نجم روما في الصعود ، بعد ختام حربها الثانية مع قرطاجة [ ٢١٧ ق.م. ، الحرب البونية الثانية ] وينتهي التوسع الروماني في الشرق حتماً إلى الاصطدام بالمقدونيين ، مما يدفع ملك مقدونيا إلى التحالف مع عدو روما الأكبر ، هانيبال .

وينتزع الملك السلوقي أنطيوخوس الكبير سوريا من مصر ، وتسليخ مدن آسيا الصغرى من حكم البطالسة ، ولا يبقى لهؤلاء خارج مصر من أملاك سوى جزيرة قبرص ، وبعض بلاد لوبيا .

وبدأت روما في القرن الأول قبل الميلاد تتحشر في ثنايا التاريخ المصري ، بعد أن ضمت مقدونيا إلى ملكها ، ثم أخضعت اليونان ، ومحت قرطاجة من على وجه البسيطة ، وتسلمت أرض بركة ، تنفيذاً لوصية أبه من ملوك البطالسة [ عام ٩٧ قبل الميلاد ] .

وما إن سقط مترديداتس الرابع ، ملك البونطس [ حول البحر الأسود ] ، تحت ضربات القوادسيلا [ ٨٧ - ٨٥ ق.م. ] ولوكولوس [ ٧٧ - ٦٧ ق.م. ] ، وبومبيوس الكبير ( ٦٦ - ٦٢ ق.م ) حتى تم إخضاع منطقة الشرق الأدنى لروما ، وأصبحت مصر محاطة بالولايات الرومانية من كل جانب . وكان الحزب الشعبي في السيناتو الروماني يطمح في تملك مصر ؛ وجاء في قانون الإصلاح الزراعي ، الذي اقترحه رولوس على المجلس ، وهو يفرض إعادة تقسيم الأراضي بين الفلاحين الرومانيين ، أن تكون الأراضي المصرية ضمن ما يعاد توزيعه من أراضي الممتلكات الرومانية فيما وراء البحر . مع أن مصر كانت في ذلك الوقت دولة مستقلة يحكمها اللاجيديون . وإنما فعل رولوس هذا استناداً إلى وصية نسبت زوراً إلى أحد أمراء البطالسة . ولم يتأخر ضم مصر فعلاً إلا لأن حزب الأرستقراطيين - الأوبتياتس - بزعامة القنصل سيسرون ، قاوم قانون رولوس مقاومة عنيفة ، حالت دون الموافقة عليه .

والأمير اللاجيدى ، الذى زينت الوصية باسمه ، كان شاباً اسمه اسكندر يعيش فى روما ، وهو ابن بطليموس اسكندر الأول . فلما مات اسكندر هذا ، تولت العرش ابنته ، باسم الملكة برنيقة الثالثة ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، فأوفد الدكتاتور الرومانى سيلا الشاب اسكندر ، ليتزوج أخته ، ويحكم إلى جانبها باسم اسكندر الثانى . وما عثم هذا الفر أن قتل برنيقة ، فقتل به الاسكندريون ، وسط الملعب عام ٨٠ قبل الميلاد . ونحلا العرش اللاجيدى ، وذاعت وصية الأحقق اسكندر الثانى بوضع مصر فى حوى الشعب الرومانى . فاضطر الاسكندريون إلى تولية ابن غير شرعى للبطالسة وزوجوه أخته كليوباترة السادسة ، ولقب بطليموس فيلوباتر فيلادلفوس ، ولكن الشعب لقبه بالزمار ( أوليتس أى عازف الناي ) ، وفى هذه الأثناء ابتلعت روما جزيرة قبرص ، وقاومت الاعتراف بالزمار عشرين عاماً . وما إن اعترفت به حتى ثار عليه الاسكندريون ، ففر هارباً إلى روما ، وتولت ابنته برنيقة عرش مصر . ويعود الزمار إلى عرشه مؤيداً من القائد بومبيوس الكبير ، فيأمر بقتل ابنته ، ويملك حتى موته عام ٥١ ق . م .

ثم يبدأ العهد المشؤم ، فى صورة المشاحنات والصراع بين كليوباترة السابعة ، ابنة بطليموس الزمار ، وبين شقيقها الغلام . وهذه هى كليوباترة التى اشتهرت فى التاريخ بمغامراتها السياسية والغرامية ، مع ابن بومبيوس الكبير ، ويوليوس قيصر ، ومارك أنطونيوس ، ومن يدرى من غير هؤلاء .

وتنتهى مغامرات بنت الزمار بانتحارها ، وانتقال مصر إلى ملك شخصى لأغسطس أكتافيانوس قيصر ، وهما هو التحول الكبير فى تاريخ مصر ، تنزل فيه من دولة مستقلة تحكمها أسرة أجنبية ، إلى ولاية تابعة لإمبراطورية فيما وراء البحر ، عاصمتها روما ، ثم القسطنطينية . وستظل ولاية تحت حكم العرب ، حتى تستقل بها الأسر الطولونية فالإخشيدية فالفاطمية فالأيوبية فالمملوك البحرية فالبرجية . وستعود ولاية مرة ثانية بعد غزو سليم بن عثمان فى أوائل القرن السادس عشر ، وتظل تابعة ولو اسماً لتركيا ، حتى أوائل القرن العشرين .



ولقد تحسنت الأحوال بمصر في القرن الأول من الاحتلال الروماني . وفيما عدا سيطرة المراقب المالي الروماني - الإيدوس لوجوس - على المعابد المصرية ، وأوقافها الشاسعة ، لم تتدخل إمبراطورية روما في ديانة المصريين ولا في طقوسهم ، وواصل المصريون إقامة معابدهم وتجديدها في دندرة وفيلو .

ولو سئل أمبراطرة الرومان عن قيمة مصر لم لأجابوا تواً : الغلال والخزيرة . فلم يشترك المصريون في الاحتفال الرومانية ، ولا كانت لهم كلمة بين حكام الإمبراطورية ، بل لقد منعوا من أن يكونوا مواطنين رومانيين ، على خلاف المعمول به في الولايات الرومانية ، وبالأولى لم ينتخب منهم أعضاء بمجلس الشيوخ « السنتو » ، ولم ينبغ من المصريين تحت الحكم الروماني علماء وأهل ثقافة ، مثلما حدث في ولايات آسيا الصغرى واليونان . ومع أن الرومانيين كانوا يتعجبون من الديانة المصرية العتيقة ، ويعتقدون بأن الكهان المصريين مستودع أسرار خفية ، فإن نظرهم إلى طقوس الشعب المصري ، وإغراقه في عبادة الحيوانات ، كانت مليئة بالاحتقار . وإذ دعى أغسطس قيصر ذات مرة للاشتراك في الاحتفاء بالعجل أبيس ، أجاب الداعين بنصف أنفه : « درجت على عبادة الآلهة ، لا الثيران » . وكان الرومان يقاومون السحرة والمشعوذين المصريين الذين كانوا يدعون تمثيل الديانة المصرية في الخارج ، كما اعتبروا عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة في المجتمع الروماني . ولم تقدم مقاومتهم طويلاً ، فقد أنشئ أول معبد رسمي في روما لسيرابيس وإيزيس في عهد دوميتيانوس قيصر ( ٨١ - ٩٦ م ) ، وأقيم في حكمه معبد إسنا [ لاطوبوليس أي مدينة الإله لاطس ، وهو سمك اللفش ] . وجاء إلى مصر يوفيتال ، الشاعر الساخر المهجاء ، ضابطاً في جيش الاحتلال . بمعسكر أسوان : فعرف بأمر خنافة بين أهل دندرة وكوم امبو على عبادة التمساح ، وراح يتندر . في إحدى قصائده . بالمصريين وعبادتهم للبهائم .

وفي حكم أدريانوس قيصر [ ١١٧ - ١٣٨ م ] قامت ثورة مصرية من تلك الثورات التي لم تخرج عن نطاق محدود ، والتي كانت الجيوش الرومانية تقمعها فوراً . وزار أدريانوس مصر مرتين ، اصطحب في إحداها زوجته ساينا ، وذهب مع صحبهم في رحلة سياحية إلى الصعيد ، وشاهدوا تماثلي « ممنون » ، وسمعوا صوت



الصغير الذي كان يتبعث من أخذ التمثالين عند مطلع الشمس ، وسجلت الشاعرة بلبلة ، إحدى سيدات الحاشية ، ذكرى الزيارة في قصيدة نقشها على ساق التمثال ، قالت فيها :

« ولقد استمعت ، أنا بلبلة ، الجرس الحلو الذي يخرج من قامينوت أو ممنون ، تحت هذه الصخرة ، وحياء أدريانوس ثلاث مرات . وأنشدت بلبلة هذه الأشعار « تذكاراً للصوت الذي أيد حب الآلهة لأدريانوس . »

وكانت زيارة أدريانوس لطيبة عام ١٣٠ ميلادية ، وقد عني عناية خاصة بمدرسة الإسكندرية ، وعين لها أساتذة غير مقيمين ، ولا قائمين بتدريس ، إنما أراد أن يشرف الجامعة بهم ، أو يشرفهم بالانتساب إليها . وكتب أدريانوس لقريبه سرفيانوس يصف زيارته لمصر :

« لقد تفحصت أحوال مصر ، يا عزيزي سرفيانوس ، مصر التي كنت تشيد بها ، فإذا هي بلاد طائشة ، قلب ، لا تكف عن المشاغبة . ووجدت فيها عباد سيرابيس نصارى ، وأولئك الذين يدعون الولاية المسيحية في لباس الأساقفة ، يعبدون هم أيضاً سيرابيس . فليس في مصر حانخام ولا قس ولا كاهن ولا عراف ولا عياف لا يعبد سيرابيس : وفي ظني أن كاهنتنا الكبير ، لو جاء إلى مصر ، لعبد سرابيس أو المسيح . والشعب هنا في الإسكندرية شعب يحتدم ثورة ، سليط اللسان ، شديد الغرور . المدينة تفيض ثراء ، وتعمل وتنتج حتى لا تجد فيها عاطلاً . أهلها أرباب حرف وصنائع ، وما أكثر نساج الكتان فيها . ولن ترى حتى الأعمى ، ولا المقعد ، خالي شغل . وللجميع ، من مسيحيين ويهود وغيرهم ، رب واحد . والمدينة جديدة حقاً بأن تكون عاصمة مصر ، ولو أنني كنت أرجو أن تلزم شيئاً من النظام . لم أرفض لها طلباً ، وأعدت إليها حقوقها القديمة ، بل وأكثر ، حتى يكونوا راضين عن حاضرم . وما إن أدريت ظهري حتى سلقوا ابني فيروس بالسنة حداد ، وأترك لك أن تتصور ما قالوه عن أنطونوس ! »

وهذا الامبراطور ، العلامة الساخر ، جاء إلى مصر ومعه خليله الأرمذ أنطونوس ، فاحترمه النيل ، وقيل بأن الغلام مات متحرراً . فأقام له الإمبراطور

معبدًا باسمه ، في مكان قرية الشيخ عبادة حالا ، بمدينة كانت تعرف باسم  
أدرينوبوليس أو أنطونوبوليس .

ومن سخر بمصر ، من كتاب الرومان ، بروكوبيوس ، ويوحنا اللىدى ،  
وأنسطاس ، وأوناب . وكانوا يقولون بأن الأهرام ليست سوى شئنة كلفت  
أموالا باهظة ، وجهوداً مضنية ، وكانوا يحثرون « هذا الجنس المصرى الذى  
لا يخرج من بين صفوفه أديب ، وعلماءه اللاهوتيون لا قدرة لهم على التفكير  
العميق » .

وفي عهد مرقس أوريليوس قيصر ، الفيلسوف الرواقى المشهور ( ١٦١ - ١٨٠ م )  
تشبث ثورة مصرية في برارى الدلتا وبحيراتها ، تزعمها الكاهن إيزيدورس ، وقام  
بها على رأس الفلاحين بمنطقة شرق الإسكندرية ، تعرف باسم « بوكوليا » ،  
أى مرعى البقر . وكسر الجند الرومانى وبلغ أبواب الإسكندرية ، فأنفذ إليهم  
الإمبراطور جحافل الرومانية التى تحتل سورية ، بقيادة حاكمها ، ففضى على  
الثورة بالخيالة والوقيعه بين الثوار .

وعندما أصدر الإمبراطور كاراكلا مرسوم عام ٢١٢ م ، الذى أوسع فيه  
مدى التمتع بالرعوية الرومانية ، طبق على سكان مصر . . . فيما عدا المصريين ا  
هذا كان حال مصر طوال السنوات التى انقضت منذ هزو الإسكندر ؛  
ثمة وهوان وثورات ، لا أمل فيها للتخلص من حكم الرومان ، وتدهور العقائد  
الدينية ، بالرغم من مواصلة إنشاء المعابد ، ومظاهر الطقوس الألفية البراقة .  
ونجى النصرانية إلى مصر ، لا لتغير من حال أهلها ، ولا لتجعلهم أقدر على  
القتال . بل لتكون ذريعة جديدة للإمعان في إذلالهم ، وإزالة الهوان بهم فوق  
كل هوان .

ولو أنك استجمعت كل الظروف والحن التى مرت بالمصريين ، منذ قضى  
الفرس على استقلالها ، حتى آخر العهد الرومانى والبيزنطى ، لما توقعت سوى نتيجة  
واحدة : هى القضاء على القومية المصرية ، إن لم يكن نحو المصريين من على وجه  
الأرض . وما عليك إلا أن تتأمل ما حدث في بلاد الغال وأيبيريا ورومانيا ،  
حيث تحولت تلك البلاد الكبيرة إلى مقاطعات لاتينية ، وكانت لغة الرومان هى

الأصل في تكوين اللغات الفرنسية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا الحديثة، وما زال أهل تلك البلاد يعترفون بأصلهم اللاتيني .

ومع ذلك ، لم تستطع كل تلك الأرزاء والإحن أن تقضي على القومية المصرية . وكلما زادت محنتهم ، كلما ازدادوا استمساكاً بقوميتهم . وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية في مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء ، وهي حقبة رهيبة رائعة في وقت واحد ، سنعود إليها في الفصل التالي . وإنما هذه صورة رسالة حفظها لنا تاريخ المسيحية في مصر ، كتبها البابا أنثاسيوس ، بطريرك الكنيسة القبطية ، يصف واقعة من الأحداث الكثيرة التي جرت في عهد ولايته ، كما حدثت من قبل ومن بعد . قال يصف محاصرة آلاف من الجنود البيزنطيين ، لكنيسة العذراء بالإسكندرية وقت الغروب :

« أما أنا فجلست على الكرسي الخاص بي ، وأوعزت إلى الشماس أن يثلو الزمور السادس والثلاثين بعد المائة ، وكان المصلون يرددون قائلين " هو الرحم إلى أبد الآبدين " . وكان وقت الانصراف ، وكان الظلام قد بدأ يهوى على خارج الكنيسة ، وشرع العسكريون يفتحون أبوابها طرقاً عنيفاً . . . ثم فتحوا الأبواب عنوة ، واقتحم الجيوش الروماني الكنيسة ، ورجالهم يزعمون كمن فتحوا مدينة حصينة . وكانت سيوفهم تلمع في ضوء أسرجة الكنيسة ، واندفعوا كالسيل الجارف متجهين إلى حيث أجلس ، فوقفت وأمرت الناس أن ينجوا بأنفسهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولكن بعضهم حاول اعتراض الجند في طريقهم إلى ، فذبهم الجنود ذبحاً ، وداسوهم بأقدامهم ، وتعقبوا الفارين منهم . وألح القساوسة على كي أنجو بنفسى فأبيت قائلاً : " ليست نفسى بأعز على من نفوس الآخرين " ، وكنت موقناً بأن ثباتى في مكائى ، أمام الساعين إلى حثى ، سيجعل الجنود ينصرفون إلى شخصى ، ويتركون الآخرين ، فعولت أن أبى حتى ينجو الشعب . . . ولا انصرف أكثر الناس ، جاء الرهبان ، مع من تخلفوا من القساوسة ، وحملوني خارجاً »

فهل كان أولئك الجند الروم من الوثنيين ؟ كلا بل هم جنود الإمبراطور

البيزنطى المسيحى ، فى العام السادس والخمسين بعد الثلاثمائة من الميلاد ! والذى لا يعرفه إلا قلة من المصريين - فما أقل المصريين معرفة بتاريخهم ! - هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الأمبراطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية ، التى أقرها أعظم المجامع الكنسية ، وأولاها بالاحترام ، وهو المجمع المسكونى الأول ، المنعقد بمدينة نيقيا ، فى آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م .

ذهب أنطاسيوس إلى هذا المجمع شماساً وسكرتيراً للبطريرك الكساندروس الأول ، ولم تحل رتبته الكنسية الصغيرة ولا شبابه ، دون الاشتراك فى مناقشات المجمع ومدارساته . وبعد ما ارتقى إلى كرسي مرقس الرسول ، حاز هذا البطريرك الاسكندري العظيم فى حياته المقعدة بالجهاد والننى والتشريد ، لقب « قاضى المسيحية فى العالم » ، وقال غريغوريوس النازيانزى عنه : « رأس كنيسة الإسكندرية هو رأس كنائس العالم »

ولكن الآراء تشعبت بعد مجمع نيقيا ، واختلفت فى طبيعة المسيح ، بسبب المذهب الذى نادى به القس آريوس المولود عام ٢٧٠ م بشمال أفريقيا . وهو المذهب الذى قسم العالم المسيحى قسمة خطيرة ، وأثار أعاصير هوجاء بين عوامى المسيحية حينذاك : الإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية وإفيسوس . وتشابكت المؤامرات واستحكمت حلقاتها حول إمبراطور القسطنطينية وإمبراطورتها المناصرة آريوس على أنطاسيوس .

ومصدر الخلاف قول آريوس بأن « الابن يختلف عن الآب فى الجوهر ، وأن الآب أقدم من الابن ، لأن الابن مخلوق » ، وفى هذا مناقضة خطيرة لقانون العقيدة المسيحية الذى نادى به المجمع النيقاوى ونصه :

« نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لا يرى . ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور ، إله حق ، من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، والذى به كان كل شيء نزل من السماء .

(٩)

وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . اتخذ شكله الإنسى من أجل  
البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب في عهد بيلاطس البنطى ، ودفن ، وقام من  
بين الأموات في اليوم الثالث ، كما جاء في الكتب ، وصعد إلى السماء .

ويصعب على كاتب مسلم أن يخوض في تفاصيل هذه المناقشة التى اتخذت  
أشكالا وأوضاعاً خطيرة بعد أثناسيوس ، مدارها طبيعة المسيح . فالمسيحيون  
لا يختلفون في أمر ألوهية المسيح ، وإنما الخلاف على إله عرقه الناس في صورة  
بشر . فهل هذا الإنسان المخلوق ، المولود من أنثى ، هو الإله ، أو أن عنصره  
اللاهوتى ، وأصله كلمة الله تجسدت ، وهى تمر في جسد العذراء ، لم يتحد  
بعنصره الناسوتى ؟ وبمعنى آخر : هناك المسيح ، وهو الرب ، ويسوع وهو  
ابن الإنسان ، ولده مريم العذراء .

والعالم المسيحى اليوم ينقسم إلى غالبية كبرى تؤمن بعدم اختلاط الطبيعتين :  
اللاهوتية والناسوتية ، وتؤمن بأن الآلام والصلب والدفن نزلت بالطبيعة الناسوتية  
وحدها ، دون الطبيعة اللاهوتية ، التى لا تخضع لما يخضع له الجسم الحائل الزائل .  
وهذه هى العقيدة المعروفة بعقيدة الطبيعتين في المسيح ، مذهب الكنيسة  
الأرثوذكسية اليونانية [الملكية] ، ومذهب الكاثوليكية البابوية ، وهى التى أقراها  
مجمع خلقدونيا ضد البطريرك القبطى ديوسقوروس عام ٤٥١ م . ومع أن الكاثوليك  
يقولون بأن المسيح أقنوم لاهوتى بحت ، فإن ذلك لا يبنى اعتقادهم بأنه اثنان ،  
بعد قولهم بأن له كيانين وذاتين وطبيعتين .

أما الأقباط ، وكنيسة الحبشة ، وبعض الكنائس بالشرق الأدنى ، فتقول  
بالطبيعة الواحدة ، حسب ما قرر مجمع نيقيا . وعبر ساويرس الأنطاكي عنها  
بقوله : « إذا قلنا بطبيعة واحدة للمسيح ، من طبيعتى اللاهوت والناسوت ، نقول  
أيضاً إن ذلك يكون بغير امتزاج ولا اختلاط ولا فساد ، بل مع بقائهما على  
ما كانتا عليه . فطبيعة البشر من طبيعتى الروح والبدن ، وطبيعة الروح من طبيعة  
الهيولى ، أما البدن فهو صورة الجسد ، فلا تنقلب الروح بدنأ ، ولا الهيولى جسداً ،  
ولا يحدث العكس . »

والكاثوليك مع إيمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب



[ثيوتوكوس] ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين : « إن اعتقادكم بأن العذراء أم الإله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلهاً أم إنساناً ؟ إن قلتم إلهاً ضلتم ، لأن الإله لا يولد ، وإن قلتم إنساناً كانت العذراء أم إنسان لا أم إله ، وذلك تنكرونه ، وإن قلتم ولدت إلهاً وإنساناً ، كانت أم إله وأم إنسان ، فلها ابنان ، أحدهما إله ، والآخر إنسان ، وهذا قول ينقضه العقل ويزيفه ، فإذا لا يصبح إلا أن الإله والإنسان صاروا واحداً ، ولذلك ولدت مريم واحداً ، لا هو إله بالإطلاق ، ولا هو إنسان بالإطلاق ، ولا هو إله وإنسان في وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق . »

ويقول البطريرك الإسكندري الكبير كيرلس الأول ، في كتاب إلى القيصر ثيودوسيوس :

« إننا لا نعري الناسوت من اللاهوت ، ولا نعري كلمة الرب من الناسوت ، يعد ذلك الاتحاد الغامض ، الذي لا يمكن تفسيره . بل نعترف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا إلى واحد مؤلف من كليهما ، لا يهدم الطبيعتين ، ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف في الغاية ، ثم بوجه عجيب . »

لعلنا جاوزنا الحد ، كسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلقه الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، إذ ذكرنا كل هذه التفاصيل ، ولكن أمر ذلك ضروري لفهم ما قام بين المصريين وحكامهم الروم ، بعد أن سادت الشعوب ديانة واحدة ، من جفوة وكراهة وعداء ، هي التي نشرحها في هذا الفصل ، وفي الفصل الذي يليه ، لتدرك موقف المصريين من أعظم حادث في تاريخ مصر ، وهو الفتح الإسلامي ، الذي غير لغتها ، وسلوكها في التوحيد ، وربط أقدارها بأقدار العالم العربي .

وقد لا ترى كسلمين أن هذه الخلافات تعدو أن تكون اختلافات في تفسير شيء واحد ، يتفق المسيحيون عليه ، وهو ألوهية المسيح . ولقد اقترح بعض من حاولوا التوفيق بين المذاهبين المتعارضين إضافة حرف واحد إلى كلمة Homo-ousion [ ومعناها المساوي في الجوهر ] التي نحتها أثناسيوس في مجمع نيقيا ، فتكون الصفة

هي Homoi-ousion [ ومعناها المشابه في الجوهر ] . فإرد أنصار الطبيعة الواحدة  
قائلين : الفرق بين الصيغتين حرف واحد هو « يوتا » ، ولكن ما أعظم الفرق بين  
اللفظين في المعنى !

ففي سبيل هذه « اليوتا » وقف أثناسيوس ضد الإمبراطور البيزنطي ، وضد بابا  
روما ، بل ضد العالم المسيحي في أغلبية ، وحقت عليه الكلمة الماثورة : « كل العالم  
ضد أثناسيوس » ، وأثناسيوس ضد العالم .

ولم تكن في الحق مجرد « يوتا » ، أو مجرد خلاف في العقيدة ، بل كانت  
روح مقاومة وطنية أذكت أوارها المسيحية ، وهي نفس الروح التي أملت على  
المصريين ترجمة الأناجيل إلى اللغة القبطية ، وحافظت على لغة الآباء والأجداد ،  
وهي اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية ، مدى ألف عام بعد غزو  
الإسكندر ، وألف عام بعد الفتح الإسلامي . هي التي قاومت الفكر  
الميلنسي ، ومدرسة الإسكندرية القديمة ، وأقامت لمعارضتها مدرسة الكاتشيسس  
[ الديسقلية ] . روح المقاومة الوطنية هي التي حرمت على مصر ورود منابع  
الحضارة الإغريقية ، علماً وفلسفة وأدباً . فإذا كان ثمن هذا قادحاً ، فإن معناه  
القوي لا يمكن أن يغيب عنا ، وهو شدة مقاومة المصري لقزاته ، مقاومة روحية .

وتتخذ المقاومة صورة جديدة ، في الحركة الدينية التي تعد من مآثر الكنيسة  
المصرية على العالم المسيحي : ألا وهي حركة الرهبنة والتبتل والانفراد للتعبد . ولم يكن  
الانفراد والتعبد جديداً على المصريين ، فقد عرفوه في عهد الأسرات ، ونقله عنهم  
« الثرابيوتاي » ، الذين روى عنهم فيلون الاسكندري أنهم كانوا رهطاً من بني إسرائيل  
هجروا متاع الدنيا ، وخرجوا رجالاً ونساءً إلى أرياض الإسكندرية في منطقة مريوط ،  
يتأملون الإلهيات ، ويقىمون الصلوات ، ويسبحون بالمزامير والتراتيم .

ويقال بأن أول دير مسيحي تأسس عام ١٥١ م ، حين أزمع فرونتينوس هجر  
العامر إلى الغامر ، زاهداً في الدنيا ، فضم إليه جماعة من المحتوين أمثاله ، وسار  
بهم إلى وادي التطرون ، وهناك قضوا بقية حياتهم في النسك والتعبد ، آوين إلى  
بعض الكهوف الصحراوية .

ولكن مؤسسي الرهبنة في مصر ، على التحقيق ، هما القديسان بولا [ أو بولس ] ،

المولود في طيبة عام ٢٢٨ ، وأنطونيوس ، وقد بدأت بالتوحد والانفراد . والمعروف عن حياة مار أنطونيوس أنه ولد بمدينة كوما من أعمال بني سويف عام ٢٥١ ، وأنه نشأ في قريته محباً للعزلة ، وخرج عام ٢٨٥ إلى الصحراء الشرقية ، حيث وجد حصناً مهجوراً يعرف بحصن « بسبار » أو « بسير » ، عاش فيه عشرين سنة ، اجتمع حوله عدد من التلاميذ ، وانتهى بأن غادرهم متوغلاً في جوف الصحراء ، مصعداً في سلسلة جبال العرب ، حتى وجد مكاناً لا يسهل الوصول إليه . وكان أنبا أنطونيوس يعود إلى تلاميذه في بسبار ، ويسافر إلى الإسكندرية ليواسي المضطهدين في سجونهم وهم رهن المحاكاة ، ويشد أزهم قبيل استشهادهم الرهيب ، وليحيى البطريك أنطونيوس في عوداته من المنى . وعاش أنطونيوس حتى العام الخامس بعد المائة وتنيح سنة ٣٥٦ م .

وتطورت الرهبة في عهد أمونيوس ومكاريوس إلى ما يعرف برهبة الشركة ، أى عندما يشترك الرهبان في المعيشة ، ويتعاونون في القيام بالأعمال المنزلية واليدوية ، كلما فرغوا من صلواتهم وعباداتهم .

وجاء من بعدهم أنبا شنودة وأنبا باخوم ، فنظما جمعيات الرهبة ، وسنا لها القوانين ، ووضعنا لها القواعد .

والرهبة في مصر تعرف في ثلاثة أوضاع : رهبة النسك ، وهم سكان الأديرة ، ورهبة الزهاد ، وهم يتوحدون في الخلوات والصوامع الصحراوية والجبلية ، ورهبة المتبتلين الذين يجتمعون في المدن اثنين أو ثلاثة ولا يتزوجون .

وأنبا مكاريوس ، أو أبو مقار الكبير ، ولد بالصعيد ، وقيل بشنشور منوفية سنة ٣٠١ ، وهو منشئ دير البراموس ، ودير أبي مقار ، بوادي النطرون .

أما أبو الشركة فهو أنبا باخوم ، منظم حياة الجماعة بالأديرة تبعاً لقانون واحد ، وتحت رئيس واحد . وقد بدأ حياته جندياً وثنياً في الجيش الروماني ، وحارب في الحبشة ، ثم ترك الجندية وذهب إلى أسقف دندرة الأب سرابامون ، وتعهد على يديه ، ثم خرج إلى البرية ، وتعلم على أحد شيوخها ، الأنبا بلامون ، الذي أنذره بأن « حياة السواح أشد قسوة مما يتصورها » . ولا اجتاز التجربة ، ألبيه إسكيم الرهبة .

اشتهر أمر هذه الأديرة في العالم المسيحي ، ووقد على مصر كثير من الأجانب ، كتبوا عما رأوه في البرية . ومنهم روفينوس والقديس هيرونيμος [ سان جيروم مترجم الإنجيل إلى اللاتينية ] ، وكاسيانوس ، والقديس أرسانيوس ، وأنا باسيليوس الكبير ، منشئ الرهبنة في اليونان ، وهيلاريون ، مؤسس الرهبنة في فلسطين . وتحول هؤلاء دعاة للرهبنة المصرية في الشرق والغرب . وأرخ لها بلاديوس في أوائل القرن الخامس . ومن بين زوار الزهاد والعباد والنساك سيدات من أشرف الدولة الرومانية الشرقية والغربية ، من أمثال السيدة باولا ، والسيدة ملانيا ، التي جاءت إلى مصر بصحبة سان جيروم .

وكانت جماعة الرهبان تظاهر البطارقة المصريين في دفاعهم عن العقيدة المصرية ، سواء في الإسكندرية أو في شتى الجامعات الكنسية المشهورة . ولم تقف مقاومة المصريين عند حدود التمسك بالعقيدة ، بل اتخذت مظهراً إيجابياً في ثورات محلية ، لم تكن تجدى نفعاً حيال السيطرة الرومانية الجارية . وأهم تلك الثورات ، ثورة « الإخوان الثلاثة » : قامت في أوائل حكم القيصر موريس [ سنة ٥٨٢ ] عندما تحرك الإخوة أبو سخيون ومينا ويعقوب ، ببلدة « أيكيله » [ زاوية صقر مركز أبي حمص بحيرة ] ، محتجون على اعتقال حاكم سمند لاثنين من عظماء القبط ، وتبعهم الأهليون ، فنهبا حاكم الإسكندرية لقمعها ، بعد أن امتد لهيب الثورة إلى غالب أقاليم الوجه البحري ، وبلغ الثائرون أبواب الإسكندرية ، وتمكنوا من منع الحنطة عنها ، كما استطاع إسحاق ، ابن الأخ الأكبر ، من الاستيلاء على مراكب الغلال المخصصة للقسطنطينية .

وانتهى أمر تلك الثورة بوقوف حاكم الإسكندرية أمام الثائرين يهدد بإعدام القبطيين المعتقلين ، وثلاثة آخرين من كبار الأقباط ، فاضطر الثوار إلى الانقضاء عن الإخوة الثلاثة ، وهرب هؤلاء إلى صان ، ثم قبض عليهم وشهروا في الإسكندرية ووضعوا في السجن حيث جزت رقابهم .

ومن الثورات المحلية : ثورات صان وخربتا وبسطة وسنهور وإخميم وغيرها ، أخفقت كلها وأغرقت في دماء المذابح الوحشية . وتلاها طرد المصريين من الوظائف العامة . هذا كان حال مصر في القرن السادس .



ويدخل القرن السابع الميلادي ، ويتولى الكرازة المرقسية البطريرك الثامن والثلاثون ، المسمى بنيامين الأول سنة ٦٢٠ ، في حكم الإمبراطور هرقل . ويوفد إلى مصر وال بيزنطى من نوع جديد ، عينه هرقل حاكماً مدنياً ، وبطريكاً ملكياً ، في الوقت نفسه ، وهو قوروش [المقوقس] . ولم ير الإمبراطور أن يتحدى شعور المصريين في أول الأمر ، فقد استشار بطريرك القسطنطينية ، وبطريرك أنطاكية في أمر توحيد المذاهب المسيحية على مبدأ جديد ، وهو أن المسيح واحد ، وفعله واحد ، ومشيئته واحدة ، دون إشارة إلى وحدة الطبيعة أو ازدواجها . ولم تخف على المصريين حيلة المستعمر ، ورفض البطريرك المصرى الاعتراف بممثل الإمبراطور ، بطريكاً ملكياً ، فاضطهد وهرب إلى بركة الإسقيط [بركة شحات] ، بوادى النطرون ، حيث لم يجد سوى قلة من الرهبان ، بعد أن عاث الفرس فساداً وتفتيلاً ، إبان عشر السنوات التى سلخوا فيها مصر عن الحكم الرومانى ، وتركوا بركة المتوحدين الشركاء قاعاً صفصفاً . فذهب بنيامين إلى الصعيد حيث ظل مختبئاً عشر سنوات ، بعد أن أوصى أساقفته بالاختفاء ، فأطاعه البعض وبقى الأكثرون ، وضل عدد كبير منهم . وأقام هرقل أساقفة خلقديونيين ملكيين في طول البلاد وعرضها ، واضطهد المصريين اضطهاداً ذريعاً .

وهجم عمرو بن العاص على مصر ، وكان يجمع إلى القيادة العسكرية الباهرة ، حكمة السياسى وسماحته ، متأثراً في ذلك رئيسه ، الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وما إن تم لعمرو فتح مصر ، حتى قرب إليه الأقباط ، وكتب إلى البطريرك بنيامين [أبى الميامين] يؤمنه ، ويدعوه إليه ، فلبى الرجل الدعوة ، واستقبله عمرو استقبالاً حسناً . ومن المأثور عن ابن العاص قوله في جيشه : « حدثنى عمر ، أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لكم فيها صهراً وذمة ، فكفروا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم » .

وسمع الرهبان في غابثهم الصحراوية ، وصوامعهم الجبلية ، بأمر قوم جاءوا من الشرق ، ليقضوا على الروم المارقين . فاحتشدت حشودهم ، وولدت على القائد عمرو ، في جماعات كثيرة ، تحييه ، وتستبشر بقدومه ، وهو معجب



بتلك الوجوه السمراء ، والشعور الشعناء ، والإسكيات المهلهلة ، لا تكاد تغطي أجساداً أوهنها الزهد ، وضميرتها العبادة . ويطيب لى أن أتصور ابن العاص ناظراً إلى جيش الحفاة أولئك ، وهو العربي المتكشف بطبيعته ، قائد أمير المؤمنين المتواضع ، الذى كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القرية على كتفه ، مع هبة قد رزقها ، وكانت رحله مشدودة بالليف : أتصور ابن العاص متأملاً هذه الإنسانية الخشنة ، فإذا به يقارنها بما رأى من بدخ الروم الفاضح ، فيكره الاسكتندرية وحياتها ، التى تم عن الترف والسرف .

إلا أن السياسة السمحاء التى سار عليها عمرو ، لم تدم طويلاً بعد مقتل أعظم الخلفاء ، واستبدال عمرو بغيره من الولاة . وجاءت ولاية عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠ ، وكان أبوه مشغولاً بقتال أبي العباس ، فاشتد على الأقباط فقاوموه ، وثار سكان البشمور في برارى شمالى الدلتا وبحيراتها ، وقاموا على عمال الخراج فقتلهم . وكبسهم عسكر عبد الملك ، فقاوموه وانتصروا عليه ، بقيادة مينا بن بغيرة . وجاء مروان إلى مصر فاراً من وجه أبي العباس ، وجرد عليهم الجند وقهرهم ، فتحصنوا في براريهم وسياحاتهم ، فلم يستطع مطارداتهم ، واكتفى بحصارهم ، فكان البشموريون يخرجون إليهم ليلاً ، ويدبرون فيهم القتل حتى اضطروهم إلى الرحيل ، وذهب مروان إلى الصعيد يشق غليله ، حتى انتهى أمره بانتصار منشئ الدولة العباسية .

وظاهر الأقباط هذه الدولة الإسلامية الجديدة ، فأمنهم أبو العباس عن نية حسنة ، وانتجاعاً للعدالة . ولكن بعد مصر عن عاصمة الخلافة ، وقصر مدة الولاة في مناصبهم ، ساعداً على التراخي في تنفيذ السياسة العادلة ، فعادت الحالة إلى ما كانت عليه في الدولة الأموية .

وآخر الثورات المصرية انفجرت في عهد المأمون ، واستفحلت ، مما اضطر معها المأمون إلى معالجتها بنفسه ، فجاء إلى مصر ، وكبح جماحها ، وظفر بالثائرين ظفراً كاملاً . وعقب تلك الثورة الأخيرة ، بدأ عدد الأقباط يتناقص ، إذ أسلم منهم حوالى ربعهم . وما إن ينسلخ القرن التاسع الميلادى ، حتى تدين الغالبية من سكان مصر بالإسلام ، وتكون اللغة العربية قد زحزحت اللغة اليونانية

عن دواوين الحكم ، وبدأت تحتل مكان اللغة القبطية في المعاملات بين الناس .  
فإذا جاء القرن الحادى عشر ، ظهرت كتب قواعد النحو القبطى مكتوبة بالعربية ،  
وظهرت قواميس قبطية عربية ، ألفها أقباط ، أخذت أسماءهم تنتحل الطابع  
العربى . عندما زار الأب فانسليب الصعيد عام ١٦٧٢ - ١٦٧٣ ، بلغ أسيوط ،  
وتعرف بمطران المدينة أنبا يؤنس ، ويقول فانسليب بأن « المطران عرفه بقبطى اسمه  
المعلم أثناسيوس ، كان الرجل الوحيد في مصر العليا العارف بلغة بلاده ، أى  
بالقبطية . ولكنى لم أستفد منه كثيراً ، فالرجل بلغ من العمر ثمانين عاماً وكان  
أصم . وعلى أية حال ، فقد رأيت الرجل الذى ينحدر إلى القبر ، فتدفن معه اللغة  
القبطية ، نهائياً . » وهذه مبالغة رحالة ، لأن القبطية ظلت لغة طقوس الكنيسة ،  
وقال الأثرى كوبييل في القرن الماضى ، إن القس دافيد سترونج قابل بعض  
العجائز ، فذكروا له أنهم سمعوا في شبابهم بعض الصعايدة يتخاطبون باللغة  
القبطية .

ويشهد كاتب هذه السطور أنه عرف أسرة يتحدث أعضاؤها فيما بينهم  
بالقبطية ، نتيجة محاولة محدودة جداً لإحياء تلك اللغة . ولكن أمثال هذه المحاولة  
كان لها أثرها في عناية مواطنينا وإخواننا الأقباط بالمحافظة على اللغة التى يتكلمها  
المصريون منذ فجر تاريخهم .

• • •

هذه خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجيء المأمون إلى مصر ،  
أى في نحو ثلاثة عشر قرناً ، لم يفت في عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم  
ولا جبروت .

ولا يسهح المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين ، وقد تحولت غالبيتهم  
العظمى إلى الإسلام ، كشعب حريص على شخصيته ، متمسك بعقيدته .  
وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعوى ، وفقدوا أسرار الكتابة  
المصرية القديمة ، وخربوا المعابد والمدافن ، أو حولوها إلى كنائس وصوامع ،  
وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى ، ولم يحافظوا على  
لغتهم العتيقة ، كما حافظ غيرهم من المسلمين على لغاتهم ، فإن تاريخ مصر

الإسلامية الذي يمتد إلى أربعة عشر قرناً ، مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة . لما كان أسرهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة ، وأن يحولوا الأزهر ، وقد بدأ مدرسة للشيعة ، مركزاً عالمياً للدراسات الإسلامية ، وما زال الجامع الأزهر حصن اللغة الحصين ، وحصن السنة ، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام .

وليس أروع عندي من كلمة ذلك الباشا العثماني في آخر القرن الثامن عشر ، ومصر في خضيف من المهانة والذل والفقر والعذاب ، وكان يستقبل مشايخ الأزهر ، فيناقشهم ويباحثهم في الرياضيات فيعجبون ، لأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فيتعجب الباشا ويقول مستنكراً :

« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ! »

## صراع القومية المصرية

كانت مصر دائماً - وما فتئت - موضع عجب الرحالة وإعجابهم . ونقبل نحن المصريين هذا الإعجاب قضية مسلمة ، كأنه واجب على الناس جميعاً أن يعجبوا بمصر القديمة والحديثة ومصر الغد ، ولا تتساءل عن بواعث هذا الإعجاب . ولو تساءلنا حقاً لعيننا أول ما عينا بمعرفة ما قاله عنا هيرودوتس في كتابه الثاني المعنون « أوتري » . فقد كان ابن هاليركارناس من أول الرحالين العظماء الذين زاروا مصر ودونوا أثر زيارتهم في الكتب ، وكانت زيارته إبان الحكم الفارسي . وواضح أن مصدر عجب الرحالة هو اختلاف طبائع المصريين عما عهده الناس في العالم القديم ، وأن هيرودوتس أعجب أيضاً بالحكمة المودعة في قلوب أهل مصر ، وبتقاليدها العتيقة ، وبمظاهر حضاراتها ، واطمئنانها إلى أنها أقدم شعوب العالم ، فقد كان الكهنة يقولون لزائريهم من اليونان ما أنتم أيها الإغريق إلا أطفال بالنسبة لنا .

والرومان ، وإن تندروا بعبادة المصريين للحيوانات ، أشادوا بغيرهم بنظام المصريين في دينهم وعرفهم ، وفي وسائلهم لاتقاء غوائل الفيضان العالي أو المنخفض . كل هذه ، وما أضافته الحضارات التالية التي قامت في وادي النيل ، تفسر ولا شك عناية الرواد بمصر منذ القدم . فالسائح اليوم ، كما كان في القرن الماضي ، وكما كان أيام قولنيه وسافاري ، ومن قبلهما نوردن وسوتيني ويوكوك ونيور ، يتأمل في إعجاب ما خلفته الحضارات المصرية من آثار .

وقصة اكتشاف التاريخ المصري القديم في ذاتها قصة بالغة الروعة ، حرصنا أن نلم بها في بعض فصول هذا الكتاب . ولكننا ، أهل البلاد أو الزائرين ، ننسى دائماً ، في إعجابنا ، المسئول الأول عما نتأثر به . فالأهرام والبرابي والتقويم ونصوص الأهرام والكنائس والبيع والمدارس والمساجد والأضرحة المملوكية ، كل هذه الآثار توحى إلينا بأسماء الملوك والخلفاء والسلاطين ، وتنسى منشأ الفعل ، وهو الشعب المصري ، ذلك الشعب الذي يقف خلف كل هذه الروائع ثابتاً للرزايا والحن .

وننساه لأنه غير مسمى ، فلا هو بطليموس ولا رمسيس ولا هو الناصر محمد ابن قلاوون . ننساه وهو المائل أمام عيوتنا اليوم ، كما كان منذ الألف وثلاثة الآلاف وستة الآلاف من السنين . فالقلاوح المصرى اليوم ، هو نفسه قلاوح آلاف السنين ، لافى نوع التفكير ، ولا فى لغته ولا فى عقيدته ، ولا فى لباسه — وإن كان المظنون أن لبس القلاوح اليوم هو « الكلاميدة » اليونانية من أيام البطالسة — ولكن فيها له علاقة بالأرض والرى والزراعة ، يخرج إلى الحقل ويعود إلى مأواه البدائى ، يتزوج ويخلف الأولاد أياذى عاملة ، وينام هو وهم والبهائم والسواجن فيما يكاد يكون مكاناً واحداً ، ينظر إلى العمدة وشيخ البلد نظره إلى صاحب السلطان ؛ هذه هى وحدة المصرى عبر تاريخه ، وحدة الحياة على ضفاف النيل .

وأهم منها وحدة الشقاء الناشئ عن الاستغلال : استغلال رجل المدينة صاحب الأرض ، وكاهن المعبد ، وممثل السلطة . وقصة الشقاء هذه لا تتغير بتغير الأشخاص : جناب اللورد فى قصر الدوبارة ، وأفندينا فى القصر العالى ، ومولانا ظل الله على الأرض فى الماين ، والملك الإله فى القصر الكبير « فر — عاو » . قاع الصورة واحد لا يتغير . مظلم عابس نياخ بكلكله . وحياة القلاوح ترسف فى سلاسل محكمة الحلقات ، لا فكاك له منها : المال للحكومة ، والسخرة للدولة ، وكل شىء لصاحب الأرض : أى للمملوك المالك ، والباشا ، ورجل الدين ، والاستراتيجوس الرومانى نائباً عن قيصر ، والبطليموس ، وكل من حكم به عليه الزمان من قديم الزمان .

وساكن المدن فى عهد الذلة ، وتحت حكم الأجانب ، خضع لظروف ربما كانت أقسى من ظروف القلاوح ، بسبب آلامه الروحية : كان اليونانى يحقر المصرى ، وكان اليهودى — الممالى — لليونانى — يحقر المصرى ؛ وجاء الرومان ينظرون إليهم جميعاً من عل . ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب على أمره ، ولا كان الولاة العرب ، فيما عدا عمرو بن العاص ، وقلة ممن حذوا حذوه فى المائة عام الأولى من حكم الولاة العرب . فالنقمة الطويلة ممسكة بخناق الشعب المصرى على يد حكامه الأكراد والترك والشراكسة والصقالبة والفرغانين والمغاربة . وجاء حكم العثمانيين



ضعفًا على إيالة ، وفي أعقابهم الدلاة والأرتؤد . وعاد الفرنسيون إلى مصر — بعد اعتداءاتهم الأولى أيام الصليبيين أموري ، وجان دي برين ، ولويس التاسع — ثلاث مرات : الأولى بقيادة بونابارت ، والأخيرة إلى جانب العصابات الصهيونية ، والثانية بفضل أسرة محمد علي ، عندما دعاهم الباشا رأس الأسرة ليقموا مشروعات استغلاله الأثافي ، وليستنبطوا له شتى اختكاراته في الزراعة والصناعة ، وحتى في شئون الكيف .

وأنعس ما بليت به مصر في القرن التاسع عشر هو جيش المغامرين من الشرق والغرب ، نزلوا بير مصر وليس لهم شرعة إلا الكسب . وما أقرب أن يتحول الكسب نهياً عندما يتزل الأفاق بقوم سذج سليمى الطوية . جاءت طغمة الغرباء يعملون تجاراً وأصحاب صناعات واحتكارات ومرايين ولصوصاً وقوادين . وبدأ أغلبهم ذليلاً لينتهى سيداً مطاعاً ، بفضل الباشا والخديو ، وبفضل زخرف الحضارة الذى طالب به الباشا والخديو ، لمجرد الزهو والاستمتاع . وتحول بعض أولئك المغامرين إلى وسطاء فوزراء ، وانتهت مأساة السفه بالديون الثقال واحتلال البريطانيين . وكان المغامرون عون المحتل في الدواوين وفي الأعمال الحرة .

لم يكن المصرى يملك شيئاً من أرضه ، ولا من غير أرضه . كلها إقطاعات للفرعون وأسرته ، والمعبد وسدنته ، ثم لبطليموس فالإمبراطور في رومة وفي بيزنطة ، ثم للخلفاء في شبه جزيرة العرب جنوباً وشمالاً ، ولبن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب ، أبناء طولون والإخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك والباشوات وأسيادهم في الأستانه ، ثم لأسرة محمد علي والمقربين منها ، فاللدائنين والمرايين ، وأخيراً للباشوات والبكوات المصريين أنفسهم ، وهؤلاء لم يكونوا أرحم من الغرباء ، ولا أضعف أثرة من سابقهم أو لاحقهم أصحاب الشركات الكبرى زراعية أم صناعية .

تطالعك على مدى الأجيال نظرة الحاكم إلى مصر نأى عنها أم قرب . فابن عفان يعزل عمرو بن العاص ، ثم يعرض سياسته المعتدلة في فرض الضرائب قائلاً : « لقد درت اللقحة بملك يا عمرو » ، فيجيبه أعدل من ولى مصر : « ولكنها أضرت بوليدها » . ويقول الإمبراطور الرومانى طيباريوس لعامله في مصر :

« لقد أوفدتك لتجز صوف الشاة لا لتسلخها » . ويقول البك الألى جليسه :  
« الإنسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمتها وجبنها ، يلزمه  
أن يرفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتنتج له النعاج ، بخلاف ما إذلى أجاعها  
وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحماً ولا دهنًا . »  
فيجيبه المملوك جليسه : « هذا ما اعتدناه وريينا عليه . »

تلك نظرة حكام مصر جميعاً منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين ، سواء  
أجاعوها وأجحفوها ، أو ترفقوا بها فى العلف حتى تسمن . فصر هى البقرة  
الحلوب ، واللقحة التى تدر ، والشاة التى يجز صوفها فى أرفق وسائل الحكم .

معجزة هذا الشعب المصرى إذن ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب ،  
إنما فى أن يظل الشعب حياً متمكن الشخصية ، لا يفنى فى غزاته ومستغليه .  
شعب زارع بناء صناع اليدين ، صانع حضارة ، سواء حكمه محب للعلم ، ذواقة  
للفن ، أو عيور مغامر . شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضاً .

والأقانى أطلب تفسيراً لهذه الظاهرة الثابتة فى التاريخ المصرى : بناء المصاطب  
والأهرام والبراني ، وإقامة التماثيل والمدافن ، وإنشاء الكنائس والأديرة ، فالمدارس  
والجوامع والقصور والأضرحة ، وحفر الترع وإقامة الخزانات ، ووصل البحرين  
سواء عن طريق النيل ، أو مباشرة بين القلزم والقرما . ثم من كان يصنع الأثواب  
الشرب ، والديقى والتيمسى ، والقباطلى الإخيمية ؟ ومن قام بزيئة المساجد ومنابرها ،  
والكنائس وهياكلها ؟ ومن رسم الصور الشعبية على الخشب ، ووضعها فى ثوابيت  
الفيوم والبهنسا ؟ ومن قام على مدرسة الكهنوت فى هليوبوليس ، ومن فتح مدرسة  
اللاهوت المسيحى « الديدسقلية » فى مواجهة مدرسة الإسكندرية الوثنية ؟ ومن أنشأ  
الجامعة الأزهرية ؟ أكان الفرعون والقائد الفاطمى والسلطان المملوكى ودلشيس  
ومحمد على وغيرهم ممن حفظ التاريخ أسماءهم مقرونة بتلك الأعمال العمرانية ؟  
أو أنه ذلك المجهول المقترى عليه : الشعب المصرى ؟

طالع الصورة الحية التى رسمها وكيل القنصل البريطانى أيام محمد على ، وهو  
يصف حال الفلاحين المصريين عندما أصاب الطاعون ماشيتهم : لقد رأهم يربطون  
الحمار مع الحمل لجر المحراث ، وشهدهم يتكاتفون جماعات ليحجروا محاريثهم فى

سبيل خصاصة من العيش ، كي لا يموتوا جوعاً . كل هذا الجهد الجبار لمجرد حفنة من الأذرة ، وقليل من المش وخشاش الأرض ، وهدمة زرقاء !

يتأخر الفيضان وينخفض منسوبه ، فيتزل القحط بالبلاد ، ويحل الوباء بأهلها ، ويهلك الطاعون مواشيهم ؛ ويرتكب حكام مصر كل موبقة دون رادع ، لسبب ولغير سبب ؛ ومع هذا يعود الشعب إلى حقله ، أو إلى مقعده أمام النول وآلة الخراطة وفرن الزجاج ومعمل التفريخ ؛ يعود إلى مطرقته يكفت النحاس بالفضة ، وإلى كتبه ينسخها ، ومصاحفه يوشيا ويجلدها ، وقد نسي ما حل به . يستأنف نشاطه الحضارى ، لأن جبلة الحياة فيه تتصل بصميم تربته السمراء وشمسه ونيله ، ولأن أحلام نفسه الوادعة لا تتعدى الرقعة السوداء يحيلها زمرداً ، والخضرة اليانعة يحنيها تضاراً . جبلة الحياة في هذا الشعب هي الحضارة نفسها . فهو ، في شعوب الأرض طراً ، مثال رجل الاستقرار والسلام . ومع ذلك لم يمنح السلام والاستقرار في تاريخه إلا قليلاً .

عندما تخذت نار الفتنة في مصر وهدأت الأحوال ، شرع المأمون في تسكين جأش الناس فصار يطوف بالبلاد يتفقد أحوال الرعية ؛ ومر بضيفة تسمى ظاه الغمل فلم يدخلها لحقارتها ؛ وجاءته عجوز اسمها ماريما ، هي صاحبة القرية ، وأخذت تصيح عليه ، فوقف لها وسألها عما تريد ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، نزلت في كل ضيفة وتجاوزت ضيعتي ، فأتوسل إليك أن تشرقني بحلوك في ضيعتي ، كي لا نشمت في الأعداء » . فأجابها المأمون إلى طلبها ، وقدمت له ولائنيه المعتصم والعباس ومن معهم من فاخر الطعام شيئاً كثيراً . فلما أصبح الصباح وقد اعتزم الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصيفات في يد كل واحدة طبق . فقال المأمون لمن معه : « جاءتكم القبطية بهدية ريفية » ، وإذا في كل طبق كيس من ذهب . فأمرها بإعادة الهدية ، فقالت له : « لا تكسر قلوبنا ولا نحترقنا يا أمير المؤمنين » . فلم يسهه إلا إجابة طلبها ، ثم سألها : « من أين لك كل هذا ؟ » فأجابت : « يا أمير المؤمنين ! هذا . . . » — وأشارت إلى الذهب ، ثم انحنت فتناولت حفنة من الطين رفعتها في وجه المأمون لتقول : « من هذا . . . » ثم من عدلك يا أمير المؤمنين .

تلك كلمة الشعب المصري لحكامه : « لا أطلب منك إلا أن تجرى في أحكامك بين الناس بالعدل ، وأن ترعى شئونهم بالرفق ، ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك ، ما دمت تتركى أعمل في وادى الحصب . »

في هذه الحملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يقي المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقد بما استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بألهته القديمة فتخلى عنها إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالئ كهنته السلطان الأجنبي . واستشهد المصرى متمسكاً بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ، واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهباً مسيحياً بغيته ، يخالف مذهب مصر .

آمن بالإسلام فلم يحمله إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيراً — إلا قليلاً — من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته .

ليتعد وثناً ، أو ليؤمن بعيسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلجنة حكامه قائمة دائمة ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانياً ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطياً ، ويقاوم الصليبيين مسلماً ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكامه المخادعين ، ولن يغير ما بنفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وفراغه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره ، انتهر دائماً على ظلمته ، ولو بعد حين ، إذ لم يستطع حكامه أن يدلسوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ، وعانى ذلم وظلمهم ، ليحتفظ لنفسه ، مدى ستة آلاف سنة ، بأعز ما يملك ، ألا وهى إنسانيته المتحضرة ، وشخصيته المتكاملة .

ولست ألقى هنا الكلام جزافاً ، فقد طالمت تاريخ بلادى كله ، مركزاً عنائى فى أمر واحد : هو دراسة هذه الإنسانية ، وتحليل هذه الشخصية . لم تكن



دراسة ميسرة ، لأن أكثر من أرخ لمصر من أهلها ، ومن غير أهلها ، أعشى  
عيونهم التاج الأبيض والتاج الأحمر ، وأوراق الغار ، ولعان السيوف ، وانفجار  
بارود المكاحل ، وشك انتصارات السلاطين والملوك والقواد ، والاحتفالات الكبرى  
بافتتاح قناة أو بناء خزان .

في تنقيبي عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية ، وهي الاعتماد على  
الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية . وإنك لو اجد  
أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصري : في العهد القديم ،  
وبعد استتباب الأمر للبطالسة ، وإبان الحكم الروماني والبيزنطي والعربي والعثماني  
والفرنسي والأرنؤدي والبريطاني . بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها  
يقظة الوطنية المصرية . لأن المصريين أول من خذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية .  
وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم « العصيان المدني » ، فكثيراً  
ما كانت كذلك في الحقيقة كما سيجي شرح ذلك .

ومصر لم تكن في غزاتها ، بل إن غزاتها هم الذين يفنون في مصر ، إن لم يكن  
بالطريقة التي ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز — كما قيل — فبوسيلة أفعال سحرية  
وأقوى أثراً . الغزاة يفنون في مصر بالحياة : يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازاً  
إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز في الأسطورة . هم أيضاً يذوبون ، لا في زوال  
الصحراء ، ولكن في بوتقة الشخصية المصرية . وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب  
حيناً في الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم ، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء  
الذي يثبت القاعدة ، والفناء الذي تقصد ، هو فناء الشعوب الغازية في الشعب  
المصري ، ومضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة ، التي قاومت  
ما استطاعت المقاومة ، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها .

ولامعدي لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب ، حتى  
يفهم الشخصية المصرية . فقد كانت العقائد « قطب الرحى » في كل الحركات  
القومية ، إلا في حركة سنة ١٩١٩ .

ودراسة العقائد الدينية غير ميسرة دائماً ، لأن المؤرخين اختلفوا في كل مرة  
بتحول المصريين من ديانة إلى أخرى . فهذا أميلينو ، العالم في القبطيات ، يقول ،



ويؤيده لويبولت ، بأن وثنية المصريين انهارت عاجلاً أمام المسيحية ؛ على حين يحاول عالم البرديات الشاب جان ماسيرو أن يبين طول الوثنية في مصر ، مستنداً إلى بقاء بعض المعابد الوثنية هنا وهناك ، حتى القرن السادس الميلادي . وشيبه بهذا ما يقال عن تحول المصريين من المسيحية إلى الإسلام . وفي رأي أن التحول في الحالين استغرق قرناً قبل أن يستتب الأمر للدبائتين التاليتين للوثنية في مصر .

لنستعرض الآن السرد التاريخي الذي ورد في الفصل السابق : ماذا فعل الشعب المصري بعد ضياع استقلاله وزوال عهد أسراته ، أي منذ غزو الفرس والإسكندر ؟ وقبل ذلك يجب أن نذكر أن المصريين يتقبلون الغزاة لينخلصوهم من حكم غاشم . رضوا بالعرب لينقذوهم من حكم بيزنطة ، وفتحوا أذرعهم للإسكندر ليزيح عنهم نير الفرس . والإسكندر جاء إلى مصر يحمل رسالة تحرير العالم ، على الأقل في الظاهر ؛ دخل مصر كما دخلت جنود الثورة الفرنسية لإيطاليا وألمانيا . ولو كان بونابرت مسلماً لرضى به المصريون مخلصاً لهم من جور المماليك . وكان بونابرت مدركاً لهذه الحقيقة ، معداً لها بعد مطالعة كتاب « فولنيه » ، ولذلك راح يدجل بالآيات ، ويلبس العمامة والقراصة ، ويدعى الإسلام ، ويقول للمصريين بأنه حارب البابا وهزم « كوالرية » — أي فرسان — بالطة ، جند المسيح . ولم يجر هذا الدجل على المصريين .

دخل الإسكندر يحمل رسالة توحيد العالم في إمبراطورية هلينستية ، ويدعى الإيمان بديانة المصريين ، ويقدم القرابين لألهتهم ، ويسافر إلى سيوة [واحة آمون] حيث استقبله كهنة المعبد الكبير ، وضحكوا على ذقنه بمسرحية دينية تركوا فيها الإسكندر يتاجى كبير البانتيون المصري وجهاً لوجه ، فيلقى إليه الصنم آمون [وهو صورة من زفس في ذهن الإسكندر] برسالة إلهية يغيبها إسكندر في صميم روحه ويكتب لأمه في مقدونيا بأنه لن يروح بالسر العظيم إلا لما بعد عودته إلى وطنه . ولما لم يعد ، اختفى سر الحديث الإلهي إلى الأبد .

وكشف هذا السر ليس من الصعوبة كما يبدو ، أولاً لأن الصنم آمون لم يتكلم ، فلماذا كان حديث قد جرى بين الحجارة والإسكندر ، فمن طريق كاهن يتكلم من بطنه « فتريلولك » : حيا المقدوني وبياه ، كما يحيى أي فرعون . والقراحين كلها

منحدرة من صلب الآلهة في عرف المصريين . وما دام الإسكندر قد أصبح فرعون مصر بحق الفتح ، فليس بعيداً أن يكون الكاهن المدلس قد خاطبه على أنه ابن آمون ، ولم يجد هذا المتكلم من بطنه باسم آمون صعوبة في إقناع الشاب المغرور بأصله الإلهي ، لأن الإسكندر كان يشك فعلاً في بنوته لأبيه ، وكانت أمه أوليمبياس مصدر هذا الشك ، فهي التي نشأت غلامها على الاعتقاد بأنه ابن زفس كبير آلهة اليونانيين . ولم يكن عسيراً على الإسكندر ، ولا على أى لغريق من القدماء ، أن يصدق مثل تلك الخرافة ، لأن حياة زعيم الآلهة كانت سلسلة خيانات لزوجته الإلهة هيرا مع نساء البشر : يدخل عليهن في شكل من الأشكال ، فهو ذكر يجمع مرة ، وثور مرة أخرى ، ومطر من الدنانير مرة ثالثة . كان هذا الرب القلاتي يتسلل إلى خدر معشوقاته من البشر ، أو يقابلهن في الغاب وحول ماء القدير ، متكرراً على طريقة الروايات البوليسية ، وقد بلغ به الخداع أن يتقمص شخصية الزوج في بعض الأحيان . المهم أنه كان يلبس شكل عكروت ما . وغرور جوبتر — زفس — كان يدفعه إلى أن يعلن عن شخصيته ، فما بعد ، تكريماً لمشعقة رب الأرباب .

لم يكن كاهن سيوة المتكلم من بطنه باسم آمون يعني أكثر من التحية التقليدية لفرعون مصر . . . المقدوني ، ولكن الإسكندر حمل التحية بحمل الجحد ، ورأى فيها تأكيداً لما حدثته به الملكة أوليمبياس . إنه إذن الابن البكر لجوبتر — آمون ، وسيعمل على مرضاة شعبه الأمين . سياسته في مصر ستكون سياسة المسالمة ، والحرص على معتقدات المصريين وعاداتهم .

وجاء أبناء لاجوس الأوائل بعده ينهبون نهجه ، ويتظاهرون بمجاراة طقوس المصريين واحترام تقاليدهم . ولكنهم ، فيما عدا ذلك ، يعيشون حياتهم الهلينية ، في بلاد أنشئت خصيصاً لهم ولأبناء جلدتهم . وكانت عاصمتهم الإسكندرية مدينة هلينية في كل شيء ، ليس بها من أثر للمصريين سوى طبقة عاملة من سكان « رأكودة » محلة الصيادين التي أنشأ الإسكندر مدينته إلى جوارها .

ولكن فعلة كهنة آمون النكراء في واحة سيوة ، وهي صورة من فعالهم في معابدهم الكبرى ، كانت لها آثار بعيدة في نفوس المصريين . ولقد درج الكهنة على تملق

البطالسة ، وإدخالهم في البانتيون المصري ، وتصويرهم على جدران المعابد في بزة  
الفرعون يتلقى بركة الآلهة ، وربما كان بطليموس يتوج وفقاً للطقوس المصرية ،  
وهو لا يرى بأساً من ذلك . فديانة الهلنيين كانت ديانة مجبوجة لا ترفض أن  
ينضم إلى مجمع آلهتها من يشاء . من الآلهة الأغراب ، هذا إلى أنهم تعرفوا على آلهة  
المصريين وأطلقوا عليها أسماء آلهتهم : قامون هو زفس ، وهاتور هي أفروديت ،  
وليزيس هي ديميتر ، وسبك ، الإله التمساح ، من يكون غير خرونوس ؟ وإلههم  
هفيستوس ألا يكون فتاح أو رع ؟ وقد يكون هرمس هو توت ، أو أنه أنوبيس .  
ما كان أشبه البطالسة بأمير نافار البروتستانتى عندما انقلب كاثوليكياً غداة دخول  
باريس ليتوج ملكاً على فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، باسم هنرى الرابع . ومن ماثور  
قول هنرى دى نافار حين ذاك : « إن باريس بلحديرة بقداس كاثوليكي . »

وسياسة البطالسة في مصر كانت حذوك النعل بالنعل وسياسة الماريشال ليوتى ،  
بطل الاستعمار الفرنسى في مراکش : احترام العقائد والطقوس والعادات لدى  
المغاربة عرباً وبربراً ، والاحتفاظ لم بمحلاتهم ومدنهم وديارهم ، مع إنشاء مدن  
جديدة يحيا فيها المستعمرون حياتهم الفرنسية فكراً واقتصادياً على حساب أهل  
البلاد . والحقيقة أن المستعمرين الأوربيين في العصر الحديث لم يأتوا يمجدين في  
وسائلهم لاستعمار آسية وأفريقية ، إنهم في كل ما قاموا به من « استعمار  
حضارى » حذوا حذو أساتذتهم المقدونيين والرومان .

وساعدت الإسكندرية ونوكراتيس في الدلتا ، وبطليموسة [بطوليمايس] في  
الصعيد ، وغيرها ، على إقامة خلايا يونانية تحيا حياتها الهلينية كاملة ، على حين  
تسير الحياة المصرية الصميمة سيرها التقليدى ، وتستكمل المعابد أبنيتها ، بل ويقام  
غيرها ، وعلى النمط القديم .

واستمرت الحال حتى بعد الاحتلال الرومانى ، فجاء الإمبراطرة إلى مصر  
يمالثون أهلها ، ويشاركونهم في حفل تنصيب العجل أبيس ، وهم يتفصاحون إذا  
خلوا بعضهم إلى بعض . وما تزال بعض آثار هذا التلذذ في بعض كتاباتهم وقصائد  
شعرائهم [الهجاء الساخر رقم ١٥ ليوفينال] وإذا كان الهلينيون قد شعروا بعظمة

الحضارة المصرية فكروها ، فإن الرومان رجال عمليون لم يقتلوا هذه الحضارة حق قدرها ، بل ولم يرعوا لمصر حرمة ، بعدما استتب لهم الأمر في وادي النيل .  
فالهيلينيون والرومان كانوا يعيشون حياتهم على هامش الحياة المصرية ، والأصديق أن نقول بأن المصريين هم الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الرسمية اليونانية أو الرومانية ؛ يعملون من أجل أسيادهم في مصر وفي روما ، وقد انحدروا إلى قعر القفّة ، وفوقهم اليهود ، فالهيلينيون وفوق هؤلاء أولئك السادة الرومان . ثار المصريون غير مرة ولكن لم يحدث أن اتصلت أسباب الثورة وامتد لحيها ؛ كانت اضطرابات محلية سرعان ما تسحقها القوة القاهرة .

ظاهر إذن أن المصريين استكانوا ورضوا بالذلة والخضوع ، بل راح بعضهم يرطن باليونانية واللاتينية ليحيا حياة المحتل ويماحكها ، ويعيش على مرضاته . ولكن المتعمق دراسة الحياة المصرية القديمة يدرك توجا كيف تمسك أغلب المصريين بقوميتهم ، وكيف كانت الضعة تمزق نفوسهم ، لأنهم انحدروا بعد الغزو الروماني إلى مرتبة الولاية . ويلاحظ المؤرخ قوة الشعور بالقومية عند المصريين في تاريخهم الطويل عندما لا يجدون عزاء عن الاحتلال الأجنبي في أسرة مالكة ترعى على الأقل استقلالهم كدولة كبيرة . تملكهم هذا الإحساس بعد احتلال الهكسوس ، وبعد الغزو الروماني والفتح الإسلامي والاعتداء العثماني . وتتجلى صورة هذا الشعور فيما كتبه ابن لياس بعد موقعي مرج دابق والريدانية ، واثياً لحال بلاده ، إذ يقارنها بما كانت عليه أيام سلاطين المماليك ، مع أنهم كانوا أجناب عن مصر ، كما كان البطالسة . فشعور المصري بأن له بطليموسه وإخشيدته ، وخليفته الفاطمي ، أو سلطانه الأيوبي أو المملوكي ، يعزیه بعض العزاء ، لبقاء استقلاله مؤيداً ، بالرغم من هذه الأسر الحاكمة الأجنبية . ولا أحسب نظرة المصريين تنطوي على فلسفة سياسية خاصة ، إنما هو شعور بالفارق بين أسرة حاكمة — أجنبية أو من أهل البلاد ، تملك مصر وتعتنى بأمورها ، كصنيعها الخاصة ولا شك ، في تنظيم الري والصرف ، والاستعداد للفيضانات العالي ، وتوقي الفيضانات المنخفض ، وتشجيع التجارة والصناعة والبناء والإنتاج الفني والفكري — وبين حاكم موظف يوفد من حاضرة بعيدة في روما أو بيزنطة أو دمشق أو بغداد أو إستانبول ، وكل همه إرضاء



الملك البعيد ، إمبراطوراً أو خليفة أو سلطاناً ، بل جل عنايته أن يجمع لنفسه ثروة خاصة من بلاد غنية لا يتاح له الحكم فيها لأكثر من عام أو عامين . وشيجة ذلك ، في الغالب ، الفوضى وقصر النظر والرشوة والسرقة والخور والاستغلال في أقبح صوره .

فالباحث عن القومية المصرية ، السارية كالنار في الهشيم ، وعن شخصية المصريين وحفاظهم بكيانهم ، يتعين عليه أن يدرس عهود الحكام والولاة الموفدين من حواضر الإمبراطوريات الأجنبية ، أكثر من عنايته بعهود الأسر المالكة الأجنبية التي تستقل بشئون مصر .

لذلك نغني في هذا الفصل بمصر تحت حكم روما وبيزنطة ، وقد امتد نحو سبعة قرون ، منذ تغلب أكتافيانوس قيصر على كليوباترة حتى الفتح العربي . كانت مصر طوال هذه القرون ولاية قطعت أوصالها في إصلاحات يوستنيانوس ، فأمست مجموعة من الدوقيات ، لكل دوقية منها حاكمها وقائدها ، ورئيس ماليها ، وجيش احتلالها . وهذا التقطيع في ذاته يفسر هزيمة الروم في مصر أمام جيش عمرو بن العاص ، أي هزيمة نحو ثلاثين ألف روماني ، أمام مجموعة من فرسان الغرب ، أقل من نصف هذا العدد على أقصى تقدير .

والعهد الروماني في مصر يشبه في أوله من ناحية معاملة الأهالي القرن اللاتيني : محاولة استرضاء المصريين بالتظاهر باحترام ديانتهم وطقوسهم ، وتشجيع إنشاء المعابد الجديدة وإتمام قديمها ، ولو أن تركيز السلطة في روما قضى على المحتل بمراقبة رؤساء الكهنة ، وفرض التزامات إدارية ومالية عليهم . بل انتهى الأمر إلى أن يشرف موظف روماني كبير على كل الشئون الدينية في مصر .

وتعيد أرجاء الإمبراطورية بهجوم البرابرة على أطرافها ، من الغوط الشرقيين والغربيين ، والقانдал والآفار ، كما يتآكل بناؤها من الداخل تحت ضغط ظروف اقتصادية اجتماعية ، عرفت في التاريخ باسم « تدهور الإمبراطورية الرومانية وانحلالها » .

وأجل حدث في داخل هذه الإمبراطورية — وأمره مرتبط بمنطقة الشرق الأدنى على وجه الخصوص — هو ظهور المسيحية ، لامن حيث تهديدها بالقضاء على



ديانة الدولة الرومانية فحسب ، ولكن لأن اعتناق بعض من رعايا الرومان لهذه الديانة قد صاحبه ، وربما كانت من حوافزه ، حركة تحرير كبيرة ، لشعوب الشرق الأوسط ، من ربة الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التحرير ممكناً ولا ميسوراً ، وقد جردت تلك الشعوب من أسلحتها ، واحتفظت روما فيها بحافله . ولن نخرج عن النطاق المصرى ، ونحن نحلل أثر المسيحية فى تحرير مصر من الرومان . وفى اعتقادنا أنه ليست المسيحية هى التى أيقظت الوطنية المصرية — فالوطنية المصرية لم تدركه سنة ولا نوم فى أى وقت من تاريخها الطويل ، ويحدثك المطالعون لأوراق البردى فى آخر عهود الوثنية المصرية عن كلمة الوطن « Patrios » ترد فى بعض المخطوطات — بل إن اعتناق المصريين للمسيحية هو فى ذاته مظهر من مظاهر مقاومة الاحتلال الرومانى . ولم يبشر مار مرقس بكلمة الإنجيل عبثاً ، عندما جاء إلى الإسكندرية فى القرن الأول للميلاد . فلا يقارب القرن الثالث نهايته حتى تكون مصر قد تحولت عن ديانها القديمة التى مارسها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، إلى ديانة يسوع الناصرى ، وآمنت بأنه كلمة الآب المتجسدة .

وظاهرة انتشار المسيحية تكاد تكون واحدة فى كل مكان من الإمبراطورية . اعتنقها الفقراء والمحررون والعبيد ، لاعتقادهم أنها تحررهم من مساوئ هذا العالم ، وهى تعدهم بملكوت السماء ملكاً خاصاً لم يعرضهم عن العسف والجور والحرمان تحت النير الرومانى . وكان الشعب المصرى من أشد الشعوب بؤساً بحكم الرومان ، فقد لاقى من هذا الحكم شيئاً أنكى من الاستغلال : حرق الذلة مضاعفة ، فالمصرى يجرى بعد الرومانى واليونانى واليهودى ، وكل أجنبى فى بلاده . وكان لكل هؤلاء الحق فى الرعية الرومانية ، إلا المصرى ، فلم يكن له من حقوق غير حق الذل ، أما واجباته ، فتبدأ وتنتهى عند إنتاج الغذاء والكساء ، وزخرف الحياة ، للغالبين .

ومن السهل فهم نجاح الدعوة المسيحية لدى هذا الشعب المغلوب على أمره ، لولا قيام صهوبة واحدة : كيف لم يحرص المصرى على ديانته العتيقة ، وهى آخر صلة له بمعجده الغابر ؟ إلا أن نظرة واحدة إلى ما جرى على هذه الديانة ، بعد

الغزو الفارسي والمقدوني ، وبعد قرن من الحكم اللاجيدي والروماني ، كخيلة بأن تفسر لنا كيف جاز للمصري ، المتمسك بتاريخه وحضارته ، أن يتحول عن ديانته : لقد روع المصري على مدى سني الاحتلال الأجنبي بمظاهر الزيف والفساد في ديانته . ولا أحسب المصري تقبل ببساطة حكاية البطليموس أو القيصر يفتصب عرش فرعون في الدنيا والآخرة . وكان الكهنة - حفاظ الملة ورعاتها - يمالئون ويداهنون المحتل ؛ فعلوا ذلك مع الفرس ومع الإسكندر ومع البطالسة ومع الإمبراطور الروماني . ورأى المصريون صورة أولئك الملوك الأغراب تنقش على جدران المعابد وصروحها في الملابس الفرعونية ، تحت بصر الآلهة الألفيين وسمعهم ، إذا جاز لنا هذا التعبير . كما رأوا المعابد تقام بأسماء جديدة ، وتضاف أرباب أجنبية إلى البانتيون المصري . وتكرس معابد لبرنيقة وغيرها من زوجات البطالسة وشقيقاتهم ، ولأمهات الإمبراطرة وزوجاتهم ، بل للشباب الجميل أنطونوس ، خليل الإمبراطور أدرينانوس . لقد مسحت الديانة الرسمية وداخلها الغش والتدليس ، وحرفت أسماء الآلهة ، وأضيفت إليها أسماء يونانية ركبت تركيباً مزجياً ، تختلط فيه رطانة اليونان باللغة المصرية القديمة ، فانهارت حقيقتها في نفوس المصريين ، وإن احتفظوا زماناً بكل طقوسها وهيلها وهيلمانها ؛ وانصرف المصريون بكليتهم إلى العالم الآخر ، وإلى عقائدهم الشعبية ؛ وأصبح لطقوس الثالوث الأوزيريسي القدح الممل لديهم ، فهي الطقوس التي تصور لهم النشور بعد الموت ؛ ولعلمهم رأوا في قصة إيزيس روح بلادهم تحاول أن تجمع أشلاء قوميتهم من تحت أقدام الغاصيين . ظل المصريون يمارسون طقوسهم في الحياة والموت ، وقد تحولت عقائدهم إلى مجرد رموز لا معنى لها ، وانحدرت إلى خروب من السحر ، وبمجموعة من التعاويذ والتأثيم . ظلوا يحنطون موتاهم ويلتذجونهم في لفائف الكتان ، ويزودونهم بنصوص كتاب الموتى ، مؤمنين بالنشور والحياة الباقية . وقد أحب المصري الإله إيزيس ، وكان يتمثلها وهي تحمل طفلها الإلهي هوروس ، وإذا بالعقيدة المسيحية تحدثه عن مريم العذراء ، وعن الطفل يسوع ، وعن الآب ، وعن الصلب والقيامة والروح القدس . فما أيسر النقلة من أوزيريس وإيزيس وهوروس ، إلى الآب والابن ومريم البتول . ولم يكن الروح القدس يجديد على المصريين ، وقد عاشوا

آلاف السنين يؤمنون بالروح « با » في صورة طائر ، وبالقربين « كا » ، وهو الصورة الروحانية التي تنقسم المومياة أو التمثال الجنازي ، فيقوم الميت من مرقده ، يحيا حياته في « آمنى » ، كما عاش على الأرض . وإذا كان الصليب القائم يرمز إلى آلام المسيح ، وإلى الحياة الأولية ، فما أقرب هذا الرمز إلى الصليب ذى الحلقة ، « عنخ » ، رمز الحياة الأبدية .

ولا أحسب المصرى تابع منطقاً بعينه ، فما تحول الناس عن دياناتهم بدوافع منطقية ، إنما أزعج أن الأسباب السالفة مجتمعة — وربما كان أهمها رغبته في مناواة حكامه الأجانب ، والتخلص من ربة كهنته — جعلت المصرى يتحول إلى عبادة جديدة ، مكانها نفسه المتدينة ، بعيدة كل البعد عن مظاهر العنف ، لا تفرض عليه عبادة الإمبراطور ، سواء في مظهره الرومانى ، كما يريد له الاستراتيجوس ، أو في مظهره الفرعونى ، كما يريد له الكاهن المصرى .

ولا أحسب المصريين انقلبوا مسيحيين بين عشية وضحاها ، كما فعل ثلاثون ألفاً من المنبوذين الهنود في أكتوبر ١٩٥٦ ، عندما تحولوا إلى الديانة البوذية . ولا شك أن الكهنة المصريين قاوموا ما وسعته المقاومة ، ولكنها مقاومة لم تكن تجدى لدى شعب فقد ثقته في إخلاص كهنته وصدقهم ووطنيتهم . والغالب أن المقاومة تركزت حول بعض المعابد ، التي ظلت بمن يرتادها ويسكن حولها ويتنفع بخيراتها شبه جزر من الديانة المصرية القديمة وسط بحر زاهر بالمسيحية .

فلنتصور مصر في القرن الثانى للميلاد ، وفيها أنواع وأشكال من العبادات المصرية القديمة وقد اختلطت حابلها بنابل العقائد الهلينية ، والديانة اليونانية دون اختلاط ، ثم الدين الرسمى للدولة الرومانية ، فالعقيدة الموسوية ، ثم هذا الدين المسيحى الجديد ، الذى نرى آثاره في نهاية القرن الثانى لإنجيلا للمصريين ، وكنيسة بالإسكندرية ، يرأسها أسقف مصرى هو ديمتريوس [١٨٩ - ٢٣١ م] . وما نلبث حتى نسمع بأمر مدرسة اللاهوت [الديداقالية] قامت بالإسكندرية في مواجهة جامعة البطالسة المشهورة ، وفي مواجهة المدارس الإسرائيلية التي عاشت بفضل الفيلسوف فيلون الإسكندرى ، وإلى جانب مدرسة الغنوسيين أى العارفين . وكان بنطائينوس أول أستاذ نسمع باسمه شيخاً للديداقالية ، وهو فيلسوف رواقى

تحول إلى المسيحية . وخلفه على إدارة المدرسة عظيم من عظماء الفكر المسيحي ، هو اكليمانطس ، الرجل الذي درس الشعر اليوناني ، وأحاط علماً بالفلسفة الإغريقية ، بقدر ما تفقه بالنصرانية ، وبذلك استطاع أن يحقق موازنة جميلة بين الفكر اليوناني والعقيدة المسيحية .

وأقلل الإمبراطور سبتيميوس ساويرس المدرسة اللاهوتية عام ٢٠٢ م ، في أول موجات الاضطهاد ، وعادت بمجرد أن خفت وطأته ، وسلم الأسقف ديمتريوس إدارتها إلى عظيم آخر من عظماء الفكر المسيحي : أوريجانوس الحكيم ، تلميذ اكليمانطس ، والمتفوق على أستاذه . لقد انتهى أوريجانوس « إلى اللاهوت المسيحي خلال المعارف اليونانية كافة » . وحقق نصوص الكتاب المقدس فيما بقي لنا باسم مخطوط « الهكسابلا » ، أي ذي الستة الأعمدة ، كل عمود منها يفيض بالشرح والتعليق والتفسير . ثم غضب ديمتريوس على أوريجانوس ، وقد خابله الشك في انحرافه ، فقدمه لمحكمة المجمع المقدس ، التي أدانته بتهمة الهرطقة ، فاضطر أن يرحل إلى قيصريّة فلسطين ، حيث افتتح مدرسة ، ومن هناك انتقل إلى صور حيث توفي سنة ٢٥١ م .

وعاشت مدرسة اللاهوت حتى أوائل القرن الرابع ، أي حتى عهد الاضطهادات الكبرى ، المعروف باسم عصر الشهداء .

ولم تكن المسيحية محصورة بين جدران الإسكندرية ، بل الثابت أنها تقدمت بخطا واسعة خارج العاصمة ، منذ بداية القرن الثالث ، وبخاصة في الطيباتيدة [الصعيد الأعلى] ، وفي القيوم والبنسا [الصعيد الأوسط] ، حيث أنشئت الكنائس ، وأقيم على رأسها المطارنة يأترون بأمر كبيرهم بالإسكندرية ، أسوة بأهل المدن الخمس الغربية [وما زال البطريرك القبطي يحمل هذه الأسماء ضمن ألقابه الكنسية] .

وكلما أمعن إمبراطورة رومة في الاضطهاد ، زاد المصريون اتفاقاً حول ديانتهم الجديدة . حدث هذا بعد اضطهادات ساويرس في أول القرن الثالث ، وبعد اضطهادات دقيوس [سنة ٢٥٠ م] . وكان ينحصر للاضطهادات من ينحصر فيرتد ، ويستشهد من يستشهد . واختطف المصريون أسقفهم دنيس — وكان



يطلب اللحاق بالشهداء - ليخبتوه في ليبيا ، حيث يواصل جهاده وقيادته للكنيسة المصرية .

واستمرت المقاومة بعد اضطهادات دقلديانوس ( ديوقليسيانوس ) ( ٣٠٣ م )  
وقاليريوس وماكسيمين دازا . وما أكثر من قضي من الشهداء والشهيدات !  
وما أكثر من عذب أو أرسل إلى المعتقلات في محاجر سيناء والبحر الأحمر ! حتى  
صدر المرسوم الإمبراطوري في ميلانو عام ٣١٣ م يعلن حرية العبادات في  
الإمبراطورية الرومانية .

وما نحن أولاء نعرف أربعين على الأقل من المدن المصرية كان لكل منها  
أسقف . وكان بالإسكندرية وحدها مائة أسقف ، وكثير من الكنائس ، وقدر  
عدد المسيحيين في القرن الرابع بمليون من الأنفس .

وكان لانتشار المسيحية بين المصريين في داخل البلاد أثر من أبعاد الآثار في  
تطور القومية المصرية . فالتبشير بالمسيحية بدأ في المدن الكبرى ، وباللغة اليونانية .  
ولكن غالبية المصريين المقيمين خارج هذه المدن كانوا يجهلون تلك اللغة ، وإن  
اضطروا إليها في معاملاتهم مع الحكومة ، وأمام المحاكم . واقتضى انتشار المسيحية  
خارج المدن أن تجرى الطقوس وتلقى الموعظ بلغة البلاد ، بتلك اللغة المصرية التي  
يتخاطب بها المصريون منذ فجر التاريخ . كما فرض انتشار المسيحية وإقبال الناس  
على استيعاب نصوصها استعمال الحروف اليونانية لكتابة اللغة المصرية . وفي الحق  
لم تبدأ كتابة اللغة المصرية القديمة بالأحرف اليونانية بعد تحول المصريين إلى  
المسيحية ، إلا أن هذا التحول كان من أفعال الأسباب في استخدام المصريين  
للحروف اليونانية . فالكتابة الديموطيقية معقدة ، ونخالية من حروف الحركة . وقليل  
جداً من المصريين كانوا يعرفون الكتابة أو القراءة . أما اليونانية - وهي اللغة الرسمية  
منذ البطالسة ، وتحت الحكم الروماني كله ، وفي بداية الحكم العربي - فقد كانت  
مستعملة في المكاتبات الرسمية وبعض المكاتبات الخاصة ، وكان من السهل على  
الأميين المصريين أن يحدوا كتبة عموميين يخطون اللغة اليونانية ، وأنصور أولئك  
الأميين كانوا يملون رسائلهم بلغتهم ، فيكتبها الكتاب العموميون بالأحرف اليونانية ،  
مثلاً تكتب التلغرافات العربية من الخارج بالحروف اللاتينية . وكذلك من يتلقون



تلك الرسائل ، كان أسهل عليهم أن يجدوا كتبة عموميين يطالعون لهم هذه الرسائل . وقد شعر رجال الدين الجديد بالحاجة إلى نشر الكتب المقدسة والتعاليم الكنسية باللغة المصرية ، فكان من الأسر أن تترجم إلى المصرية ، وتكتب بالحروف اليونانية ، وبذلك يسهل إيجاد قراء لها ، كما يطمئن رجال الدين إلى حسن النطق بأسماء الأنبياء والرسل والحواريين والبلاد التي كانت مسرحاً لحوادث الإنجيل . وكان هذا منشأ اللغة القبطية ، وهي اللغة المصرية القديمة بعد أن عدت عليها عوادي أربعة آلاف سنة ، وتطورت وتحورت بحكم اتصالات المصريين بالأجانب منذ الدولة الحديثة ، وقد دخلتها ألفاظ يونانية عديدة ، من أسماء الآلات والأشياء ، والاصطلاحات الرسمية ، وأخيراً كل ما أدخلته الكنيسة من مصطلحات ، بحكم أن التبشير بالمسيحية بدأ في مصر باللغة اليونانية . ولما كانت هناك مخارج حروف مصرية لا يوجد مقابل لها في الأحرف اليونانية ، أضاف المصريون إلى ألف باء الإغريق سبعة أحرف من الكتابة الديموطيقية .

ومقاومة المصريين للاختلال الأجنبي لم تقف عند حد الانفضاء في هذا الدين الجديد ، دين المغلوبين والمحرومين ، بل قد اتخذت المقاومة صورة من أعجب الصور ، واتجاهها كان عظيم الأثر في تاريخ المسيحية . اتخذت المقاومة شكلاً عرف في العصر الحديث باسم « العصيان المدني » و « المقاومة السلبية » ، عندما بدأت حركة السياحة والرهبة . هذه الحركة الروحية ، أول ما نسمع بها في القرن الثالث ، عندما خرج رجل صعيدى اسمه بولا أو بولس إلى الصحراء يتعبد وحيداً متوحداً . لم يكن التوحيد ولا الانقطاع للعبادة يجدي على المصريين ، فقد عرفت الديانة المصرية القديمة نظام الاعتكاف والنسك ، والصحراء في مصر ملاصقة للوادي الخصيب ، إليها يخرج المعنى والمهرب من العدالة أو من الظلم ، وطالب الانفراد للتأمل والتهجد .

والحركات الثورية المصرية كانت تنشب وتنتصم بثلاث نواح : بلاد البشموه وهي البرارى في شمال الدلتا وفوق مياه بحيراتها ، وزيين هيشها وحامولها ، والحواف الشرق ، وهو جزء من مديرية الشرقية حالا ، ثم الطيبايدة أى الصعيد الأعلى . وهذا الصعيد الأعلى كان « المنترلاند » والمقل لصنيع المصرية في كل زمان ، ومنه خرج أمراء الصعيد ، وعلى رأسهم أحمرس بطردون أول أمة فتحت مصر ،

وهي الأمة المجهولة الأصل والنسب ، التي عرفها القدماء باسم الهكسوس ، وترجموا هذا الاسم بملوك الرعاة .

ومن الصعيد خرج رواد الرهبة الكبرى . من الصعيد خرج الراهب الأول أنبا بولا ، والراهب الأشهر القديس أنطونيوس . وفي الصعيد نشأ أنبا باخوم مؤسس الرهبة الجماعية ، رهبة الشركة [ الكينويتية ] ، وأنبا شتوده ، أصلب الرهبان عوداً وأشدهم تكبراً على الوثنية المصرية وأول من يحمل أمام التاريخ تبعة هدم الآثار المصرية القديمة .

والتف حول حركة الرهبة آلاف من المصريين ، لم يكونوا كلهم من القديسين ، ولا حتى من الصالح . فقد اندس في حشود الرهبان الورعين غير قليل من الهارين من وجه القانون ، عادلاً أو ظالماً ، لسبب أو لآخر ، وكلمة الهروب من القانون بمعناها في ذلك الزمان ، تدل في غالب الأمر على روح المقاومة السلبية في الشعب المصري ، عندما يطفح كيل الغاصب المحتل وأعوانه من جامعي الضرائب ورؤساء البلند القدمين . وقد سبقت الإشارة إلى البطريق ديس ، الذي حزب أمره على الاستشهاد مع رعاياه ، ورفضت الرعية أن يضجى بنفسه ، فأجبرته على الاختباء في الصحراء مع رهبانه ، ليقود حركة العصيان ، وينهض رمزاً لحياة الكنيسة ، بالرغم من اضطهادات الأمبراطرة الرومانيات .

في هذا العهد الأول للمسيحية تأسس الدير الأبيض قرب سوهاج ، وتجمع الرهبان في وادي النظرون بشقه الجنوبي حيث دير السريان ودير أنبا بشوى حالا ، وشقه الشمالي في بيرة شبات [ الاسقيط ] .

وذاع أمر هذه الحركة في أرجاء المسيحية ، فوجد على مصر المعجبون بهذا التجرد والتقنوت . جاءوا على حس العجائب التي تم على أيدي النساك ، وقصص التهجد وتقتيل الجسد . وفدوا على مصر من سوريا والقسطنطينية وروما وبلاد الغال وإسبانيا ، ليروا بأعينهم ، ويتحدثوا بالسنتهم وفي رسائلهم ، عما يشهدون ، وليتبركوا بأبطال «الرياضة الروحية» . وعادوا إلى بلادهم محتلين إعجاباً بما رأوا ، ووضعوا أسس الرهبة الأوربية والأسبورية ، بعد أن ترجموا إلى اللاتينية والسريانية دستور رهبة الشركة الذي وضعه أنبا باخوم . وكان من كبار الرحالة الرومانيين

كاسيانوس وبلاديوس والعلامة هيرونيموس [القديس جيروم] والراهبة أوتيريا ،  
والسيدة النبيلة ميلانيا . .

وكان بابا الكرازة المرقسية يعتبر هؤلاء الرهبان جيشه الروحي والمادى . فإذا سافر  
إلى المجامع العدة ، التى كانت تعقد غالباً فى آسيا الصغرى بأمر إمبراطور بيزنطة ،  
للتداول فى شأن فقه الديانة المسيحية وأركان عقيدتها ، حاط نفسه بجموع الرهبان  
الصاخبة ، يعاونهم نوع من « الصبوات » الدينين يعرفون باسم « البارابولاني » ،  
وظيفة أولئك الرهبان والصبوات تشبه ما عرفناه فى عصرنا باسم « المظاهرات » ،  
وجموع « المتأفة » . لم يكونوا يعنون ، ولا كانوا يفقهون شيئاً من المساجلات  
البيزنطية الطويلة ، التى كانت تجرى فى تلك المجامع حول طبيعة المسيح ؛ إلهية  
خالصة هى ، أم إنسانية إلهية ، أم إنسانية فحسب . إنما هم سافروا بطانة لبابا  
الإسكندرية ، مؤيدين لزعم الوطنية المصرية ، « بلدانهم » كيرلس أو أثناسيوس ،  
أو من يكون ، لأن ما يقوله داخل الجمع هو الحق ، ولا يعرفون حقاً غير ما يقوله  
رئيسهم الروحي و « رمز أمانهم » .

هؤلاء الرهبان والصبوات هم الذين أطلقهم كيرلس على يهود الإسكندرية ،  
تلك الجالية الثرية المرفهة ، الوثيقة الصلة بالموظفين الرومان ، تعرف الطريق إلى  
اجتذاب عطفهم بشتى وسائل الإغراء من إطعام القم وملء الجيوب ، على حساب  
أهل البلاد . فلم تغرب شمس النهار حتى أجلاهم الرهبان و « الصبوات » المصريون  
عن أحيائهم الكبرى إلى أرباض المدينة .

وهم هم الذين حقدوا على هيباسيا الجميلة العاقلة ، ابنة الفيلسوف ثيون ،  
وأستاذة الرياضيات والفلك بجامعة الإسكندرية الوثنية . فتربصوا بها ذات يوم ،  
وهى خارجة من قاعات الدرس ، وانتزعوها من فوق عربتها ، وسحبوها إلى حصن  
الكنيسة حيث جردوها من ثيابها ورحموها ثم قطعوها إرباً إرباً وأحرقوها .

إن المسيحية ، التى وجدت فى أمثال أكلمينطس وأوريغانوس رجالاً متفهمين  
بالفلسفة الهلينية ، لم تعش طويلاً فى مصر ، بسبب قوة اندفاع القومية المصرية ضد  
كل دخيل ، وضد كل ما يمثل هذا الدخيل ، فلسفة أو غير فلسفة .

لم تهدأ حفيظة المصريين على المحتلين بعد أن اعتنق إمبراطورة روما وبيزنطة

ديانة الناصري ، ولم يطق لظي كرههم للإمبراطور الجالس على خفاف القرن  
الذهبي تحوله إلى المسيحية . فما كان أسرعهم إلى الاستئثار بمذهب مسيحي  
يخالف مذهب الإمبراطور البيزنطي . فإذا اتجهت القسطنطينية إلى الهرطقة  
الأريوسية ، قامت مصر تناهض الأريوسية ، وحينما نادى مسيحية الروم بازواج  
طبيعة المسيح ، أعلنت الكنيسة المصرية ، وتمسكت إلى يومنا هذا ، بعقيدة  
الطبيعة الواحدة [المونوفيزية] . فلا عجب أن عانى أقباط مصر من اضطهاد أهل  
ملتهم البيزنطيين ، أشد بكثير مما لاقوه على أيدي الوثنيين .

وليس يسير على كاتب هذه السطور ، وقد نشأ مسلماً في بيئة إسلامية  
صحيحة ، أن يفهم فيشرح أسس الخلاف الذي نشب في الكنيسة إبان القرن  
الخامس ؛ وقد حاول في الفصل السابق أن يوضح بشئ من التفصيل هذا الخلاف .  
وغاية ما وسعه فهمه هو اختلاف اللاهوتيين في تعريف تجسد كلمة الآب في  
صورة يسوع . لأنه وقد ظهر بين الناس بشراً سورياً ، أليس في هذا الدليل على  
أن طبيعته من طبيعة البشر ؟

ولكن المسيحيين آمنوا بالطبيعة الإلهية لابن مريم ، بحسبان أنه كلمة الآب .  
فجاء آريوس ، أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من  
طبيعة الآب الذي لا شريك له . وبذلك أكد نوعاً من الوجدانية ، ولو أنه لم ينكر  
الوهية المسيح كلية . وجاء أعداء آريوس ، والكنيسة المصرية على رأسهم ،  
فشلحوه ، وأنكروا أى أثر للطبيعة البشرية في المسيح ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة  
الواحدة للمسيح ، وهى الطبيعة الإلهية . وإذا كان المصريون لم ينكروا وجود  
طبعتين للمسيح قبل تجسد الكلمة ، فإنهم يقولون بزوال أو انزواء الطبيعة البشرية  
كلها بعد التجسد . انزوت كما تتزوى نقطة الماء في المحيط ، فهى موجودة وغير  
موجودة ؛ أما كنيسة بيزنطة فتؤمن بأن للمسيح طبيعتين ، بشرية وإلهية .

كان هذا هو أسس الخلاف والمساجلات والمباحثات في الجامع ، بين الكنيسة  
المصرية [المونوفيزية] ، وتسمى عند الكتاب الأجانب باليعقوبية] وبين كنيسة  
بيزنطة [وتعرف بالملكية] . ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على  
أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب ، يحمل معنى مناوأة الضعيف للقوى ،



بل هي الظهير الروحي للمقاومة الوطنية . فالمصريون يعارضون بيزنطة ، ويكرهون المحتل ، كما أنهم يعتزون بشخصيتهم وشخصية كرازتهم المرقسية ، ولا يريدون لكنيسة الإسكندرية أن تتراجع إلى الصف الثاني خلف بيزنطة ، الأحداث منها مسيحية . فإذا كانت القسطنطينية هي عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية في العالم .

ولكن روما حيث يجلس على كرسي الأسقفية خليفة بطرس الرسول ، تطالب هي أيضاً بزعامة المسكونة ، وتفضل في أسوأ الاحتمالات أن تبقى الزعامة للإسكندرية ، على أن تفوز بها عاصمة الإمبراطورية الشرقية ، لمجرد أنها مقر الإمبراطور البيزنطي . ولقد استفاد بطاركة الإسكندرية من هذا التزاحم على الزعامة بين روما والقسطنطينية ؛ ولعله أطال عمر الزعامة المصرية لكنائس العالم المسيحي في ذلك الوقت . كان البطريرك المصري يدخل الجامعات الإكليروسية ، وحوله رهبانه وصبواته ، يملون إرادتهم على إكليروس بيزنطة . ولقد بلغ من جبروت الأنبا كيرلس الأول ، في مجمع أفسوس عام ٤٣١ م ، أن استطاع ، بحشد رهبانه وصبواته وهتافاتهم ، أن يتزع من المجمع قرار حرم نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية ، وكان بابا روما يلعب من وراء الستار لعبته البارة لضعضعة كرسي القسطنطينية .

ولكن بمجرد أن توطد التحالف بين الإمبراطور البيزنطي وبابا روما ، شعر البطريرك ديوسقوروس ، خليفة كيرلس ، بالكرسي البطريركي يمد به ، وذهب إلى مجمع خلقدونيا عام ٤٥١ م ، ورعاياه يصدونه عن السفر ، ويحرضونه على عصيان أمر الإمبراطور بالتوجه إلى خلقدونيا . وهناك لم يستطع الرهبان و « الصبوات » شيئاً حيال القوة القاهرة . وحكم المجمع بحرم ديوسقوروس ، وإبعاده عن كرسي الكرازة المرقسية ، كما قرر بالإجماع « أن المسيح والآب من طبيعة واحدة في ألوهيته ، وأن المسيح والبشر من طبيعة واحدة في إنسانيته » . بهذا قضى مجمع خلقدونيا المشهور وانفصمت العرائن نهائياً بين الكنائس الأوربية ، شرقية وغربية ، وبين الكنيسة المصرية .

يقول كريستوفر دوسون في كتابه « أصول أوروبا » :

« إن الأزمة الدينية الكبرى في القرن الخامس تترد في أصولها إلى قلب العالم



الهيليني ذاته بمدينة الإسكندرية ، لأن تقاليد الثقافة الشرقية العريقة عادت إلى الحياة في صورة من صور المسيحية . لقد احتفظ الشعب المصري تحت حكم البطالسة والرومان بديانته وحضارته . وبينما كانت الإسكندرية حاضرة القديس الهيليني اللامعة ، اتصلت أسباب الحياة المصرية القديمة على ضفاف النيل دون تغيير . وبذلك جرى تيار الحضارتين جنباً إلى جنب ، دون أن تختلط مياههما ، لأن مصر الألفية احتفظت بطقوسها الدينية . ثم جاءت المسيحية وغيرت كل هذا ، فاهارت الحواجز الدينية التي تحيط بالشعب المصري ، حتى وجد نفسه مختلطاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية . ومع ذلك فإن قوة القومية المصرية لم تضعف ، والحضارة اليونانية البيزنطية لم تجد سيلاً إليها ، بل كان العكس هو الصحيح ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليوناني دون توقف ، وتبوتت اللغة القبطية — أي اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية — مكانتها بدل اليونانية ، كما احتلت الكنيسة مكان الديانة الرسمية القديمة في تمثيلها للقومية المصرية . وبينما قام على رأس الطبقات الحاكمة أسياد أجنبيات تبوءوا عرش الفرعون ، فإن التحول إلى المسيحية تبعه تزعم البطريرك المصري للكنيسة المصرية . وكما كانت مصر في أيام تضعفها تلقى بمقاليد زعامتها لكبير كهنة آمون — رع في طيبة ، فإن جميع قوى الوطنية المصرية التفت الآن حول البطريرك ، وهو « السيد الأقدس ، البابا والبطريرك لمدينة الإسكندرية ، وبلاد لوبيا ، والمدن الخمس الغربية ، وإثيوبيا ، وسائر أراض مصر ، أبو الآباء ، أسقف الأساقفة ، الحواري الثالث عشر ، قاضي العالم » . وكان سلطانه على الكنيسة المصرية سلطاناً مطلقاً ، أقوى بكثير من سلطان البابا على الكنيسة الغربية . . . . ولم تكن تقف إزاءه سوى قوة واحدة : هي قوة الرهبان ، الزعماء الطبيعيين للشعب ، إلى درجة تتفوق على زعامة الأساقفة .

« والرهبنة المصرية نتاج أصيل للمسيحية المصرية ، خلاصة مصفاة لفضائل مبدعها ورذائلهم ، فهي تجمع إلى جانب حكمة أنبا مقار أو أنبا باخوم وروحانيتهما ، تعصب الرهبان والصبرات الذين قتلوا هيباسيا ، وأثاروا الاضطرابات الدامية في شوارع الإسكندرية . وكان هذا التعصب قوة تساند البطريرك ، الذي وجد في الرهبان جيشاً عتيقاً جسوراً . فإذا ذهب البطريرك إلى مجمع مسكوني .

اصطحاب الرهبان والصبوات « الباربولاني » ، الذين كانوا يؤلفون حرساً يحميه ، ويرهب أعضاء الجمع بهتافاته واعتدائاته . وقد بلغ البطريرك المصري من القوة والسؤدد ما جعله يطمع في أن يكون الحاكم الديني المطاع للإمبراطورية الرومانية . ووقف البطريرك أناسيوس وحده ضد الإمبراطور قسطنطيوس الثاني وأساقفته كلهم ، ولم يك خلفاؤه مستعدين لقبول زعامة تلك البطريركية الحديثة العهد ، القائمة في القسطنطينية ؛ وانتصرت الإسكندرية مرتين بزعامة بطاركتها العظام : تاوفيلوس ، وكيرلس ، عندما أذلت كرسي القسطنطينية ، وكرسي أنطاكية ؛ وفي المرة الثالثة ، بعد الحكم على فلاقيانوس في إفسوس [ سنة ٤٤٩ ] ، حاقت بها الهزيمة عندما اضطرت إلى قطع علاقاتها بروما والغرب ، وكانت روما والغرب يظاهرانها حتى ذلك الحين .

« وفي سنة ٤٥١ م بمدينة خلقدونيا ، تكاثفت قوى روما والقسطنطينية ، برئاسة البابا لاون ( ليون ) والإمبراطور مركيانوس ، لسحق البطريركية المصرية الكبرى التي هيمنت على أقدار الكنيسة الشرقية طوال هذه المدة .

« وجمع خلقدونيا ، من دون كل الجامع ، يبرز بأهميته الدرامية ، كما يتميز بنتائجه . وقد اجتمعت في كنيسة آيايوفيا بخلقدونيا جميع القوى التي تتنازع العالم المسيحي : قوة الكنيسة المصرية في ناحية ، وقوة الكنيسة الشرقية في ناحية أخرى . وكان أصحاب الفريقين المتنازعين يحتلون جناحي الكنيسة ، كل إلى ناحية من صفها ، وهم يتبادلون السباب . على حين جلس كبار الإمبراطورية أمام الحاجز الذي يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة ، وإلى جوارهم رسل البابا يتحكمون في المجموع الحاشدة الصاخبة ، وهم جامدون ، يوجهون المناقشة في إصرار نحو اتخاذ قرار نهائي يتفق مع إرادة البابا وإرادة الإمبراطور .

« وهذا القرار لم يتخذ إلا بعد أخذ ورد غاية في العنف ، وبعد أن طالب الرسل البابويون بجوازات سفرهم ، استعداداً لعقد مجمع جديد في الغرب . وسلم الإمبراطور لبلاغهم النهائي ، فوافقت الأغلبية على التعريف الغربي لطبيعة المسيح المزدوجة مجتمعة في جسد واحد .

« وهذا الحل — الذي فرضته إرادة بابا من عظماء البابوات ، وإمبراطور قوى

الشكينة — لم يكن ليضع نهاية لعناصر الحلف والشقاق بين شعوب الإمبراطورية ، فقد أكد الأساقفة المصريون أنهم لا يجرؤن على العودة إلى بلادهم وهم يحملون خبر عزل البطريرك ، خشية أن يمزقهم قومهم شرمزق . ولم يكن تخوفهم مجرد تخيلات ، فقد هاج الشعب الإسكندري وماج في وجه الحامية الإمبراطورية ، وأعمل فيها ذبحاً وتقتيلاً ؛ ولكن الحكومة الإمبراطورية نجحت في فرض بطريرك من المذهب الملكي على كرسي الإسكندرية .

« وما إن توفي الإمبراطور ماركيانوس القوى الشكينة ، حتى هجمت جمهرة الشعب الاسكندري على البطريرك الحلقدونى [الملكى] ، ومنزقته شرممزق في صحن كنيسة ، وفي يوم الجمعة الحزينة .  
« وهكذا ظلت اليعقوبية ، أى عقيدة الطبيعة الواحدة . هى المذهب القوي ، وغدت قوة في يد البطريرك المصرى . »

• • •

هذه هى قصة الشعب المصرى فى حقبة من أعقد أحقاب تاريخه . فالمقاومة المصرية لحكم بيزنطة يشتد عضدها ، والهرب من دفع الضرائب يصبح القاعدة ، وذلك بأن يهجر الناس أرضهم ويدخلوا الأديرة ، أو أن يحتتموا بكبار الملاك القادرين على التخلص من الضرائب . أما الكنيسة فتتخلى بإعفاءات عدة . وحاول الإمبراطور هرقل ، فى القرن السابع ، مصالحة الكنيسة المصرية ، ولم يكن له فى هذه المصالحة فضل ، إنما اضطر إلى المسألة بعد أن غزا كسرى ولايات الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ، فدخل بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، ومصر سنة ٦١٦ م . وبموت كسرى ، عادت مصر إلى حظيرة بيزنطة ، ورأى الإمبراطور من الحكمة استرضاء المصريين ، فابتدع مذهباً لا يبنى ازدواج طبيعة المسيح ، ولكنه يقول « بوحدة مشيئته » ، وأوفد إلى مصر البطريرك قوروش يشر بالمذهب الجديد ، ويضم إلى سلطته الروحية السلطة الزمنية .

وهنا يقول ساويرس بن المقفع ، المؤرخ القبطى : « أوفد قوروش إلى مصر بطريركاً ، وحاكماً عاماً . »

وقبل أن تطلأ أقدام المقوقس أرض مصر ، اجتمع البطريرك القبطى بنيامين ،

بالإكليروس والشعب ، وتنظم أمور الكنيسة الوطنية ، وأوحى إلى الجميع « بالمقاومة حتى الموت في سبيل العقيدة » . ثم ترح إلى الصحراء بحثى بها هو وأساقفته .

وفشل المقوقس في فرض مذهب « المشيئة الواحدة » على الكنيسة المصرية ، فاستعمل وسائل العنف والاضطهاد في عشر السنوات الباقية للحكم البيزنطى في مصر ؛ وكال له المصريون أقذع السباب : فهو ابن الشيطان ، والمسيخ الدجال ؛ وواصل بنيامين قيادة حركة المقاومة من منفاه الصحراوى .

وكانت تلك اللحظة مرصودة في لوح التاريخ للفتح الإسلامى ، بقيادة عمرو ابن العاص . فليس عجيباً ولا مستكراً ، كما يدعى بعض المؤرخين ، أن يساعد المصريون الفاتح العربى ، وقد جاء يتقدم من ذلك الاحتلال اليونانى الرومانى الجاثم على صدورهم منذ سبعة قرون ؛ ولم يقدم المصريون المعونة لفرسان العرب فحسب ، بل حارب بعضهم إلى جانبهم . وكان عمرو قائد رجال ، اجتمعت له صفات الجندى العظيم ، والسياسى المحنك ، فأحسن استقبال البطريق بنيامين ، وهو عائد من منفاه . ولدينا شهادة مصرى من عظماء الإكليروس القبطى في ذلك الزمان ، أو بعده بقليل ، وهويوحنا النقيوسى ، قال :

« احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملاً يعاب عليه ، فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة إنشاء الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ، ودير أنبا مقار . وجاء الرهبان أفواجا يؤكلون إخلاصهم للقائد العربى . »

## ملكات ثلاث

### أم خليل - بنت الزمار - الصعيدية

كان تاريخ مصر لا تنقصه الفرائب والأعاجيب ! وليس العجب أن تحكم مصر نساء ، وقد حدث هذا في أكثر من مكان خارج مصر ، ولكن العجب أن تمتاز ثلاث ملكات في تاريخ مصر ، تشتهر إحداهن في التاريخ العام ، وتشتهر الثانية في تاريخ الفراعنة ، وتشتهر الثالثة في تاريخ مصر الإسلامية : كليوباترة ، وحشيسوت ، وشجرة الدر .

فلنبداً مصعدين في التاريخ بالجهة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهي مصرية بحياتها وسيرتها ، ولكنها أصلاً مملوكة تركية - أو أرمنية - أهداها الخليفة المستعصم بالله ، آخر بني العباس في بغداد ، إلى الملك الصالح أيوب .

ثم نشي بكليوباترة : مصرية المولد والسيرة ، ولكنها مقدونية الأصل من ناحية الأب على الأقل ، لأننا لا نعرف شيئاً عن أصل أمها الراقصة ، عشيقه بطليموس فيلوباتور - فيلوميتور ، المكنى بالزمار .  
ونختم بالمصرية الصعيدية ، بنت تحوتمس الأول ، أوبنت الإله آمون ، الملكة حشيسوت .

...

### أم خليل

كانت أم خليل امرأة ذات عقل وحزم ومعركة تامة بأحوال المملكة ، حتى إنها كانت تدبر الملك في حياة أستاذها الصالح أيوب . وكانت إلى جانب زوجها قيل المعركة التي كسبها المماليك الصالحية من جيوش فرسان الصليب ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .



ومن أعجب أدوارها أن يموت الملك الصالح أيوب على فراشه ، في الوقت الذي تحركت فيه جنود الري دي فرانس من دمياط إلى شرمساح ، عند مخرج الفرع التنيسي للنيل من فرع دمياط ، وكان هذا الفرع التنيسي يعرف باسم ترعة أشموم [ وهو الآن البحر الصغير ] . فكان النيل إلى يمين الصليبيين ، وأمامهم بحر أشموم هذا ، ويواجههم في الضفة المقابلة عماليك الصالح الأشاوسة ، يسندون ظهورهم إلى المنصورة الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات إلى الجنوب من مخرج بحر أشموم ، وإلى أسطولهم النيلي . فكان على سان لويس أن يعبر بحر أشموم ، تحت سمع الجيش المصري وبصره — وهو ما لا يفكر به قائد — لولا أن خائناً اسمه سلامون كشف للصليبيين عن معبرة بالقدم [ مخاضة ] إلى الجنوب من موقع المصريين ، فتقدم الملك الصليبي إلى هناك ، وأمر رجاله بالعبور ، وعلى رأسهم فرسان الداوية [ التامبليه ، أي فرسان المعبد ] .

وما إن بلغ روير ، كونت أرتوا ، شقيق الملك ، الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، حتى بادر بمفاجأة المعسكر المصري فاخترقه ، ونفذ إلى المنصورة ، وتعداها حتى بلغ قصر الملك الصالح على الضفة الشرقية للنيل . وقتل في المعركة أتابك المعسكر فخر الدين ، وأشبع الصليبيون المعسكر المصري قتلاً ، وشرعوا يهجمون على قصر السلطان الأيوبي . ولكن المماليك الصالحية ، وعدتهم عشرة آلاف مقاتل من خيرة المدربين على فنون الحرب ، جمعوا حشودهم قرب القصر ، وقادهم بييرس البندقداري في الهجوم على فرسان الصليب ، فارتد هؤلاء إلى المنصورة ، ليجدوا أنفسهم محشورين في حوارى البلدة ، يطاردهم فرسان البندقداري من وراء ، ويضرب عليهم رماة السهم من الأسطح والطيقان ، فتذهب ريجهم ، ويموت قائدهم كونت أرتوا ، وثلاثمائة من رجاله . ولم ينج في الموقعة من فرسان الداوية سوى خمسة ، وفي الفرسان الصليبيون ، حملة القوس . ويقدر من أيبد من الصليبيين في ذلك اليوم بأكثر من خمسمائة وألف مقاتل . وتقهقرت قلوب الجيش الصليبي إلى بحر أشموم من حيث بدءوا ، وهناك التقوا بملكهم لويس ، وكان قد عبر البحر إلى الضفة الجنوبية ، وحارب لويس التاسع في بسالة ، وحاول عسكره العودة إلى معسكرهم بالضفة الشمالية لبحر أشموم ، فغرق منهم جم غفير ، وملأوا البحر بخيلهم ورجلهم

ما بين غريق وقتيل وجريح . وصمد لويس على رأس الكبرى ، في حرب الساقة ،  
والرجال يتناقصون حوله ، حتى انتهى أمره بالتسليم مع من بقى من أمرائه وفرسانه .  
حدث كل هذا والملك الصالح قد وافاه أجله منذ تقدم فرسان الصليب من  
دمياط . ولو علم الماليك بموته لاتفرط عقدم وتبلبل أمرهم . ولكن شجرة الدر  
أخفت خبر موته عن الجميع واستدعت الأمير فخر الدين أتابك العسكر - وهو  
الذى قاد المعركة وقتل فيها بعد ذلك بقليل - والطواشي جمال الدين محسن من  
خاصكية السلطان ، واتفقت معهما على إخفاء موت السلطان ، وقيامها بشئون  
الملك حتى يحضر طورانشاه ، ابن زوجها ، من قلعة كيفا ، على الضفة الغربية  
لنهر الدجلة ، قرب ديار بكر . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر ماهرة  
بتوقيع الملك الصالح أيوب ، يزوره على ما يقال سهيل ، خادم السلطان المتوفى .  
بهذا تتقدم إلينا شجرة الدر على صفحات التاريخ المصرى .

ولا يعرف لهذه المملوكة الفطنة أصل . قيل إنها تركية وقيل بل أرمنية ، تلقاها  
الصالح أيوب هدية من الخليفة العباسى ، ثم أحبها فتزوجها بسنة الله ورسوله ،  
وكانت خير عون له في أمور الدولة ، بدليل وجودها إلى جانبه أثناء الحملة التي  
قامت لدفع الصليبيين عن الديار المصرية ، ثم رباطة جأشها بعد موته ، وتحابيلها  
في إخفاء الحادث الجلل . فكان أكل السلطان المتوفى يدخل إليه في « فراش  
مرضه » ، على أن به وعكة ، وتقوم هي مقامه في استقبال رجال الدولة من خلف  
ستار . بهذا كسبت هي موقعة المنصورة ، أو موقعة أشموم ، وأبقت على كيان  
الدولة الأيوبية حتى عاد ابن زوجها طورانشاه من بلاد الرافدين ، فسلمته مقاليد  
الأمر ، وأشرف على شئون الحرب بنفسه ، ودبر خطة نقل قطع المراكب مفككة  
على ظهور الإبل إلى شاطئ النيل ، شمالى الأسطول الفرنسى الراسى بدمياط .  
وركبت قطع السفن هناك ، وكبس رجالها على الأسطول الصليبي ، فأسروا منه  
ثلاثين سفينة . وبذلك قطعت خطوط تموين لويس التاسع . فلا هو في قوة يقتحم  
بها أعداءه ليبلغ القاهرة ، ولا هو بمون من قواعده . وأخذ في التمهق شمالا ، كما  
ذكرنا ، وبمالك الصالح تتعقبه ، وتدير التقتيل في رجاله المهزمين ، حتى بلغوا  
فارسكور ، حيث أيد جيش الصليب ما بين مقتول وأسور ، وكان الملك على

رأس الأسرى ، ولم ينقذه ، وأمرأه ، من القتل إلا عقل شجرة الدر وحسن تديرها ، عندما قبلت افتدائهم بمال له صورة .

ولم يقلع طورانشاه ، برغم انتصاره ، في اجتذاب ممالك الصالح إليه ، لأنه عاد من « كيفا » محفوقاً بماليكه وخاصكيته ، يحلهم محل ممالك أبيه في مناصب الدولة ، ويضمّر للممالك الصالحة ما يضمّر من الغدر ، ثم هو يضيّق على شجرة الدر ويتوعدّها لتقر له بمال أبيه ، وهى ترفض ، حتى عيل صبرها وصبر ممالك زوجها ، فأرسلت إليهم من يقول : « اقتلوا طورانشاه ، وعلى رضاكم » ، فتولّى أمرأؤهم قتل آخر الأيوبيين — فيما عدا خراقة أخيرة — بزعامة بيبرس ومعه الأمراء قلاؤن الصالحى وفارس الدين أقطاي الحمدار وعز الدين إيبك التركمانى وغيرهم .

وبمقتله يبدأ حكم الممالك البحرية ، وكان أول سلاطينهم . . . ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ( عام ١٢٥٠ م ) .

ويقول هنا الأستاذ ستانلى لين — بول ، صديق المصريين ، ومؤرخ عصورهم الوسطى ، ودارس الفن الإسلامى المصرى — وهو لا يتخلى عن نعرته الاستعمارية — « وتكاد تكون شجرة الدر الملكة الوحيدة التى تولت الحكم على بلاد المسلمين قبل إمبراطورة الهند الحالية » . . . أى الملكة فكتوريا !

والحق أن اختيار الممالك لزميلتهم المملوكة سلطاناً عليهم أمر يدعو إلى أشدّ العجب . لأن السلطان ، إن لم يكن قاضى القضاة ، فهو الرئيس الأعلى للجيش ، والمرأة لاتولى قيادة الجيش ولست أصدق أن إخلاص الممالك الصالحة لأستاذهم الملك الصالح أيوب هو الذى دفعهم إلى الحرص على تولية زوجه ، وأم ولده خليل . فإن من يعرف الممالك فى مستقبل حياتهم بمصر ، وينرس أحوالهم ، لا يمكن أن يقبل قصة هذا الإخلاص ؛ إنما هى الحكاية القديمة التى عرفناها فى الحرس البريتورى بروما ، وفى حرس الخليفة العباسى من الديلم ، وفى حرس السلطان العثمانى المعروفين بالإنكشارية ؛ وهى أيضاً حكاية الثورات العسكرية فى جمهوريات أميرىكا اللاتينية ، عندما يعتمد الحكام أولاً وآخرأ على الجند ، دون الشعب . وقديماً قيل « من يبنر الريح ، يحصد العاصفة » ، والاعتماد الكلى على الجند يشهى

بهؤلاء إلى إدراك قوتهم ، فيوجهونها حسب رغباتهم وأهوائهم ، ويولون ويعزلون .  
لعل المملوك الوحيد الذى أخلص للسلطان المتوفى ولأسرته هو زوجته ، وأم ولده  
خليل . فقد حرصت على استدعاء ابن زوجها من قلعة كيفا ليتولى ملك أبيه .  
ولم يرضخ المماليك لهذا إلا محافظة على تماسك الدولة الأيوبية ، وخشيتهم من  
انفصاخص سورية عنهم ، ورفض الخليفة العباسى الاعتراف بسلطنتهم . ولما لم يحسن  
طورانشاء معاملتهم — ويمكنك أن ترجع ذلك بأنه لم يتخضع لتحكمهم — قتلوه ،  
وحافظوا بعد ذلك على خرافة امتداد الدولة الأيوبية ، أولا بتولية شجرة الدر ،  
ثم بتولية طفل أيوبى إلى جانب عز الدين إيبك التركمانى ، ثانياً سلاطين المماليك  
البحرية بعد شجرة الدر . فالملك لم فى كل الأحوال . ولقد أيدت الحوادث ذلك  
بترويحهم شجرة الدر من زميل لهم ، وبإقامة طفل أيوبى لإرضاء سورية وإرضاء  
خليفة بغداد . وتأيد ذلك بحرض شجرة الدر إيان سلطنتها القصيرة على الانتساب  
إلى الملك الصالح ، وتوكيدها هذه الحقيقة فى الأوراق الرسمية ، وهى توقع عليها  
بكلمة « والدته خليل » ، مع أن خليلاً هذا مات طفلاً وشبع موتاً . وسكّنت النقود  
بالقائها الملكية ، هكذا : المستعصمية [ أى مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن  
يهبها للصالح ] الصالحية [ أى مملوكة الصالح أيوب ] ، ملكة المسلمين ، والدته الملك  
المنصور [ أى ابنها الطفل المتوفى ] خليل ، أمير المؤمنين [ و خليل هنا تلاعب باللفظ  
فما بين اسم علم واسم نكرة بمعنى صديق ، تبعاً لقراءة لين — بول ] ، والغالب  
أن الكلمة هى أم المؤمنين ، لا أمير المؤمنين .

فكان المماليك يحققون بتولية شجرة الدر غرضين : الاستيلاء على السيادة  
الفعلية ، والتمويه فى الخارج ، وعلى السوريين بخاصة ، بأن الحكم باق فى بيت أيوب .  
تولت شجرة الدر السلطنة ، وأخذت تفرق الوظائف السنية والإقطاعات على  
أمراء المماليك الصالحية ، وأغدقت الرزق والأموال والخيول على صفار المماليك ،  
وأرضت هؤلاء وأولئك بكل ما يمكن .

وكان زملاؤها يقبلون لها الأرض من وراء حجاب ، وقد اتخذت من الأمير  
عز الدين إيبك ساعداً لها فى تدبير أمور المملكة ، ولكنه كان لا يتصرف فى  
الأمر إلا بعد مشورتها .



وكانت تكتب على المراسيم في العلامة بخطها « والددة خليل » ، ويخطب يوم الجمعة باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الحميل ، والستر الخليل ، والددة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . »

ولم يكن كل هذا التحايل ليجدى نفعاً ، فالمسلمون خارج مصر — بل ونظن داخل مصر أيضاً — يكرهون أن تتولى أمورهم امرأة . فما أسرع ما خرج أهل سوريا عن طاعتها ، وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي ، صاحب حلب .

وكان من أشد الناس استنكاراً في خارج مصر هو أمير المؤمنين ، الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر ، فأرسل إلى مصر من يقول للأمراء : « اعلموا ، إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفlech قوم ولوا أمورهم امرأة ؟ »

وهنا يتقلب ابن إياس الحنفي من التقيض إلى التقيض ، وينسى كل ما قاله ، وسبقوله ، مدحاً في أم خليل ، فلا يكتفى بذكر إنكار الخليفة ذلك على الممالك غاية الإنكار ، وتهديده وأمره لهم بالرجوع عن ذلك ، بل هو يتغنى بييتين سخيفين من الشعر :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لمن رأياً سنيا

ولأجل الكمال لم يجهل الله تعالى من النساء نبيا

ثم يعود بعد ذلك إلى القول بأن شجرة الدر « كانت تدبر أمور المملكة في حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة » . وهنا لنا أن نفهم من موقفه ما تفهم ، وفي رأينا أن « القافية حكمت » ، وعنى الله عن ابن إياس الحنفي ، فقد كان يحفظ قديراً من الشعر السمج الدارج ، يلصقه على كتابه القيم ، وكان من حسن طالع الكتاب أن رسال ابن إياس من هذا الشعر ، ومن غيره ، كان ضئيلاً .

أمام تهديد الخليفة — وربما كانت إشارته إلى نقص الرجال أشد نكيراً على



المماليك من التهديد — اضطرت أم خليل إلى أن تخلع نفسها من السلطنة ، لا برضاها من غير كره لها ، كما يقول الممثل بالشعر السخيف ، فإن القليل الذى نعرفه عن أم خليل ، يبعث على الظن بأن قبول خلع نفسها من السلطنة ، كان أصعب عليها من خلع زوجها ، ثم تزوجت بالتركمانى الذى تولى السلطنة .

وكان هذا — على قول ابن إياس — ابتداء دولة الأتراك بمصر — والأتراك هنا هم المماليك ، أما الأتراك بالمعنى الحديث فكان يسميهم العثمانية أو الروم — فما دامت تولية أم خليل لم تتأيد بمرسوم خليفتي ، فلا بقاء لها في قائمة سلاطين مصر ، هذا إلى أنه يمكن اعتبارها آخر الأيوبيين . كما أنك ستبحث عبثاً عن اسم حتشبوت في قوائم ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وذلك لأسباب أخرى ، وبرغم أن الزعامة الدينية في آخر الألف الثاني قبل الميلاد قد أقرت فرعة حتشبوت ، بل أقرت أكثر من ذلك كما سيجي .

ظلت شجرة الدر صاحبة الكلمة العليا على زوجها ، فهي التي تدبر أمور المال ، وتحكم على عقدة الكيس . ويدير عز الدين التركمانى أمور العسكر ليرد أطماع الأيوبيين عن مصر ، وليهدئ من ثائرة العرب القاطنين على أطراف وادى النيل ، وقد اجتمعوا على المدعو حصن الدين بن ثعلب ، يزعم أنه من ذرية الإمام على . ويبدو من هذا أن الشيعة لم تفقد الأمل في العودة إلى ملك مصر ، بعد انتهاء دولة الأيوبيين . أو لعل ابن ثعلب هذا ممن ظنوا يطالبون على طوال تاريخ مصر الإسلامية بحق الفتح ، فقد تأمروا على الدولة الطولونية ، وما هم بثورون في بدء دولة المماليك ، حتى تولى فارس الدين أقطاي وغيره من المماليك تأديبهم وإعادتهم إلى نجوعهم مشتى الشمل ، محلول البرم ، إلى أمد طويل إن شاء الله .

وما من شك في أن عز الدين إيبك كان يود لو استطاع التخلص من ربة شجرة الدر ، لولا أنها تأتي أن تقر على مال الصالح أيوب . ولقد هادتها زماناً ، واحتمل جبروتها زماناً ، على أمل أن تكشف له عن غيوبه الكنوز الأيوبية . بل ذهب إلى حد الرضوخ لها بتطليق زوجته أم ولده المنصور ، فلم يحده ذلك نفماً ولا شقماً . وما عثم أن وقع التشاحن والتباغض بين رجل في شرح شبابه ، وزوجة في

خريف العمر أو في شتائه . ثم حاول الزوج أن يرفقه عن نفسه ، ويوسع نطاق سياسته ، فخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصل ، وكان في هذا هلاكه .  
أقول في خريف العمر أو شتائه ، تقديرأ ؛ لأن مؤرخينا لم يتركوا لنا أثراً يدل على عمر أم خليل ولا على سياستها . وغيلتنا نحن المصريين تجعلني أتصور شجرة الدر في أواخر أيامها شبيهة بالحواري الأتراك ، اللاتي كن يخرجن من قصور إسماعيل ليتزوجن بأعيان المصريين . وأغلب من رأيتاهن تعددين سن الشباب بزمان طويل ، وكن يحتفظن بمسحة من الجمال ، وبكل ما في طبائعهن من عنجهية . وأذكر في صغرى « جارية بيضاء » ركبت ترام الخليج المصري ، وأخطأت الاتجاه ، فأصدرت أوامرها إلى الكمساري ليعكس الترام خط سيره !

وانقضى أمر السلطان المعظم عز الدين إيبك التركماني مع الجهة الصالحة ، عصمة الدنيا والدين ، بأن انتقض عليه خمسة من خدام ذات السر الحميل ، فقتلوه داخل الحمام ، وقيل بل أعدموه خنقاً . وتقول رواية بأن ذات الحجاب الخليل أخذت تضربه بالقباب على رأسه حتى فارق الحياة . وقيل — وهو الأقرب إلى المعقول — إن القتلة لما انتقضوا عليه أخذ يستغيث بأم خليل ، ويضرع إليها ، وإنها تأثرت بتضرعه ، وطلبت من غلمانها الأشداء أن يتركوه ، ولكنهم لم يستمعوا إليها خوفاً على حياتهم إذا ما بقى في الرجل رمق . وأذيع في صباح اليوم التالي أن السلطان إيبك انتقل إلى الرفيق الأعلى على جناح السرعة ، دون معونة من أحد ؛ فلم يصدق الناس هذا النبأ ، لأن الرجل لم يبد عليه يوماً أنه يتعجل الرحيل إلى . . . هناك !

ولا أحسب شجرة الدر كانت في كامل عقلها عندما دبرت أمر هذه الجريمة ، ولعل لهذا علاقة بسنها المتأخر ، وما يحدث للنساء في ذلك السن من اضطرابات نفسية وعقلية . - أنظر إليها وقد قبض عليها ووضعت في الترسيم ، تلازم الصمت المطبق ، وتندق جواهرها وحليها في هون ، لا أدري من تركه بأيدي تلك المجنونة ! كيف أتصور تلك العاقلة الحازمة ، التي دبرت أمور المملكة على الصورة التي عرفناها ، تقدم على قتل زوجها السلطان هذه القتلة القروية ، وتحسب أنها في مأمن من اكتشاف أمرها ؟

فما إن يتولى السلطنة ابن إيبك من زوجته الأولى ، حتى يرسل مماليكه إلى القلعة يحققون في مقتلة أبيه ، ويقبضون على الفاعلين ، ويقررونهم ، ولم يكن ذلك ذلك بعسير في زمان التوسيط والسلخ والسلح وما إلى ذلك من فتون التعذيب والقتل .

وتعتقل أم خليل في البرج الأحمر بالقلعة ، ثم تقاد إلى « أم علي » ضربها التي طلقها إيبك بناء على أمر المستعصمية الصالحية ، فتأمر جواريا بضربها بالقباقيب حتى الممات . وكان ذلك في يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الثانى عام ٦٤٨ هـ . وسحبوها من رجلها ورموها فوق السور إلى خندق القلعة وهي عريانة ليس عليها غير اللباس فى وسطها . فأقامت وهي مرمية فى الخندق ثلاثة أيام تلغ فيها الكلاب . وقيل بأن بعض الخرافيش نزل إلى الخندق تحت جنح الليل ، وقطع ذكة لباسها ، لأنها كانت من حرير أحمر ، وفيها كرة من لؤلؤ ونافجة مسك .

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، حملت فى قفة ، ودفنت فى تربتها المعروفة إلى اليوم عند مدخل قراقة الإمام . قرب مقام السيدة نفيسة ، بقسم الخليفة بالقاهرة .

• • •

### بنت الزمار

كان مشكل شجرة الدر سياسياً عسكرياً ، عندما اضطرت إلى إخفاء موت زوجها الملك الصالح ، إبان معركة كبيرة تعلق بتأثيرها أقدار الوطن المصرى . ولم يكن هذا المشكل بأقل أو أكثر من دفع هجوم حملة الصليب الغربيين على الديار المصرية ، فتحوا دمياط وبلغوا المنصورة فى طريقهم إلى القاهرة ، ويحدث هذا بعد كل ما صنع رأس الأسرة الأيوبية لتحرير الأراضى المقلصة من عصبة المتعصين الأوربيين .

أما مشكل كليوباترة فى أول حياتها العامة فكان مشكل وراثة العرش اللاجيدى ، وسيكون لهذا المشكل حساب فى حديثنا عن الملكة حتشبسوت . ومع أن البطالسة ألما زوجاتهم ، وجلست نساء على عرش أبناء لاجوس ، فإن بطليموس الثالث عشر ، الملقب بعازف الناي [ أوليتس ] أو الزمار ، نص فى وصيته على أن يتولى الملك أكبر

أبنائه ، تشاركه في الحكم وتزوجه كبرى بناته . وكان من الصبي لا يتعدى ثلاثة عشر عاماً ، والصبيّة تكبره بخمسة أعوام — وهي زيجات ، كما ترى ، من النوع العرفي ، لضرورات سياسية ! — ويعين مجلس أوصياء من مربى الأمراء الطواشي فوتينوس ومن قائد الجيش أخيلاس ومن أستاذ البلاغة التحرير طيودوت الجنوسى . وهذا الأخير اشتهر في التاريخ بنصيحة مشهورة تقدم بها عندما طلب القائد بومبيوس الكبير الالتجاء إلى صاحب عرش مصر ، بعد هزيمته الماحقة أمام يوليوس قيصر في سهل فارساليا . قال أستاذ الأخلاق : « إذا آويناك أغضبنا يوليوس قيصر وإن صرفناه وارتفع نجمه يوماً ، حل بنا غضب روما . والرأى أن نأويه . . . ونقتله ، فالموتى لا يعضون » ، والجملة في الأصل تلاعب بلفظي الموت والعض وقد نحاول أن ننقل هذا التلاعب في اللفظ فنقول : « فالصرعى لا يصرعون » أو « فن عضهم الموت بنابه لا يعضون » .

تولى الغلام والبنية عرش مصر في أخرج الظروف . فنجم روما قد بلغ السمات أو قارب ، فهي تهيمن على بلاد شواطئ بحر الروم كلها على وجه التقريب ، وأسماء عظمائها وقوادها ترن كالطبل في العالم القديم : سيلا وماريوس وسبيون الأفريقى وكراسوس وبومبيوس الكبير ويوليوس قيصر .

والمستقبل مظلم أمام الفتاة كليوباترة ، وتدهور الأسرة اللاجيدية أصبح بادياً للعيان ، بعد بطليموس الثالث . وروما تتدخل في مشون دولة البطالسة الداخلية وسياستها الخارجية . فهذا أبو كليوباترة ، بطليموس الزمار ، عاد إلى عرشه بفضل مؤازرة جابنيوس ، حاكم سورية الرومانى ، وصديق بومبيوس الكبير . وكلما خلا عرش البطالسة ، ازدادت روما قرباً من غايتها وتحقيق أطماعها . فهذا بطليموس حمص [ لا تيروس ] يموت دون وريث ذكر ، فتولى العرش برنيقة الثالثة ، وكان الإسكندريون يحبونها ، ويفضلون أن تبقى دون زواج . ولكن القائد سيلا ، الدكتاتور في روما ، كان يتولى حماية أمير غرّ من أمراء البيت اللاجيدى ، هو ابن بطليموس إسكندر الأول ، فوجد الفرصة مؤاتية ليوفد هذا الفرّ عريساً لبرنيقة الثالثة . وسافر الفقى إلى الإسكندرية وتزوج ملكة مصر ، وشاركها الملك باسم إسكندر الثانى . . . ثم قتلها في الأسبوع الثالث من الزواج ليتفرد بالملك . فانقض الإسكندريون عليه



في الملعب ، وقتلوه انتقاماً لملكهم المحبوبة .

ويشاع في روما بأن هذا الأحقق السفاح أوصى بمملكته لشعب روما . وكانت الإشاعة كافية ليبادر القصر ، ومن ورائه عدو روما متريداتس ، ملك البنطس على ضفاف البحر الأسود ، ويولي عرش مصر ابنا غير شرعى لبطليموس حمص ، ويزوجون الغلام من أخته كليوباترة الثانية . وكان هذا الغلام هو الذي استحق كنية عازف الناي [ أوليتس ] أو ما أسميه تبسطاً ودعابة بطليموس الزمار . فقد كان الولد هاوياً للناي ، واعتبرها الإسكندريون هواية غير جديرة بملك . وتوج الزمار في منف طبقاً للطقوس الفرعونية ، وكان ، كجميع أفراد أسرته يعنى بالتقليد المصرى في التتويج ، دون إيمان بآلهة المصريين ، ودون حساب لهم . وقد عبد الزمار هذا ديونيسيوس إله الخمر ، حتى لقب بديونيسيوس الجديد . وإذا حق لي أن أتمادى في السخرية ، فلإني أسمى والد كليوباترة ، موضوع هذا الحديث ، بطليموس الزمار المخمور .

وطبيعى أن تتوانى روما وتتردد طويلاً قبل الاعتراف بالملك الزمار ، مع أنه بذل جهداً كبيراً لتحقيق هذا الاعتراف ، وأرسل ثمانية آلاف فارس من جيشه لمساعدة بومبيوس على فتح فلسطين . وسافر الزمار إلى روما ضعيفاً على بومبيوس ، فإذا شعب الإسكندرية — المتوجس خيفة من عيون روما وهى تزغل نحو مصر — يعزل الزمار ، ويولي إحدى بناته ، باسم برنيقة الرابعة ، فيهرول الزمار إلى سورية ، يطلب من حاكمها جابنيوس ، صديق بومبيوس ، معاونته على استرداد عرشه ، ويعيده جابنيوس إلى العرش . مقابل دفع الثمن ذهباً رناناً .

ويقتل الزمار ابنته برنيقة الرابعة ، وينحكم في رقاب الإسكندريين ، وينهب ثرواتهم على يد مراب روماني جاء يطالب الملك بديونه ، فأقامه جانياً لخزائنه ، يستولى على ما شاء من أموال المصريين . ومات الملك الزمار عام ٥١ ق.م مكروهاً محقراً من شعبه .

تلك هى الظروف العسيرة التى تولت فيها كليوباترة عرش مصر بالاشتراك مع أخيها الحدث ، تحت وصاية طغمة من الأوغاد ، لاسياسة لهم أكثر من سياسة زميلهم أستاذ البلاغة . الذى يعنى بالجناس أكثر مما يعنى بمبادئ الأخلاق :



« فن عضهم الموت بنابه لا يعضون » . أي أمل لبقاء مصر مستقلة في هذه الظروف ، وروما تنزل في قمع مصر ، وتلمظ بنيذ مريوط ، وتحصى السلع الشرقية التي تدخل مصر عن طريق البحر الأحمر ؟

ولا يحفظ استقلال مصر بعض الوقت إلا الحرب الأهلية الضروس ، التي قامت بين أعظم قائدين رومانيين : بين بومبيوس قاهر الشرق ، الرجل الذي أضاف إلى أملاك روما ألفا وخمسمائة قرية ومدينة ، واثنى عشر مليوناً من الأنفس ، وبين يوليوس قيصر ، فاتح الغرب : إسبانيا وغاليا وجرمانيا وبريطانيا .

في عشرين عاماً من هنا مستحكم روما في أقدارها ، بعد أن يخلصها يوليوس قيصر من بومبيوس ، ويخلصها بروتوس وكاسيوس ، وأفراد العصابة الديمقراطية ، من يوليوس قيصر ، ويخلصها مارك أنطونيوس وأكتافيوس من قتلة يوليوس قيصر ، ثم يقضى أكتافيوس على أنطونيوس . وتتحول روما الجمهورية إلى إمبراطورية يحكمها أكتافيوس باسم أغسطس أكتافيانوس قيصر .

ماذا كانت تستطيعه فتاة جميلة في السابعة أو الثامنة عشرة ، متزوجة من غلام في العاشرة أو الثالثة عشرة من عمره ، ويسيطر على ملكها ثلاثة أو أربعة من الأوصياء الأوغاد ، ماذا كانت تستطيعه في ذلك الصراع العالمي ، مخاض أعظم إمبراطورية في العالم القديم ؟

كل هذا يجب أن يكون معروفاً تماماً لفهم كليوباترة ، وندرك ما صنعتها تلك المرأة القلة في سبيل المحافظة على عرشها ، أو كما نقول نفاقاً في لغتنا الحديثة : الدفاع عن استقلال بلادها .

• • •

أول ما تظهر كليوباترة على صفحات المؤرخ الفنان بلوتارك تبدو في صورة طريفة ، أبادر بأن أنقلها إليك من صفحاتها الأصلية في ترجمة حياة يوليوس قيصر؛ قال المؤرخ اليوناني الكبير :

« ويختلف المؤرخون في أسباب حرب الإسكندرية ، فن قائل إن غرام يوليوس قيصر بكليوباترة دفعه إلى تلك الحرب فأبت سمعته بالحزى ، كما تعرض شخصه للهلاك ، ومن قائل إنهم وزراء بطليموس ، وعلى رأسهم الطواشي

فوتينوس ، وهو الذى يحمل أعباء الحكم ، بعد أن أمر بقتل بومبيوس وأقصى كليوباترة عن العرش ، وأخذ يدبر المؤامرات لقيصر ، مما دعا قيصر إلى السفر فى المآذب حرصاً على حياته . . . [ ويظهر أن فوتينوس تمادى فى وقاحته يوماً ، فنصح قيصر بأن يفكر بمحاربة أعدائه خارج مصر . قبل أن يعنى بتسوية الخلافات حول عرش البطالسة . . . ] فأجاب قيصر بأنه لا يتلقى نصائح من المصريين ، وأرسل فى طلب كليوباترة [ وكانت قد ذهبت إلى سوريا لتطلب معونة من يعيدها إلى عرشها ، ثم وصلت إلى حدود مصر الشرقية ] ، فسافرت برفقة أبولودورس الصقلي على ظهر سفينة صغيرة وصلت بها تحت القصر الملكى بليل . ولكى تتمكن من الدخول إلى القصر دون أن يراها الحراس [ خوفاً من ظفر عدوها فوتينوس بها ] ، استخفت فى لفاقة ملايس ، ربطها أبولودورس بسير من الجلد وبذلك استطاعت كليوباترة أن تصل إلى قيصر .

« وكان هذا هو العظم الأول الذى غمزه قيصر ، فقد أعجب بروح كليوباترة وظرفها ، وأجهزت عليه بلطفها ورقة حديثها ، فأصلحها على أخيها ، واشترط على الأخ أن يقبلها شريكة له فى العرش . وفى المأدبة التى أقيمت احتفاء بالمصالحة ، عرف حلاق قيصر بتدبير فوتينوس ، مشتركاً مع قائد الجيوش أخيلاس ، للقضاء على قيصر ، فتحذر منها ثم تخلص من فوتينوس بقتله ، بينما هرب أخيلاس إلى مقر جيوشه ، وأثارها حرباً عواناً على قيصر الذى لم يكن يحكم فى الإسكندرية إلا على جند قليل . وأول خطر أحاط بقيصر كان نقص المياه بسبب قطع المصريين لها عن البحران فوق السور ، والخطر الثانى كان تهديد المصريين له بأسطولهم المربط بالميناء الشرقى ، مما اضطره إلى إشعال النار فيه ، فاتصلت النار بالترساة ، ومنها إلى القصر الملكى ، فاحترقت المكتبة الكبرى التى جمعها ملوك مصر . . . »

أعاد يوليوس قيصر كليوباترة إلى عرشها ، وكان الأوصياء أقصوها عنه ، فى ظروف غير معروفة تماماً ، فسافرت إلى سوريا تحشد جيشاً زحفت به إلى حدود مصر الشرقية ، وكان بطليموس الصغير والأوصياء واقفين لها بالمرصاد عند رأس قاسيوس إلى الشرق من فيلوزيوم [ القبرما ] ، وهناك واغاهم بومبيوس الكبير عقب اندحاره على يد يوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا ، ولائذاً يحمى بطليموس ،

معتمداً على ما كان له من فضل على أبيه الملك الزمار . ولكن أستاذ البلاغة  
السفسطائي ، طيودوت ، أشار باستقبال بومبيوس ثم قتله ، معتمداً على أن « من  
عضهم الموت بنابه لا يعضون . »

وصل قيصر إلى الإسكندرية ليلحق ببومبيوس ، على رأس جحفلين ، وأسرع  
أستاذ البلاغة لاستقباله ، وقدم له رأس عدوه بومبيوس ، عربوناً على إخلاص  
المملكة المصرية للمتصر في معركة فرساليا ، فأشاح يوليوس قيصر بوجهه وبكى ،  
ثم أقسم لينتقم من قتله بومبيوس . وبر بقسمه فقتلهم جميعاً ، ما عدا الأستاذ  
السفسطائي ، الذي تمكن من الهرب ، وجوب في الآفاق شريداً طريداً ، حتى  
قبض عليه مارك بروتوس في آسيا ، وأعدمه بعد أن عذبه عذاباً شديداً .

يحتاز قيصر شوارع الإسكندرية في خيلاء الظاهر ، مخفواً بحرسه الليتوري ،  
يأمر وينهى كأنه في مدينة محتلة . يقضى بتسريح جيش بطليموس الم رابط في  
فيلوزيوم ، ويستدعى بطليموس الصغير . ولن يخضع الجيش فقد عصى قائده  
أخيلاس أوامر قيصر . أما فوتينوس رب الحيل ، فسلبى الطلب ، ويسرع إلى  
حضرة قيصر ، بصحبة الملك الغلام . وتصل كليوباترة في « بقجة » على الوجه  
الذي وصفه بلوتارك ، ويقضى قيصر لها بأن تعود إلى عرشها ، بجانب أخيها ،  
تنفيذاً لوصية أبيهما الزمار .

وتنشب ثورة المصريين حول قيصر ، وتحدث الوقائع المشهورة ، التي ينجو  
منها بحياته ، إلا أن ثمنها الفادح كان حريق المكتبة العظيمة ، التي تعد أكبر  
خسارة علمية حلت بمصر ، بل وبالعالم أجمع . وتلحق النجدة بقيصر على أيدي  
متريداتس أمير برجامة ، والملك أنتياتر بن هيرودايوس ، ملك اليهودية ، فيهزم  
البرجاميون جيش أخيلاس في الدلتا ، ويدور قيصر حول بحيرة مريوط ، ليتصل  
بمتريداتس ، ويقضى على فلول بطليموس الصغير ، الذي يموت في الموقعة أو يفرق  
في النيل ( عام ٤٧ ق.م. )

وهنا يتساءل بلوتارك عن أسباب حرب الإسكندرية هذه : أكانت غرام  
قيصر بكليوباترة ، أم مؤامرات مربى الأمراء الطواشي فوتينوس ، الذي طرد  
كليوباترة من العرش ؟

أما إن يوليوس قيصر أحب كليوباترة ، فهذا ليس موضوع شك . فقد تلبث طويلاً إلى جانب الملكة الفتاة ، التي لم تبلغ بعد العشرين ربيعاً ، واصطحبها في رحلة سياحية إلى الصعيد ، قضاهما معها فيما يشبه شهر العسل . ولم تنكر كليوباترة علاقتها بالدكتاتور الروماني ، فقد سميت الطفل الذي أنجبته منه قيصاريون [ أي قوبصر ] .

أضاع قيصر وقته ، والجيش تحشد ضد روما على ضفاف البوسفور بقيادة الملك فرناس ، وفي إسبانيا وشمال إفريقيا ، حيث يحكم أصدقاء بومبيوس وأعدائه ، بينما شبه الجزيرة الإيطالية ملأى بالمتاعب والاضطرابات ، فما أحوج الوطن الروماني إلى قيصر !

ويهب قيصر بعد عودته من رحلة العسل بمصر العليا ، فيسافر إلى البسفور ، وينتفض على فرناس في البلقان ، ويقضى عليه في ملح البصر ، ويرسل إلى روما أقصر بلاغ عسكري ، وأبلغ رسالة يقول فيها : « جئت وعابنت وظفرت »

كانت كليوباترة كاعباً لا تقاوم ، رآها قيصر في زهرة العمر تخرج رقيقة صغيرة ، من لفافة ملابس ، فأعجب بتلك الغادة الساحرة ، وما أظنه إلا وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ، وهو يرى أمامه ملكة مصر ، وريثة عرش البطالسة والفراعنة ، تخرج من بقعة !

كانت في ربيع العمر أشد ما تكون نضارة ، رائعة السناء ، حلوة النغم ، ذكية الطبع ، مشرقة النفس ، متعلمة مثقفة ، ربما كانت الوحيدة من بيت لاجوس التي تحدثت إلى المصريين بلغتهم .

أحبها يوليوس قيصر وهو في قمة مجده ، والمستقبل في روما له . واستضافها في قصره الريفي ، عبر نهر التيبر بضواحي روما ، في العام السادس والأربعين قبل الميلاد لتشهد الاحتفالات الكبرى بانتصاراته في بلاد الغال ، وفي بنطس ، وفي إفريقيا ، وفي مصر . وكانت كليوباترة قلدي في عيون الرومان الجمهوريين ، كارهي الملوك . حتى إن سيسرون لم يفتأ يكرر كلما جاء ذكرها « أكره الملكة » ، ونعتها بلينيوس الصغير نعتاً بذيئاً : « ملكة المور » . ولعل الرومان حملوها تبعه تحول أطماع قائدهم الكبير نحو القضاء على النظام الجمهوري ، بل لقد ذهبوا

إلى أن قيصر يطمح في أن يقيم في روما نظاماً ملكياً من قبيل ما كان يمارسه البطالسة والسلوقيون في مصر والشرق الهلينستي . ثم ألا تكون كليوباترة هي التي أوجت إلى مارك أنطونيوس بتلك الحركة المسرحية في أعياد منتصف فبراير ، « اللوبركالات » ، عندما قدم لقيصر تاجاً ، فصاح الشعب مستنكراً ، وطالب قيصر بأن يرفض هذا الرمز البغيض .

ولبثت كليوباترة في روما ستين ، أو بضواحيها ، ولم تعد إلا بعد مقتل يوليوس قيصر في أعياد منتصف مارس . « الإيدات » . عادت وقد شهدت انهيار آمالها في أن تحكم العالم الروماني إلى جانب قيصر .

ويقتسم نفوذ قيصر في روما ، إبان الأعوام الأخيرة من حياة الجمهورية ، اثنان ، وهما اللذان طاردا قتلة قيصر ، ودحراهم في وادي فليبس : الأول أكتافيوس ، ابن بنت أخت يوليوس قيصر ، وقد ورث جده ، وأصبح اسمه كايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، والثاني مارك أنطونيوس ، قائد الفرسان في جحافل يوليوس قيصر . ويعود أكتافيانوس إلى روما يسوس أمور شبه الجزيرة ، ويوزع الأراضي على قدماء المحاربين ، ويذهب أنطونيوس إلى الشرق ينظم أحواله ، ويبتز لخزانة روما — ولنفسه — من المال ما تصل إليه أيدي أعوانه .

ولقد أبلغ أنطونيوس عن بعض مواقف الملكة مصر بعد مقتل قيصر ، مما دعاه لأن يرسل في طلبها لتبرئ نفسها مما اتهمت به . ونشك في أن يكون هذا السبب صحيحاً ، وإنما هي حجة القائد المغرور ، زير النساء الذي لاخلاق له ، تفرع بها ليتصل بعشيقة أستاذه ورئيسه ، يوليوس قيصر .

والملكة المصرية كانت ولا شك تعرف من أمر أنطونيوس الشيء الكثير ، وقد تريثت في الاستجابة إليه ، دون غيرها من استدعاهم القائد الروماني ، من حكام آسيا ، ليمتحن إخلاصهم لروما ، ولشخصه . فلم يغضب أنطونيوس من تلكؤها ، وإنما زاد ذلك من ناره ، فأوفد إليها صديقاً يؤكد لها أن سيده لا يريد بها شراً . ولم تكن كليوباترة من السذاجة إلى حد أن تخشى على نفسها من شر ذلك الجندي ، الذي زاحمت خرياته ومغامراته النسائية ، أعماله العسكرية .



ولعل بلوتارك هو الساذج عندما يقص علينا أن الصديق دليوس ، عندما زار الملكة وسحر بحديثها وجمالها ، أيقن أن أنطونيوس لا يمكن أن يجرح أو يضايق امرأة على هذه الخصال وبهذا القدر والحسن . وما هو ذا الصديق القواد ينصح كليوباترة بأن تذهب إلى مركز قيادة أنطونيوس في أبهى حلة ، مما يضاعف من سحرها ، وهو يؤكد لها أن أنطونيوس إنسان يفيض رقة وحناناً ... وكأنه أراد أن يقول لها إن الرجل كله نظر !

ويقول بلوتارك بأن كليوباترة صدقت أقوال دليوس ، وقد خبرت كيف كان تأثيرها على يوليوس قيصر ، وعلى ابن بومبيوس الكبير من قبل ، مع أنهما لم يعرفاها إلا وهي فتاة غرة ، أما أنطونيوس فسيراها في السن الذي يتفجر فيه جمال الأنثى ، ويبلغ عقلها كماله وقوته .

وقصة وصول كليوباترة إلى بلاد كلبيكا ، وسفرها في نهر الكلدنوس على سفينة رائعة البهاء ، قصة مشهورة . وقد بهر الناس عندما رأوها في فلكها المذهب ، ذى الشراع القرمزية والمجاديف الفضية ، تتحرك على إيقاع ألحان الشبابة والنأي والقيثار ، يحف بها أطفال في لباس كيوييد إله الغرام ، ووصيفات في لبسة المتفضل ، وكأنهن « الرياد والنياد » جنيات الماء ، يمشين في ركاب فينوس ، وأعطار الملكة تنضوع على ضفاف الكلدنوس ، والبخور يعبق ويتطلق إلى اليمين وإلى اليسار من مجامر الذهب والفضة ، حتى ليحسب الناس أن فينوس تخلق من جديد ، وتخرج من صدفتها درة يتيمة ، سويت من زبد البحر الناصع البياض . وبما أن أنطونيوس كان يروق له ، في أعياد انتصاره ، أن يظهر في صورة إله الحمر ديونسيوس ، فقد قال الناس : هذه فينوس همت للقاء ديونسيوس .

ويمكن تصور بقية الحكاية ، فلم يكن في الأمر كما قلنا تحقيق سياسي ولا مساءلة عسكرية . إنما كان موعد غرام .

يدعوها أنطونيوس ، فترجوه أن يتفضل بقبول دعوتها أولاً . وطار شعاعا عقل القائد الروماني وقد رأى في حفلها ما رأى وسمع وشم وذاق وازدرد . فإذا وافته إلى مأدبته ، كان على رأس الساخرين بطهاته وسقاته ومنظمى سمرة . وعندما لاحظت كليوباترة أن نكات ذلك العتل الروماني تنضح بحلاقة الجندی ، حذت حذو أسلوبه ،

وسابقته في بذاءاته .

يقول بلوتارك ، كما يقول ديون كاسيوس وغيرهما ، إن جمال كليوباترة لم يكن في ذاته فائقاً عزيز النغير ، وإنما كانت لها جاذبية لا تقاوم ، فحسبها ، وحلو حديثها ، ورقة طبعها ، كانت تسدد كلها سهاماً إلى أم الفؤاد ، كان جرمها كله حنان ، ولسانها آلة موسيقية تلعب على أوتارها لعب صناع ، تنطق باللغات الأجنبية نطقاً سليماً ، لم يحوجها شعب من الشعوب التي تعاملها إلى ترجمان ، فكانت تتحدث بلسانهم إلى الإثيوبيين والبيجاويين والعبرانيين والعرب والسوريين والميديين والفرس ، بينما البطالسة كانوا يعانون صعوبة في تعلم لغة المصريين ، ونسى بعضهم لغته الأصلية ، كما نسي بلوتارك أن يقول لنا بأية لغة كان يتحدث هؤلاء إذا كانوا قد جهلوا لغتهم المقدونية . . . ولم يتعلموا لغة المصريين !

استحوذت كليوباترة على قلب أنطونيوس حتى أهمل أمر زوجته الأولى ، فولثيا ، وهي التي كانت تجاهد من أجله في روما ضد أكتافيانوس ، وترك جيوش الفرس تتأهب للهجوم على سورية ، وسلم قياده لتلك المرأة تسحبه من أنفه حتى الإسكندرية ، حيث لم يعد للزمن عنده حساب ، وقد ضحى في الفراغ والبلدة والمملكات أعز ما يملك الإنسان ، والسياسي بوجه خاص ، وهو الوقت .  
لم تكن كليوباترة تتركه ليلا ولا نهاراً ، يأكلان ويلعبان سوياً ، يخرجان للصيد بدأ يبد ، وتحضر معه العرض العسكري .

ومن الدعابات التي يحكيها بلوتارك ، دهابة عملية قامت بها كليوباترة على حساب حبيبها المأخوذ بسحرها . أراد أنطونيوس أن يظهر لها براعته في صيد السمك ، فأوعز إلى بعض الغواصين أن يشبكوا السمك في سنارته ، كلما ألقى بخيطه إلى الماء . ولم تخف الحيلة على الملكة ، ودبرت له أمراً . . . وإذا مارك أنطونيوس ، ثالث الثلاثة الكبار في روما [ التريومفير ] يسحب سنارته فتصيد . . . فسيخاً ! يضحك الخلف ، ويقهقه الصحاب وتقول الملكة : « خل عنك يا سيدى القائد ، واترك لنا الخيط والسنار ، نحن الذين نحكم في كاتوب وجزيرة الفنار . أما أنت فليبق صيدك الملوك والمدائن والأقطار ! » . تقول له ذلك وهي تعلم أن أنطونيوس لم يعد أكثر من فرخ سمك تعلق في شصها ، أو عجل بحرق في شراكها .

لم تكن روما لتقف من أمر رجلها الكبير موقفاً سليماً ؛ فهي تسعى لانتشاله من بين أحضان الساحرة الشرقية . وكان موت زوجته فولفيا — التي قضت نحبها كمدماً فيها بغلب — فرصة انتهزها أولاد الحلال لإصلاح ذات البين ، ووصل ما انقطع بين أكتافيانوس وأنطونيوس . فسموا لتزويجه من أكتافيا أخت أكتافيانوس . ونجحوا في إبعاد أنطونيوس عن كليوباترة زماناً طويلاً ، ليعيش مع زوجته الرومانية القاضية ، ويعنى بشئون الدولة والحرب . ولقد سافر إلى الشرق يستأنف القتال ، واصطحب معه أكتافيا . ولكنه ، عند أول فرصة ، تخلص منها بحجة عدم تعريضها لتاعب الحملة العسكرية . . . . وطار إلى أنطاكية ، حيث وافته كليوباترة ، وكان فراقهما قد امتد إلى نحو ثلاث سنوات .

لا أحسب المدافعين عن كليوباترة — لأن للسيدة الشهيرة أنصاراً معاصرين لنا — بقادرين على نقض حكم التاريخ عليها . فهي إما امرأة تستخدم العلاقات الغرامية لتحقيق أطماعها السياسية ، وذلك يضع قدرها كأمراة ، أو أن غرامها بأنطونيوس أعماها عن مصالح الدولة ، فهي ملكة وضيعة .

ولابد أن تكون الحقيقة بين بين — ولم نكتشف هنا شيئاً جديداً فالمسألة كما ترى « فيها قولان » ! — كليوباترة أحبت أنطونيوس حباً جارفاً ، قد يكون شكبير غير بعيد عن حقيقته في أعظم رواياته الغرامية : « أنطوني وكليوباترة » ، ولكنه كان حب المرأة المدربة « القراوية » ، التي لا تنسى مصالحها في غمار عواطفها . وقد رأت في رجل روما الكبير وسيلتها الوحيدة لإنقاذ مملكتها من براثن روما ، بل لاستعادة مجد العرش المصري . وانقاد الرجل لها ، وراح ينفذ أغراضها ، وقد نبذ العقل والحكمة والوطنية جانبا .

أما أن سياسة كليوباترة نجحت إلى حين ، فالوقائع تثبت . ولفهم ذلك يحسن أن نعرف شيئاً عن سياسة البيت اللاجيدي ، وهي السياسة التي رسمها بطليموس الأول لنفسه ولأحفاده :

يجب على الدولة المصرية أن تحكم البلاد المتاخمة لها حتى تؤمن حدودها . يجب أن تحكم في برقة إلى الغرب ، وفي سورية — بمعناها القديم — أو على الأقل في الجزء الجنوبي منها . يجب التحكم في مجرى النيل الأعلى ، وفي مرافئ البحر

الأحمر ، رأس الخط الملاحي إلى الجنوب وإلى البحر الشرقى الكبير . يجب أن تقوم صلات من نوع ما ، فيها معنى السيطرة ، بين الشاطئ المصرى والبحزر الواقعة فى شرقى بحر الروم : كزيت وقبرص ورودى وأرخيل السكلاده ، وبين الشاطئ المصرى والشاطئ الفينيقى وشواطئ آسيا الصغرى ، لأن موانئ تلك الشواطئ هى رأس الطريق البرى عبر آسيا ، لوصول الأفاويه والطيب والغضار والحرير .

ومصر — فى سياسة بطليموس الأول — يجب أن تستعين برؤوس الأموال وبالعقول الهلينية ، ويستدعى ذلك ضرورة اجتذاب الإغريق إلى مصر ، والمحافظة على هبة الوطن المصرى فى بلاد اليونان .

ومعنى هذه السياسة ، فى أقلها ، الحيلولة دون قيام دولة عظمى موحدة تتأخم مصر .

ولكن الظروف الدولية تغيرت فى نهاية أسرة اللاجيديين ، وقامت دولة عظمى — روما — لا تتأخم مصر ، ولكنها تستولى على العالم القديم كله ، أو ما يكاد . فإذا تستطيع امرأة وحدها ، أمام هذه الدولة الزاحفة كأنها قوة من قوى الطبيعة ؟ وهل تصورت كليوباترة أن سيطرتها على أنطونيوس — أحد الثلاثة الكبار فى روما ، بل أحد الاثنين لأن ثالثهما لبيدوس أهل أمره وانتهى بأن لزم بيته وضييعته — يمكن أن تحقق لها بعض ما حفظته فى أسرتها من مبادئ سياسية ؟ كان يجب أن تفهم أن مارك أنطونيوس ليس يوليوس قيصر ، وأن وارث قيصر الفعلى والسياسى ، هو أكتافيانوس ، الرزين الحريص ، الذى يعمل فى تودة ، ويعرف متى يقبع متحفزاً ، ومتى يثب وثباته التى تنقل روما من عهدا الجمهورى ( فلم يعد أهلها صالحين للحياة الديمقراطية ، التى تتطلب أول ما تتطلب : الأمانة والتزاهة وإقامة شرعة العدل المطلق بين المحكومين ) إلى عهدا الإمبراطورى ، بحيث تتركز السلطة فى يد رأس الدولة . وسيرفض أكتافيانوس لقب الملك والعاهل ويكتفى بلقب « Princeps civitatis » ، أى المواطن الأول فى الجمهورية . أما لقب « إمبراطور » فعنايه القائد الأعلى للجيش ، وأهم منه لقب « أغسطس » ، أى المعظم . وسيعمل أغسطس قيصر على إقامة السلام الرومانى تحت قيادة روما ، وسوف يعرف حكمه الطويل باسم العهد الأغسطينى .

لم تكن كليوباترة تستطيع الاستحواذ على فلسطين ، لأن ملك اليهودية هيرودبوس كان أسبق منها وأقدر على كسب صداقة روما . ولكن أنطونيوس مكنها من إمارة خلقيس ، في شمال سورية ، ومن الشاطئ الفينيقي ، فيما عدا صور وصيدا ؛ ومن أراضي « بطرا » ، شرق الأردن ، ومن بعض قبرص وكريت ، وبعض شاطئ كليكييا ، الغنية بأخشابها ، وبعض أجزاء من بلاد اليهودية ، مثل منطقة أريحا ، وأشجار بلسمها المشهور ، وبعض أرمينيا وليبيا . وكل هذه الأراضي كانت ثمرة انتصارات قواد روما العظام : سيلا وكراسوس وبومبيوس الكبير .

ولو عرفت كليوباترة أن أنطونيوس ارتكب إدا في حق الجمهورية الرومانية ، عندما تصرف في أملاكها هذا التصرف الأحمق ، لوقفت بها أطماعها عند هذا الحد . ولكنها - المرأة - لم ترض بأن تشاركها في أنطونيوس ضرة رومانية ، هي أكتافيا ، أخت الرجل الأول في روما : أكتافيانوس قبصر . ومن هنا كانت لعبتها الخطرة الحمقاء ، التي أضاعت بها كل ما كسبت ، بل كل ما ورثت عن أبيها . فالقطيعة بين أنطونيوس وزوجته أكتافيا نهاية العلاقات بين أكتافيانوس وبينه ، ولا بد أن تنهى بالحرب بين الاثنين . وروما ظفرت دائماً بأعدائها ، سواء كانوا من الأجانب أو من أبنائها ، حتى لو كان الثائر عليها قائدها العظيم بومبيوس .

وقد حدثت القطيعة النهائية عندما أرسل أنطونيوس ورقة الطلاق للماترونة الرومانية ، فخرجت من منزل زوجها إلى منزل أخيها أكتافيانوس . وتلقت روما هذه الإهانة البالغة صدمة مدوية ، جاءت على إثر عطايا أنطونيوس إلى عشيقته الملكة المصرية ، يقتطعها من أملاك روما . ولقد هالتها أخبار حفلة انتصار أنطونيوس ، التي أعلن فيها تقسيم مستعمرات روما في الشرق الأدنى بين عشيقته وأولادها :

ففي ملعب الإسكندرية الكبير أمام كبار رجال الدولة والجيش والشعب ، وعلى مقربة من « السوما » ، قبر الإسكندر ، أقيمت منحة كبيرة من الفضة ، وضع في أعلاها عرشان من ذهب ، جلس عليهما كليوباترة وأنطونيوس ، وفي الدرجة التالية جلس قوبصر ( قيصاريون ) بن يوليوس قبصر من كليوباترة ، وقد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وتحت جلس ثلاثة أطفال كليوباترة من



مارك أنطونيوس : التوأمان إسكندر هليوس ( شمس ) وكليوباترة سليانة ( قمر ) ،  
وعمرهما ستة أعوام ، ثم آخر العتقود لأنطونيوس ، الطفل بطليموس فيلادلفوس ،  
وعمره ستان . أما إسكندر شمس فقد ألبس ملابس بلاد ميديا بآسيا الصغرى ،  
ووضع تاجها السامق فوق رأسه . ولبس الطفل بطليموس ملابس ملوك مقدونيا .  
وقام أنطونيوس بخطب - وكان للرجل ملكة خطابية لا تنكر ، إلى جمال  
رجولته ، وارتفاع قامته - ويعلن إرادته بأن تلقب كليوباترة ، زوجة قيصر العظيم ،  
ملكة مصر وقبرص وسوريا ، بلقب « ملكة الملوك » ( لا الملكات فحسب ) .  
ثم يتجه إلى قويسر ويعلن بأنه الابن « الشرعى » ليوليوس قيصر وكليوباترة ،  
يشارك أمه الحكم ، ويلقب بملك الملوك . أما إسكندر شمس فيوليه ملكاً على  
أرمينيا وميديا وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهري السند والفرات ، ومنها مملكة  
« الفارطيين » ( مع ملاحظة أن هذه الأراضي لم تكن قد افتتحت ) . أما الطفل  
بطليموس فيلادلفوس فقد أقامه ملكاً على سورية ، وعلى كل البلاد الواقعة بين  
نهر الفرات ومضيق اللردنيل ( أى آسيا الصغرى ) . والطفلة كليوباترة قمر وليت  
عرش ليبيا !

• • •

ذهب الهادى الرزين أكتافيانوس قيصر إلى هيكل « القستا » ، حين عرف  
بأن أنطونيوس أودع وصيته بين أيدي الراهبات القستالات سدة المعبد ، طالب  
الكاهنات بها فأجبتنه بأن ما ينويه ، من اعتداء صارخ على شرائع روما لن  
يسمحن به . فاقتمح المعبد ، وانتزع وصية أنطونيوس وذهب بها إلى مجلس  
الشيوخ ، لبتلى على الملأ . ومع أن شيوخ روما يكرهون هذا التشهير العلنى بدخائل  
الناس ، وما استودعوه من سر لا يفشى إلا بعد موتهم ، فإن الوصية تكشف عن  
مخازى تجعلهم ينسون كل شئ سوى أن ابناً كبيراً من أبناء روما ، يوصى بكل  
شئ لأولاد « الملكة الشرقية الداعرة » ، بل ويوصى ، إذا مات بعيداً عن مصر ،  
أن ينقل جثمانه ليدفن بالإسكندرية !

لم يبق إلا أن يقوم أكتافيانوس قيصر بأداء وظيفة من وظائفه الكهنوتية هي  
وظيفة « الفسيال » ، فيتجه حاملاً رمحاً إلى معبد « بللونة » ، إلهة الحرب ، ويجرى

التقليد الروماني العريق في إعلان الحرب ، وهو رمي الرمح فوق عمود قائم أمام المعبد ،  
يرمز إلى حدود روما . وينفضو الشيوخ عنهم « التوجا » ليلبسوا عدة القتال .

على من أعلنت روما الحرب ؟ على كليوباترة ، لا على أنطونيوس ، ولا على  
جيشه ورجال أسطوله ، من أبناء روما . وفي ذلك نستبين كنه المدبر الماكر  
أكتافيانوس : إنه ، فيما يحىء من أحداث الحرب ، وفي مفاوضات التسليم أو السلام ،  
لن يرد على أنطونيوس ، وإنما على الملكة المصرية ، فأنطونيوس لم يعد له وجود  
شرعى على ظهر الأرض ! أما أتباعه ، فإنهم لم يعلنوا بأنهم أعداء الوطن ، لترك  
لم الباب مفتوحاً ، كي يتخلوا عن زعيمهم الخائن ، ويعودوا إلى رحاب الوطن  
الروماني .

ويقع الصدام على شاطئ إبيروس من بلاد اليونان ، في اليوم الثاني من شهر  
سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد ، بين أسطول أنطونيوس وكليوباترة الذي تجمع في  
خليج يعرف الآن باسم خليج بريثيزا ، وجيوش أنطونيوس المحشودة عند رأس  
أكتيوم ، وبين أسطول روما بقيادة منشئه البطل أجريبا ، وجيوش روما بقيادة  
أكتافيانوس ، على الضفة المواجهة لرأس أكتيوم .

وقد اتجه رأى مستشاري أنطونيوس إلى بدء المعركة في البر ، ولكن العدد  
المتزايد من رجال جيشه ، الذين أخذوا يتخلون عنه ، حدا بأنطونيوس إلى تجنب  
الحرب على الأرض ، بل وفي البحر ، فقد فكر في أن يهرب بأسطوله وأسطول  
كليوباترة ، ويترك جيشه البري لقضائه . ولكن أجريبا ، الواقف له بالمرصاد ،  
يرغمه على القتال . وتنشب المعركة التاريخية الكبرى ، بين أسطولين متعادلين عدداً ،  
إلا أن أسطول روما كان مدرباً تدريباً خاصاً على سرعة الحركة والالتفاف ،  
وسفته كانت أخف مثاورة من سفن أنطونيوس .

وفي ليلان المعركة — التي لم يشارك فيها أسطول كليوباترة الراسي بخليج  
بريثيزا — تهب ريح مؤاتية ، فتأمر الملكة المصرية سفنها بالإقلاع ، وتبر بمراكبها  
الستين وسط المتحاربين ، تلتمس النجاة ، وتتجه إلى شواطئ البلوبونيز ، ومنها  
إلى الإسكندرية . وما إن يرى أنطونيوس عشيقته تهجره ، حتى يتبعها بسفينة ،  
ويتخلى عن رجاله في البحر ، كما تخلى عن رجاله في البر عند رأس أكتيوم .

ويستسلم جيش أنطونيوس لأكتافيانوس ، ويدمر أجر يدا أسطول عدو روما .

ونتائج هذه الواقعة المشهورة كان يجب أن يتوقعها العاشون بأقدار الممالك .  
فقد انتهت بها ، أو بعدها بعام ، دولة البطالسة ، ودخلت مصر في حوزة الرومان ،  
وتحولت للمرة الأولى أو الثانية في تاريخها إلى إقليم أو مقاطعة ، يحكمها موظف  
روماني من قبل الإمبراطور . وسوف تجرى عليها العوادي على هذه الوتيرة مرتين  
بعد ذلك : بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وبعد الغزو العثماني في  
القرن السادس عشر .

لم يطارد أكتافيانوس أعداءه المهزمين ، بل تركهم يرحلون ، أو بالأولى يعمهون  
في ضلالتهم نحو العام . فقد وثق أن لا منجاة لهم بعد الآن . وأرسلوا الرسل يسترحمون  
الظافر ، فإذا هو يستجيب لكليوباترة وحدها ، ويحيي في نفسها بعض الأمل .  
أما أنطونيوس فقد سبق القول بأنه لم يعد له وجود شرعي على ظهر الأرض .  
يحيي في كليوباترة بعض الأمل ، أو أنه الأمل الكامل في سحر أنوثتها ، جربته  
مع عظماء روما ، وكان دائماً مضمون المفعول ؟ ومن يكون هذا الأكتافيانوس ،  
وما زال في شرح الشباب ، إلى جانب الرجال المحنكين يوليوس قيصر ومارك  
أنطونيوس ؟

وأخيراً ينقض أكتافيانوس ، كالقضاء إذا حم على ميناء فيلوزيوم [ الفرما ] ،  
فلا يلقى مقاومة ، ويزحف على الإسكندرية دون هوادة ، ويحاول أنطونيوس أن  
يقاوم بفرسانه — وهو ضابط الفرسان ! — وبالأسطول المصري ، فيخونه فرسانه ،  
ويحيي البحارة المصريون أسطول أكتافيانوس برفع مجاديفهم . عندئذ تتكشف أمام  
عيون القائد الروماني المغرور هوة الخيانة ، لا خيانتته هو لروما ، بل خيانة عشيقته  
الملكية ! . . . ولكن عيني العاشق لا تريان ، وأذنيه لا تسمعان : ومشاعره كلها  
تكذب ما يتركه العقل . وإذا بواقعة واحدة تحيي في نفسه الأمل بأن كليوباترة  
مقيمة على عهده : فقد جاءه الخير من لديها بأنها فارقت الحياة ، في داخل القبر  
الواسع ، أو المدفن اللاجيدى الفرعوني الكبير ، الذي أعدته لنفسها ، وكذست  
فيه كنوزها !

وكانا قد تعاهدا على الموت سوياً ، فلم يبق أمامه إلا الموت على الطريقة الرومانية . وبينما يعاني سكرات الموت ، يبلغه أن خبر موت كليوباترة سبق أوانه ، فيطلب أن يحمل إليها لموت إلى جانبها ؛ وكان له ما طلب .

كما كان لكليوباترة ما طلبت من أن تلتقي بأكتافيانوس ؛ وتم هذا اللقاء بعد مناورات ومداورات طويلة — ولا تقول مفاوضات — بين ذلك السياسي المراوغ الحذر ، وبين المرأة العبقريّة ، التي هزت العالم الروماني هزاً . كان أكتافيانوس يحرص على شيء واحد ، هو أن يقتادها إلى روما لتسير في موكب انتصاره . وقد أثرت عن كليوباترة كلمة ، كانت تعاود التلطف بها في إصرار عجيب : « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرني على السير في موكب انتصاره » . لقد شهدت في شبابها موكب انتصار عشيقها يوليوس قيصر ، ورأت أختها وعدوتها أرسنوى تجر أسيرة في ذلك الموكب ، فلن يجري عليها ذلك أبداً أبداً !

تم اللقاء في قصر الملكة ؛ فقد انتهت المناورات إلى أن رضيت بمغادرة قبرها الكبير ، والعودة إلى القصر ، حيث قام على حراسها إبيأفروديت ، ينفذ تعليمات أكتافيانوس بأن تعامل كملكة ، تحقق كل رغباتها ، فيما عدا ما يمكنها من الانتحار .

ماذا حدث في هذا اللقاء بين مؤسس الإمبراطورية الرومانية والملكة التي دوخت الرجال بأنوثتها وسحرها وعقلها وجمالها ؟ ماذا كان الحوار بين الملكة الشرقية والإمبراطور الغربي ؟ من يدري ؟ كل ما تركه لنا التاريخ — وقد لا يكون صادقاً — أنه هداً من روعها وقال لها « سرى عنك ، ولا تخشى أية معاملة عنيفة » . فالتاريخ يتصور الرجل البارد الهادئ ، لا يعني إلا بأمر واحد ، لا ثاني له ، وهو أن يقتاد كليوباترة حية إلى روما ، لتسير في موكب انتصاره . لأن روما ، وعلى رأسها هذا الشاب الذي يحمل على كتفيه أقدار العالم القديم ، وفي رأسه عقل السياسي الحكيم ، تريد أن تشق غليل حقدما على المرأة التي استأسرت بلب رجلها الأعظم يوليوس قيصر ، ونزلت بقدر قائد من كبار قوادها ، وقنصل من قناصلها ، وأحد « التريومفير » ، إلى وحدة الخيانة الوطنية .

وعندما تأكدت كليوباترة من أن مراوغات أكتافيانوس ، ولطفه معها ، لا تهدف إلا إلى إزلالها في موكب النصر بروما ، قررت أن تموت ، ولجأت إلى حيلة بسيطة ، وهى أن يفهم الجميع بأنها راضية ، وأنها تعد نفسها للسفر مع أكتافيانوس وجعلت تختار الهدايا التى ستقدمها إلى ليثيا زوجة أكتافيانوس ، وإلى أوكتافيا أخته ، مطلقة أنطونيوس . وذهبت لزيارة قبر حبيبها أنطونيوس لتودعه « قبل سفرها » . كل ذلك خدع حارسها إيبأفروديت ، مما سهل لها الحصول على السم الذى تنهى به حياتها .

وذات يوم نادى على حارسها هذا — وهو موقن باستسلامها — وأعطته رسالة عاجلة إلى أكتافيانوس ، وما إن أدار الرجل ظهره ، حتى أوصدت الباب عليها وعلى وصيفتى الشرف إراس وكارميون .

فتح أكتافيانوس رسالة كليوباترة ، وفهم من أول كلماتها ما حدث : إنها ترجوه أن يوسدها القبر إلى جانب مارك أنطونيوس !

وهروا الجميع إلى القصر ، ليروا الملكة كليوباترة ، بنت بطليموس الثالث عشر ، الملقب فيلوباطور — فيلوميتور ، التى شغلت حياتها العالم الرومانى ، وأقضت مضاجع عظمائه ، كليوباترة آخر سلسلة الملوك المستقلين الذين تولوا حكم مصر منذ مينا ، رأس الأسرة الفرعونية الأولى فى السولة القديمة ، كليوباترة الساحرة الجميلة الذكية ، معشوقة بوليوس قيصر ، وحبيبة مارك أنطونيوس ، هروا الجميع ليروا كليوباترة ممددة على سريرها ، فى أبهى زينة ملكية ، فاقلدة الحس والحركة ، وإلى جانب سريرها سقطت الفتاتان كارميون وإراس ، وثلاثهن فارغن الحياة ، كما قرر الأطباء الذين استدعاهم أكتافيانوس توافاً . وقيل بأن ضابطاً رومانياً اقرب من الوصيفة كارميون ، وهى فى الرمق الأخير ، وقال لها : « ما هذا الصنيع ؟ » فأجابته الفتاة : « خير صنيع ، والأجدر بملكة انحدرت من صلب كل أولئك الملوك ! » . وقد التجأ الإمبراطور إلى الحواة المشهورين فى مصر القديمة باسم « بسلوس » ، ليمصوا السم من جرح بذراع كليوباترة ، وقيل بل فوق صدرها ، ولكن كليوباترة أفلتت من أيدي أسرها الرومانى ، و « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرنى على السير فى موكب انتصاره . »



أما إن كليوباترة ماتت مسمومة ، فهذا ما لا يتفق عليه شك . ولست مستعداً لتصديق حكاية الصل [ كوبرا = Naja haje ] الذى أدخل عليها مخبأ فى سلة تين ، وأنها مدت يدها ودستها بين التين ، ليعضها ذلك الصل الأنيس ، الذى يقضى عطشته السنوية مكتمكا بين حبات التين ! وكأنه على ميعاد مع ثلاث خانيات بعض أولاهن . . . برفق . . . ، ثم يخرج مثاقلاً لينث سمه فى رفيقتها . لكنها حكاية رومانتيكية تنفع المخرجين السينائيين ، كما انتفع بها أكتافيانوس فى موكب انتصاره بروما ؛ فقد سحب خلفه تمثالا يصور ملكة مصر ، ممددة على سريرها يلتف حول ذراعها صل قاتل .

وكليوباترة تستحق منا كلمة رثاء ، كامرأة رائعة البهاء ، وملكة استردت كل حقوقها الملكية ، ووسعت رقعة ملكها ، عن طريق أنوثتها وألمعيتها وجمالها . وكان المؤرخ طارن ، وهو على رأس الثقاق فى تاريخ الحضارة الهلينستية ، يعتبرها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر ، وقال فيها قائلته المشهورة : « كانت روما فى زمانها ، وهى التى لم تخش أمة ولا شعباً ، تهاب شخصين ، أحدهما هانيبال — هانيبال ، وكان الثانى . . . امرأة ! » .

أما مارك أنطونيوس فحسبه أن يذكر فى عداد . . . شهداء الغرام .

• • •

### الصعيدية

أضاعت بنت الزمار عرش البطالسة واستقلال مصر ؛ وحفظت أم خليل الملك ، الذى ورثته عن آل أيوب ، لحشداشها . كانت كليوباترة آخر ملوك البطالسة ، وكانت شجرة الدر أول سلاطين المماليك . أما ثلاثة الملكات ، فلم تختم على خيبة أسرة ملكية ، ولم تفتح الطريق لأسرة ملكية ، وإنما قامت فى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بشخصيتها الفارعة ، وسط صف من الملوك العظام : أسرة تحوتمس وأمنمحاتب ، والثائر آخيناتون ، والملك الصغير المرتدتوت عنخ آمون . ثلاثة ملكاتنا مصرية صعيدية ، وكانت أعظمهن شخصية وقدرأ . فالجرب التى مارسها لم تكن حرب فتوح ، ولا حرب دفاع . ولكنها كانت حرب امرأة

تطالب بحقها في العرش - مثل كليوباترة - وتحصل عليه ، ثم تطلب شيئاً لم تفكر به كليوباترة ولا شجرة الدر ، وهو مساواتها بالرجال : فتسوى بالرجال ، لا لترفس وتنطح ، بل لتعمل من أجل السلام ، وتمارس المهنة المصرية القديمة : صناعة الحضارة !

في حفلة الملعب الإسكندري ، أطلق زير النساء الروماني على عشيقته المقدونية لقب « ملكة الملوك » - لا الملكات - ، ولكن ملكة الملوك حقاً ، كانت حثبوس . لأن كليوباترة - مثل شجرة الدر - كانت ، قبل كل شيء ، امرأة ، لها كل صفات الأنثى من قوة محركها الضعف ، وسيطرة عن طريق اللعب بالعواطف ، واستغلال حب الرجال ، ومن قدرة على سحب المؤامرات والحيل . كانت حياة كليوباترة سلسلة من المغامرات ، تختلط فيها السياسة بالعاطفة . فعلاقاتها الغرامية - أو على الأقل ما حفظه التاريخ منها - كانت ذات هدف سياسي ، سواء عشقت ابن بومبيوس الكبير ، أو انطوت وتكورت في أحضان قيصر ، أو فتحت صدرها للبض ليغوص فيه رأس أنطونيوس ، ولكنها ، وقد قاربت الأربعين ، جريت أخيراً حظ كاليبسو من تليماك ، وعرفت بأس الملكة ديلونة من إخضاع إنياس ، فجرت عليها مع أكتافيانوس ما جرى على ملكة قرطاجة مع بطل الإنياذة . وآثرت الموت على الحياة عندما تحققت من بطلان سحرها .

وشجرة الدر ، كانت حياتها هي أيضاً حياة أنثى ، ولكن في الحلال ، ووراء أستار « البردة » . حكمت على بعلمها التركاني إيبك بتطليق ضربتها أم ولده . فنفل حكمها صاغراً . وعندما تحققت بطلان سحرها ، أو عصيان أوامرها ، صار عز الدين إيبك في إجراءات الخطبة لمصاهرة صاحب حلب ، دبرت قتل زوجها شر قتلة ، وكانت كتلك الحيات التي يقال إنها تموت إذا ما أفرغت سمها القتال ، ولكن أعداءها لم يمهلوها ، بل سحقوا رأسها بالقباييب مسحقاً ، ورموا جثتها عريانة في خندق القلعة .

أما حثبوس فكانت المرأة - الرجل حقاً ، كانت المسترجلة بالمعنى المعاصر ، على الأقل فيما عرفناه عنها ، وحدثتنا به آثارها . ولقد ضحكت سخرية يوم عرفت

أن بعض المؤرخين المحدثين يتهمون صلاتها بمهندستها « سنن - موت » ، ذلك لأن الصورة البسيكولوجية التي بقيت لنا عن تلك المرأة الغريبة ، ليس فيها قليل من الأنوثة . ولست أعنى أن عملية جراحية حديثة كانت تحولها إلى رجل ، فلأننا نعرف للملكة المصرية بتتين ، والقليل الذي نراه من صورها لا يمكن الاستدلال منه على أكثر من أنها مثلت نفسها في ملابس الفرعون . ولست أجد فارقاً كبيراً بين تمثالها من حجر الجير الذي استصلحه الأمير يكان ، والموجود بمتحف المتروبوليتان ، وبين التمثال الرائع لتحوتمس الثالث بالمتحف المصري . ففي التمثالين نرى صورة من صور الشباب ، وقد غطى كل منهما رأسه بذلك الغطاء المصري الصميم ، الذي يغطي رأس خفرع ، ورأس أبي الهول ، وستر كل منهما النصف الأسفل من جسده بالمتزر المصري القديم . ونرى حتشبسوت على مسئلتها الملقاة قرب البحيرة المقدسة بالكرنك ، وهي في هيئة شاب بافع ، يلبس التاج الأزرق المتفخ ، يطل منه الصل الملكي فوق الجبهة . وفوق صدرها العقد الملكي ذو السبع « بوردورات » ، أو الستة الصفوف ، وفي خصرها المتزر يغطي ساقها حتى فوق الركبة ، وقد ركعت بين يدي آمون - رع ، وأولته ظهرها ، وإله عطية يرفع يديه في حركة من يباركها ، أو ربما في حركة إلباسها التاج الأزرق . وفي أعلا الصورة ، بالحفر البارز ، رمز السماء بنجومها في خط مستقيم ، وتحتة نقش اسم « آمون - رع ، رب السموات » ، وقوله : « آتينا ابنتي معا - كان - رع ملك الأرضين ، ووراث آتوم ، عربوناً دائماً على حبي لتلك التي وهبناها الحياة » .

وفي صور أخرى لها ، تظهر بلحيها المستعارة ، كمادة ملوك الفراعنة ، وهي في جميع صورها تمثل مفلطحة الصدر . وجاء عليها حين رفعت حرف التأنيث من اسمها ، فهي ملك مصر لا ملكة ، وهي الفرعون لا الفرعونة ، وهي حتشبسو لا حتشبسوت . ومن أسف أن لم يعثر على موميائها من بين الموميات التي عثر عليها في القرن الماضي بقاع بئر عند معبد الدير البحري .

وحتشبسوت من أهم شخصيات الأسرة الثامنة عشرة ، خلقت لنا آثاراً عظيمة ، من أمثال مسئتي الكرنك : القائمة ، وهي أعلا المسلات بالكرنك ، والنائمة ، ثم المعبد الصغير الأتيق هناك ، المعروف بقاعات الملكة ، وهيكل سفينة آمون ،

والصرح الثامن بالكرنك . ولكن أعظمها معبدها الكبير بالدير البحرى ، « رابعة  
الروائع » ، وهو من طراز يختلف عن الطراز المعروف فى معابد الدولة الحديثة ،  
يظهر أنه يستوحى طراز المعبد الجنائزى لميتوحتوب ، الذى ما تزال بقاياه المهلمة  
قائمة بالدير البحرى ، إلى جانب معبد حتشبوت ، والغالب أن كان هذا الطراز  
سائداً فى الدولة الوسطى .

ومع أن الملكة الصعيدية حكمت أكثر من عشرين عاماً ، فإننا لا نجد  
لأسمها أثراً فى القوائم الملكية المعروفة ، ونهى اسمها من الخانات [ الحراطيش ]  
الملكى ، وضرب على الخطوط التى تمثل شخصها فى الصور الحائطية .

وحتشبوت ما زال أمرها لغزاً تاريخياً ، تصارب الأثريون فى طريقة حله ،  
وذهب العلامة كورت زيته فى التعقيد شوطاً بعيداً ، ليفسر التسلسل التاريخى  
فيما بين تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث . ولم يؤخذ برأيه فيما نعلم ، وذهبت تفسيراته  
إلى غير رجعة . لأن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذا اللف والدوران ، فإن  
تحوتمس الثانى ، وقد تزوج أخته حتشبوت ، ترك بعد وفاته ابنتين شرعيتين — أى  
من أمهات ملكية — وولداً غير شرعى ، أى من زوجة غير ملكية . وقانون الوراثة  
المصرى كان يعنى بالأمومة [ تبعاً للنظام المترىاركالى ] . ولكن الإمبراطورية التى  
أسسها تحوتمس الأول ببحوشه حتى نهر الفرات شمالاً ، وإلى الشلال الثالث جنوباً ،  
كانت بحاجة إلى ملك يقود الجيوش . والغالب أن الحزب العسكرى خشى أن  
تجلس على العرش امرأة ، فأنهى إلى أن يولى هذا الابن غير الشرعى ، وهو  
تحوتمس ( الثالث ) ، على أن يتزوج ابنة عمته حتشبوت زوجة وأخت تحوتمس  
الثانى ، وابنة تحوتمس الأول . ولتوكيد الحق الإلهى لتحوتمس الثالث أشار فى  
آثاره — عندما بلغ مبلغ الرجال ، وتولى الملك وحده ، بعد موت حتشبوت — إلى  
أن الرب آمون بذاته هو الذى اختاره لعرش آبائه . فتقول النقوش التى وجدت  
بالكرنك بأن تحوتمس هذا ، وهو الابن غير الملكى ، كان يدرس استعداداً لتولى  
وظيفة كهنوتية بمعبد آمون ، وأنه فى خلال حفل دينى ، وقد حمل الكهنة تمثال آمون من  
قدم الأقداس ، فتجول التمثال المحمول هنا وهناك وكأنه يتشد ضالته — على طريقة  
النعش فى عصرنا حين يطير بميته ١ — ثم وقف فى مواجهة الشاب تحوتمس ،

يمكن أن يعرف بموقف الملك ، وبذلك أعلن آمون عن فرحته بابنته ، وفي هذا يقول  
تحتونس الثالث :

« لقد فتح لي أبواب السماء ، فتح لي مغاليق أفق رع [ أى قدس الأقداس ] ،  
فاندفعت طائراً كالباشق الإلهي ، أتأمل كيانه في كبد السماء ، وصلت بلحالة  
الرب ، ورأيت في مسار الأقلاك وجه ذى الجلال والإكرام . لقد ولاني رع  
بنفسه ، وتوجني بالتيجان المرفوعة على رأسه ، وعقد الصل الملكي على جيبتي . . .  
وتلقيت عنه مراسم الألوهية ، ووضع لي الأسماء الملكية العظيمة . »

ولما كان تحتونس عند توليته التي يشير إليها حدثاً متزوجاً من طفلة - ابنة  
حتشبسوت - فقد اضطلعت عنته وحماته هذه بشئون الحكم ، كوصية على تحتونس  
الثالث ، ثم أزاحت الغلام ، وتولت الملك حوالي اثنين وعشرين عاماً [ ١٥٠٥ حتى  
١٤٨٣ ق.م. ]

وتصف نقوش معاصرة الموقف عند موت تحتونس الثاني على الوجه التالي :

« وصعد الملك إلى السماء ليترج في عداد الآلهة ، وتولى ابنه [ أى تحتونس  
الثالث ] مكانه ملكاً على الأرضين ، وجلس على عرش من أنجبه . وساست  
حتشبسوت ، ابنة الرب ، أمور الدولة حسب ما رسمت ، وأحنت مصر رأسها تعمل  
من أجلها ، تلك النطقة من صلب الرب . لقد كانت حتشبسوت الحبل الذي  
تتمسك به مصر السفلى ، والعماد الذي تعتمد عليه مصر العليا . وكانت الدفة المستقيمة  
للدلتا ، والسيدة التي تدبر الخطط ، وتصدر الأوامر ، فيتزل السلام على وجه الأرض . »

وليس معروفاً ما جرى لتحتونس الصغير [ الثالث ] أيام استيلاء حتشبسوت  
على العرش . فاسمه يظهر في النقوش خلف اسم عنته في أول الأمر ، ثم ما يلبث  
أن يختفي هذا الاسم طوال حكم عنته ، حتى يتولى الملك وحده ، بعد موت الملكة  
المعظمة نفسها . ولا يمكن أن نتصور أن هذا الشاب - الذي سيصبح أعظم ملوك  
مصر قاطبة - راضياً بأن يهمل هذا الإهمال الطويل . فهل كان معتقلاً أم كان  
هارباً ؟ من يلربنا ؟ إنما نحن نفهم لماذا يحرص بعد موت عنته على أن يدق ويضرب  
ويعجوا اسم الملكة حتشبسوت ورسمها أينما كان . فلم يكن الأمر مجرد إبعاد اسم  
حتشبسوت من القوائم الملكية لأنها امرأة ، وقد حكمت مصر القديمة ملكات



مشهورات ، وإنما كان عملاً مسوماً بالتشني والغضب . وقد سبق القول بأن الحب الذي استخلصت منه موميات ملوك الأسرة وكثير غيرهم ، لم يكشف عن مومياء حتشبسوت ؛ فهل جرى التشني أيضاً على جثمان الملكة ؟

ثم كيف استطاعت الملكة الاستئثار بالحكم إلا أن تستند إلى قوة حزب معين ؟ ونحن نعرف أسماء زعماء ذلك الحزب الذي آزرها ؛ وأول هذه الأسماء « سنن-موت » ، الوزير والمعماري الكبير ، ثم « هابو-سنيب » كبير الكهان ، ثم حامل الأختام « نه-سي » ، فوزير الخزانة « بيت الذهب والفضة » ، توتى . حزب الملكة إذن هو حزب آمون الإله الأعظم . وكان كبير كهنته ، « هابو-سنيب » ، يجمع في يديه السلطتين الروحية والزمنية ، لأنه كان رئيس وزراء الملكة . ومن هنا يمكن أن ندرك ما بلغته الرئاسة الدينية في الدولة الحديثة من سؤدد ؛ والأوج الذي ارتفع إليه آمون-رع وسدنته .

وتعلن الملكة ، على جدران معبدها بالدير البحري ، إخلاصها لربها ، وأنها في سبيل آمون أوفدت ، تحت إمرة « نه-سي » ، بعثتها التجارية إلى بلاد « بونت » ، وهادت بأشجار العطر والبحور وكثير غير ذلك من منتجات الجنوب : « وهذه هي المرة الأولى تقدم فيها تلك الأعطار الثقيلة لآمون ، ومعها عجائب البونت وغرائبها . وأعدت جلالتها بنفسها عطراً شديداً ، ضمخت به جسد الرب ، فتضوع كما يتضوع الندى الإلهي . . . وانتشر أريجها في الأقطار والآفاق حتى بلاد « البونت » ، وتوهجت بشرة الإله ، وكأنها عجنت بالنضار ، وتألقت طلعتة كأنها النجوم النيرات . »

ولا تفناً حتشبسوت تؤيد حقوقها الملكية على جدران معبدها الكبير بالدير البحري ، وفي لمجتها تحد لا يخفى . فهي تؤكد أن أباه ، تحوتمس الأول ، هو الذي اختارها وأعددها لتتولى العرش ، وأن الآلهة أمنت على اختياره .

ثم تذهب إلى أبعد من كل هذا ، فتدعى بأن أباه الحقيقي كان آمون بنفسه ! وترسم على جدران « بهو الميلاد » قصة حمل أمها بها وولادتها ، فتعلن على رؤوس الأشهاد أسرار ميلادها الإلهي ؛ الذي يثبت حقاً لها لا ينزع . وإعلانها هذا ليس فيه من جديد على الملكية المصرية ، مذ تولى الملك ، قبل عهد الأسرات ، آلهة

وأنصاف آلهة استخلفوا على عرش مصر ملوكاً في صورة الآدميين ، كانوا أبناء رع ، وأبناء أوزيريس ، وكل منهم في ذاته هوروس المتجسد . بيد أن قصة ميلاد حتشبسوت تتخذ هنا صيغة مادية ، تصور لأول مرة على جدران « رابعة الروائع » ، معبد الدير البحري .

كانت حتشبسوت قبل ذلك تدعى فقط « السيدة الملكية العظيمة » : هورت [ صيغة المؤنث لهورس ] ورعت [ صيغة المؤنث ] لرع ، ولكنها ، فيما بعد ، بدأت تمثل نفسها في هيئة الرجل ، بالملئزر القصير واللحية القصيرة ، ويتحول اسمها المؤنث ، حتشبسوت ، إلى المذكر حتشيسو ، ومعناه « أول النبلاء » وكان قبلاً « أول النبيلات » . ثم تصور بالحفر البارز سلسلة من النقوش تمثل ميلادها الإلهي وسلسلة أخرى تمثل تنويرها .

فأبوها الفعلي ، آمون - رع ، يجتمع في الصور بأماها الإنسانية أحماسى يجلس الإله آمون - رع في مواجهة الملكة أحماسى على سرير له رأس أسد ، وأرجله مخالب أسد . وتلتف الساق بالساق في حماية إلهة السماء « نيت » ، وإلهة أخرى : « سلجت » . ويحف بالرسم نص شعري لا يدع مجالاً للشك في طبيعة الاتصال بين الرب والملكة أحماسى :

« هذا ما يقوله رب الأرباب آمون - رع ، عندما تمثل لها بشراً سوياً ، وتقمص صورة ملك الجنوب وملك الشمال : تحوتمس الأول . دخل على الملكة وهي تضطجع في خدرها بالقصر الجميل ، فأفاقت لنفسها على أريج الإله ، وعقدت الدهشة لسانها لمراى جلالته يتجه إليها ، ويجتمع بها ، ويضع قلبه على قلبها . ثم يعود الرب إلى صورته السناوية ، وهي تتملى من جماله ، وأعطاها ترجف بحبه ، وعبير الإله ، وعطر فمه ، يتوضعان بروائع أفاويه الجنوب .

« وهذا ما تقوله الزوجة الملكية أحماسى في حضرة آمون : ما أعظم نفسك ، وأشرف محضرك ، وأنت تجتمع بجلالتى في رقة ، ونذاك يسرى في كل أعضائى ! » وبعد ما ينال ذو الجلال وطره منها ، يقول لها : « سيكون اسم الابنة التى تلدين : " سيدة النبلاء التى من صلب آمون " ، وستسوى على العرش ، تنوء بالخير والإسعاد على طول البلاد وعرضها ، فهى من روحى وقلبي ، إنها بنت مشيتى ،

وتاجها هو تاجى ، حتى تحكم الأرضين ، وتقود " كا " وات الناس أجمعين .  
وصور أخرى تمثل « خنوم » ، الرب الفخرائى ، وهو يسرى على دولابه الصورة  
الديوية للطفلة الملكية وعفريتها - وهو القرين « كا » - وعند ما تحل اللحظة  
المرصودة ، يجىء الملكة أحماسى الخاض ، فإذا الطفلة ، وعفريتها « كا » ،  
يخرجان من تحتها ، فيقبل آمون « الكا » والطفلة ، ويهددهما ، ويعمدهما عماد  
التطهير الأول ، ويعدهما بتولى عرش هوروس ، وذلك بحضرة الآلهة .

وصور ثالثة تمثل ما حدث لحتشبسوت ، « البتول الزهراء » ، عندما توجهها  
أبوها الإنسانى ، بمعبد « إيون » ، فى هليوبوليس ، وحشد لها الفرعون الشيخ  
أشراف بلاطه ، وكبار رجال دولته ، وقدم لهم ابنته ، وهو يحملها بين يديه فى  
الحركة التقليدية للحماية :

« هذه هى الطفلة خنوم - آمون - حتشبسوت ، التى تخلفنى ، التى تجلس  
على عرشى ، التى تصدر الأوامر فى كل مكان بالقصر الكبير - فرعاو - إنها  
وايم الحق ، هى التى تسير أقداركم ، وهى التى تسمعون كلامها ، وتصعدون جميعاً  
بأوامرها . من أخلص لها طال بقاؤه ، ومن تقول عليها بسوء فالمنون لا محالة مدركه .  
أقبلوا سراعاً لتبايعوها أمام الملك ، وقد سمعتم اسم جلالتها ، كما فعلتم باسمى .  
لأن هذه الإلهة ابنة الرب ، فالأرباب حراسها على كر الأيام ، الدائلون عنها  
على مر العشى . بهذا قضى سيد الآلهة .

« وسمع الأشراف الملكيون ، فخرجوا سجداً لكل الآلهة ، ودعوا للملك تحوتمس  
الأول ، وخرجوا مهالين يرتصون فرحاً ويطيرون هناء . ثم سجل التوقيع الملكى  
« نخب » ، الأسماء الملكية لحتشبسوت هكذا : الإله آمون - رع أوصى كتاب  
التوقيع بتأليف الأسماء حسب ما جاء فى النطق الإلهى . »

ثم تقدم الملكة بواسطة الكاهن « أنموتيف » فى « الفرعاو » ، حيث أقيم  
جوسفا العرشين الملكيين ، حتى ترقى عرش مصر العليا ، ثم عرش مصر الدنيا ،  
رمز اتحاد الوجهين . ويلدور « الموكب حول السور » ، ذلك الطقس المعروف  
فى أعياد التتويج ، منذ عهد « مينا » ، والكهنة يقنعون برأس الصقر « هوروس » ،  
وراس الكلب « ست » ، يضعون على جبين الملكة تاج الوجه القبلى المخروطى  
الأبيض ، وتاج الوجه البحرى الأحمر المستدير . وتظهر فى مقدمة الموكب الشعارات

الطوطمية التي نراها في آثار ملك الأسرة الأولى « نعر - مر » .  
ونختم الاحتفالات - أو سلسلة التصاوير - بتقديم تحوتمس الأول طفله  
الملكية حتشبسوت إلى الثالث الطيباني المعظم : « آمون - موت - خونسو » ،  
فيستقبلها كل منهم ، ويباركها ، بينما يسجل « توت » ، في لوحه المحفوظ ،  
اليوبيلات الثلاثينية الكبيرة أي « أعياد سد » في حياة الملكة مستقبلاً . ويحور  
صيغة البلاغ الذي يعلن به للتاسوع الأكبر خبر تنويع حتشبسوت . فيفطها  
كل منهم إعلاماً بارتقائها إلى المقام الفرعوني ، وهو مرتبة من مراتب الألوهية .  
وبهذه النعوت والصور المنقوشة على الدبر البحري وغيره ، نعرف أن حتشبسوت  
حذقت فنّاً اشتهر به فراعنة الدولة الحديثة ، فكانوا أول من عرف الطبل والزمير  
والدعاية ، ومارسوها كما لم يمارسها الدكتور يوسف جوبلز ، بعدهم بحوالى أربعة  
آلاف سنة !

وإذ تتولى حتشبسوت العرش المصري - بالقوة أو بالحيلة أو بالظنطنة ، لا يهم  
- تكرر حياتها لصناعات السلام والحضارة ، وتأمّر بوقف الغزوات والفتوح ،  
التي بدأها أسلافها بعد طرد الهكسوس ، وتعمّر الدروب إلى المهاجر ، وتوجه  
البعثات التجارية إلى البلاد المصاوبة والبعيدة ، على غرار بعثتها إلى بلاد « البونت » ،  
وهي المسجلة على حوائط الدبر البحري ، تسجيلاً رائعاً ، ما أحسبه إلا في طريقه  
إلى أن تمحوه الحداث ، كما أخذت تمحو تصاوير مقابر بني حسن ، تقاعسا منا  
وإهمالا . وإن إحساس حتشبسوت بوطنها العالي يظهر من نقش لها تتحدث فيه  
بما قامت به من إصلاح وترويم للمعابد التي خربت « منذ قام حكم الأسويين في  
أواريس بالدلتا : وحين قام أولئك الغرباء الرجل بتدمير كل ما بناه السالفون .  
لأنهم كانوا في جهالتهم يعمهون ، كفروا بالرب رع ، والإله آمون . ولم يحجّ لتنفيذ  
ما رسم به الآلهة إلا جلالتها . »

قليل غير هذا ما نعرفه عن الملكة حتشبسوت ، والأقوال تضاربت في تفسير  
ما تركت لنا من « نشرات دعائية » ، ولكن لا تضارب ثمة في أن معبد الدبر البحري  
عمل فني له حساب كبير في تاريخ العمارة ، يدل على فهم من أنشأوه لخصائص  
الطبيعة المصرية ، وإحساسهم العجيب بخطوط الربوة العالية المظلة على وادي آمني ،

في طيبة الغربية ، وانتفاعهم بتضاريسها في إقامة الطوابق الثلاثة ، بأبنائها  
ذات العماد .

والقليل الذي نعرفه عن ابنة آمون البكر ، يكفيننا ، فيما أظن ، لتؤلف لها في  
أذهانتنا شخصية « المرأة الذكر » ، يعلو قدرها ، وهي المصرية الأصيلة ، على  
المقتبونة ابنة الزمار ، والمملوكة الصالحية ، والددة المرحوم خليل !



## القيراط الخامس والعشرون

آخر ما كنت أفكر فيه ، هو أن أعقد فصلاً خاصاً بالملوك في كتاب ألفته ملحمة للشعب المصري : شعب — تامه ، لا شاه — تامه ، وملحمة السلام لا الحرب ، ملحمة شعب صناعته الحضارة ، وديدته المسألة . أرد فيها الفصل لدويه ، بحق العذابات والمحن والرزايا التي تحملها كل تلك الأجيال .

وقد يفتخر لي أن اخترت من الشاهنامة المصرية « ملوكاً » من جنس الأنثى ، ولعل ما دعاني إلى كتابة الفصل السابق هو إعجابي بعمارة الدير البحري ، وسيدة الدير البحري . أحببت تلك الملكة المقدام ، منذ زيارتي لها أول مرة ، في بطن الجبل ، بطيبة المقدسة ، ودراستي المتمهلة لتصاوير البعثة البحرية إلى بلاد « الهونت » ، تزين جدران « رائعة الروائع » ، وذلك أيام كنت أعني بالبحر وأحيائه وأذنيه ، فوجدت في تلك الصور المثل الفرد ، في كل الآثار المصرية — بقدر ما وصل إليه علمي — يصور أحياء البحر ، لا أحياء النيل ، ولا أحياء بطائع الدلتا .

أعجبت بتلك السيدة المسترجلة تمثل نفسها على آثارها رجلاً بلحية مستعارة — ولحي القراعنة كانت كلها مصطنعة ! — وصلر منبسط مقلطح . وعرفتها أيام سلكت المرأة في أوروبا طريقها الوعر نحو مزاحمة الرجل ، فجزت شعرها « آلا جارسون » ، وفلطححت صدرها ، وكشفت عن ركبتيها ، ودخنحت السجائر في المحال العامة ، لعلها تدخن يوماً الغليون والسيجار . ومع أن جداتنا كن يدخنن الشبك والشيشة ، إلا أنهن التزمن خدورهن . أما حفيداتهن فقد خرجن إلى الدنيا يسعين في مناكيبها ، مهندسات وزراعات وجيلوجيات وخيرات في الدم والذرة وعاملات شريفات . وإني لأستغرب أن لا تعني سيداتنا المتحورات بأمر أول سيدة في العالم زاحمت الرجل ، وغلبته ، وذلك منذ نحو ثلاثة آلاف عام . تلك كانت سيدة الدير البحري ، وصاحبة أعظم مسلات الكرنك ، وأجمل حجراته .

وقد يفتخر لي أيضاً أن توحى كتابتي عن الملكات ، من طرف خفي ، بسخرية من الملوك وصناعة الملك . إذ يبدو لي أن السيدات كن ، في الأغلب ،

أعظم نجاحاً في حرفة الملوكية من كثير من الرجال . وسيداتي الثلاث ، إذا جمعنا شملهن على بلقيس ، وزينوبيا - التي استولت على مصر بعض الوقت أيام حكم الرومان ١ - واليزابث الأولى ، وكاترين الثانية ، وماريا تيريزا ، يؤلفن باقة من الإناث حكمت وتملكت وساست الرعايا أحسن سياسة ، حتى أولئك اللاتي كانت مغامراتهن الغرامية سلسلة من الفضائح ، كبرت وتضاعفت بحكم المركز السامي لصاحباتها ، وخفت أو تضاءلت أهميتها ، عندما لم يكن لتلك المغامرات أثر في توجيه السياسة ، ولا في شئون الحكم .

تندر الخليفة العباسي بالمصريين إذ ولوا عليهم امرأة ، وأبدى استعدادة لإيفاد رجال من بغداد ، إذا كانت الرجال قد عزت في الديار المصرية . ويشاء القدر أن يرد سخرية هذا الخليفة إلى نحره ، بعد مضي سنوات قلائل ، عندما انقض على دولته ملك المغول هولاكو ، يدمر ملكه وحاضرة ملكه ، فلا يجد رجالاً يدفعون عنها الكارثة . . وإذا مصر تجدد في رجالها ، وفي الممالك الذين ولوا عليهم السيدة أم خليل ، جيشاً قديراً على صد المغول وضربهم في عين جالوت ، بعد أن كسروا من شوكة فرسان الصليب ، وكنسوم من الأرض المقدسة ، وبعد ما اقتحم مدينة دمياط عليهم لويس التاسع وفرسان الداوية وتقدم إلى المنصورة أزاحوم عنها ، وكسروهم في فارسكور ، وأسروا الملك وأمراء جنده ، من لم يرد منهم مورد الردى . ولعلها فرصتي الوحيدة هنا ، أكفر فيها عن سبتي في التحدث عن الملوك ، حتى ولو كانوا ملكات ، أن أحدد حظ الشعب المصري من أحداث تاريخه . وعجب كله عجب أن يحرص التاريخ على أن يحصى علينا العشرين والثلاثين ألف جنازة التي كانت تخرج كل يوم من باب القرافة إبان الوباء ، بل أن يسجل اسم الطاعون المعروف بقارب شيخه ، الذي أخذ المليح والمليحة ، ويتحفنا هنا أبو المكارم ابن إياس بمحفوظاته من الشعر السخيف ، فيروي : قيل مات في هذه السنة [ مجاعة سنة ٦٩٥ هـ ] من الناس نحو الثلث :

يا طالبا للموت قم واغتم      هذا أوان الموت ما فاتا  
قد رخص الموت على أهله      ومات من لا عمره ماتا

وأن يتمطي التاريخ في وصف أكل الناس للكلاب والقطط والفيران والحمير

والبغال ، حتى ليبلغ الجوع بهم أن يخطف الناس بعضهم بعضاً ، ليتبلغوا بهم في سنى المجاعة .

يحرص التاريخ على وصف خروج المئات والآلاف من ديارهم هرباً من السخرة والعونة ومقاول الضرائب . ويذكرنا بضرب الكرباج ، وسوق المجندين كالأنعام تحت سياط الباشبوزق ، وتوسيط الناس وتكليبهم وشنقهم وقطع رؤوسهم ورؤسهم للحيوانات الضارية ، سواء حدث هذا أيام الاضطهادات الدينية في عهد المسيحية الأولى ، أو على طوال حكم المماليك والعثمانيين . ثم لا يكاد التاريخ يذكر إلا القليل عن حياة هذا الشعب اليومية ، في أوقات الرخاء أو في الأوقات العادية ، إلا أن نطالع ذلك في « ألف ليلة وليلة » ، أو نشاهده منقوشاً على حيطان المقابر المصرية القديمة . ولولا الشيخ تقي الدين المقرئى وابن تغرى بردى ، وابن إياس ، والخبزى ، لما تصورنا هذا الشعب المصرى إلا في بؤسه وذله وشقائه .

لأن تصور الشعب المصرى على طول تاريخه الإسلامى — والفضل لمن ذكرت من أصحاب الحوليات العظماء ، والمقرئى بنوع خاص — عندما أقف بحى الأزهر ، أو تحت الربع ، أو أجلس بباب حلاق بالحسنية أو بالحنى ، أشاهد بيع البسوسة يرجو جاره أن يحرس صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصل فى سيدى البيومى ، أو فى جامع الأشرف برسباى ، ويعود الرجل بعد هنية مهمل الوجه ، نظيفه ، وزبيبة الصلاة ، وقد زادت سميراً . أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور ، وفى المدن : بائع الحلوى والحراط والسروجى والبزاز والطار وصانع الخيام . وعندما أستمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية ، أستعيد أيام طفولتى بينهم ، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمحة المهدبة ، من أمثال : « يفتح الله » ومعناها : السعر الذى تعرضه غير مقبول . و « صل عالى » ، أى فلنبداً فى الفصل . و « على الطلاق » ، أى لاتصدق كلمة مما سأقول ! و « يا فتاح يا عليم » ، أى أول القصيدة كفر ، وبعدها ويثاك ، وربنا يكفيننا شرك . و « باسم الله » ، أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى ، ثم بتشجع عندما ترفض دعوته ، فيقول « حلفت عليك » ، ومعناها : أيها الأريب لقد فهمتني ! و « اتوكل على الله » ، يعنى أغرب عن وجهى من غير مطرود ، و « دمطور إيه يا هم الله

يخلبك » ، يعنى شعبنا من هذا الكلام وأمثاله .

هذه لغة شعب فيلسوف مسلم يتكلم « بالكناية » ، وينادى على سلعته بصور شعرية : « يا لى طاب ، وطلب الأكال ، يا بيض الحمام ، يا ناعم ! » . وبعض هذه النداءات قديم ، وقد اكتشفت المناداة المعروفة على الكتاكيت : « ملاح الملاح » ، فى القرن التاسع الهجرى ( عام ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م ) . فابن إياس يذكر وفاة بدر الدين الدميرى ، المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية : وكان فاضلاً عارفاً بصناعة التوقيع ، وكان موقع اللست ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة ، طلق اللسان فى حق الناس ، فكانت الشعراء تهجوه كثيراً :

قد عيل صبرى من خطب ألم به      عقلى وطرفى مذهول ومبهوت  
فإن غدا الديك سلطاناً فلاعجب      فقد غدا قاضياً فى الناس ككتوت

فيرد الأديب على بن برد بك ، مدافعاً عن القاضى ككتوت :

إن الدميرى صديقى فلا      أسمع فيه قول واش ولاح  
ولا أرى كالأغير تقيحسة      بل هو عندى من ملاح الملاح

شعب علمه ظالموه الخنروصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة . لما عرفت ، والله ، شعباً فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى حلقة التلاعب بالألفاظ ! ولكن الكيل قد يطفح أحياناً ، فإذا بالشعب المصرى يرفع صوته بالهجاء الصريح :

ياشا يا باشا      يا وش القملة  
من قال لك      تعمل دى العملة

أو « إيش حا يجيبك من تفلىسى ، يا برديسى ! » أو « يا رب يا مشجلى ، اهلك العمانلى ! » .

وإذا أردت أن تعرف المصرى فى صراحته ، وشباب تاريخه ، قبل أن تنقله قرون الظلم من التصريح إلى التلميع ، فاقرأ قصة « الفلاح الفصيح » فى الأدب الفرعونى ، لتسمعه يرفع عقيرته بالشكوى من كبار موظفى الدولة ؛ وأنا أقدم خلاصة وافية لها فى فصل من فصول هذا الكتاب .

وأتصور الشعب المصري في الريف كما هو اليوم وكما سيكون غداً وبعد غد :  
ينظر إلى المدينة كأنها مالكته ، وصاحبة الحق الأول فيه ، لا يتازعها حقها ،  
وكأنه لم يخلق إلا ليغذي المدينة بقمحه وفوله وعسله وبصله وسمكه ولبنه .  
ولاً فإذا يصنع بكل هذا الخير أغدقته عليه البهائم ؟ وكما أن الشعب المصري القديم  
اعتقد بأن ملوكه من صلب الأرباب ، فقد رضى بأهل المدينة كأبناء عمومة ، ولو من  
بعيد ، للآلهة ! وقد تبادلته المدينة اليوم بشيء مما تصنع الحضارة . ولكن ماذا كانت  
تقدم له المدينة في الزمان القديم ؟ حتى ولا هدمته البيضاء والسمراء والزرقاء فيما أظن .  
لذلك تقول الاشتراكية بأن تطور المجتمع الزراعى لا يحدث إلا في بطن شديد ،  
وأن العمال هم قوات الاشتراكية الزاحفة . فالعامل في المدن سريع الإدراك لحظه  
من الحياة ، حاضر الثورة على حاله . أما الفلاح ، فما حاجته إلى النظريات وهو  
القاتل : هذه الأرض ، وما تنبت ، رزق الخالق لمخلوقاته من ناطق وصامت ،  
ليس لي أن أدعى فيها حقاً أكثر مما قدر لي رب الرزق والعطاء . أما العامل فما  
أسرعه إلى التذمر والشكوى ، ولسان حاله يقول : وماذا قدم صاحب المصنع غير  
المال لشراء الآلات ؟ ومن أين حصل هذا المال إلا من عرق أمثالي ؟

أخشى أن أكون تعديت حدودى في هذا التعقيب على حديث الملكات ،  
إنما أردت أن نعرف ، ولو مرة ، ماذا كان حظ الشعب المصري من ثروة بلاده  
على طول تاريخه ، وبلوغ هذا بعد من أصعب الدراسات ، لحاجتنا إلى الوثائق ،  
وهذه ، إذا زاد عددها عن حد معقول — كما هو الحاصل في دراسات التاريخ  
الحديث — استعصى فحصها ، وإذا كانت قليلة ، كان الاعتماد عليها فيه الكثير  
من الخدس . وعندما يتحدث المؤرخون عن اقتصاديات بيزنطة ، أو جمهورية  
البندقية أو بيت المدينتى ، فكل ما أرجوه لك هو التوفيق في استيعاب ما يزعمون ،  
ونصيحتي أن لا نحسن الظن كثيراً بتقديرات أولئك الجهابذة ، وخير لك أن  
تتحصن بالشك والريبة فيما يقولون .

أما إذا حاول مؤرخ أن يتحدث عن اقتصاديات مصر القديمة ، فثله مثل  
ذلك العلامة الموسيقى الذى راح ينفخ في مزمار القراعنة ، ويقيس أطوال أوتار  
قيثاراتهم ، وبعد خروق ناياتهم وشباباتهم ، ويفحص نقوش مقابرهم ، ليحدثك



حديث الواصل عن أسلوب تأليفهم الموسيقية في الدولة الحديثة ، ويقارنها بموسيقى الدولة القديمة ، أو بمؤلفات فاجنر وديبوسى !

إنما عثرت لك على حاسبة بسيطة من صدر الدولة المملوكية ، في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين ، في أواخر القرن السابع الهجرى ( ٦٩٧ هـ ) ، وتقول هذه الحاسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء والإطلاقات ، وعشرة للجند .

هل تحسن الجمع ؟ أظن أننا لانخطئ في الحاصل هنا ، فهو أربعة وعشرون قيراطاً . أين منه نصيب الشعب المصرى ؟

احفظ هذه الحاسبة البسيطة ، فإنها لم تجئ من برما ، وإنما نقلتها عن ابن إياس ويمكن الاطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى ، من عهد مينا حتى ... فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية في أواخر القرن الماضى .

وقد تتغير أرقام المعادلة ، بعدئها الولاة والملوك والسلاطين ؛ وقد يدخل فى الحاسبة الباشا العثمانى ، والباب العالى ، والاستراتيجوس الرومانى ، والحواجبات ، وصرة الأراضى المقدسة وغلاها ، ودينون الحديو إسماعيل ؛ ولكنها تظل معادلة صحيحة ، طرفها الثانى لا يتغير ، فهو هو أربعة وعشرون قيراطاً . وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على عمر الدهور : البساطة والدقة . معادلة الاقتصاد المصرى ، والمالية المصرية ، تدخل فى حكم قوانين الطبيعة : كالنظرية الذرية ، وقانون تمدد الغازات ، والجاذبية الأرضية ؛ هى شىء يعادل ، فى دقته وثباته ، حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد .

ولكن أين نصيب الشعب المصرى من هذه المعادلة ؟ لا عليك إذا أضفت إليها س . وما دام المصرى يأكل ، ولو من نخشاش الأرض ، ويلبس ، ولو هدمة زرقاء ، ويشرب الماء ، ولو بطينه ، من نهر قال له المستكشف الكبير حايد ابن عمران إنه رآه بالعينين التى فى رأسه ينبع من الجنة ، فلا بد أن يكون للمصرى نصيب فى خير بلاده ، خارجاً عن الأربعة وعشرين قيراطاً ، رمزنا إليه بحرف السين . ثم توصلنا بعد جهد جهيد ، واستعانة بآلة الكثرونية حاسبة ، إلى معرفة مقدار س هذه ، وإليك البيان :

كان أهلنا ، أيام الاحتلال البريطاني والاستغلال الأوروبي والليثاني ،  
يجيبوننا على سؤالنا : لماذا اختص الله الحاجات بكل هذا الخير ؟ تقول الجدة ،  
أحكم الحكماء : « لم الدنيا يا بني ، ولنا الآخرة » .

هل عرفت نصيب الشعب المصري من خيرات أرضه ونيله وشمسه ؟  
إنه القيروط الخامس والعشرون ، ومكانه . . . مملكة السماء !



## الضياء

قبطاريم بن قبطيم

يرفع الستار

مرملة بنى سلامة

أنوبيس يرقص

الفلاح الفصيح

وقفه الحائر

ثلاثة آلاف عام

الصفحات الأخيرة

الحضارة المصرية





## قفطاريم بن قبطيم

عرفنا حال مصر بعد اندحار جيشها المملوكى فى موقعة الريدانية وسبيل علان ،  
والعوادى التى جرت عليها ، ورأينا إلى أى درك انحطت البلاد ، وسامها العثمانيون  
والمماليك والدلاة والأرتؤد العذاب والحسف والهوان .

ونحب أن نسأل : ماذا كان يذكر أجدادنا ، الذين عاشوا هذه الضعة ،  
بل ماذا كان يحفظ أجدادنا كلهم من تاريخنا منذ دخول المسيحية مصر ، وبماذا  
كانت توحى إليهم أطلال ذلك التاريخ القديم ؟

هل طالعوا أو سمعوا بما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، ويوسيفوس  
اليهودى ، عن مصر القديمة ، ديانتها وآثارها ؟ لم يطالعوا شيئا من ذلك فى الأغلب .  
أى أن أوربا كانت تعرف عن مصر القديمة أكثر كثيرا مما كان يعرف أجدادنا  
الأبعدون والأقربون . . بل ما تزال أوربا تسبقنا فى كل شئ ، حتى فى دراسة  
تاريخنا القديم والحديث .

أى أن المصريين ، منذ العهد المسيحى ، نسوا تاريخهم ، أعجم صفحات من  
أيامهم ! ولا نعلم متى فقدوا الصلة بمحضارهم الفرعونية ، ومتى عجزوا عن قراءة اللغة  
القديمة . وإن كان الغالب أن مقاومتهم للهلينية ، علومها ومعارفها ولغتها ،  
واستعمالهم مع ذلك الحروف اليونانية فى كتابة لغتهم القديمة ، ثم اعتناقهم المسيحية ،  
وتغاليهم فى تطبيق مرسوم تيودوسيوس بإيقاف العبادات الوثنية ، كل هذا انتهى  
بهم إلى الانفصال عن التاريخ القديم . ومن السهل أن نتصور سر قراءة الهيروغليزية  
والهيراطيكية والديموطيكية ، وقد دفن مع آخر الكهان والكتاب والعرفاء ، الذين  
احتفظوا بديانتهم العتيقة ، وماتوا عليها ، وعفت بانقراضهم .

ومعنى هذا ، من باب أولى ، أن ينسى المصريون المسلمون تاريخهم القديم .

وبذلك يجمع سكان وادى النيل على الاكتفاء من ذلك التاريخ بما ورد في كتبهم المقدسة . قال المستشرق فون هامر ، في كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« أما من جهة عجائب مصر ، فإن أكثر الناس تمدنا ، من الأتراك والفرس والعرب ، لم ينظروا إليها بالعين التي يراها الأوربيون وقدماء اليونان والرومان . فبينما يعتبر الأوربي مصر المنبع الأول للعلوم والفنون ، ومهدا للهندسة وتخطيط البلدان والعمارة والزراعة والكتابة والملاحة ، وبينما هو يحترمها ويقدرها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظم السياسية والكهنوتية والرهوز الدينية ، وبينما هو يعجب بآثار عمارتها وببهاكلها وبمدافنها وأهرامها ومسلاتها وتمائيلها ، وبينما حب العلوم بحمله على مطالعة نصوصها السرية المنقوشة على ذلك الكتاب الحجري ، الذى فتحت صفحاته منذ آلاف من السنين ، وأقيمت عند أعلى شلالات النيل ، منحدره إلى الوادى الخصيب ، نجد أن الشرق لا يرى في تلك الهياكل والقصور الملكية القديمة ، ولا في تلك التماثيل الفخمة ولا في أبى الهول ، سوى مخايل سحرية لكنوز مدفونة ، تقوم التماثيل والصور على خفارتها . ولا يجد في تلك الكتابة الرمزية إلا طلاس مخفى على الناس طرق استخراج الذهب ، واستكشاف المطالب الخبأة فيها . ولقد شاركت أوربا أهل الشرق في الاعتقاد بتلك الأوهام زمنا طويلا ، وسألت تلك الأحجار عن سر حجر الفلاسفة ، وأنكرت المعانى المسترة وراء سر الكيمياء التى نقلتها العصور الوسطى من مصر .

« على أن تعاليم الزراعة التى تحيل ماء النيل ذهابا قد حلت تلك القضية حلا طبيعيا ، فإذا لم ير الشرقيون في الفراعنة والبطالسة إلا أبطال رموز وأسرار ، ولم يمكنهم أن يفقهوا عقائد مصر القديمة ، وإذا استغلقت عليهم الكتابات المطوية في ملفات البردى ، فإن شرائع الأنبياء قد نزلت فجلت لأعينهم أرض مصر مجللة بأكاليل من النور ، غاب إشعاعه عن أهل أوربا فلم تشاهده عيونهم إلا قليلا .

« فمصر مقدسة عند أهل الشرق ، لا بذكرى يعقوب وأولاده فحسب ، ولكن بما ورد عن صلاحها في كتاب الله ، وأحاديث الرسول . فالمسلم لا يعرف سيزوستريس ولا أوزيماندياس ، ولا فراعنة عنده إلا فرعون الذى ملأ يوسف أهراءه ، وفرعون الذى ابتلعه مياه البحر الأحمر . ومع ذلك فقد سمع بينة الأهرام . وهو في الحقيقة

يسميه بأسماء تختلف تمام الاختلاف عن الأسماء التي يعرفهم اليونان بها ، وهو يحل منهم ذكرى هرمس بصفته مبدعا للكتابة والهندسة والعمارة ، ومنظما لطقوس الكهنة وشرائع الأسرار ، وترجمانا بين الأرض والسماء .

ولو قد توفر المصريون الأقباط والمسلمون على مطالعة ما جاء عن أجدادهم في كتب هيرودوتس وديودورس الصقلي وجرجس سنسيلوس واسترابون وبلوتارك وبوليوس وبوسيفوس ، لعرفوا بعض هذا التاريخ ، وإن اختلط بالخرافات والأساطير ، ولفهموا على الأقل ما فهمه اليونان والرومان ، ومن جاء بعدهم ، من آثار مصر . ولكن سوء الطالع قضى بأن لا يتعدى الأقباط إلى أبعد من تاريخ المسيحية بمصر ، وأن لا يعنى العرب في عهد الحضارة الإسلامية الكبرى بغير ما جاء في كتب اليونان خاصة بالفلسفة والطب والعلوم . وأن يبقى التاريخ والأدب بأنواعه شيئا مجهولا عندهم إلا في أقله . وبذلك قصرت معارف المصريين جميعا عن أن تبلغ من تاريخهم مبلغ ما عرفه الإغريق والرومان .

ولقد حاولت أن أعرف من كتب المسيحيين ما تذكر عن تاريخ مصر القديم فلم أجد إلا النذر اليسير فهذا العلامة غريغوريوس أبو الفرج هرون المعروف بابن العبري لا يتحدث عن تاريخ مصر البتة ، مع أنه يعنى بتاريخ العالم منذ الخليقة ، ويكتب تاريخ الدول اليونانية والفارسية والمغولية والإسلامية ، ويترجم لعلماء المسلمين والنصارى ، ويختص بعنايته تراجم الأطباء . وكل ما تعلمته من ابن العبري هو أن هرمس طرسيميجسطس — أى المثلث الحكمة — هو إدريس العرب ، وربما كان أيضا أخنوخ بن منوشالح ، وأن معلم هرمس كان أغاثاديمون المصري ، وأن أسقليادس الملك واحد ممن أخذ الحكمة عن هرمس . كما عرفت أن مايندروس استنبط نوعا من الشعر يسمى « قوموديا » ( كوميديا ) ونوعا آخر يسمى « طراغوديا » ، وأن الملكة البطليموسية المشهورة بنطق باسمها « قلاو فطرا » ، ومعناه « الباكية » على الصخرة .

ولم ألك أكثر توفيقا في قراءة كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » تأليف البطريق أفثيوس المكنى بسعيد بن بطريق [ باتريك ] ، وقد كتبه لأخيه عيسى يرد على مذهب الطبيعة الواحدة ، بعد أن يسرد التواريخ الكلية من عهد آدم

حتى سقى الهجرة الإسلامية .

وكل هذا غير مفهوم ولا معقول ، فإن تاريخ مصر القديمة لا يمكن أن يكون فص ملح ذاب بين أيدي المسلمين والأقباط . والحقيقة أنه موجود معروف متداول عند غالبية من أرخوا لمصر من الكتاب العرب . وما عليك إلا أن تتابع ما يقوله أولئك المؤرخون بعد التحليقة بقليل ، قبل الطوفان وعقب الطوفان ، لتكتشف لمصر تاريخاً هو العجب العجيب ، أقدم لك خلاصته ، لتكون على علم تام بالصورة التي كانت في أذهان آبائنا منذ العهد المسيحي حتى الأمس القريب عن أجدادنا العظماء .

فصر الفرعونية عند مؤرخي العرب كانت بلاد السحر والعرافة والكهانة . وقد سمع أولئك المؤرخون أن اليونان يعترفون بما للمصريين عليهم من فضل ، فيقولون بأننا عرفنا هذا عن طريق حكماء مصر ، وتعلمنا ذلك على أيديهم . وأن كهنة المصريين أسسوا علومهم على النجوم ، وأن النجوم علمتهم الأسرار ، وكشفت لهم عن الحجب ، وأن الكهنة أقاموا الشرائع العادلة ، وصنعوا الطلائع المشهورة ، ورسموا الصور التي تبرجم ، ونحتوا التماثيل التي تتحرك ، وتخرج الأصوات ، وأنشأوا البرابي والأهرام ، ونقشوا على جدرانها أسرار الطب والعلوم .

وكانت مصر مقسمة في أيامهم إلى خمسة وثمانين كورة ، خمسة وأربعين بالوجه البحرى ، وأربعين بالصعيد ، ويرأس كل كورة كبير الكهنة .

وكان اسم مصر « إمسوس » [ إجبتيوس ؟ ] ، ويتولى عرشها ملك كاهن اسمه عنقام من نسل عرياق بن آدم . وعاش عنقام هذا قبل الطوفان وتنبأ به . وتنسب إليه كتب الأقباط ، التي تحكى سير ملوكهم . وفي أوراق الأقباط هذه ، حديث قونية ، الكاهنة التي تجلس على عرش من نار ، إذا جاءها طالب الحق يسعى ، وكان صادقاً ، اخترق إليها النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً .

وأول من حكم مصر ، قبل الطوفان ، مصرام بن مراكيل بن داويل بن عرياق ابن آدم . خرج مع بضعة سبعين من نسل عرياق يبحثون عن مكان يقيمون فيه بعيداً عن الناس ، فبلغوا نهر النيل وساروا بمحاذاته ، حتى وصلوا إلى بلاد الحرث والزرع ، فاستقروا بها ، وهم الذين شادوا القصور ، وأقاموا الآثار العجيبة .

وأطلق مصرايم اسمه على حاضرة البلاد ، وبني غيرها مدناً كثيرة ، أسكن فيها الناس . وأخذ هؤلاء يحفرون الترع ليحلبوا ماء النيل إلى محلاتهم . أما قبل ذلك فكان النهر يجري على غير نظام ، في بطائح وسيالات وأخاديد .

وفي السنة العشرين بعد المائة من حكم مصرايم ، أمر فأقيمت الأبراج وكتبت على أسوارها أسرار الحكمة ، وقسم الملك بين بنيه ، فأعطى الغرب لنقراوس ، والشرق لسوريد ، وولى ابنه الأصغر المسمى باسمه ، مصرايم ، على مدينة اسمها يربيان .

وحكم مصرايم الكبير مائة وثمانين عاماً ، ولما مات حنط جثمانه بدهان المسك ، ووضع في تابوت من ذهب ، ومعه كنوزه وتماثيل من ذهب . وكتب تاريخ موته على القبر ، ثم صنعت الطلاسم لإبعاد الزواحف والأوباء ، وكل من حاول نبش قبره ، من إنسان أو حيوان .

ومن ملوك مصر خصليم ، وكان أول من بنى مقياساً للنيل ، وجمع لبنائه العلماء والمهندسين ، فأقاموا بيتاً من زجاج على الشاطئ ، وفي وسطه حوض ماء من صفر ، وعلى حافة الحوض وضعوا عقابين من نحاس ذكراً وأنثى . ففي بدء الفيضان كانوا يجتمعون أمام تلك الدار ، ويدخل الكهنة بحضور الملك ويتلون التعاويذ ، حتى يصفر أحد الطائرين . فإن صفر الذكر جاء النيل عالياً ذلك العام ، وإن صفرت الأنثى فقل يا رحمن يا رحيم !

ومن ملوك مصر سوريد بن سهلوق ، وهو الذي بنى الأهرام التي تنسب إلى شداد بن عاد . والأقباط ينكرون أن أهل عاد دخلوا بلادهم ، بل وينكرون دخول العمالقة ! وبنها سوريد توقيا من الطوفان الذي تنبأ به الحكيم فليمنون — ولعله نقل ذلك عن الملك عنقاص من نسل عرياق بن آدم ؟ — وكذلك أنشأ البرابي والآثار الأخرى ليحفظ فيها جثمانه وجثمان أهله ، وجميع ما تحتوى خزائنه . وأمر فنقشت على الحيطان والعمدان أسرار العلوم وأسماء النجوم والنباتات وخواصها ، وطريقة صنع الطلاسم . وبني الأهرامات من الصوان الذي جرى به من أسوان ، وكانت أبوابها في سراديب تحت الأرض ، وأقام عليها الطلاسم ، وأودع بها تاريخ الملوك وحكمهم ، وما هو مكتوب لمصر في لوح القدر حتى آخر الزمان .



ويقول الأقباط الذين قرءوا ما كتبه على الأهرام إنه يتحدى الأجيال بقوله :  
« أنا الملك سوريد ، قد بنيت هذه الأهرام في ستين سنة ، فن أتى بعدى ، ويزعم  
أنه مثلى ، فليهدمها في ستمائة عام ، علما بأن الهدم أهون من البناء » وقيل بأن  
سوريد هو الذى بنى البرابى فى قفط وإخميم .

وعندما جاء المأمون إلى مصر ورأى الأهرامات ، أراد أن يهدمها ليرى ما بداخلها  
فمعجز . ثم حاول فتحها ، وأجرى بها الفتحة الموجودة إلى الآن ، واكتشف أن عرض  
الحائط عشرون ذراعاً ، ودخل رجاله إلى الهرم فانحدروا فى سرداب ، وعاد بعضهم  
ولم يعد الآخرون ؛ وقال من نجا منهم بأنهم رأوا بالداخل وطاويط فى حجم النور  
والعقبان .

وأغرق الطوفان مصر فى زمن الملك فرعان بن ميسور ، وبلغ ارتفاعه ربع الهرم ،  
وما زال أثر الماء يرى عليه إلى اليوم .  
ومع أن الفرس والهنود ينكرون بأن الطوفان شمل الأرض كلها ، إلا أن المؤرخين  
أجمعوا على أنه أغرق الدنيا بما فيها .

وأول من حكم مصر بعد الطوفان كان مصرام بن بيسر بن حام بن نوح .  
وتزوج بنت الحكيم فليمون ، فأنجب منها قبطيم . وأكل قبطيم دينه فى شرح شبابه  
— وما يكاد يبلغ التسعين عاماً — فرزق بقفطاريم وأشمون وأتريب وصا . وبنى  
مصرام مدينة مافة ، وهى منف . وكشف فليمون للملك عن كنوز مصر الخبوءة  
قبل الطوفان ، وعلمه قراءة الكتابات التى بالبرابى . وأنشأ فليمون على البحر المالح  
مدينة رقودة [ راكوتيس ] ، التى قامت الإسكندرية إلى جانبها فيما بعد .

وقسم مصرام الملك بين بنيه : من أسوان إلى قفط لابنه قبطيم ، ومن قفط إلى  
منف لابنه أشمون ، وولى أتريب على الجوف ، وأقام صا ملكاً على الغرب حتى  
إفريقية .

وحكم قفطاريم بعد قبطيم ، وبنى أهرام دهشور ، وأسس مدينة دندرة .  
وكانت مدة حكمه أربعمائة عام . وهو الذى أقام حيال قفط منارة يرى من أعلاها  
البحر الشرقى كله . وفى عهده اكتشف إبليس اللعين أغلب الأوثان التى أغرقها  
الطوفان ، وأعادها إلى أمكنتها فى الهياكل . وبنى قفطاريم لنفسه قبراً فى الجبل

الغربي ، على مقربة من مدينة إرم ذات العماد ، حفره في بطن الجبل قاعات كبيرة امتلأت بالكنوز ، وتحيط بيها وسطها ، كسي سقفه بالجواهر . وأجلس الملك محنطاً وسط البهو على عرش يتلأأ ، وحوله آلاف من أواني الكافور . ووضع أمام باب القبر صنيان عظيمان من النحاس ، يحمل كل منهما سيفاً ، وأمامهما مصطبة يطؤها الداخل إلى القبر ، فتتحرك ذراعها التمثالين ، وتقطع الداخلين بالسيوف .

وبنى مدينة بمصر على اسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنماً من صفر ، فكان إذا بلغ تلك الأبواب غريب ، ألقى عليه النوم ، فلا يفتيق إلا أن يأتيه واحد من أهل المدينة ينفخ في دبره . وإن لم يفعلوا ذلك ، ظل الغريب نائماً حتى يموت .

ويولى البودشير بعد قفطاريم ، وكان عالماً فاضلاً في الطلسمات والكهانة والسحر ، وله أعمال عجيبة ، منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، وأقامها في الفضاء ، فكان لا يمر بها وحش ولا طير إلا وتسمر في مكانه ، لا يستطيع حراكاً حتى يؤخذ باليد ، فشبت الناس في أيامه من لحوم الوحش والطير .

وفي زمانه قام هرميس على خدمته ، فأرسله للكشف عن منابع النيل ، وصنع الطلاس هناك .

وفي أواخر حكمه ، اختفى البودشير عن الناس ، وأقام في السحاب ، ثم ظهر لقومه عند طلوع الشمس وهي في برج الحمل ، ونادى على الجند ، وأمرهم بتولية ابنه عديم ، وكان عديم جباراً عنيداً ، لم يحكم إلا مائة وأربعين عاماً ، وهلك في العام الثلاثين بعد التسعمائة من عمره . وخلفه شداد وهو غير شداد بن عاد . وشداد هذا هو باني معبد أرمنت ، كما أنشأ معبداً مماثلاً بمدينة أنصنا . وهو أول من خرج إلى الصيد ، فاستألف الكلاب السلوقية من الذئاب ، ومات في سن الزهور ، وعمره أربعون وأربعمئة عام . وكانت مدة حكمه قصيرة ، لم تزد على التسعين عاماً .

وخلفه منقاوس الذي قسم مغل مصر إلى أربعة أنصبة : ربع للملك ، وربع للجيش ، وربع لاستصلاح الأرض وإقامة الجسور والقناطر ، وربع للترع ، وربع للطوارئ . وكان لإيراد مصر في زمانه ثلاثة ومائة مليون دينار ، وكانت البلاد

مقسمة إلى ثلاثة ومائة كورة . ولكن كور مصر الآن خمسة وثمانون فقط .

وورثه ابنه متاوس ، وهو أول من عبد العجل في مصر .

ومن ملوك مصر أشمون بن قبطيم ، وكان من أعظم ملوك مصر ، على قول القبط ، وحكم ثمانمائة عام ، وكان ملكه قد وقع في أيدي أبناء عاد في السنة السبائة ، ولكنهم غادروا البلاد ، بعد أن أقاموا فيها تسعين عاما . وفي عهد أشمون أنشئت مدينة الينسا .

وتولى بعده ابنه مناقبوس ، وكان أول من صنع الميزان ، ثم مرقورة وهو في كتب القبط أول من استألف الأوابد ، وروض السباع ، وركبها ذلولا . وتولى ابنه بلاطس وكان طفلا ، فأدارت المملكة أمه مرهبة ، وكانت امرأة حازمة عاقلة . وانتقل الملك إلى عم بلاطس ، وهو أتريب .

ومن ملوك مصر طوطيس . ويقول القبط إنه أول الفراعنة بمصر ، وهو الذي حاول اغتصاب سارة زوجة إبراهيم ، وكان إبراهيم ، حين وفد على مصر ، ادعى أنها أخته . وكلما هم بها الفرعون وقفت ذراعه وتيبست ، فيطلب إلى سارة أن تدعو ربها فيبراً ، ويعود إلى مراودتها عن نفسها ، فتجف ذراعه ، وهكذا دواليك حتى يتوب ، فيقدم سارة إلى ابنته حورية ، فتتعلق حورية بها ، وتهدى إليها جارية قبطية اسمها هاجر ، هي أم اسماحيل .

وبعد طوطيس حكمت حورية ، وهي التي وجه إليها ملك سورية العماليق جيشاً بقيادة جيرون . ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن الذي غزا مصر حينذاك هو الوليد بن دومع ، وأن الوليد هو الذي أعاد بناء الإسكندرية بعد أن دمرها أهل عاد . وتجيء هنا حكاية الراعي والبحنية البحرية التي أوردت نصها في كتابي : « حديث السندباد القديم » .

وبالوليد بن دومع تبدأ أسرة العماليق بمصر ، ويخلفه في الحكم الريان بن الوليد ، أسلادس ، وتسميه القبط نهراوس ، وكان طويل القامة جميل الحلقة ، عالماً بالطلسمات ، بدأ حكمه بالعدل والقسطاس ، ثم خضع لروح الشر ، وانغمس في الفجور ، وترك الحكم لواحد من رجاله اسمه قطفير ، وهو الذي يعرف بالعزير ، وكان حاكماً عادلاً نزيهاً . قال الواقدي إن الريان بن الوليد هو الذي بنى

قصر الشمع [ حصن بابليون ] ولم يزل القصر عامراً ، حتى خربه بختنصر ، عندما دخل مصر . وأقام القصر خراباً نحو خمسمائة سنة ، لم يبق منه إلا الرسوم . فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس ، وجعله بيتاً لعبادة النيران . قال وهب بن منبه إن الريان كان مؤمناً على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ، وكان يكتم إيمانه خوفاً من فساد ملكه . وفي أيام الريان ، بنى يوسف مدينة القيوم ، وقيل إنها بنيت بالوحى إلى يوسف على لسان جبريل عليه السلام . وعمرها يوسف في مدة يسيرة ، فلما نظر إليها الملك الريان ، صار يتعجب من سرعة بنائها ، وقال هذا كان يعمل في « ألف يوم » فسميت القيوم .

واستمر الريان حتى ملك ، فاستقر يوسف مكانه .

وبعد ذلك تولى على مصر ملك يقال له داروم ، وهو الفرعون الثالث . أما الفرعون الرابع عند القبط فهو دريموس ، وكانت له أعمال وصنائع عجيبة ، منها أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار - كالفرن الكهربائي في أيامنا - وعمل سكيناً منصوباً تأتي إليه البهائم فتذبح فيه نفسها من غير يد - الذبح الأتوماتيكي ! - وكل هذا من باب علم التارنجيات .

أما الفرعون الخامس فهو الذى يقال له ميلاطس بن دريموس ، وقد غرق في النيل ، وطفئت جثته أمام شطونوف .

والفرعون السادس هو فرعون موسى ، واسمه عند القبط طلما بن قومس . قال وهب بن منبه : كان اسمه الوليد بن مصعب ، وكان أصله من مدينة بلخ ، وقيل بل من أرض حوران من نواحي الشام ، وكان عطاراً فتجمد عليه دين ، فخرج على وجهه حتى دخل مصر . وكانت صفته أعور ، وطول لحيته سبعة أشبار ، مع قصر قامته وعرج ؛ ولم يزل قائماً بملك مصر حتى هلك في أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق . فعند ذلك طغى وتجبر ، وقال أنا ربكم الأعلى . قال وهب ابن منبه : عاش فرعون موسى أربعمائة سنة ، وهو مفرد بملك مصر ، ولم يزل في النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، غرقاً في البحر . قال إبراهيم بن وصيف شاه إن خراج مصر كان يجي في كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار .



ولم يزل فرعون قائماً بمصر حتى هلك وأغرقه الله تعالى ، لما خرج في طلب موسى وبني إسرائيل ، وقيل غرق في بركة الغرنديل المعروفة في التوراة باسم بحر سوف : قال القضاة : لما أغرق الله فرعون وقومه ، صارت مصر ليس بها أحد من أشرف أهلها سوى العبيد والأجراء والنساء ، فكانت المرأة تعتق عبدها وتزوج به ، والأخرى تتزوج بأجيرها . كنّ يشرطن عليهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنين ، وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط إلى اليوم ، لا يبيع أحدهم ولا يشتري حتى يستأذن زوجته - والواقع أن أمر هذا معروف في القانون المدني أيام الفراعنة - ثم إن النساء اجتمع رأيهن على تولية امرأة منهن ، يقال لها دلوكة ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة ، فملكوها . وأنشأت دلوكة على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحفظت قرى مصرى وضياعها بذلك الحائط ، وجعلت له حراساً ، وجعلت عليه أجراً من نحاس ، يحركها الموكلون بها إذا أتاهم طارق يخافونه ، فيسمعها من بالمدينة فيستعدون لقتالهم . وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن بأعلى بلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : إن دلوكة لما تولت على مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدورة [ تيودورة ] وكانت ساحرة عظيمة ، فعملت برها من التجارة في وسط منف ، وجعلت لها أربعة أبواب بالجهات الأربع ، وصورت بها في كل جهة صور الخيل والبغال والإبل والحمر والسفن والرجال . وقالت لدلوكة قد عملت لكم عملاً يهلك به من أرادكم بسوء من بر أو بحر . فكان إذا قصد إليهم أحد من الملوك الجبابرة ، وعجزوا عن قتاله ، يدخلون في تلك البريا ويقطعون رؤوس تلك الصور ، أو يفتنون أعينهم ، فهما فعلوا في تلك الصور ، يؤثر ذلك الفعل في عسكر الملك الذي يقصدهم . فامتنعت عنهم الملوك ، ولم يقدرُوا على بلادهم في أيام دلوكة . وأقامت دلوكة في ملك مصر نحو ثلاثين ومائة سنة ؛ ولم تزل مصر ممتعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت ، فلم يقدر أحد على إصلاح ما يفسد من تلك الصور .

قال المسعودي : لما هلكت دلوكة أنشأ من بعدها شخص من أولاد أشرف القبط يقال له دركون بن نكوطس ، فوقع الاتفاق من الجند على توليته ، فأقام في



الملك مدة طويلة وهلك ، فتولى من بعده شخص يقال له مرنئوش ، فأقام في الملك مدة ، وفي أيامه قدم بختنصر إلى مصر ، وجرى منه ما جرى من إخراج مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبي نساها ، ولم يترك بها شيئاً من الطلسمات والحكم ، وأخرب غالب البرابي التي كانت مودعة بها تلك الحكم . فلما خرب بختنصر مصر ورحل عنها ، أقامت بعد ذلك أربعين سنة خراباً ليس بها ساكن ولا متحرك ، فكان نيلها إذا زاد يفرش على الأرض ثم يهبط ولا يجد من يزرع عليه وينتفع . ثم بعد ذلك عمر مصر أخلاط من الأمم ما بين قبلى ويوناني وعليقي ، ولكن أكثرهم كانوا قبلاً ، وأكثر من ملك مصر الغرباء . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد ، إلى آخر من تولى منهم وهو . . . المقوقس .

وبذلك يسلمنا هذا التاريخ الأسطوري إلى ما نعرفه من وقائع الفتح العربي .

. . .

ولقد عجز المؤرخون فيما يبدو عن تفصي مصدر كل هذه الأساطير ، وقال البارون كارآدى فو ، وهو الذى ترجم إلى الفرنسية مخطوطة « مختصر العجائب » ، التى نقلنا عنها الكثير مما أوردناه ، بأن الغالب أنها كل ما بقى لدى الأقباط من تاريخ بلادهم .

وللمسعودى قصة فى « مروج الذهب » تؤيد كلام دى فو كل التأييد . قال إنه سمعها وهو فى مصر أيام الإخشيديين :

« وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه ، فى سنة ثيف وستين ومائتين ، أن رجلاً بأعلى مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، من الأقباط ممن يشار إليه بالعلم من لدى حداته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها . . . برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أمهانه ، فحمله فى النيل إليه مكرواً ، وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذ له سكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر إلى رجل دلائل الهرم فيه بيّنة ، وشاهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، ينهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن نفسه . فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل إليه اللبّد المأكّل والمشارب ، فأبى أن لا يتوطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء حمله معه من كعك وغيره وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء وهذا الملابس ، فإن أنتم ستموهما النقلة عن هذه العادة ، وتناول ما أوردتموه عليها من المأكّل والمشارب والملابس ، كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة . فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته . وأحضر له أحمد بن طولون من حضرة من أهل الديار ، وصرف همهته عليه ، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وليراداته ، وجواباته فيما سئل عنه . فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط . . . قيل له فما منتهى النيل في أعاليه ، قال : البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها ، وهي نحو الأرض التي الليل والنهار فيها يتساويان طول الدهر ، وهي تحت الموضع الذي يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » ، وما ذكرت فهو غير منكر .

« وسئل عن بناء الأهرام فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم ، إذا مات ، وضع في خوض حجارة يسمى بمصر والشام ، البحر ، وأطبق عليه ، ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الخوض فيوضع وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ، ثم يحنر له طريق في الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر ، ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت . فقيل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة ، وعلى أي شيء كانوا يصعدون وينزلون ؟ وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ، إن قلروا ؟ فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراقي كالدرج ، فإذا فرغوا منه ، نحتوه من فوق إلى أسفل ، فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لم يصبر وقوة وطاعة للوكهم وديانة .

« فقل له : ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ ؟ فقال :  
دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ،  
فغلب على أهلها القلم الروي ، كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها ، على حسب  
ما ولدوه من الكتابة بين الروي والقبطي ، فذهب عنهم كتابة آبائهم .  
« فقل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض ،  
مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهر في أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم  
في الأرض .

« فقل له : أنعرف في مصر مقاطع رخام ؟ قال : نعم في الجبل الشرقي من  
الصعيد جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمود وغيرها ، وكانوا يحملون  
ما عملوا بالرمل بعد النقر ، فمنها العمود والقواعد والرؤوس التي تسميها أهل مصر  
الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأواون بعد حدوث النصرانية  
بمئتين من السنين ، ومنها العمود التي بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير ،  
لا يعلم بالعالم عمود مثله ، وقد رأيت في جبل أسوان أخا لهذا العمود ، قد هندس  
ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحك ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن  
يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم . . .

« وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية ..  
وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه ، فأبى قبول شيء من ذلك ، فردّه إلى  
بلده مكروماً ، وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك . وله مصنفات تدل من  
كلامه على ما ذكرناه عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك .

هذه قصة لا شك في صحتها . ولست متأكداً إن كان الشيخ القبطي يقصد  
عمود السواري بالإسكندرية أم المسلة التي كانت قائمة قرب محطة الرمل ، والتي  
كانت تعرف بمسلة كليوباترة . لأنه رأى في أسوان أخا هذا العمود ، وكلنا نعرف  
المسلة التي لم تفصل من صخرها بقرب أسوان ، والتي ما تزال ترى بها كسراً ، يظن  
بأنه كان السبب في العدول عن استخراج تلك المسلة .

وقول المسعودي بأن للعجوز « مصنفات » معناه أن كانت لدى  
الأقباط كتب تحوى صفحات من التاريخ القديم ، يختلط فيها الواقع بالأساطير .

والواضح أن ما بقي لنا من واقعها نذر يسير . أما الأساطير فهي التي طالعنا بعضها في هذا الفصل . وإن ثقتي بأبي الحسن المسعودي ، وإعجابي بتفكيره المنطقي السليم ، وبأسلوبه العلمي ، بقدر ما وعاه زمانه ، تغريني بأن أزعج أني وضعت إصبعي في هذه القصة على مصدر من مصادر التاريخ الأسطوري لمصر . ولست أدعي أن يكون هذا الشيخ القبطي وحده هو مصدر ذلك التاريخ ، وإنما هو واحد من أسلافنا المسيحيين الذين احتفظوا أبا عن جد ، بأصداء تاريخنا القديم . عندى أن ما جاء في الكتب العربية تاريخاً لمصر الفرعونية — وقد درج أصحابها على أن ينقل بعضهم عن بعض دون تخرج — منقول عن الأحاديث التي كان يدلي بها أمثال ذلك الرجل .

قال المسعودي : « وأخبرني غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الإخيمى الزاهد ، وكان حكيماً ، وكان له طريقة يأتيها ونحلة يعصدها . وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ، وزارها وامتحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال : رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته ، فإذا فيه : « يقدر المقدر والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى في آخره كتابة ، وتبينها في ذلك القلم الأول ، فوجدتها :

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

« وكانت هذه الأمة ، التي اتخذت هذه البرابي ، لهجة بالنظر في أحكام النجوم ، مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها أن طوفاناً سيكون على الأرض . . . فخافت دثور العلوم وفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابي ، واحداً بربراً ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وجعلت بنيانها نوعين : طيناً وحجراً ، وفرزت ما يبني بالطين ، مما يبني بالحجر ، وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما يبني بالطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم . وإن كان الطوفان الوارد ماء ، أذهب ما يبني بالطين ، ويبقى ما يبني بالحجارة . وإن كان الطوفان سيفاً ، بقى كلا النوعين ، ما هو بالطين وما هو بالحجر ، وهذا ما قيل ، والله أعلم ، كان قبل الطوفان . وإن الطوفان الذي كانوا يرقبونه لم يعينوه

أثار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشينها ،  
وملك نزل عليها ، فأباد أهلها ، ومصدق ذلك . . . ما يوجد ببلاد مصر وصعيداها  
من الناس المنكسين بعضهم على بعض في كهوف وغيران ونواويس ، ومواضع كثيرة  
من الأرض ، لا يدري من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من  
أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ،  
ولا تاريخ ينسب عن حالهم . عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد في تلك الجبال والروابي  
من حلهم . وأبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب ، كالبربا الموجودة بأنصنا ،  
والبربا التى ببلاد إخميم ، والبربا التى ببلاد سمند . . . والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها  
عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الدائرة ،  
لا يدري ما تلك الكتابة ، والا المراد بها . . . وأن ذلك علوم وخواص ، وسحر  
وأسرار للطبيعة . »

قال المسعودى : « سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد ، وغيره من بلاد  
مصر ، من أهل الخبرة ، عن تفسير فرعون ، فلم يخبروني عن معنى ذلك ، ولا  
تحصل في لغتهم ، فيمكن - والله أعلم - أن هذا الاسم كان سمة للملك تلك  
الأعصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية . »

وعندما يسرد المسعودى التاريخ الأسطورى لمصر يبدأه بقوله : « ثم يحكى  
المسعودى ، عن جماعة من الشرعيين ، أن ببصر بن حام بن نوح لما انفصل عن  
أرض بابل بولده ، وكثير من أهل بيته ، غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة :  
مصر بن ببصر ، وتوف بن ببصر ، وساح ، وباح . فتزل بموضع يقال له منف ،  
وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا . . . » ثم واصل قصة الملوك القدماء الذين حكموا مصر ،  
من أمثال الريان بن الوليد ، وطلما ، والملكة دلوكة صاحبة حائط المعجوز ،  
بما لا يختلف كثيراً عما نقلناه عن كتاب « مختصر العجائب » ، الذى ينسب إلى  
إبراهيم بن وصيف شاه ، ويظن البعض أنه منقول عن كتاب المسعودى المفقود ،  
الذى يشير إليه كثيراً في « مروج الذهب » ، باسم « أخبار الزمان » .



## يرفع الستار

سنة ١٨٥٢ ، في عهد عباس الأول ، إرادة لمدير الجيزة :  
حيث إنه يوجد آثار قديمة في نقط مختلفة ببلدة سقارة التابعة لمديريتكم كان قد أعطيت رخصة  
حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط أن لا ينقلوا منها شيئاً  
للخارج . . . ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية  
يخفونها وينقلونها للخارج سراً ، وحيث إن نقل الآثار والمصنوعات للخارج أمر ممنوع جداً ، فيجب بعد  
الآن الاهتمام بها ، ومنع إخراجها كلما ظهرت . ولأجل منع الأهالي من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها ،  
يلزم أن نعينوا شخصاً موثقاً بواسطةكم . . . وتقيموا في محل الاستكشاف ، ليراقب الحفر بدقة عظيمة ،  
ويمنع تسرب الآثار المكتشفة للخارج ، ويمتنع بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس . . . لتحفظ هناك  
وتبقى سليمة من التلف والضياع ، حسب رغبتنا . ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالي  
والأجانب استعوز على شيء من هذه الآثار . . . تأكد أن لا أنظر في وجهك مرة ثانية ، وبأصدر أمرى  
حالا بعزك ، وفصلك من المديرية . ( مترجم عن التركية )

صبح النوم يا أفندينا !

وفي هذه السنة اكتشف أوجست مارييت في سقارة مقبرة العجل أبيس المعروفة  
بالسرايوم .

• • •

سنة ١٨٥٧ ، في عهد سعيد ، إرادة لمدير القليوبية :  
كما ورد في كتاب الموسير أوغسطس مارييت الذي قدم لطلوبنا كشف الجهات المأسول وجود آثار قديمة  
فيها ، لإخراجها ووضعها في دار الآثار المزمع تأسيسها وإنشائها ، تنفيذاً لرغبتنا . . . وحيث إن  
الآثار الملحوظة كشفها وإخراجها ليست لغيرنا بل للاتنا لبناء عليه . . . ( مترجم عن التركية )

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال للداخلية منطوقه :  
إنه قد عرض لدينا من موسير مارييت عن بعض طلبات مختصة بأشغال عملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد  
إصدار أمرنا عنها ، ومن الحملة ما هو موضعاً بيبانه بأعلا أمرنا عنه ، واقتضت إرادتنا تأديته بمعرفة  
الداخلية ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لإجري ذلك ، والثلاثة أود أن يسلوا له في المحل الذي تستنسه  
الداخلية ببولاق . والموسير وسالى تصرف له ماهيته من الميرى في المدة المذكورة ، وبمقتضاها يرفق  
كما اقتضت إرادتنا . ( نص أصل )

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال لمديرية قنا وإسنا ، منطوقه :  
إن موسير مارييت قد أنهى إلينا عن بعض أشياء تختص بعملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد إصدار  
أوامر عنها ، من ضمنها مادة المشش الكاثنة على هيكل إدفو اللازم تغليتهم ، وإن كان رأى مع موسى  
بك أنه يمكن استمواضهم على أربابهم بمبلغ أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف غرش ، ثم لزوم قدر أربعين

حمار لأجل أشغال الفحت ، كذا يريد إعطاء الريسا اللازمة على الأثفار الشغالة من كل مديرية ،  
الذى يعين أسماهم ، يمكن يكون لهم دراية كافية بالمحلات الموافقة ، ليكونوا مأذونين بإدارة الفحت ،  
باعتبار كل خمسين نفر واحد نفر ريس تقريرا ، ويحسب لكل واحد منهم يوم أربعة أو خمسة غروش  
مدة أيام الشغل فقط ، ونحيث من وافق إرادتنا إجابات الموصى إليه في طلباته هذه ، فقد أصدرنا أمرا  
لباقى المديرىات في خصوص الريسا المقتضى طلبهم من مديرياتهم ، وأصدرنا أمرا هذا إليكم لأجل  
هو مادة العشر ، ومشتى الحمير ، وإعطى الريسا المختصة بمديريتكم على الوجه المشروح ، كما اقتضت  
إرادتنا . ( نص أصل )

سنة ١٨٦٣ ، في عهد إسماعيل ، إرادة لمصطفى الكريدى باشا ، محافظ مصر :  
حيث إن ماريت بك عرض علينا لزوم تخصيص الشونة الموجودة أمام دار الأنتيقة خانة الكالنة ببولاق  
لوضع الآثار ، لأن دار الأنتيقة خانة الحاضرة غير موفية للغرض ، فبناء عليه وافق إرادتنا تخصيص  
وإعطاء الشونة المذكورة لوضع الأنتيقة ، فيجب أن تبادروا بالإجرى بمقتضاء .  
تحشية : الشونة الموصى إليها ليست شونة الميزى الكبيرة المعدة لوضع الغلال ، بل هى المربخانة المخصصة  
من زمان لوضع العربات وممتلكات مصلحة الانجرارية ، لذلك وضعنا لكم بهذه التحشية .  
( مترجم عن التركية )

سنة ١٨٦٣ ، في عهد إسماعيل ، أمر عال لديوان المالية ، منطوقه :  
قد عرض علينا الإنهى الوارد من مدير الآثار التاريخية . . . بناء على أمرنا الشفاهى السابق إليه عن تنظيم  
الأنتيقة خانة تكون جاهزة للتفرج عليها وأن تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قائمتها ، وأوضح بأنه  
أجرى العمل ، ومن أول شهر نوفمبر سار فتحها ، وكثير من المتفرجين يحضروا للتفرج عليها ، ولكون  
المصاريف التى صرفت هل ذلك تبلغ خمسة وخمسين ألف فرنك وأربعين فرنك وخمسة وخمسين سنتيم برام  
سندور الأمر بصرفه ، وبترجمة القوائم التى وردت مع الإنهى المذكور . . . ونحيث وافق إرادتنا صرف  
ذلك المبلغ إلى أربابه ، بعد المراجعة وأخذ السندات اللازمة ، فقد أصدرنا أمرا إليكم ، والقوائم المذكورة  
والجدول المهرر عنهم ، وإفادة أمين الأنتيقة خانة ، مرسولين لطرفكم معه عدد ٥٢ لإجرى صرف المبلغ . . .  
الذى توضح عنه على وجه ما ذكر ويخصم بالأبعادية . ( نص أصل )

سنة ١٨٦٩ ، في عهد إسماعيل ، أمر كريم صادر للمالية منطوقه .  
ماريت بك مدير الأنتيخانة أعرض لطرفنا بأن ولو أنه نتج من عملية الفحر على الآثار القديمة بمقتضى  
أوامرنا استكشاف جملة آثار تكون منبعا لعلم التاريخ مدة طويلة ، غير أنه لا يتم هذا المقصد إلا بتشرها  
وتعميمها ، ونحيث لا يكتفى الحال بجمع وتخزين هذه الأدوات والمهمات فقط ، ويلزم الوصول لإتمام  
هذا المقصد ، إعمال مؤلف يتركب من ستة مجلدات ، فى الكامل ، تحتوى ثلثماية صورة ، ولأجل إعمال  
ماية نسخة من هذا المؤلف ، يتكلف جميع ذلك ثمانين ألف فرنك كاليان الموضح بأعلاه ، وبما أن  
نشر وتعميم ذلك فيه منافع عمومية وخدمة مفتخرة لعلم التاريخ ، قد وافق إرادتنا قبول ذلك وتأدية  
المبلغ المرقوم إل اليك الموصى إليه فى باديس بالإحالة على بيت مسيو براريد ، بشرط يصرف له  
كل سنة ربع المبلغ فقط ، حتى يتم على أربعة سنوات حسب إناه ، ولاعتاد الإجرى على الوجه  
المشروح ، أصدرنا أمرا هذا إليكم . ( نص أصل )

لم يكن حديثي في الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر الخرافى لمجرد الفكاهة والتندر ، إنما هو منطق الكتاب دفعني إلى محاولة تحديد الحالة الفكرية التي كان عليها آباؤنا وأسلافنا منذ انهارت الحضارة المصرية القديمة ، وتحولنا عن الوثنية إلى المسيحية ، وقضينا على آخر صلة لنا بماضيها عندما كتبنا لغتنا بأحرف يونانية ، فضع مفتاح الكتابة المصرية مع آخر العارفين بها من الكتاب والكهان . وأن لنا أن نصعد في التاريخ ونهبط ، نتابع أدوار التحول من أساطير التاريخ المصري القديم ، إلى بعض وقائعه ، بفضل الكشف عما بقي من آثاره .

قال المسعودي في « مروج الذهب » :

« ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق ، وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض ، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب ، إلى هذه الغاية ( أى إلى زماننا هذا سنة ٣٣٢ هجرية ) .

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذنخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة في بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام [ أى الكتابات ] السابقة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع مسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلباً عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طنج بذلك ، فأذن لهم في حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجها ؛ فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة في صخر ، منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور المختلفة . منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر ، كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوها من ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها ربما بالية ، وأجساماً قانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني [ جمع برنية ] ، وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذي قد طلى منه ذلك الميت الموضوع في تمثال الخشب ، وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق ، وأخلط معمول لا رائحة لها ، فجعل منها على النار ، فقاح منها روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف في نوع من الأنواع

التي للطيب ؛ وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . ويلزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر ، أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملك [ الإخشيد محمد بن طنج ] . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض - أعنى أرض مصر - أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه ( انظر الفصل السابق ) دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، [ ٩٣٩ م ] .

« وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر ، إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة - أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيبت في هذه المطالب من القبور والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق . »

• • •

أما ترى في هذه الفقرة وصفاً بديعاً للكشف عن مقبرة مصرية قديمة : « حجارة مجوفة في صخر » ، « أى نواويس » ، « منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب » ، « أى تواييت أغطيتها على شكل الميت . » فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فيها ربما بالية وأجساماً قانية ، « أى مومياء » وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، « وهى الآواني المعروفة بالكانوب . » ويلزاء كل تمثال من تلك التماثيل ، « أى التواييت الخشبية . » تمثال من حجر المرمر أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور ، « أى تمثال القرين « كا » ، أو ما أسميه « حفريت الميت » ، إلى آخره !

وقد تنبّهت إلى فقرة وردت في تاريخ حياة أحمد بن طولون بكتاب « مصر في العصور الوسطى » للدكتور على إبراهيم حسن ، حيث يقول ( صفحة ٨٢ من الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٥٤ ) :

« وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالاً قد لا تتمشى مع موارد البلاد في هذا العصر ، فإن خراج مصر في عهده لم يزد عن ٤,١٠٠,٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن ابن طولون قد عثر على كتزين كبيرين ، أحدهما في الصحراء ، والآخر في الجبل ؛ ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكتزين . » هل يقوم لديك شك في صحة ما ذهب إليه أولئك المؤرخون ، بعد مطالعة ما يقوله أبو الحسن المسعودي عن البحث عن الدفائن والمطالب : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت ، أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر . . . » إلى آخر الفقرة ؟

• • •

والعجيب أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وقد زار دار البعثة العلمية الفرنسية ، وترك لنا وصفاً طريفاً لهذه الزيارة : لم يشر إلى عملها الكبير في وصف وتسجيل الآثار المصرية .

ولكنه أشار في سلخ عام ١٢٣٢ هـ ( أي عام ١٨١٧ م ) يصف سائحين إنجليز يزورون الأهرام ، وينهبون الآثار ، وإليك الفقرة كلها كما وردت في الجزء الرابع من « عجائب الآثار » :

« ومنها أن طائفة الأفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة ، الكائنة ببر البحيزة ، غربي القسطنطينية ، لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات ، والفحص عن الجزئيات ، وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان ، والتصاوير والتماثيل التي في المغارات والبرابي ، بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص في مطلق الأقاليم ، بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك حملاً من المال في نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم ، حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية ، بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلى ، ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التي كان عليها في حال حياته ، وتماثيل آدمية من الحجر السماقي الأسود المنقط الذي لا يعمل فيه الحديد ، جالسين



على كراسى ، واضعين أيديهم على الركب ، ويبد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة ، مفرغ معه ، أطول قامة من الرجل الطويل ، وعلى رأسه نصف دائرة منه في علو الشير ، وهم شبه العبيد المشوهى الصورة ، وهم ستة على مثال واحد ، كأنما أفرغوا في قالب واحد ، يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين ، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضا رأس صنم كبير ، دفعوا أجرة السفينة التي أحضروه فيها ستة عشر كيسا ( نحو ثمانين جنيا ) ، وأرسلوها إلى بلادهم ، لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ، وذلك عندهم من جملة المتاجرة في الأشياء الغريبة .

« ولا سمعت بالصور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى ، وسيدى إبراهيم المهلى الإنجليزى ، إلى بيت قنصل بترب البرابرة . بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزيكية ، وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابهم . وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون ، التي لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

« وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة ، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان ، وعبروا إلى داخلها ، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الطوطا وغيره ، ونزلوا إلى الزلاقة ، ونقلوا منها ترابا كثيرا وزبلا ، فاقموا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك . هذا ما بلغنا عنهم . وحفروا حول الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام ، التي يسميها الناس رأس أبى الهول . فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ، ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهي التي يراها الناس ، وباقى جسمه مغيب بما أنهار عليه من الرمال ، وساعدها ، من مرفقيه . ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سباق أحمر . عايه نقوش شبه قلم الطير ، في داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب ، رفعوه أيضا إلى بيت القنصل ، ورأيت يوم ذلك .

« وقيس المرتفع من جسم أبى الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعاً ، وهي نحو الربع من باقى جسمه . وأقاموا في هذا العمل نحواً

من أربعة أشهر . . .

« . . . ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الإفرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضي الصعيد ، والفحص وفجر الأراضي والكهوف والبرابي ، واستخراج الآثار القديمة ، والأهم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى . »

وبعد ذلك لا نجد في تراثنا غير الإرادات والأوامر العالية التي نقلنا طرفاً منها في صدر هذا الفصل ، والتي نذكر منها أن الولاة بدعوا يتنبهون ، تحت تأثير الأجانب ، إلى أهمية « الأنتيقة » . ويغلب على ظني أنهم كانوا يطمعون ، كأسلافهم ، فيما يمكن أن تؤدي إليه « مادة الفحت » من كنوز مخبوءة . ولكنهم على كل حال اعتنوا بأمر الرجل الذي تدين له مصر والعلوم الإنسانية بدين كبير ، وهو أوجست مارييت ، وسلموا إليه « الشوثة المومي إليها ، وليست شوثة الميرى الكبيزة لوضع الغلال ، بل هي العرجانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الأنجرارية » ، كما جاء في « التحشية » ، لتضم إلى « دار الأنتيقة خاتة ، الغير موافية للغرض . »

والحق أن قائمة الشرف — التي يبلغ صدورها أن تنتظم أخيراً أسماء مواطنينا ، تحت اسم أحمد كمال — تبدأ بالبعثة العلمية الفرنسية ، فشامبوليون ، فارييت ، فليسيوس . أولئك هم مؤسسو علم العاديات المصرية ، أو المصرولوجيا كما أحب سلامة موسى أن يسمى الإيجيتولوجيا .

وضياع كنوزنا الأثرية ، وانتقال الكثير منها إلى متاحف العالم كله — حتى ذلك المتحف البسيط ، الذي زرته ببلدة صغيرة من بلاد البحر ، يحتوي على موميائه المصرية بتابوتها ! — وإلى أيدي الأفراد ، بدأ منذ عهد الأسرات بسرقة المقابر . وهناك قضية مشهورة في التاريخ القديم عن عصابة من لصوص المقابر ، حدثت في عهد رمسيس التاسع ، حين اتهم عمدة طيبة زميله ، رئيس حرس المدافن الملكية ، بالتستر على اللصوص ، وبأن مقبرة أمنحوتب الأول قد نهبت . وأجرى تحقيق على يد لجنة عليا اعترف أمامها أحد أفراد العصابة بسرقة هرم شيسسكاف ، وأقر على شركائه .

ولعل أهون الخطب أن تسرق الآثار ، وتنتهي إلى مكان أمين ، سواء بمصر أو بالخارج . إنما الطامة الكبرى هي فيما انهار منها تحت مغاول الهدم ، أو ذاب في بوتقة الصانع ، أو احترق في شبهة الساحر . ولو استطاع الرهبان المصريون أن يسووا بالأرض كل ما كان قائماً من آثار الوثنية المصرية ، لفعلوا ، ولكنهم عجزوا في كثير من الأحوال ، أو هم فضلوا بناء بيعهم مستندة إلى صروح المعابد ، وتعميد كنائسهم في قاعاتها الداخلية . هذا إلى أنهم حولوا المدافن المنهوبة إلى « قلايات » لإقامتهم وتعبدهم . وكانوا يطمسون على نقوشها وصورها بالملاط أو الطين مخلوطا بالطين ، حتى لا يوسوس الشيطان لهم . وكان في هذا الطين والملاط ، الذي طمسوا به حوائط المعابد والمقابر ، ما حفظ صورها على طول الزمان . ولم يكن المصريون المسلمون أكثر رحمة بآثارهم من إخوانهم المسيحيين . وقد طالعنا ، فيم اخترناه من كلام المسعودي ، صورة مما حدث على مدى آباء التاريخ المصري ، من تدمير وتحطيم ، بحثاً عن الدفائن والمطالب ..

وكان أهلنا ، إلى عهد قريب منا ، يضعون أيديهم على كل ما تصل إليها من قطاعات الأعمدة ، ليستعملوها حجارة رحي ، ومن لوحات تذكارية « ستيل » ، ليستطوها عتبات بيوت ، وعقود أبواب . وكانت بعض المعابد تتحول إلى محاجر . . . وقمائن جبر . هذا إلى ما نقل من أعمدة المعابد ، لإقامة الكنائس والمساجد . ثم تلك المدن الكبرى التي هجرها الناس ليسكنوا قرام الحفيرة ، لم تترك لينال عليها تراب الزمان ورمائه ، بل ساعد الأهليون على دفنها ، إذ كانوا يحياونها إلى مقابل لقمامتهم ، وكأنهم يعبرون بذلك عن كرههم لتلك « الكفريات » ، وخوفهم من العفاريت وفعل الطلاس . ولهم لعائدون إلى تلال القمامة في الغد القريب ، سباخين يستخرجون منها سماداً كفيراً لزراعتهم .

وقد حرصت على وضع نصوص الأوامر العالية في صدر هذا الفصل بسبب قرب أولها من عهد محمد علي ، وكان من أشد اليهود نكيراً على آثار أجدادنا . وكأنه لم تكف هذه الآثار أن تنال منها القرون والأجيال ما نالته ، بل جاء نشاط محمد علي في بناء المصانع — التي أفلست كلها — وقضى في أقل من ربع قرن على أكثر مما محاه الفرس واليونان والمسيحيون والمغامرون الأجانب مجتمعين .

ويقدر إرنست رينان أن تلك المصانع ، وبناء القصور ، أزيلت من على وجه البسيطة ما لا يقل عن عشرة معابد كبيرة .

والآثار التي نراها الآن قائمة فوق الأرض ، ونجوس في رحابها وأبهاها . لم تكن حتى القرن الماضي غير حجارة مبعثرة في الفلاة ، أو أعمدة مدفونة إلى أكثر من نصفها في الرمال ، وتحت تلال من القمامة ؛ وكانت بعض المعابد قد تحولت إلى كفور وعزب وساحات موالد وأسواق . ويكفي أن نقلب صفحات الكتب التي سجلت صور هذه الأطلال . منذ البعثة الفرنسية ، لتتحرر على ما صنعت الأيام والآباد ، والسلف الصالح والطالح . بآثار آبائنا وأجدادنا الأولين .

الموقف إذن هو : أطلال مدمرة مهتمة مشوهة . مدفونة في الحماة والرمل السافية ، وكلام يختلط فيه الوصف الصادق بالخرافات والأساطير ، يرد في كتب الرحالة والجغرافيين القدماء ، وعلى رأسهم ذلك الصحفي الأول هيرودوتس الهاليكارناسي . وتهريف لا رأس له ولا ذنب ، تقدمه الكتب العربية على أنه تاريخ مصر . و « قلم » مات وضاعت مفاتيح قراءته . وقوائم بأسماء ملوك مصريين انتظموا في أسرات ، نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس ، وبوليوس الأفريقي ، وبوسايوس ، فيما يعرف « بالمختصرات » عن كتاب ألفه الكاهن السمنودي مانيتون بأمر بطليموس الثاني . . . ودمتم !

ومنطق هذا الكتاب يطالبني بأن أصعد في التاريخ على ضوء ما بذل العلماء الأعلام من جهود المؤمنين ، للكشف عن وجه أم الحضارات وقد تغطى بنقاب ليزيس ، وعليه أحوال وأدران . . . وسباخ كفى . وتصعيدى في التاريخ . عن طريق أولئك الجهابذة ليس من السهولة كما يبدو لأول وهلة . فهناك أسباب تجعل فهمنا للتاريخ المصري عسيراً ، وما أعنيه من فهم ، ليس مجرد الإدراك العقلي لتاريخ بلادى ، وإنما هو الإحساس بذلك التاريخ ، ووصل ما انقطع من الروح المصري . فإن بين حاضرتنا وماضينا البعيد . هوة فكرية عميقة ، لم يحدتها الفتح العربى كما يظن بعض الناس ، وإنما غار الطريق المنبسط بعد غزو الإسكندر . وربما قبل ذلك . فإن القرون الأخيرة للأسرات كانت في صميمها قرون انحلال ، نشأ عن اختلاط المصريين بالشعوب الأجنبية اختلاطاً كبيراً ، منذ غزا الهكسوس



مصر ، فقامت قومة رجل واحد تتخلص من نير أولئك البرابرة الآسيويين ، وتكتسحهم حتى حدود بلادهم . وإلى أبعد من حدود بلادهم ، وتؤسس إمبراطورية واسعة الأرجاء . وقد أحست بأن اطمئنانها إلى حدودها المائية والصحراوية لم يكن إلا خيالا . وهي في حاجة : للاحتفاظ بإمبراطوريتها ، إلى جيش محترف . لا مجرد زراع وصناع يخذلون لأداء مهمة بوليسية محدودة في النوبة أو سينا ، ثم يعودون إلى زراعتهم وحرفهم . وما حدث في مصر حدث في روما ، وهي تتحول من جمهورية مزارعين إلى إمبراطورية يساندها جيش محترف كبير . وملوك مصر يصاهرون الأسر الأجنبية ، ويستقبلون أمراءها غلمانا وفتيانا ، وبشرفون على تربيتهم تربية مصرية ، لينشأوا أعوانا لهم في بلادهم ، يحكمونها باسم مصر . ولقد انتهت إمبراطورية الرعامسة إلى ما انتهت إليه الإمبراطوريات : رخاء واسع وثراء عريض . أجناد أجنبية ، ومعابد كبرى ، أغدقوا الخيرات على آلهتها الذين ناصروهم في فتوحاتهم . فإذا الكهنة يسيطرون على الحياة العامة ، وعلى الأسرة الملكية ، وإذا الكاهن الأكبر . هريهور : يغتصب العرش في مطلع الأسرة الأولى بعد العشرين . وتجيء أسرات مصرية أخرى ، وأسرات إثيوبية وليبية ، تعيد إلى مصر بعض مجدها الغابر ، فتتوهج شعلة الحضارة زماناً . ثم تخبونها ثانياً تحت أقدام الغزاة الفرس والمقدونيين . ولا يفيدنا شيئاً أن تتمسك الأسرة اللاجيدية بمظاهر العبادة المصرية ، فلم يكن هذا إلا نوعاً من النصب والاحتيال السياسي ، مارسه غير قليل من الفاتحين ، ولا سيما أن البطالسة لم يترددوا في استنباط عبادات إله بزرميط ، اسمه يجمع بين اسمي أوزيريس وأبيس ، فهو سيرايس [ أو زير - أبيس ] ، ونماثيله . الباقية لنا في متحف الإسكندرية ، تظهره على صورة أقرب إلى زفس كبير البانتيون اليوناني . وزاد الاحتلال ، بل التخليط ، في العهد الروماني ، فلم يبق حياً في نفوس الشعب المصري سوى أسطورة الثالث الأوزيريس ، وهي الأسطورة التي ألف فيها بلوتارك كتاباً جميلاً ، وأوضح المعالم ، لولاء لظللنا نتخبط في فهم هذا الثالث تخبطنا ، إلى اليوم ، في فهم البانتيون المصري كله ، برغم ما كتبه ويكتبه المؤرخون المحدثون من مؤلفات عظيمة ، تقرأها بعناية ، فتحسب أنك فهمت شيئاً ، وتعاود قراءتها فإذا بنا . . . يا بدر !



وعندما تحول أسلافنا إلى المسيحية ، وحظر مرسوم الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس عبادة الأوثان في أنحاء الإمبراطورية ، أخذ الشعب المصري ، بقيادة قساوسته ورهبانه ، يهدم الأوثان ، ويلطخ صور المعابد والمقابر ، ويتزل بمحاولة على كل ما يستطيع تبطيطة منها ، وتسويته بسطح الأرض ، أو هو يحولها إلى كنائس وصوامع . فهل تنتظر من أجدادنا المسلمين خيراً من هذا ؟ لم يرددوا ، هم أيضاً ، في الزحف على المعابد ، وإقامة أضرحة الأولياء في وسطها ، أو نقل أعمدتها ، وأعمدة الكنائس ، لإعادة استعمالها في المساجد والخوانم والمنازل .

ودخول المصريين في المسيحية لم ينته فقط إلى فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية والهيروغليفية والديموطيقية ، بل إلى فقد معالم التاريخ المصري . ومن أهم معالم تلك الديانة القديمة التي كانت عماد الحياة الفرعونية ومصدر قوتها . . . . وضعفها . فإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المخاطبة بين المصريين ، حتى بعد الفتح العربي بزمان طويل ، فإن كتابتها بحروف يونانية ، وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ اليونانية ، وبخاصة ما يستعمل منها في طقوس الكنيسة ، وفي القضاء والإدارة ، قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية . والعجيب أنه أصبح من الخطر على المصريين ، وطلاب العلم على وجه خاص ، أن يضبطوا وفي حيازتهم برديات قديمة ، على زعم أن كل هذه الكتابات المصرية إنما تنطوي على أسرار السحر . ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلاً مصرياً لهم ، يدرس في بيروت ، ومن مواليد طيبة ، يمارس الشبشية . فذهبوا إلى منزله ، في غيبته ، وقرروا خادمه ، حتى عرفوا أن زميلهم ينحني لفافات بردية في قاع صندوق يستعمله كمقعد . ولما عاد الصبي إلى منزله ، وتحقق من اكتشاف أمره ، خر على وجهه ، وبكى وأبتهل إلى زملائه أن لا يسلموه للسلطات . ويقول ساويرس ، الذي يحكي هذه الحكاية : « ولقد أشفقنا عليه ، لأننا مسيحيون نخاف الرب » . ولم يتركوا زميلهم الشاب المصري ، حتى أحرق أمامهم بردياته . ويورد يوحنا « قم الذهب » قصة مماثلة ، شهد وقائعها في شبابه : كبس فيها الشرطة رجلاً ينحني برديات تحتوى على أسرار السحر . ومع أنه تمكن من إلقائها في النهر ، فقد قبض عليه ، وحكم وأعدم . التحول إلى المسيحية هو الذي قضى على مصر القديمة عقيدة ، وقلماً ، وتاريخاً

وآثاراً ، ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز على الوثنية ومعالمها ، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة ، حتى يجىء زمان لا يكاد رجال الإكليروس يعرفون من هذه اللغة إلا القليل ، يرددونه في بيوت عبادتهم . وإذا كان أجدادنا الأقباط ، في القرون الوسطى ، حاولوا الإبقاء عليها ، فلم يكن ذلك ليعيدوها لغة تخاطب ، وإنما حرصاً على الطقوس ، وحفاظاً للكتاب المقدس في ترجمته القبطية القديمة . فهي حركة علمية ، اتخذت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية ، كما يظهر من الكتب التي ألفها الأقباط لهذا الغرض من القرن السادس عشر وما بعده .

والإحساس بالتاريخ إحساساً يحرك المشاعر ، ويوقظ القومية ، لا يكون إلا على أساس استمرار التقاليد . وقد انقطعت الصلة انقطاعاً تاماً بين المصريين ، مسيحيين ومسلمين ، وبين أسلافهم الوثنيين ، ولم تعد آثار هذا السلف تتحدث إلى نفوسهم بأكثر من الإيحاء بأنها رموز كفرية ، وكنوز مخبوءة ، تقوم على حراسها طلاس عمل بقوى خفية . والمصريون المسيحيون الآلى ، يسألون عن حكاية السحر والطلاسم هذه ، بل ويسأل عنها أجدادهم الوثنيون ، عندما لم تبق من عقائدهم القديمة سوى رهبانها السحرية ، وطبها الروحاني ، وطقوسها في عبادة الحيوانات ، ولم تكن إيزيس في قرارة أنفسهم سوى سيده السحر ، ومستودع أسرار الآلهة . والعجيب أننا ما زلنا إلى اليوم ، لا في مصر وحدها ، بل في العالم أجمع ، نعتقد ، إن قليلاً أو كثيراً ، بهذا السحر ، وما زالت شعوة المشعوذين من أمثال « مغربي كذاب » يفتح الكتاب « تتحركك بالدين » . فالساحر الأفاق ، وأدعياء الطب الروحاني ، ما زالوا يعتمدون أولاً على مظاهر « الولاية » ، سواء في هذا المسلمون والمسيحيون ، وهم يخلطون خلطاً خبيثاً بين ما يسمونه « اللغة السريانية » ، وهي لغة الجن في عرفهم ، وبين بعض الكلمات الفلسفية ، ويعتمدون على ذلك في تعاويذهم وتعاظمهم وتخليطهم . ولقد اكتشفت أخيراً أن اعتقادنا بقدرة المغاربة على السحر ، يقابله ما كان يدعيه مشعوذو الشمال الإفريقي ، وسحرة الأندلس الإسلامية ، من أنهم تعلموا السحر في ظلال الأهرام ، وتحت آراج البرابي والمدافن . هذا وعلامة السحرة في أوربا كانت ، وما برحت ، بومة — لعلها ترمز إلى الصقر ! — ومومياء ، أو بعض مومياء مصرية ! ثم تأمل الاعتقاد بلعنة الفراغة ،

تلك الخرافة الشائعة بين الأنجلوسكسونيين ، ألا ترى فيها أثراً مما لا يس الدينونة  
المصرية القديمة من ضروب السحر ؟

ولا أنسى ، في أول عهد إقامتي بأوروبا ، أنني دعيت إلى جلسة بين قوم  
مثقفين — وإن كانت غالبيتهم من السيدات ذوات اللثة والتخليط — فإذا المحاضر  
يرق المنصة ، فتطفأ الأنوار ، إلا ضوء مسرحية زرقاء . . . ويدلى إلينا الخبر الفهامة  
بأسرار . . . الكوثينية « التارو » ، وعلاقتها بأبعاد الهرم الأكبر ، واتجاهات  
زواياه ! وإلى عهد قريب منا ، كانت تعيش في الأقصر جماعة من المشعوذين  
الأجانب ، يقيسون أبعاد معبد الأقصر ، ثم يفصلونها على جسم الإنسان ، جنيناً ،  
طفلاً ، فرجلاً ! وقد أهداني أحدهم مقالا له في هذا المذيان ، فأنعمت به على  
ضيف أجنبي « مهفوف » ، وإذا بالرجل يطير بالمقال ، حقيقة ومجازاً ، بعد أن  
دار أمامي دورة ، وقفز في الهواء كما تقفز الهررة ، فقد كان حضرته أستاذاً كبيراً  
من أساتذة البالية !

وإذا فتحنا كتاباً من كتب السحر — وقد عنيت مصلحة الآثار المصرية بنشر  
أحدها في سلسلة بحوثها — وجدنا فصوله تجمع بين الوصفات و « الأعمال » ، التي  
تشفي العلل ، وتذيب القلوب صباية ، وتنفع لمقابلة الحكام . وكانت النسوة ،  
في الربع الأول من هذا القرن ، يقمن بطقوس مخصوصة حول مومياء الفراعنة  
بالمتحف المصري ، علاجاً للعقم ، وتسمين ذلك : « راحت يا خني تشق » . ناهيك  
بما في تلك الكتب من التعازيم والخطط المعقدة ، والبحث عن قلب همدد يتيم ،  
ودفن بيضة دجاجة سوداء ، أربعين يوماً ، بين أربعة مفارق . . . وذبح الكتكوت  
الذي يخرج منها ، قبل أن يصيح . . . والكتابة بدمه في كاغد ، ودخول القبور  
المهجورة بظهورك وأنت تبرجم باللاندي ، حتى تنهي إلى الرصد ، الذي يفتح لك  
مغاليق المطالب والدقائق !

هذه هي مصر القديمة التي نبحت عبثاً عن روحها ، ونحاول أن نتصل بمحاثها  
الحية ، فيقصينا عنها شيء غير مفهوم ، ربما كان سببه أن التاريخ الذي يكتبه  
علماء المصريات ما زال ، في أركان كثيرة منه ، شذرياً مفككاً .

ولم يكن الأوروبيون ، الذين وفدوا على مصر في القرون الوسطى ، خيراً من

الزائرين العرب أو أقرب فهماً للتاريخ المصري . هذا إلى أن مرورهم بمصر لم يكن إلا استكمالاً لارتياح الأراضي المقدسة ، فكانوا يعنون ، أول ما يعنون ، بآثار يسوع الطفل مع أمه وخطيبها يوسف النجار ، عندما لحأوا إلى مصر هاربين من أرض الجليل ، إنقاذاً للطفل من مذبة الملك هيروديس . فيتبركون بشجرة العذراء في المطرية ، ويشربون من نبع البلسان ، وينتقلون إلى قصر الشمع ، حيث يقودهم شماس كنيسة أبي سرجة إلى كهف تحت أرض الكنيسة ، يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيه بعض الوقت . وحتى الأهرام لم تكن عند أولئك الرحالة سوى أمراء الغلال ، ومخازن التموين ، التي أقامها يوسف الصديق لمواجهة السنين العجاف .

ومدينة طيبة العظمى ، ذات المائة باب في قول هوميروس ، لم يكن أحد يعرف لها جرة ! حتى لقد حسب الرحالة الأوربيون الأوائل موضعها مدينة أنصنا [ أنطونوس = الشيخ عبادة خالا ] ، وذلك لأن دقلديانوس كان قد جعل من هذه المدينة عاصمة الطيبائيدة . وأول من بلغ مكان طيبة الحقيقي اثنان من الرهبان الكابوشين ، وصفا ما كان يظهر من الكرنك في منتصف القرن السابع عشر ، دون أن يدركا أنها أمام أعظم المعابد المصرية ، في أكبر عواصم العالم القديم . ولم يتحقق من ذلك سوى الأب سيكار ، في أواخر ذلك القرن .

ثم يزور مصر الرحالة بوكوك ونوردين ونشور ، فسافاري وفولنيه ، ويبدأ عهد لصوص الآثار من الأوربيين ، وهواة المرممات والتحف ، وكانت مصدر رزق كبير لهم ، لحرص ملوك ذلك الزمان وأمراءه على اقتناء « أنتيكات » ، تضم إلى مجموعاتهم الخاصة التي كانت تعرف بـ « غرف التحف والعجائب » ، وكانت الأصل لكثير من المتاحف الأوربية الكبرى .

تلك كانت مصر القديمة عند المصريين ، والرحالة الشرقيين والغربيين ، حتى جاءت الحملة الفرنسية ، وفي ركابها مجموعة ممتازة من العلماء والفنانين ، جاءوا ليستكشفوا ويدرسوا ويسجلوا . ومع أن « المعهد العلمي المصري » كان قد أنشئ بمجرد بلوغ الفرنسيين القاهرة ، فإن لجنتي الآثار المصرية لم تولفا إلا بعد أن عاد البارون فيفان دينون من رحلة الصعيد ، وكان قد صحب تجريدة الجنرال ديزيه ، التي أتمت الاستيلاء على مصر ببلوغها أسوان . ودينون رسام بارع بريشته وقلمه ،



يرسم كل ما يمر به من أطلال ، ويدون مذكرات رحلته . وبعد عودته إلى القاهرة ، وحديثه مع الجنرال بونايرت ، وإطلاعه إياه على رسوماته ، أمر كبير الحملة بإنشاء لختين بالمعهد العلمى المصرى ، مهمتهما « قياس جميع آثار الصعيد ، ورسمها رسماً موضوعياً صحيحاً ؛ تراعى فيه الدقة العلمية » . وطبع دينون مذكرات رحلته مع رسوماتها بباريس سنة ١٨٠٢ ، فذاعت شهرتها عاجلاً ، وتعددت طبعاتها وترجماتها . ومن هنا تبدأ « الإجبتولوجيا » ؛ تبدأ علماء موضوعياً ، يقيس ويسجل ويقيّد ويرسم ، دون أن يحاول تفسيراً . وأتى له التفسير ، وذلك القلم البربائى — كما يسميه أحمد كمال فى كتاب « العقد الثمين » — لا سبيل إلى فض أغلاقه ؟

ولن نقفز هنا إلى خبر العثور على حجر رشيد ، فإن الهيروغليفية لم تنتظر هذه اللقيا لتجد من يبحث عن أسرارها . بل إن موضوعها قائم منذ عهد الرينسانس فى إيطاليا ، وقد وجد الناس فى روما بعض مسلات أعادوا إقامتها . والمسلة أثر غاية فى التحدى ، فهى لوح محفوظ ، عليه كتابات تستثير فيك رغبة ملحة نحو تفسيرها . وكان المؤرخ أميانوس مارسيلينوس ، فى القرن الرابع الميلادى ، قد دون فى تاريخه ترجمة لاتينية لنص منقوش على إحدى تلك المسلات ، نقلها عن واحد من الكهنة المصريين . ولكن الباحثين أيام الرينسانس ضلوا بين نصوص المسلات ، فأى نص ذاك الذى دون ترجمته أميانوس ؟ ثم وقع لهم كتاب باللغة اليونانية ، لمصرى اسمه هورابولون ، عن الكتابة الهيروغليفية ، يتضح منه أن أسرارها استغلقت عليه . ونشر هذا الكتاب إبان القرن السادس عشر فى طبعات كثيرة . وحاول الأب اليسوعى أثناسيوس كيرنر ، فى القرن السابع عشر ، حل اللغز البربائى ، وحسب أنه توصل إلى الحل عندما قال بأن الهيروغليفية كتابة دينية غيب فيها المصريون أسرار حكمتهم . وقد بلغ القس العلامة من فهمه لهذه الحكمة ، وفكه لتلك الأحاجى ، أن جاءت ترجمته لكلمة « أهرسيس » — وهو اسم علم لأحد ملوك الأسرات المتأخرة — على الوجه الآتى : « نعماء الإله أوزيريس ، تقيها على البشر طقوس مقدسة ، يقوم بها نفر من الجن فتحل بركة النيل » . . . أقل من هذا ونفق الحمار !

وحاول من بعده القس الإنجليزى واربرتون ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، محاولات فاشلة . وظن دى جين ، والأب نيدام ، أن الهيروغليفية ضرب من الكتابة



الصينية ، كما ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من السريانية أو العبرانية . واستطاع الدانياركي زويجا - وكان عارفاً باللغة القبطية - التحقق من أن الخانات البيضاء المعروفة بالخراطيش ، تحتوى على أسماء ملوك ، وأن للعلامات الهيروغليفية مقابلاً لفظياً ، أى أنها حروف صوتية ( فونيتيك ) . ونقل كارستن نقوشاً بربائية نقشا أقرب إلى الصحة من نقل سابقه .

وفي آخر القرن الثامن عشر ، وبينما جنود بوناپرت يقيمون تحصينات على بقايا قلعة مصرية من قلاع القرون الوسطى ، إلى الشمال الغربى من رشيد ، عند قرية البرج ، على الضفة الغربية للنيل ، في مواجهة برج مغيزل على الضفة الشرقية ، عثروا على حجر أسود ، عليه كتابات بلغات ثلاث ، إحداها الهيروغليفية ، وآخرها اليونانية ، وفي وسطهما كتابة عرفت فيما بعد أنها ديموطيقية . وأبلغ الضابط المهندس بيير بوشار ، المشرف على الأعمال ، خبر العثور على الحجر إلى البعثة العلمية بالقاهرة . وبقية القصة معروفة ، ولكنها جديرة بأن تنشر تفصيلاً في كتاب عربى يترجم حياة الرجل الفذ فرانسوا شامبوليون .

وكنْتُ أحسب - كما يحسب الناس فيما أظن - أن مجرد العثور على نص هيروغليفي وديموطيقي ، يقابلان ترجمة إغريقية لمرسوم بطليموس إيفثانوس ، كاف لفتح مغاليق الكتابة المصرية القديمة ! والواقع أن النص الإغريقي ، على حجر رشيد ، يحتوى على أربعة وخسين سطراً ، والنص الديموطيقي على اثنين وثلاثين سطراً ، أما النص الهيروغليفي فلم يبق منه سوى أربعة عشر سطراً ، لشطف هام فى الحجر . واللغة ليست مجرد ألفاظ مترجمة ، بل هى كلمات وقواعد وأجرومية . ثم إن الكلمات ، فى لغاتنا ، مركبة من حروف : فهل كانت الهيروغليفية حروفاً منطوقة - فونيتيك - أم أنها رموز ذات معان ، أى إيديوجرامات ؟

كان على شامبوليون أن يكتشف أولاً أن الهيروغليفية فى أساسها كانت رموزاً ، وتحولت فى تطورهما إلى الانتفاع ببعض منطوق هذه الرموز ، لتستعمل حروفاً أو مجموعة حروف . كأن نرسم صورة رجل يرمى بالجللة ، فنفهم منطوقها ومعناها : « رى » ؛ ثم نرسم إلى جانب ذلك صورة حروف مذبح ، وعلق ، فنفهم منطوقه ومعناه « ضأن » ، ونخرج من هذين الرمزتين ، بعد لآى ، إلى أن المعنى كلمة

لا علاقة لها بالضأن ولا بالرى ، فإذا تكون ؟ رى — ضأن — رى ضان — رمضان ، مثلاً . ثم تطورت الهيروغليفية بعد هذا إلى حروف صوتية بعينها . ولكن الكتابة احتفظت مع ذلك بكل أدوار تطورها ، من الرموز إلى الانتفاع بمخارج أصوات الكلمات كقطائع لكلمات أخرى [ رى — ضان — رمضان ] إلى حروف بعينها . وقبل شامبوليون ، كان السويلى « آ كريلاد » وقد وفق إلى تبين بعض حروف الديموطيقية ، كما كان الإنجليزى ، يونج ، ركز همه فى تفسير الحروف أو الرموز المكتوبة داخل الخانات [ الخراطيش ] الملكية . وبما أن نص حجر رشيد هو مرسوم لأحد البطالسة ، فقد تابع يونج بحثه أربع سنوات ، يتخبط بين أسماء الأسرة اللاجيدية ، حتى أصاب فى قراءة بعض اسم « بطليموس » ، وبعض اسم « برنيقة » ، وبذلك استطاع الكشف عن عدد من الحروف .

ولم يكن شامبوليون مجرد هاو لحل المسابقات الصحفية من نوع الكلمات المتعارضة وما إليها ، بل كان منذ حداثة كلفاً بدراسة اللغات القديمة شرقية وغربية ، وقد حذق اللغة القبطية . كما توصل إلى إدراك أن القلم المصرى القديم يكتب على ثلاثة أشكال : الخط الهيروغليفى والهيراطيقى والديموطيقى ، والأخيران يختصران الخط الهيروغليفى ، كما يختصر خط الثلث أو النسخ ، بخط الرقعة ، وكما تختصر الحروف الكيرللسية الروسية ، والقوطية الألمانية ، عندما تكتب باليد سريعاً .

استغرق شامبوليون فى دراسة نص حجر رشيد ، وغيره من النصوص ، نحو عشرين سنة ، باحثاً متقياً ، على أساس من معرفته باللغة القبطية أولاً ، وفى قدرة عجيبة على التركيز الذهنى . وما أكثر ما تردد وتراجع . فهو يؤكد فى عام ١٨١٣ أن الهيروغليفية ليست رموزاً تعبر عن فكرة ، بل حروفاً هجائية ؛ ثم يتنكر لهذه الفكرة سنة ١٨١٨ ، ليعود إليها مرة أخرى ، فيما بعد . إنه يبدأ بدراسة نص ديموطيقى ، فى بردية عليها اسم « كليوباترة » ، ويحاول أن يركب هذا الاسم — من عندياته — بحروف هيروغليفية . ثم يهمل ذلك حتى يجيء عام ١٨٢٢ ، حين يعثر على صورة لنص هيروغليفى منقوش على مسلة من جزيرة فيلى ، يطالع فيه اسم كليوباترة . . . كما كان قد كتبه من قبل ، ومن عندياته !

محاولات مرهقة ، استغرقت الأيام والليالى ، والأشهر والأعوام ، حتى يجيء

صباح ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، وهو بطالع نقوشاً هيروغليفيه ، نسخها ، وأرسلها إليه من مصر ، مهندس معمارى من معارفه . وكانت تلك النقوش تتميز بخانات [ خرطوشات ] عدة . فتأهب شامبوليون لقراءتها . وقد جمع أمامه خمسة وعشرين حرفاً هيروغليفاً . كان قد توصل إليها بعد قراءة أسماء بطليموس ، وكليوباترة ، وإسكندر ، وغيرها من أسماء البطالسة ، وأميرة الرومان :

ففى إحدى خانات النص الذى وصله حديثاً ، لاحظ علامة الشمس . ونحتها ثلاث علامات ، اثنتان منهما مكررتان ، هما حرف س والأولى حرف م فقراها « مسس » ، وبقيت علامة الشمس . وإذا به يدرك فجأة أن « رع » هو اسم الشمس — كما عرف من كتابات الأغارقة والرومان — فتنفجر فى ذهنه انفجاراً كلمة « رع — مسس » ا وفى خانة أخرى ، يرى نصفها الأسفل مشابها لنصف خانة « رع — مسس » ، وفى نصفها الأول صورة طائر ، يقف على قاعدة . هو الطائر المصرى أبو منجل ، وهو عند المصريين رمز إلههم «توت» أو «تحت» . فيقرأ الاسم الجديد : « تحت — مسس » أى تحوتس ا

يجمع شامبوليون أوراقه ، ويجرى إلى أخيه الأكبر ، وكان يعمل فى الأكاديمية الفرنسية ، سكرتيراً خاصاً للعلامة « داسيه » . يدخل على أخيه منفعلاً . وبقى على مكتبه بمجموعة أوراقه ، وهو يصيح « أدركتها » ، وكأنه يردد كلمة أرشميدس : « أوريكاس » ، ثم يقع مغشياً عليه « لفرط حماسه وإجهاده » ، وعناء السنوات التى عاناها فى البحث والتنقيب والمقارنات ، بالرغم من تضعف صحته .

وفى يوم ١٩ سبتمبر ، بعد خمسة أيام قضاهما مستغرقاً فى سبات عميق ، يفتح عينيه ، وما يكاد يقوم من فراشه ، حتى يشرع فى تحضير مذكرته المشهورة . التى بدأ طبعها بعد ذلك بأيام ، وقدمها إلى الجمع الفرنسى . بعنوان « خطاب إلى السيد داسيه » ، السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب ، خاصاً بأحرف الهجاء الهيروغليفيه ، ذات الخارج الصوتية ، التى استعملها المصريون لينقشوا على آثارهم أسماء الملوك اليونانيين والرومانيين ، وألقابهم .

وفى آخر عام ١٨٢٢ ، ينتهى شامبوليون إلى التعرف على أسماء عدة ملوك من الأسر الفرعونية : أخوريس ، ونفيرتيس ، وهسامانيك ، وشيشونق ، وغيرهم .

وقد أدرك أخيراً أن الكتابة المصرية تتألف من أحرف ، ومن رموز ، وعرف أن قواعد النحو القبطى ، هى قواعد نحو اللغة المصرية القديمة ، وشرع فى ترجمة نصوص كاملة ، ظهرت سنة ١٨٢٤ فى كتابه المسمى : « الطريقة الهيروغليفية عند قدماء المصريين . »

ويسافر إلى إيطاليا ، ليدرس نصوص متحف تورينو ، ثم يتاح له أن يزور مصر ، حيث قضى سنتى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، على رأس بعثة توسكانية يقص علينا طليبا كيف عثر به ذات مرة مغشى عليه ، فى مقبرة من مدافن طيبة ، وحوله اللوحات التى كان ينسخ عليها النصوص .

ويعود إلى فرنسا ، فينتخب عضواً فى أكاديمية النقوش والآداب ، وينشأ له بالكوليج دى فرانس أول كرسي لعلم المصريات . ولكن حاجته إلى الراحة التامة تضطره إلى الاعتزال فى بلدته فيچاك ، وهناك يضع آخر كتبه فى قواعد اللغة المصرية القديمة ، ويقول عنه بحق : « إنه بطاقة زيارتى ، أتركها للأجيال القادمة » .

ثم يعود إلى باريس ، محطم القوى ، ليشرع فى دراسة مواد بعثته إلى مصر ، ويصاب بالفالج صباح ١٣ يناير سنة ١٨٣٢ ، ويقبض فى ٤ مارس من العام نفسه .

فالأمر ، كما ترى ، ليس باليسر الذى كنت تتصوره . وقد نسيت أن أحيطك علماً بأن الكتابة المصرية ، كالكتابات السامية ، لا تعنى كثيراً بحروف الحركة ، وهى صعبة تضاف إلى سائر الصعوبات التى يعانىها كل من يحاولون مطالعة هذه اللغة .

يقول العلامة إدوارد ماير ، مؤبناً شامبوليون :  
« كان عبقرية موهوباً ، ما فى ذلك من شك ، ولكن عبقريته كانت تسندها معرفة عميقة ، وتنظيم لمادة دراساته . ولذلك استطاع شامبوليون الغوص على معانى نصوص البرديات والنقوش ، فى صميمها على أقل تقدير . ويندر أن نجد فى تاريخ العلوم أمثلة كهذه . فما إن يدرك الموت ، فى شرح عمره ، حتى يكون قد كشف ، فى وضوح وصحة ، لا عن أسس اللغة فحسب ، بل عن تاريخ مصر القديمة » .  
ولم تنشر أجروميتها للغة المصرية القديمة إلا عام ١٨٣٦ . أما قاموسه فقد خرج سنة ١٨٤١ . وبعد ذلك بوقت نشر كتابه عن « آثار مصر والنوبة » .

وبهذا يرتفع بناء ثان على ذلك الطريق الطويل الموصل إلى اكتشاف مصر القديمة . أما البناء الأول فكان مجلدات البعثة العلمية المصرية . وسيعمر الطريق بأعمال الألمان ريشارد ليسيوس وبروكش ودوميخن وإرمان وماير وزيتي ، والفرنسيين مارييت وإيمانويل دي روجيه وشاباس وماسبيرو ، والإيطالي روزاليني ، والأميركي برستيد ، والروسي جوليشيف . ويمكن أن تضيف إلى القائمة أسماء من أغلب البلاد الحية . لأن الأمم المتحضرة تفخر أن يسجل اسم ابن من أبنائها في لوحة الشرف لمن عملوا ويعملون على اكتشاف « أمنا الكبرى مصر » .

ومن بشائر النهضة المصرية - وهي عندى من أهمها وأعماقها معنى - أن تظهر أسماء مصرية ، ما زالت قلة ، ولكنها تصل حاضرتنا بماضينا القريب جداً حين ظهر اسم الرائد الأثرى أحمد كمال ، وبماضينا البعيد جداً ، حتى عهود ما قبل الأسرات . فلنحفظ في قلوبنا ، ولنكرم بالستنا ، أسماء مصطفى عامر وسليم حسن وأحمد فخري وبدوي ( أحمد واسكندر ) وجرجس متى وعباس بيومي وعبد المنعم أبي بكر ومكرم الله وأنور شكري وليب حبشي وزكريا غنيم وزكى سعد وسامى جبرة وبا هور ليب وشارل بشاتلى وغيرهم . والتاريخ كفيل بأن يوسع لوحة الشرف المصرية هذه ، ويصحح أخطاءها ، ويفقر لى قصورى .



## مرملة بنى سلامة

إن من البيان لسحراً . وقد استطاع أساتنتى فى المدرسة الابتدائية أن يجمعوا فى جملة واحدة : تاريخ مصر الأسطورى ، وتاريخ مصر فيما قبل التاريخ ، وتاريخ الأسرات ، قالوا : « أول ملوك مصر كان مينا أو مصرام ، وهو الذى حول مجرى النيل ، ووجد الوجه البحرى والوجه القبلى » . وهكذا عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أن مصر من مصرام — التاريخ الأسطورى — وأن النيل تحول عن مجراه — تاريخ ما قبل التاريخ — وأن مينا وحد الإقليمين — العصر التاريخى .

أما أن النيل غير مجراه ، فهى الحقيقة الجيولوجية ، لا بأتياها الباطل من أى مكان تريد . وكان النيل قبل أن يستقر فى مجراه الحالى نهراً كبقية الأنهار ، لا يحيا الناس بنيفضائه ، ولا يموتون بتحاريقه . لأن شمال أفريقيا كله ، والصحراء الكبرى ، كانت مناطق أمطار غزيرة ، أشبه بالأحراج الاستوائية ، ترع فيها الظباء ، والزراف يأكل من أعالي الأشجار ، وحمر تبرطع ، وفيلة تهش بأذانها وتلوى بخراطيمها ، وثيران ترعى الكلاً وتخور ، وتفترس هذه وتلك آساد وذئاب وضباع . وكان النيل يجرى هنا وهناك حسب التساهيل . ويغضى جميع منخفضات الوادى ؛ فكانت كل القيوم . ومناطق الواحات ، بحيرات واسعة ، وكان العشب يغطى سطح الأرض ، وأشجار سامقة معرشة تلقى ظلها الوارفة على العشب ، والماء يفيض من الأرض ، وينهمر من السماء مدراراً . والإنسان القديم الذى كان يعيش فى تلك الآجام لم يكن نحن ، بل كان مخلوقاً بدائياً يعرف بالإنسان النياندرتالى ، ولم تأت نحن — « هومو ساپينس » ، الإنسان المدرك العارف — إلا فيما بعد ، فى أواخر العصر الحجري القديم . أو ما يعرف بالعصر الحجري الأعلى .

ثم حل عهد الجفاف ، فكفكت السموات مدرارها ، وقلنا يا سماء غيضى ، ويا أرض أقلعى ، وهبط مستوى النيل ، ووقف جريان الماء فى الوديان ، فتحولت أنحاديده فى الصحراء ؛ وتقصت مساحات البحيرات ، واختفى أكثرها . وهبوط مستوى النيل ، أخذ يهدأ ويرزن ، ويعنى بحفر مجرى دائم فى أرض مصر البحرية ،

لا تدخل في هذا لدينا ولا لمصرنا .

والناس الهمج ، والأوابد آكلات اللحوم ، والمواشي آكلات العشب ، أخذت تتجمع حيث الماء والزرع . وعرف الإنسان الصيد القناص كيف يبق على بعض صيده حياً ، لأن القنص لم يعد سهلاً ميسراً كذى قبل ، وكان هذا أول باعث له على التفكير باستتلاف الحيوان ، ولعله أدرك معنى هذا ، فيما يختص بالنبات ، فأنهى إلى محاكاة الطبيعة برى الأرض وبذر البذور . وأصبحت حياة السكان الأفريقيين الرحل الذين نزحوا إلى ضفاف النهر المهدب مرتبطة بحركة المياه في النهر ، ارتفاعاً وهبوطاً .

وما أرجوه لك — إذا حرصت يوماً على مطالعة التاريخ المصرى على طوله — هو أن لا تكرر خطأى قهمل ما أهمله التاريخ ، فسمى ما قبل التاريخ . على أن لا ترمق ذهرك بأرقام الآلاف ومئات الآلاف من السنين التى يذكرها أهل التخصص تقديرأ لبدء الإنسان على وجه الأرض . وليس مهما أن تعرف — إذا كنت تجهل — أن الإنسان ظهر فى الحقبة الجيولوجية الرباعية .

ولا تحاول أن تتعرف على تاريخ ما قبل التاريخ فى المتاحف ، كما حاولت أنا ، لأنك ستقف أمام حصباء متراصة ، من الصوان أو الطران والشيست ، وغير ذلك من أنواع الزلط ، تراه مقلوظاً مشظياً ، يقول لك العلماء بأنه أسلحة الإنسان الأول والإنسان الثانى ، وستمر بأصناف من الأواني لم تسوها يد الفخرانى على دولاىب ، مزينة برسوم هندسية ساذجة ، ورسوم بعض حيوانات تبدو وكأنها تبرطع فى الهواء بفرائم كخيوط غزل البنات .

أقول لا تحاول ، لأن صناعة الإنسان فى بداية مغامراته العجيبة تحتاج إلى مران طويل ، وحس تاريخى خاص ، وخیال كريم ، حتى يمكنك أن تطالع ما وراءها من معان ، أو تشعر بما تحويه من فن .

وكلما رأيت أرقام السنين ، مر عليها عاجلاً ، فليس ثمة من يؤكد لك مصتها أو يحلف لك على دقتها ، إن هى إلا ركيزات ، أشبه بعلامات الطريق ، لا غنى عنها لأهل الاختصاص ، وهم يحاولون رسم التطور صورة إثر صورة ، كما فى الفيلم السينماتوغرافى .

إنما يجدر بك أن تعرف أسماء أمكنة بعضها منتشرة على جوانب واديك ، لما أهميتها في تلمس طريق الحضارة وممالك التاريخ الطويل الذى عاشه أسلاف أسلافنا منذ فجر الإنسان . وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة عليك ، ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها . وبغير قليل من آثارها . ستسمع بحضارة البدارى وديمة وكوم أوشيم والفيوم ونقادة والعمرة وجرزة ووادي حوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة .

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن حضارة العمرة وجرزة ظهرت فيما بين منتصف الألف الخامسة حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .

حضارات حديثة العهد بالنسبة لما يعرف بالعصر الحجري القديم . وهو سابق عليها ببضع مئات من آلاف السنين ، حضارات متأخرة حتى بالنسبة للمراحل الأخيرة من ذلك العصر الحجري القديم التى كانت ، منذ نحو مائة ألف سنة قبل الميلاد ، متأخرة بالنسبة للعصر الحجري الوسيط . وكان فيما بين الألف العاشرة والألف الثامنة .

وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى ، من أول العصر الحجري الوسيط ، يتجه اتجاهاً حضارياً مميزاً تختص به مصر ، لا يشبه فى شيء حضارة فلسطين أقرب جيرانه . فتطور الحضارة المصرية ، منذ العصر الحجري الوسيط ، استقل بوسائله نتيجة لعزلة مصر ، الجزيرة الخضراء : أو الخط الطويل الزمردى وسط أفيانوس من الصحارى ، وبحرين من المياه الزرقاء . وجبال إلى الشرق ، وهضاب إلى الغرب . وذلك بعد ما أصاب المنطقة من تغير فى مناخها ، وكانت من قبل متصلة بالشمال الأفريقى كله ، تشبه فى طبيعتها أعالي السودان كما هى حالا . انعزلت مصر عن جيرانها ، وإن بقى لها ، عن طريق النيل ، اتصال ببلاد النوبة وما فوق أرض النوبة .

وأحسبك تعرف أن الجنس المصرى ما يزال مصدر نقاش لا ينتهى ، وليس فيه عند العلماء قولان ، بل أربعة أقوال . فالمصريون جاءوا من الشمال والجنوب ، وجاءوا من الشرق والغرب ، وهم خليط سامى حامى قارى ليبي حبشى عربى ، يشاركون

في أصولهم شعوب جنوبي البحر الأبيض ، وشعوب السودان والحبشة ، وشعوب غربي آسيا . ويتألف ، من كل تلك الأصول ، ذلك الجنس الواحد الباقي على صفحات الدهر حتى اليوم . وإذا كان أمر هذا الجنس المصري استعصى على العلماء ، فلمهم على الأقل يؤكدون لنا شيئاً أهم لدينا من كل تخيلاتهم ، وهو أن المصري الذي انزل في واديه الحصب وسط الصحراء والمضاب والجبال والبحار ، احتفظ بطابعه الإثنوغرافي ، غير مشوب في أغلبه ، إلى يومنا هذا . فإن بضع مئات الآلاف من أهل الشعوب التي اعتدت على مصر ، أو استقرت فيها وعاشت أهلها واختلطت بهم ، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء في بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة . لعلك تعبت الآن من كل هذا السرد . لا عليك إلا أن تنسى أمره ، بشرط أن تعبرني انتباهك إلى ما يحدث فيما تلى ذلك من عصور ، وأولها العصر الحجري الحديث « النيوليتيكي » ، والعصر الذي يليه ويعرف باسم « الإنيوليتيكي » ، وآخره يعرف بعهد ما قبل الأسرات . لأن فهم هذين العصرين أساسى لإدراك نشأة الحضارة الفرعونية ، ولا سيما أن هناك رأياً يزعم بأن حضارة الأسرات لم تخرج عن كونها تفاعلاً وتطوراً نهائياً للنيوليتيكي ، لم يبلغه ناس آخرون في مكان آخر ، أو كما قال كورت لانجه : « مصر القديمة ، حتى نهاية حياتها الفرعونية ، ظلت بنت العصر الحجري . وبقاؤها في داخل هذه التخوم الحضارية مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . وإذا فهمنا ذلك وجدنا حلولا لكل تلك الأحاجي التي تطرحها علينا مصر بلسان أبي هولما ، وهي الألغاز التي أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، بل ما فتئت تبعث على التأمل إلى يومنا هذا . »

كان مؤرخو الحضارات ، إلى عهد قريب ، يلوكون خرافة اسمها « معجزة الحضارة » ، فيحدثونك عن المعجزة الإغريقية ، وبالتالي عن المعجزة الفرعونية . ولكن العلم لا يميل إلى إدراج المعجزات ضمن عناصر تفكيره ، فلما اتحاز المؤرخون إلى مذهب التطور ، لم يعودوا يصدقون أن يقفز المصري من مرحلة الأسلحة الظران ، والأواني الفخار من غير دولاب ، وصنع السلال « البقوطي » ، ودفن موتاه في حفرة سطحية ، أن يقفز من هذه البداوة إلى حضارة الأسرات الأولى .

استقرت الحياة في وادي النيل محدودة محصورة فيما يحققه هذا الوادي من

ممكّنات . وكان النيل قد غطى مجاريه القديمة بطبقات من الطمي ، ولم يعد المصري  
يكتفى بصيد أكله وقنصه ، والتبلىح بما تثبت الأرض ؛ بل علم نفسه كيف يزرع  
ويقلع ، وكيف ينجى ويخزن ، وأسألف من حيوان القنص ما استطاع أن يحافظ  
عليه حياً ، ليتغذى به عند الحاجة . وما رأى فيه قوة على الشد والحمل ، أو معونة  
على الصيد والقنص في طاعة وألفة . وحياة الاستقرار اقتضت بناء المساكن ؛ وادخار  
الغذاء قضى بصنع السلال والأواني . واستعاض عن جلد الحيوان في لباسه بما فضله  
عليه من ألياف النبات ينسج منها كساء وغطاء ؛ والاستقرار جعله يعنى بتنظيم  
معاشه ومعاش أسرته ، وزينة نفسه وأهله ، ثم التفكير يوم يفارق فيه هذه الدنيا  
إلى عالم آخر .

كان العصر الحجري الحديث في مصر سابقاً بزمان سحيق على حضارة العصر  
الحجري الحديث في أوربا ؛ ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية  
حدثت غالباً في وادي النيل الأدنى قبل أى مكان آخر . ولا يمكن الكشف عن  
أدوار هذا التطور ، لأنها اختفت تحت رواسب النيل ، إلا ما بقى منها عند أطراف  
الوادي ، وفوق الهضاب المشرفة على مجرى النيل .

وأهم أثر لتلك الحقبة الحضارية ، كشف عنه يونكر إلى الشمال الغربى من  
القاهرة ، على بعد بضعة كيلومترات ، فيما يعرف اليوم باسم مرمدة بنى سلامة ؛  
وكشف عنه أمين العمري عند رأس وادى حوف إلى الشمال من حلوان ، عند موضع  
مصب النيل في البحر الأبيض المتوسط ، قبل أن تتكون الدلتا ؛ وكشف عنه آخرون  
في ديرتاسا بالصعيد ، ووادي الشيخ قرب مغاغة ، وفي إقليم الفيوم والواحات الخارجية  
والبحرية ..

مرمدة بنى سلامة توضح مسكن المصري الأول وطريقة بنائه ، وكيف حرص  
على تنظيم منازلهم على جانبي طريق مستقيم يحترق المحلة . والآلات المشطاة التي  
وجدت بالفيوم بديع صنعها ، تحرص متاحف العالم المختصة على اقتناء نماذج منها .  
ولا يعرف على وجه اليقين أية حضارة سبقت غيرها في البقاع التي أشرنا إليها ،  
وقد تكون حضارة العمري بوادي حوف أقدم من حضارة مرمدة بنى سلامة والفيوم ،  
ولأنما الغالب أن الوجه البحري سابق في حضارته على الوجه القبلي ، لأن حضارة



ديرتاسا ووادى الشيخ تعتبر خاتمة لمرحلة الحقبة النيوليتيكية وتقدم لحضارة العصر  
النيوليتيكي ، أى حضارة ما قبل الأسرات .

وكلما اقتربنا عبر آلاف السنين من عهد الأسرات نجلت آيات التطور .  
فالنحاس يظهر بعد نهاية العصر الحجري الحديث ، والقرى والمدن تنشأ على جانبي  
الوادي ، ويبدأ اتصال مصر بغيرانها . وأهم من كل هذا ظهور الحادث الجلل  
فى تاريخ البشر : وهو توصل الإنسان إلى رسم رموز يعبر بها عما يحول بخاطره ،  
أو ينطق به لسانه . وما يعنى به فى تلك الخطوات الحضارية الأولى ، هو أن يسجل  
ويرصد ويحصى ظواهر ذات خطر فى حياته الزراعية . وإذا حدثك المؤرخون عن  
أول تقويم عرفه العالم ، والغالب أن يكون التقويم المصرى ، فلا تحسبن أنه جاء  
نتيجة حساب فلسفى ورياضة عقلية - والمصرى لم تكن له عناية بالبحث العلمى  
البحث ، ولا بالتأملات الفلسفية لذاتها - إنما وضع التقويم بناء على ملاحظات  
للأفلاك والفصول وعلاقتها بالدورة الزراعية ، وصلة هذه بمواقيت الفيضان ، وهى  
على درجة عظيمة من الانتظام . وتلك ملاحظات لا بد أن تكون استمرت مئات  
السنين تسجل وترصد ، حتى اطمأن المصرى إلى إمكانه تحديد ستة بعده من  
الأيام جمعها فى أشهر ، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وإذا السنة لا تتظم مع حركة  
الفصول والأفلاك ، على حساب اثني عشر شهراً ، وإلا جاءت سنة شبه قمرية ،  
يتقلقل فيها ميعاد البلر والرى والحصاد . لذلك كان المصرى فى تلك العصور السحيقة  
بضيف خمسة أيام - أيام النسيء - إلى ستة ذات الستين والثلاثمائة يوماً . ولم يتعدل  
هذا التقويم ، ويصحح خطأ ربع اليوم ، إلا فى زمان يوليوس قيصر ، لأنها يعرف  
بالتقويم اليولياني .

وظاهرة تختص بها حضارة مصر . فيما قبل التاريخ وبعده ، وهى أن عصر  
النحاس يستمر طوال عهد الأسرات ، ويتأخر استعمال الحديد فى مصر ، ولا يستقر  
إلا حوالى العهد اليونانى . كما أن الآلات الحجرية تظل شائعة الاستعمال فى العصر  
التاريخى ، بينما يتحول عصر الحجر فى أوروبا إلى عصر النحاس ثم إلى عصر الحديد .  
فى الحلقات السابقة على التاريخ . ولعل هذا هو ما جدا بكورت لانجه إلى حسابان  
الحضارة الفرعونية منضوية كلها تحت العصر الحجري الحديث « النيوليتيكي » .

وحضارة ما قبل الأسرات تظهر لنا جليلة في العمرة وفي جرزة ، وفي حلوان ووادي دجلة والمعادى وهليوبوليس ، وفي نقادة والسماينة والبدارى . ولقد نشأت أجمل الصناعات الحجرية بالبدارى في الآنية المصنوعة من البازالت ؛ وتتقدم هذه الصناعة في العمرة ؛ وتصنع الأواني من المرمر والبازالت في مرحلة جرزة .

ونظام العشائر واختيار كل عشيرة لشارة طوطمية ، أو شعار خاص ، يتقدم في نهاية عصر جرزة : ثم تندمج الإمارات المحلية — أى الكور — في مملكتي الشمال والجنوب : وعاصمة الشمال في « بي » أو « بوطو » : وبواقي أطلالها موجودة عند تل الفراعين ، إلى الشمال الشرقى من دسوق . وعاصمة الجنوب في « نخن » — عند الكوم الأحمر — وهى التى عرفت فيما بعد باسم « هيرانكوبوليس » . أى مدينة الصقر ، وكان الصقر معبودها . وعلى مقربة منها قامت مدينة « نخب » — عند الكاب الحالية — وكانت من أهم المواقع في عصر ما قبل الأسرات .

أما موقع المعادى — واكتشافه يرجع الفضل فيه إلى مصطفى عامر ومنجيين — فقد قاسى الكثير من الاشتباكات بين أهل الشمال والجنوب ، مما كان سبباً واجحاً في أن يتخلى عنه سكانه .

ولكن بعد أن تم اتحاد الوجهين البحرى والقبلى ، اتجهت سياسة الوحدة إلى قرب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى قامت فيه وحوله عواصم مصر الكبرى : منف وبابليون والفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة .

وكان البداريون على صلة بالأقاليم المجاورة ، عن طريق الوادى الممتد من وادى النيل إلى شواطئ البحر الأحمر حيث معدن النحاس والأحجار الكريمة والأصداف . فقد اكتشفت بوادى الحمامات — على هذا الطريق — آثار ترجع إلى مرحلتى البدارى والعمرة . أما الذهب فكان يجلب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سينا ، والقار من البحر الميت . والأبسديان واللازورد والفضة والسبذج ، من غربى آسيا ومن الأرخبيل اليونانى .

وهناك دلائل على اتصال مصر بسورية في تلك الأوانى من الفخار ذات المقابض المموحة — وهى خاصة بجرزة — وقد وجدت في سورية ، وكان المظنون أنها وردت على مصر من سورية تحمل الزيت ، ولكن الكشف عنها ، في مرحلة

المعادي السابقة على جرزة ، قطع بأنها صناعة مصرية نشأت نشأة محلية .  
أما ديانة هؤلاء الألى فقد استدل عليها المؤرخون من مصدر متأخر ، وهو  
النصوص المنقوشة داخل هرم أوناس وما يجاوره من أهرامات الأسرة الخامسة ،  
وتعرف بمتون الأهرام . فالثابت من لغتها ، ومن طرائق التفكير فيها ، أنها ترتد إلى  
زمان سابق على الأسرات ؛ فهي إذن تسجل العقائد القديمة والأساطير الإلهية لأولئك  
الذين أسسوا حضارة البداري وممرمة بنى سلامة وجرزة والعمرى والمعادي . ويستخلص  
منها أن المصريين ، في عصر ما قبل الأسرات ، عبدوا أوزيريس في الدلتا ، وعبدوا  
هوروس - الصقر - في الدلتا وفي الكوم الأحمر ، « نخن » بالصعيد .

على أن آثار جرزة ، أو ما يعرف بحضارة نقادة الثانية ، وقد كشفت لنا عن  
قبور أهل العصر السابق على الأسرات مباشرة ، تؤيد حرص المصريين منذ ذلك  
الزمان الواغل في القدم على امتداد الحياة الدنيا في حياة الآخرة . فالمتوفى مسجى  
على جانبه الأيسر في الغالب ، وفي وضع أشبه بوضع الجنين في بطن أمه ، مغطى  
بمحصر أو نطع ، ويغلب أن يكون اتجاه رأسه نحو الجنوب ؛ وفي يديه ، وهي  
مقربة من وجهه ، توجد لوحة من الشبست على شكل سمكة أو طائر . وعثر في  
تلك المقابر البدائية على قطع من العاج ، على شكل أمشاط وعلاقات وأسلحة وعقود  
من حبات مكورة ، وتماثم على هيئة ثور أو طائر أو حشرة . والأسلحة مصنوعة  
إما من الظران أو من النحاس . كما وجدت الأواني وعليها رسوم تمثل سفناً تحمل  
شعارات تذكرنا بشعارات « كور » الدلتا في العصر التاريخي .

والمعنى الذي يمكن إدراكه من هذه الرسوم ، هو أن التكوين السياسي لمصر ،  
فيما قبل الأسرات ، قام على أساس المراكز أو المديرية للصغيرة التي يسميها  
اليونان « نوميس » أي الكور . فالشعارات التي تمثل كل كورة ظلت قائمة خلال  
التاريخ المصري زمناً طويلاً . ولقد فسر العلماء تعدد آلهة المصريين ، على أساس  
أن شمل آلهة الكور قد التأم في محاذاة التوحيد السياسي . ولم يتم ذلك في بعض  
الأحيان دون مشاحنات حادة ، كما حدث ذلك بين عباد هوروس وعباد سيت .  
ويبدو أن انتصار هوروس على سيت كان ماحقاً ، فقد توطدت عبادة هوروس  
في كلا الوجهين : شمالاً ، في « بوطو » وجنوباً في « نخن » - هيرانكوبوليس -  
عند الكوم الأحمر . وانتهى اضطهاد سيت وزحزحته إلى اعتباره إله الصحراء والمهل

والشر ، ولم يكن كذلك عندما كان المعبود الأكبر في كورته .  
ولعل ما انتهى إليه مؤرخو ما قبل التاريخ هو الأقرب إلى الصواب حين يزعمون  
أن حضارة مصر ، فيما قبل الأسرات ، قد تكونت ذاتياً في الدلتا ، واستعارت الكثير  
من مرمدة بنى سلامة ، ثم انتقلت إلى الصعيد . وحملت معها إليها الأكبر هوروس .  
ويستدلون على ذلك من نقوش حجر باليرمو ، وعليه سجل مؤرخو الأسرة الخامسة  
قائمة الملوك ، لا من أول مينا رأس الأسرة الأولى ، بل من قبله . وقد وجدوا في قائمة  
الملوك ، قبل مينا ، ملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأحمر - أى بتاج الدلتا - وملوكاً يرمز  
إليهم بالتاج الأبيض - تاج الصعيد - كما وجدوا بعضهم يحمل الـ « بشت » ،  
وهو التاج المزدوج ، رمزاً إلى توحيد الإقليمين . وفهموا من ذلك أن وحدة الإقليمين  
تمت قبل بدء التاريخ تحت زعامة الدلتا ، ثم انقسم الاتحاد ، ليعود في أول  
العصر التاريخي تحت زعامة ملوك الصعيد . وهذا الاتحاد الثانى مسجل على اللوحة  
المشهورة باسم لوحة الملك « نعر - مر » - مينا ؟ - وهذه اللوحة تكمل صورة  
انتقال حضارة جرزة إلى حضارة الأسرة الأولى ، ومظهر هذا الانتقال نقوش على  
زعوس دبابيس القتال ، وعلى اللوحات الأردوازية . ففي رأس دبوس منها ، نرى  
صورة ملك غير معروف الاسم ، وإنما سماه المؤرخون الملك « العقرب » ، لا بساً  
تاج الوجه القبلي ، ومحتفلاً بذكرى انتصاره على الوجه البحرى .

فهل يمكن قبول الاستنتاج الأخير كحقيقة واقعة ، وهى أن حضارة جرزة تمثل آخر  
مرحلة حضارية لعهد ما قبل الأسرات ، وأن فجر الحضارة التاريخية انبثق من هناك ؟  
إن القول الفصل في هذا تحققه حضارة المعادى . وهى التى أثبتت أن حضارة  
جرزة جاءت من الدلتا . وبذلك ينتهى عهد المعجزات في تاريخ الحضارات ،  
ويكون الأثريون والمؤرخون قد وفقوا إلى تتبع الحضارة المصرية من بواكيرها في آخر  
العصر الجيولوجى الرابعى ، خلال العصور الحجرية القديمة والحديثة ، والعصر  
« الإنيوليتيكى » ، حتى عصر الأسرات الأولى .

ويصعب على كاتب هذه السطور أن يقاوم إحساس الاعتزاز والفخر بأن  
بعض الفضل في وصل هذه الحلقات يعود إلى مصرى صميم ، هو مصطفى عامر ،  
أول من سجل اسماً مصرياً في قائمة المشتغلين بحضارات ما قبل التاريخ .



## أنوبيس يرقص

الست المندورة ما يزال يذكرها عجائز الروضة والمنيل ومصر العتيقة وفم الخليج ، لأنها كانت تقيم حتى العشرينات عند الطرف الجنوبي بلخيزة الروضة ، شائعة على أشجار أم شعور [ البانيان ] التي ما زالت تقف كآثار القديمة على ضفة النيل عند كوبري الملك الصالح . ولم تكن مثلهن « أم شعور » ، بل كانت جميزة معمرة ، وربما كانت شجرة لبخ ، فقد رأيتها طفلاً غريباً ، وكانت هلاهيل المرضى وأضراسهم ونخصلات من شعورهم معلقة بفروعها ، أو بمسامير دقت في جذعها ، وهي التي كانت تلفت نظري أكثر من أوراقها ، وسألت خولي قصر المناسرتي عنها إذا ما التقيت به .

المندورة شجرة كان الناس يتبركون بها ، ويقصدونها في الحاجات . فهي من بواقي خرافات اليهود البائدة ، مثل رتبة الباشوية ، وسيدى المتولى ساكن باب زويلة ، والست المزيرة وبغلة العشر . ولو اندفعنا في طريق الأثر بولوجيين لما ترددنا في القول بأنها من بقايا عبادة أوزيريس الذي استقر داخل شجرة في بيلوس ، نبتت حوله وفرعت وأورقت على ساحل فينيقيا القديمة عند جبيل . وقد علمت من سكان طرف الروضة الجنوبي ، بعد غيابي الطويل عن مصر ، أن شجرة المندورة قطعت ، ويؤكد بعض من حضر قطعها أنه سمع أيتها نبعث من داخلها والنبشاريحز في جذعها ، وأن سائلا نرف منها ، قد يكون عصارتها ، ولو أن محدثي يعتقد أنه شيء آخر .

ويزعم من شاهدوا المولد الكبير بالأقصر بأن حمل سفينة على عربة ، وفوقها أعلام أبي الحجاج الأقصري في الاحتفال بمولده ، يشبه أن يكون من بقايا طقوس آمون - رع ، والسير بسفينة المقدمة في أعياده الكبرى . ويظن آخرون بأن عادة تلقين الأموات ، فيها ما يوحى بنصوص كتاب الموتى وتقاليد الدفن في مصر القديمة ، إلى آخر ما نقرأ عنه في كتاب مس بلا كان الممتع ، وفي رسالة تقدم بها أحد مواطنينا - الدكتور غلاب - إلى السوربون .

وكان أهلنا يحلروننا من المرة السوداء في الليل . إذ يغلب أن يكون بعض



« إخواننا » تقمصها ، كما كانوا ، إذا رأوا واحدة من هوام الليل تحوم حولنا في ليالي الجمعة ، يلقون في روعنا أنها روح ميت من أهلنا . وقد ارتفعت من أعماق ذكرياتي هذه الخرافات عندما رأيت صورة « با » ، في شكل طائر أو حشرة ، تقف فوق تابوت ميت من القدماء ، أو تطير في بئر السرداب ، وعندما عرفت أن المرأة « بسطيظ » كانت إلهة بوباسطيس .

واليوم وأنا أتمشى على شاطئ البحر ، في نزهتي الطويلة مع طلوع الشمس ، تذكرت فجأة أنني رأيت في طفولتي الإله « أنوبيس » يرقص . ولم أكن في ذلك الزمن البعيد أعرف أنه « أنوبيس » ، ولا كان الملاعب الإسكندراني الذي يحرك دميته فترقص يعنى بذلك تقديم صورة لأنوبيس . ولكنني لم أكن أفهم لماذا اختار الرجل حيواناً مخنطاً يشبه الكلب الكبير ، قيل لي إنه « ديبة بو » ، ومعنى هذا في لغتنا الحديثة أنه جلد ابن آوى حشى بالتبن والقش . وأوقف الرجل « ديبته » في إطار يشبه مشايات الأطفال ، وألبسها ملابس الغوازي بشرائط القصب ، وركب في وسطها لولبا يحركه بذراع خشبي أو بذراعين ، فيتخلع خصر دميته ويتكسر على إيقاع غنااته وهو يقول « يا بيلى به . . . يا رقاصة » . فإذا كانت « بيلى به » راقصة ، فلماذا اختار لها الرجل جلد ثعلب محشو ؟ أما كان الأفضل أن يصنع عروساً ولو من قماش ؟

أسائل الآن نفسي : أيعنى الرجل عرض صورة من صور الماسخر التي يلبسها الإفرنج في أعياد المرافع قبل الصوم الكبير ؟ أو أنه يقصد جماعات السائحين ليتفرجوا على « أنوبيس » يرقص ؟ ولكن ذكرى هذا الملاعب وأنوبيسه تكاد تمحى تماماً ، ولن أستطيع اليوم أن أعرف شيئاً عن تلك الدمية العجيبة أكثر مما ذكرت . ومن غير المعقول أن يكون الملاعب عارفاً بأمر « التماثيل المتكلمة » ، وبرأس أنوبيس في متحف اللوفر التي كان الكهنة يحركون فكها الأسفل بشد خيط مخفى في قاع حلقها ، ردأ على « استخارات » الطالبين .

ولم يبق إلا أن أضحك في نفسي وأنا أردد : لقد رأيت أنوبيس ، حامل الميزان في قاعة العدالة بمحكمة أوزيريس ، يرقص رقصة البطن في حوارى القاهرة ! وابن آوى لم يكن سوى واحد من عدة الحيوانات التي اتخذها المصريون

أرباباً . فقد عبد أجدادنا الهر والأسد والصل والسقنقور والتمساح وسمك اللفش [ اللاتس ] والباشق والعقاب وآيا منجل والعجل والبقر والكبش والجمل ، واستطاع فهم العجيب أن يوائم بين هذه الحيوانات وبين الجسم الإنسانى . فقد ترى آلهتهم فى شكل إنسان كامل ، أو حيوان كامل ، أو برأس إنسان وجسم حيوان ، أو برأس حيوان وجسم إنسان . ويحار الأثريون فى تفسير هذه العبادات الطوطمية التى استمرت حتى نهاية الأسرات ، بل وأصبحت المظهر البارز لديانة المصريين أيام البطالسة والحكم الرومانى والبيزنطى . وكانت موضوع سخرية يوفثال فى قصيدته المشهورة ، التى يقص فيها قصة مشاحنة قامت بين أهل دندرة وأهل كوم أمبو ، ذكرتى بما كان يحدث فى الهند البريطانية بين المسلمين والهندوس ، كلما عن المسلمين أن يلجأوا بقرة ، وهى أقدم الحيوانات عند الهندوس . والفئة التى تندر بها يوفثال نشبت حول تمساح أكله سكان إحدى المدينتين ، مع أنه معبود المدينة الأخرى . تعددت آلهة المصريين ، وتشعبت تفسيرات الأثريين والمؤرخين ، وراح هؤلاء وأولئك يضربون فى كل واد . ولك أن تفهم من كلامهم ما فهموا هم ، أو ما تريد أن تفهم أنت . ما أهمية ذلك ؟ فالمصرى عبد ، كما تعبد الشعوب فى بداوتها ، مظاهر الطبيعة حوله : الشمس والسماء والأرض والماء والزرع .

ولكنه قدس أيضاً آلهة محلية تختلف فى كل كورة عن غيرها ، وقد تكون هذه مجرد رموز وشعارات للقومية المحلية . فالمصرى لا يحب وطنه الكبير وحده ، بل يحرص على وطنه الصغير ، إقليمه فعاصمة إقليمه ، ثم قريته . والآلهة العظام كانت هى أيضاً شعارات سياسية وأجدادا للملوك وأنصارا ، ومصدر رزق واسع للكهان ، يحكمون باسمها على الملك والوزراء والموظفين والشعب ، بعد ما انتقاد الملك لهم ، وكان ذلك إبان الدولة الحديثة .

لا قيمة تذكر لتلك الآلهة إلا فيما أقيم لها من معابد وهياكل ، ورسم لها من صور ، ونحت لها من تماثيل . ولقد كشفت لنا ثورة أمينوفيس الرابع « أخن - آتون » عن الأعياب السياسية التى تستر وراء الآلهة العظام . وكان أخناتون ثائراً غريباً ، يمكن أن نعتبره أبا الثوار فى التاريخ ، ندر أن نعرف له فى حويلات الشعوب مثيلاً . قالثورة تقوم ضد الحاكم وضد الحكم ، يقوم بها واحد من الشعب ، أو من العظماء

يقود الشعب . أما ثورة أخناتون ، فكانت ثورة ملك على كهنته وشعبه ، وخروج ملك عن طاعة آفته العظام . هنرى الثامن لم ينتفض على ربه ، بل ثار على شاغل الكرسى الرسول فى روما ، وربما لأسباب عائلية ، ومسائل زواج وطلاق . والإمبراطور يوليانيوس ارتد عن المسيحية التى اعتنقها أسلافه ، وعاد إلى الوثنية . والحقيقة أن يوليانيوس لم يرتد ، بل أعدته تربيته الهلينية لينشأ وثنيًا . أما أخناتون فقد خرج على عبادة آمون الكبير ، ذلك الإله الغول ، الذى حاول ابتلاع آلهة المصريين كلهم ، فجاء الشاب أمينوفيس يتحداه ، كما تحدى داود غالوت ، ويعود إلى عبادة الشمس فى مظهرها الواحد الخالق ، وفى صورتها المادية ، « آتون » ، أى قرص الشمس . ولو كان أخناتون من الرجال العمليين لصدقت أن ثورته سياسية ، ولكن طبيعة الشاب توحى بحركة روحية انبعثت من خلجات نفسه ، وربما من الجو الذى تربى فيه — وقد يشبه فى هذا الإمبراطور يوليانيوس المارق — ومن أثر الدم الأسبوى يجرى فى عروقه . ولقد اهتدى الملك الشاعر إلى أقدم آلهة المصريين دون منازع ، فأفرد له عبادة قلبية ، ثم عبادة رسمية حين هجر طيبة إلى الشمال ، لينشئ عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا .

وإذا كادت تلك الثورة أن تكلف مصر إمبراطوريتها ، فقد أهدت التاريخ المصرى فنا ثوريا أصيلا يتوخى الصديق ، وأدباً رومانتيكياً تحس فيه بتفجعات الإخلاص والأمانة تهب على الناس ، وإن كان فى كل من الفن والأدب عرق من المرض الملازم لكل رومانتيكية ، وهو المرض الذى تطالع آثاره على سبأ أخناتون وتكوين جسمه : ذلك الوجه المستطيل ، والشفة السفلى الغليظة المرتخية ، والخصر النحيل والبطن الثقيل . ولو لم يكن أخناتون صاحب ثورة هائلة ، ولولم يجدد فى الحياة المصرية ، لاستحق أن ينعت ، من صوره ، بنوع من انحلال الشخصية ، يعرف فى اللغات الحديثة بالـ *fin-de-siècle* .

ولم يكن آتون خلقاً ذاتياً خرج من لا شيء *ex nihilo* ، أو من رأس أمينوفيس الرابع . بل كان إلهاً شمسياً ، أو صورة من صور الشمس الإلهة ، فإن كلمة آتون نكرة تعنى « قرص الشمس » . ويبدو أن محاولات فاشلة جرت أيام أمينوفيس الثالث لتخليص رع من شركة آمون — رع ، وأفردت للشمس عبادة

خاصة ، حتى قبل أن يشرك أمينوفيس الثالث ابنه أخناتون في الحكم حوالى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . ونستطيع أن نعثر على سوابق لتلك المحاولات ، ولكن الفضل الأكبر لوضعها موضع التنفيذ الجدى ، يعود إلى الملك الناصر أخناتون . فهو لم يكتف بالصفات الأصلية للشمس التى عرفها مدوسة « إيون » - هليوبوليس - وإنما انتهى الرجل إلى مقاومة كل ما يتصل بطقوس الديانة المصرية المعروفة فى زمانه . ونكاد نجزم بأن عبادة الشمس فى مظهرها الجديدي كانت أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد . فالمعبود الكبير بعاصمة أخناتون لم يكن يحتوى على تمثال يعبد ، وإنما على صورة لقرص الشمس رمز الحياة . وكان للديانة الجديدة مظهر شخصى عجيب . فهى ديانته يبشر بها رجلها الأوحيد ، الملك أخناتون ، ويرسم لها طقوسها ، ولم تكن كالوثنيات القديمة مجهولة المؤلف . فالملك فيها هو صاحب الديانة ، وهو كاهن الإله ، وقد قارب فى ذلك مركز الملك فى الدولة القديمة ، عندما كان هوروس نفسه ، ثم ابن رع كاهنه الأكبر . وقبل أن تتحول مهنة الكهانة إلى التخصص الذى عرفته بعد نهاية الدولة القديمة ، والذى استمره بعد ردة توت - عنخ - آمون ، وينتهى أمرها إلى سيطرة الكاهن الأكبر على الدولة ، ثم تولى الكاهن هريهور الملك ، فى بدء الأسرة الأولى بعد العشرين .

وإذا كان المؤرخون يتشككون فى أن يكون أخناتون هو مؤلف اللحن الجميل والصلاة الرائعة الموجهة إلى آمون ، فهذا من حقهم ما لم يثبت ذلك بالدليل والبينة . ولكنى كلما تأملت صور ذلك الشاب المريض وأعضاء أسرته ، كنت أقرب إلى التصديق بأنه لم يكن رسول ديانته ولا كاهنها الأول فحسب . بل كان شاعرها المفلت ، ومؤلف ألحانها . وإذا كانت الفنون المصرية قد تخلصت من ربة التقليد فى عصر من عصورها ، فيفضل ذلك الملك الشاعر الفنان ، الذى أضفى شخصيته على عاصمته وفن عاصمته . فلم يعد التعبير الفنى فى زمانه مجرد الاحتفاظ بالقواعد والأصول ، بل انطلق شخصياً بلحمه ودمه ، فردياً فى كل مظهره .

والملك ، رسول الرب ، يتلقى عنه الوحي دون وسيط من جن وإنس : « أنت فى قلبي ، لا يفهمك غيرى ، لا يدركك غير ولدك أنا » . فذلك الملك ، ضعيف البنية غير السليم عقلياً كما يبدو من صورته وتماثيله ، أصبح شعلة من الشعور بملك



الإله الحديد أو المتجدد ، ولتقل إنه تحول شعاعة من تلك الأشعة التي يرسلها آتون إليه ، في صورة أذرع مملودة ، وأيد منبسطة .

لم يعد الإله يصور لعبيده في صورة منحولة من حيوان أو إنسان ، إنما هو قرص الشمس ، وأشعة الشمس تبسط أيديها المتعددة نحو الأرض ، تنىء بالخير ، وتقبل العبادة والقرايين ، وتختص رسولها على الأرض بعلامة الأزل : عنخ . ولم يعد الإله يقبع في ظلام قدس الأقداس ، داخل ناوسه ، مثل آمون « الخفى - المتخفى » ، بل هو إله يعبد في وضوح النهار ، لا سقف يغطيه ، ولا جدران تحبسه ، يبلو للعيان وسط باحة المعبد الكبير في تل العمارنة . ثم هو إله واحد ، لا شريك له ، ولا زوج ولا ولد ، خالق نفسه كل يوم ، والخليقة كلها تشارك ربها في أفراحه الخلاقة .

إنما أعجب ما في هذه الديانة ، هو حرص صاحبها على إلهة من الباشيون القديم ، لم تكن إلهة عظيمة إلا بمعناها الخلقى . لقد احتفظ أخناتون بإلهة الحق والعدالة والصواب : معات ، بنت رع ، والمحبوبة من رع . وهى إلهة صاحبت المصريين على طول تاريخهم ، تهديهم إلى فعل الخير ، وأداء الواجب ، وإقامة شرعة العدالة .

وبعد أن نبذ الملك أمينوفيس اسمه - ومعناه « آمون الراضى » - وتسمى باسم جديد هو « عبد قرص الشمس » ، أخن-آتون ، وتغيرت أسماء أهل بيته وكبار رجال دولته ، واستتب الأمر لمدينته الجديدة في تل العمارنة « آخت-آتون » - أى أفق الشمس - وهجرت المعابد القديمة في طيبة ، وطورد كهنتها وسدنتها ، وأوصدت أبوابها بعد أن محيت أسماء آمون وحطمت أصنامهم ، أقامت الرجعية رأساً مرة أخرى ، لأسباب سياسية ، وتحت ضغط المصالح التي أضيرت ، ولم تك كلها صوالح الكهنة ، بل لحق الضرر بالمصالح العليا للدولة ؛ لأن الملك - النبي ، والملك - الشاعر ، لم يكن يعنى بشئون الإمبراطورية الكبرى التي أسسها كبير الأسرة الثامنة عشرة . وأرشف الدولة ، الذى عثر عليه كاملاً في تل العمارنة ، شاهد على إهماله حتى الإجابة على رسائل مندوبيه السامين في الإيالات الآسيوية . ولقد شعر الآسيويون بالحبال أرخيت لهم ، فشرعوا في الانتفاض على الحكم المصرى ،



فلم يكن بد من أن ينهار نظام أختاتون كله ، ديانة وحضارة وعاصمة ، بعد موته مباشرة . وقد تولى العرش بعده أزواج بناته ، ومنهم ذلك الشاب اليافع المترف الضعيف ، العوبة البلاط والكهنة ، الذى غير اسمه إلى توت - عنخ - آمون . وكان الكهنة بحاجة إلى قوة تسند الملك ، وقوة عسكرية قبل كل شيء ، فتدخلوا وآزروا رجل السياسة والحرب : « هورمحب » ، لارتقاء العرش . وأذن هذا بانتهاء أعظم أسرات مصر القديمة ، وبدء آخر الأسرات الكبرى فى التاريخ الفرعونى ، وهى الأسرة التاسعة عشرة ، يتزعمها ويؤثل مجدها سبى الأول وكبار الرعامسة . وخلف أولئك كان الكهنة يعملون ويؤيدون ، وستظل الكلمة العليا لهم حتى سقوط الحكم الفرعونى تحت أقدام الغزاة الأجانب .

إنما الإله الذى سيطر على عقول المصريين ، ونفذ إلى قلوبهم لأطول زمن ممكن ، الإله الشعبى الذى حكم على عالم الأحياء والأموات ، وأقام ميزان العدالة فوق الأرض وتحت الأرض ، الإله الذى عرفته الشعوب التى اتصلت بمصر ، وانتهت بالتغلب على مصر : الإغريق والرومان ، الإله الذى أفرد له بلوتارك دراسة ممتعة فى القرن الأول للميلاد ، كان أوزيريس .

أوزيريس كان إله الخير ، فى مواجهة أخيه « سيت » إله الشر ، كان إله الوادى الخصيب ، ضد إله الحبل والصحراء . أوزيريس وزوجته - أخته إيزيس نظما شئون البلاد كلها . هى تكفلت بأمور البيت والأسرة ، وعينت بعلوم الطب والسحر ، وهو المنظم لطقوس العبادة ، الواضع أسس السلوك والأخلاق . ولئن ظل السابقون عليه أرباباً فى علاهم ، فقد كان أوزيريس أول إله ينزل إلى الأرض ، ويتحمل عذاب البشر ، ويمجى عليه الموت ، ثم ينشر حيّاً ، ويرفع إلى السماء ليلحق بالآلهة فى عالم الخلود . وحق له ، بعد تجربة الحياة والموت ، أن يتولى الحكم فى العالم الآخر حتى آخر عهد الوثنية المضربة ، أى حتى القرن الخامس الميلادى .

وأهمية أوزيريس وأسرته الصغيرة تبدو لنا فى ضوء التاريخ الوثنى ، وما جاء بعده ، لأن الثالوث المصرى القديم : أوزيريس - إيزيس - هوروس ، كان له أكبر الأثر فى تحول المصريين إلى الثالوث المسيحى .

وإن حب العالم القديم لإيزيس ، الزوجة العاقلة الأمينة ، وانتشار عبادتها فى

أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وتحول عبادة أوزيريس ، وأبيس المولثة ، إلى عبادة  
مصرية يونانية في عهد البطالسة ، تركت حول الإله سيرابيس ( أوزير -  
أبيس ) ، لظاهرة جديدة بالاعتبار ، لما كان لها من أثر في تطور الديانات القديمة ،  
وتخلخل في العبادة الرومانية مهد الطريق لتسرب المسيحية وانتشارها في العالم القديم .  
قيل إن أوزيريس كان ابن إله الأرض « جب » ، وإلهة السماء « نوط » ،  
وإن حياته وموته ونشوره ، رمز أبدى للطبيعة المتجددة : موات الأرض وعودتها إلى  
الحياة . أوزيريس إله زراعى ، يتحضر عوده وينمو ويورق ويشمر ، ثم يجنى  
ويحصد ، وتذرا أشلائه في الأرض ، لتعود الحياة إلى الأرض نباتا جديدا .

وأوزيريس إله الماء أيضا ، تلك القوة الخلاقة . والماء في مصر هو « حابي » ،  
رمز النيل الذى يفيض ويغضى ، يرمز ثديه الواحد إلى الفيضان والخير ، ونصف  
صدره المقاطع إلى الجفاف والتحاريق . ولا يبعد أن يكون « حابي » هذا مجرد رمز  
مصور للنيل ، وأن يكون معبود المصريين الثانى ، بعد الشمس ، هو أوزيريس ،  
الإله - الماء . فالآلهات الدينية تشبه إلى أوزيريس بقولها : « النيل ينبع من عرق  
أياديك . . . أنت النيل ، والآلهة والناس إنما يحيون بفضل جريانك . »

وفي أخريات التاريخ الفرعونى ، كان الفرق يكتبون في الشهداء . أتعرف أن  
هذه الفكرة ما تزال حية بين أفراد الشعب المصرى إلى اليوم ؟

والأسطورة تجعل من أوزيريس أول ملك لمصر الموحدة ، أيام كان يتولى  
الأرباب عرش مصر . وصراعه مع أخيه « سيت » صورة من جهاد مصر في  
سبيل الوحدة . وكانت بوزيريس عاصمة أوزيريس في الدلتا . وربما كان  
أوزيريس حقا أول ملك من البشر رفعه المصريون إلى مرتبة الآلهة . فالملوك من أول  
التاريخ المصرى ، وقبل أن يكونوا أبناء رع ، كانوا كلهم هوروسات ، وكان  
العامود « جد » يقف منتصباً في جميع الأعياد الثلاثينية الملكية ، كشعار لقيام  
أوزيريس من بين الموتى . وكان أوزيريس يمثل حاملا كافة الشعارات الملكية :  
التاج المزيج - البشت - والصولجان والسوط ذى اللسانين :

وأوزيريس كان إله العالم الآخر ، لأن الطقوس التى أجريت على أشلائه  
جمعتها إيزيس من شرق الأرض وغربها ، هى التى أعادته بقوة السحر إلى الحياة

الأبدية . فالناس يحرصون أن تجرى على بقاياهم الزائلة طقوس مماثلة ، حتى ينعموا بالحياة المقيمة في مملكة أوزيريس .

أوزيريس إذن هو إله الزرع والضرع والنيل والخلود ، بل هو أكثر من هذا : إنه إله الأسرة الفاضلة مجتمعة ، إنه الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن أخته وزوجته إيزيس ، ومن ابنة هوروس ؛ هو وهم مثال العائلة المتأسكة المتناضلة . أى أن أوزيريس اجتمعت فيه صفات الألوهية ، مادية وروحية ، إله نافع في الحياة وفي الممات ، إله خلقي أيضاً : قصة صراعه مع أخيه ، رب الحيل « والمقلب » سيت ، وإخلاص إيزيس لذكراه ، وتجوّالها في العالم القديم تجمع بقاياها ، ثم إعادته إلى الحياة ، كل هذه القصة الإنسانية العظيمة كانت عناصر نجاحه على طول التاريخ المصري العتيق ، بل وخارج مصر في عبادة إيزيس وسيرايس .

انتهت الديانة المصرية إلى أوزيريس ، وقد بدأت من قديم بالشمس في مدينة « إيون » . والشمس منذ الأمر الأول كان خالق كل شيء ، وخالق نفسه ، عندما خرج من ماء الحياة ، تون ، باسم آتوم . خلق نفسه ، وسمى هاراختي ، وسمى هوروس ، وغير ذلك من الأسماء . وهو « آتون » قرص الشمس ، وهو الجمل يدحرج كرة الخلق الدائم ، وهو الصقر يخلق في السماء . بيد أن اسمه الأكبر ، الذي اشتهر وذاع في طول البلاد وعرضها ، الاسم الذي انتسبت إليه الملوك ، منذ اعترف له ملوك الأسرة الرابعة والخامسة بالسبق ، كان « رع » .

ولكن أى شيء كان قبل « رع » هذا ، وكيف تصور أجدادنا أصل الخليفة ؟ قبل كان العالم ماء وظلاماً ، أو كان فيضاً وطوفاناً ، وكما أن النيل ، إذا عاد إلى مجراه وانحسر عن الأراضي العالية ، ترك وراءه هضاباً مغطاة بالطين ، هي مصدر الحياة ، فإن طوفان العالم بدأ يغيب ، وظهرت على سطحه أعالي الأرض كالجزر . وفوق جزيرة منها وقف مخلوق نفسه ، « آتوم » ، وحيداً ، وشرع في الخليفة ، فخرج الآلهة والمخلوقات من نطقته ، استمتاها بنفسه في رواية ، أو أنه أخذ يتلفظ باسم كل عضو من أعضاء جسده ، وإذا الكلمات تتجسد آلهة ويشرأ وكل المخلوقات .

ولكن كهنة منف ، وقد أصبحت عاصمة الوجهين ، أرادوا لإلههم الأكبر

« فتاح » أن يحتل الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق آتوم نفسه . وقد تحايلوا على ذلك بقولهم إن « آتوم بأصغريه ، قلبه ولسانه ، وفتاح هو هذا القلب واللسان » . والقلب ، في لغة المصريين ، يعنى العقل . فإذا كان آتوم بغير العقل واللسان ؟ إذن ففتاح — الفتاح — هو خالق آتوم ، وخالق الآلهة ، وخالق الكل ؛ تدبر بعقله ، ثم نطق بلسانه ، فكانت الخليقة : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » ، كما جاء في مطلع الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وفي نص مصرى قديم يقول كهنة منف :

« إنه الفؤاد يخلق بالفكر ، واللسان ينطق بما اختلج به الفؤاد . وهكذا خلق الآلهة جميعاً . . . . . والحق أن الكون الشامل خرج من صميم القلب عندما نطق اللسان بكل ما في الكون ، ونزل معه قسطاس العدل يثيب المحسن ويعاقب المسيء . . . . . وهكذا خلق العمل والحرف والصناعات ، كما نظمت حركة الأذرع ، وحركات السيقان ، وكل ما تنبض به حياة الإنسان ، انصياحاً لما اختلج به القلب ، وتحرك به اللسان ؛ فتاح مبدع الكون ومسوى الآلهة . . . . . »

وكان لمصر الوسطى ، بمنطقة الأشمونيين ، إله اسمه « توت » ، اندسجت فيه آلهة كور عدة : آلهة على شكل حيات وضفادع وقردة وآباء منجل . وعزوا إليه كل ما ينشئه العقل وتنطق به الحكمة ، كالكتابة والحساب والعلوم والسحر . وكان يمثل ، في الغالب ، الطائر « إيبس » أبو منجل ، أو إنسان لرأس ذلك الطائر . ويظهر أن توت هو الذى تقمص بشراً فيما بعد ، وعرف في عالم السحر باسم هرمس ترميجسطس ، أى مثلث الحكمة .

ومحاولات مصر الوسطى ، وكهنتها ، لم تكن لتستطيع أن ترتقى بإلهها توت الحكيم إلى أكثر من درجة رئيس ديوان أوزيريس في العالم الآخر ، لأنه لم يكن من السهل التغلب على سيد أبيلوس العظيم .

وخرج من بلاط توت إله قمىء إمعة ، لم يكن يتصور أحد أن يرتفع في الباشيون المصرى إلى أعلى عليين . ولكن أراد له طالع أن تختاره قرية حقيرة ، اسمها طيبة ، رباً لها ، ثم علا شأنها حين انتقل إليها الحكم منذ مطالع الدولة الوسطى ، حتى عهد الإمبراطورية الحديثة . وكان اسم هذا الإله « آمون » ،



ومعناه الخفى أو المختفى ، مستودع الأسرار . خرج آمون الخفى من بلاط توت الحكيم ،  
ليعيش مجهلاً أول الأمر فى زاوية من زوايا طيبة ، حتى أخذ بيده الملك آمون — إم —  
حجت ، وترجمة اسمه « آمون أولا » ، ورفع إلى المرتبة العليا فى عاصمة الأسرة الثانية  
عشرة ، التى أنسبها ذلك البناء العظيم .

وثبتت أقدام آمون منذ ذلك الحين إلهاً للملوك وأتباعهم من الطبقات الحاكمة ،  
يتنسب إليه ملوك الدولتين الوسطى والحديثة ؛ فكان الفرعون ابن آمون روحياً وجثمانياً ،  
كما تمثله نقوش معبد الأقصر ، أبا فعلياً لأمينوفيس الثالث ، وكما تصوره أسرار  
ولادة حتشبسوت من صلبه ، عاشقاً لأمها أحموزى الحسنة .

لم يكن من الصعب على كهنة آمون أن يستولوا على الإله الشمسى القديم ،  
ويربطوه قسراً بعجلة إلههم الحديث ، فيصبح إله طيبة الكبير ، بل رب العالم  
القديم ، هو آمون — رع ، وهو الإله الذى يعم الإسكندر ببطر معبده بواحة  
سيوة ، على اعتباره أنه معبد زفس ، أو جوبتر — آمون ، يسأله عن سر مولده ،  
فإذا آمون يشير فى لغة كهنته إلى صلات وثيقة كانت بينه وبين أم الإسكندر ،  
أولمبياس زوجة فيليب ، فى بلاد مقدونيا . وقد يفسر هذا الادعاء الصورة المشهورة  
للإسكندر وقد نبت له قرنا الكبش آمون ، ولأن الأولى بالقرنين كان ، دون شك ،  
الملك فيليب المقدونى .

وقصارى القول إن الإله الرسمى الكبير الذى تحكم فى أقدار الملوك منذ الأسرة  
الثانية عشرة ، كان آمون — رع ، والإله الشعبى الذى استولى على أفئدة المصريين  
منذ أقدم العصور ، كان أوزيريس ، أو الثالوث الأوزيريسى : أوزيريس —  
إيزيس — هوروس .

وكانت أطول الآلهة حياة هى إيزيس ؛ فحينما أصدر الإمبراطور المسيحى  
ثيودوسيوس ( ٣٧٩ — ٣٩٥ م ) مرسومه يحظر إجراء الطقوس الوثنية فى أية جهة من  
جهات الإمبراطورية ، توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علناً ، وأنهار بطريرك  
الإسكندرية تاوفيلوس على معبد سراپيس الأعظم بالإسكندرية يهدمه ، وينكس  
الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما استطاع من المعابد المصرية فى طول البلاد وعرضها .  
وتفرق الكهنة المصريون فى الأرض ، وقد هجروا ما بقى من معابدهم تنعى من بناها ،



إلا في جزيرة فيلى بأسوان ، وفي هذا يقول ماسيرو :

« عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظاهرة الاضطهاد نفسه الذى ذاقته المسيحية على أيدي الوثنية ، إلا فعبد إيزيس بجزيرة فيلى ، الذى تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . ومرد ذلك إلى تمسك الإثيوبيين بهذه الإلهة ، وتمسك جميع الشعوب القاطنة بأعلى النيل ، المتخلفة عن مملكة مروي . فعندما استولى البليميون [ أسلاف البجاويين والبخاريين والعبادة ومن إليهم ] على النوبة ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، خضعوا لسحر إيزيس فعبدها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها في جزيرة فيلى ، على الرغم من مرسوم ثيودوسيوس القاضى بإغلاق المعابد . ولم يكن مسيحيو فيلى ، بتشجيع من مطارنة أسوان ، ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد إيزيس . لولا خوفهم من بطش البليميين . لذلك بقى تمثال إيزيس مرفوع الرأس فى مواجهة المسيح الظافر . وعندما قضى النوبيون على البليميين فى حكم يوستينيانوس ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، أخيراً ، من أن ينكس صنم الإلهة ، ويدك مذبحها ، ثم يحول معبدها إلى كنيسة .

« ونستطيع أن نتخيل فى هذا القرن الأخير للوثنية المصرية [ القرن السادس ] ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعايتهم إلى النصرانية ، ولم يبق حافظاً للديانة العتيقة سوى بعض بواقي الأسر الكهنوتية العريقة . يمكن تصور هؤلاء الكهنة قابعين فى حرم معبدهم ، خلف أبواب موصدة ، يتوقعون فى كل آتة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة . ولكنهم عرفوا بعض فترات من الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسول للملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببرر الجزيرة فى احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرايين . وكان الكهنة حيثئذ يرفلون فى أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تمثال الإلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعها ، ويقفون فى جوسق نكتانيوس الملك ، فى انتظار حجاجهم البليميين . ويتقدم أولئك فى موكب حافل وخشوع عظيم . كان منظرأ يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت إيزيس حقاً سيدة العالم . »

## الفلاح القصيح

يتعلل العلماء ، تفسيراً لجزال الأدب المصرى ، بأن أجدادنا كانوا أكثر عناية بالنصوص الدينية ؛ وهنا أيضاً تنحرف نظرتهم العامة تحت تأثير حضارة لم يبق من وجهها الدنيوى إلا القليل ، بالنسبة لما احتفظت به المعابد والقبور . ولكن الاطلاع على القليل من الأدب المصرى الدنيوى ، وهو الذى احتواه كتاب إرمان ، يقنعنا بضياع أكثر ذلك الأدب ضياعاً ربما كان نهائياً .

وهناك نظرية أدبية مقبولة فى بعض الدوائر تقول بأن أدب المواعظ والحكم والشعر الوجدانى ، فى أسفار التوراة — والتوراة هى تاريخ بنى إسرائيل ، أخبارهم وآدابهم وفلسفتهم — متأثر بالأدب المصرى ، ويظهر ذلك بشكل محسوس فى شعر المزامير ومرثى إرميا ، وسفر أيوب ، ونشيد الإنشاد .

ولا أصدق أن يبلغ الكاتب — الاسكريب — مكانته الاجتماعية فى مصر لمجرد أنه كان ياشكاتب ديوان الفرعون ، أو ناظر شمالك أمراء الكور . بل كان فناناً كزملائه الرسام والحفار والنحات ، وكان مفكراً اجتماعياً ، وحافظاً لتراث الآباء والأجداد ، من علم ومعرفة .

ومن آثار الدولة الحديثة صفحة يصور فيها مؤلفها مشاق حياة الزارع والصانع وغيرهما ويشيد بمقام الكاتب :

« لاتكن مزارعاً ، وجانب صنعة الجندية ، واحذر مهنة الكاهن ، فليس فى كل هذه المهن ما يعدل صناعة الإنشاء . »

وجاء فى كتاب المدعو « أخطوى » إلى ابنه « بيبى » : « لا شئ يفوق الكتب ، وليثنى كنت قادراً أن أحب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك ، وأن أنه فىك الإحساس بجمالها . »

وفى بردية من مجموعة تشستر بيتى المشهورة ، تعاليم للشباب عن مقام أساتذة الماضى ، وما يجب أن تحفظه لهم الأجيال الطالعة :

« أما عن أولئك الكتاب الأعلام ، فلإن اسمهم منقوش على صفحات الأزل ،

مع أنهم ذهبوا مع الناهبين ، وعفت ذكرى معاصريهم . إنهم لم يشيدوا أهرامات ،  
ولا أقاموا لوحات لذكراهم ، ولم يخلفوا عقبا يتغنى بأسمائهم . إنما هي كتبهم ،  
وما أودعوها من حكمة أوروثوها لنا ، تتحدث عنهم بمقدار ما لهذه الكتب من معنى  
وقيمة ، وتخلد ذكراهم إلى أبد الآبدين . . . والكتاب أبقي من قصر مشيد ، أو  
معبد جنازى فى أرض آمنى ، أو شاهد من الصوان فى معبد .

« فهل نجد بين ظهرانينا كتاباً مثل هارديديف ؟ أو عبقرية كإعوتب ؟ من  
نضع الآن فى صف بنووفرى وأخطوى ؟ أو نقارنه بفتاح - حوتب أو بقائروس ؟  
أو بفتاح - أم - جيوفى ، وحاجب - إراسونب ؟ »

وكلمة أخطوى لابنه بيبى : « ليتنى كنت قادراً أن أحب الكتب إليك ،  
أكثر من حبك لوالدتك » ، لا تبلغ عمق معناها إلا أن نطالع فى نصائح الوزير  
فتاح - حوتب هذا الكلام الذى كتبه فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد :  
« ضاعف جناية أمك . تحملها كما حملتك ، ولاقت فىك المشقة والنصب .  
حملتك أشهراً فى بطنها ، ثم ولدتك ، فلم ينته عذابها ، بل أرضعتك ثلاث سنين ،  
وكفلتك وأدخلتك المدرسة ، لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك كل يوم بباب المدرسة ،  
تحمّل إليك الطعام والشراب . فعندما تشب عن الطوق ، وتتخذ لنفسك زوجاً ،  
ثم تصبح رب أسرة بدورك ، اذكر أمك التى حملتك وكفلتك ! وكل ما أتمناه لك ،  
أن لا تنحى عليك أمك باللائمة ، وأن لا تدعو عليك دعوة يستجيب لها سبحانه  
وتعالى . »

ومن الثابت أن كانت للمصريين مكتبات تحتوى على الكثير من المراجع ،  
وتحميها إلهة ترمى صورتها على جدران معبد سهورا ، من ملوك الأسرة الخامسة ،  
هى « سيشات » ، ربة التاريخ ، التى تسجل حوليات الدولة ، شريكة نوت فى  
حماية فن الكتابة والعلوم الرياضية ، سيدة « بيت الحياة » أى معاهد العلم ، وهى  
التي تنقش الاسم الرسمى للملك فى هليوبوليس ، على أوراق شجرة المنهى .  
ويسأل الملك زوسر ، رأس الأسرة الثالثة ، مستشاره إعوتب الحكيم ، عن  
منايع النيل ، وعن الإله الموكل بها ، فلا يجيبه أعلم علماء العصر القديم قبل أن  
يراجع مكتبته .

والملك نفر - حوتب ، من الأسرة الثالثة عشرة ، ينمى ما أصاب الفن في زمانه ، ويقول : « ألا كم أحب أن أرى الكتب القديمة التى تتحدث عن الإله آتوم » ، فيشير عليه رجال حاشيته بأن يدخل إلى بيت الكتب ليطالع الكلم المقدس : « وفتح جلالته لفافات البردى ، وحوله رجال بلاطه . . . ثم قال : نحن الملك ، نعلن إرادتنا فى أن يصور أوزيريس مع التاسوع كما نراه فى هذه الكتب . »

أما إن المصرى قصاص بالفطرة ، فأمر هذا قد لا يحتاج إلى دليل ، وقد عرفنا ، أبناء الحضرمنا وأبناء الريف ، مكانة القصص فى حياة الأسرة والمجتمع ، وقدرة أهلنا على الحكاية المرتبة المشوقة . وأنا واحد من الناس أعتقد بأن كتاب « ألف ليلة وليلة » أدب مصرى فى الكثير من قصصه ، وقد عانيت يوماً بالقصص البحرى فى العربية ، وبقصة السندباد بخاصة ، فوجدت لغة هذه القصص ، وعقلية المتحدثين فيها ، وسماتها ، مصرية بلدية . أما مصادرها فقد تحدثت عنها طويلاً فى كتابى « حديث السندباد القديم » ، وأرجعت ما يكاد يكون كل ما فيها من وقائع إلى كتب الرحلات والعجائب والكوزموغرافيا العربية .

أين إذن القصص المصرية فى العصور القديمة ؟ فيما عدا قصة الرحالة ، أو النوى الذى توغل فى البحر الأحمر وانكسرت سفينته ، وألقى به الموج إلى جزيرة فى جنوبى البحر ، رأى فيها الزوبعة البحرية المسماة « نافورة الماء » ، والتى تعرف عند العرب بالثنين ، لاعتقادهم أنها حيوان بحرى ضخم ، التقى فيها بطل القصة المصرية القديمة بهذا الثنين يجاذبه أطراف الحديث . وفيما عدا قصة « سنهوى » ، وقصة « أونامون » ، وقصة « خرفو والسحرة » ، وقصة الأخوين ؟ أين أصول القصص التى سمعها هيرودوتس ، وسردها علينا فى صور مشوهة ، غير مقبولة عقلاً ، فى كتابه عن مصر ؟

ولقد اخترت لك من الأدب المصرى كله ، وهو قليل ، صفحة واحدة من روح كتابى هذا . فإن كان كتابى - كما أردت له - صفحات مختارة من ملحمة الشعب المصرى ، فقد حرصت على أن يتضمن قصة « شكايه الفلاح » ، كما يسميها أدولف إرمان ، أو قصة « القروى الفصيح » ، كما يسميها برستيد ، لأنها

تمثل عندي قصة فلاحى مصر على مدى الأجيال والآباد .  
ولنما أحب قبل ذلك أن أشير إلى حادثة بسيطة جداً وردت في قصة « خوفو  
والسحرة » ، أترك للقارئ أن يستشف منها ما يراه ، وأرجو أن يوافق رأيه ،  
ما رأيته فيها :

« ومثل ديدى الساحر بحضرة الملك خوفو ، فقال بجلالته : يا ديدى ، كيف  
لم أر وجهك من قبل ؟ . أجاب ديدى : إنما نتوجه إلى من يدعونا ، وقد دعانى الملك  
فلبيت . قال بجلالته : أصحيح ما يقولون من أنك قدير على أن تلصق رأساً فصل  
عن الجسد ؟ . أجاب ديدى : أى نعم ، يا مولاي الملك ، في مقدورى ذلك .  
قال بجلالته : على بسجين تنفذ فيه العقوبة توتاً . فاستدرك ديدى وهو يقول :  
حاشا يا مولاي ! أنا لا أجرب سحرى في الإنسان . أليس الأخلق بنا أن نجرب  
مثل هذا العمل في العجاوات ؟ وأحضروا له إوزة يجرى عليها سحره . »

• • •

فلنقص عليك الآن قصة الفلاح الشاكي النصيح . حدثت وقائعها إبان الدولة  
الوسطى ، عندما كانت عاصمة البلاد في هرقلوبوليس ، فيما بين لشت ودهشور  
بمصر الوسطى ، وفي عهد ملك اسمه نب - كاو - رع ، يظن أنه حكم قرب نهاية  
الألف الثالثة قبل الميلاد . ويبدو أن بطل القصة كان من أهل وادى النطرون ،  
يتوجه إلى العاصمة ومعه حميره محملة بالنطرون ، يبادل به غلالاً .

« كان يا ما كان ، رجل اسمه خنوم - آنوب ، وهو قروى من وادى الملح ،  
له زوجة اسمها مريا ..... واتجه القروى جنوباً إلى هرقلوبوليس ،  
واتفق له أن التى برجل واقف على قارعة الطريق اسمه توتى - نخت بن أزيرى ،  
من رجال رينسى بن مبرو ، رئيس ديوان الملك . »

ما إن رأى توتى حمير القروى حتى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها . فجاء إلى  
مستلق في طريق القروى « لا يزيد عن عرض متر » ، يحده من يمينه غيط شعير ،  
ومن يساره مجرى ماء . ففرش عليه ثوباً من قماش ، سد به الطريق ، فيما بين غيط  
الشعير وشاطئ التربة ، جراً للشكل . ورأى القروى الطريق مسدوداً ، مع أنه ،  
كما يقول ، « طريق ملك للجميع » ، أى طريق عام ، فجانبه حرصاً على القماش



المفروش ، ودفع بحميره إلى ناحية الحقل ، ليمر من طرفه ، فقبض أحدها قبضة شعير ، فكانت الفرصة التي يغتنمها توتى - ناخت ، صاحب الحقل ، قال : « سأخذ حمامك هذا ، لأنه برعى شعيرى ! »

« قال القروى : إبنى أسير فى طريقى ، وأنت الذى اعترضته ، فحملتنى على الانحراف إلى طرف حقلك ، فهل تأخذ حمامى لأنه قبض قبضة شعير من شعيرك ؟ اسمع أما أجول لك : إبنى أعرف صاحب هذه الأبعادية ، إنه رينسى ابن ميرو ، رئيس ديوان الملك ، وهو الذى يطارد كل لص فى البلاد ، فهل أسرق فى أملاكه ؟ »

« توتى : أنا الذى أتكلم ، فما الداعى لذكر السيد رينسى ؟ »  
« وشوَّح توتى بهراوته ، ثم انهال بها على الفلاح ضرباً ، وساق حميره كلها إلى دار العزبة . وأخذ الفلاح يصيح مستغيثاً ، فقال له توتى :

« لا ترفع صوتك هكذا يا ولد ، وإلا شيعتك إلى عالم رب السمات [ أى أوزيريس ، وكأنه يقول له : انخرس يا ولد ، لاحسن أطلع روحك ] . »  
« الفلاح : تضربنى ، وتستولى على مالى ، ثم تريدنى أن أسكت ؟ يا إله السمات ، أستجير بك أن تعيد إلى مالى ! »

لبث القروى عشرة أيام بباب توتى ، يستعطفه فلا يلتفت منه إلا عنتاً وإعراضاً ، فيذهب المسكين إلى العاصمة ، يرفع شكواه إلى السيد رينسى . وهذا يحمله على موظفيه ، فلا يلقى منهم سوى إهمال أمره ، والميل إلى الفرض ، تحيزاً لزميلهم ، ناظر الضيعة . ويعودون إلى الرئيس ليقولوا له : « إنما القروى مدين لابن أوزيرى ، فلم يصنع هذا أكثر من استرداد حقه عنده . وعلى أية حال ، هل يعاقب توتى - ناخت على قليل من النظرون ، وشوية ملح ؟ فليرد عليه قليل ملح ونظرونه إذا ما لزم الأمر . » ويتغافلون قصداً عن الحمير التي استولى عليها ، وهي مصدر رزق القروى .

يقول برمشيد : « يستمع القروى إلى هذا الحكم الجائر ، بينما يجلس رئيس ديوان الملك سارحاً صامتاً . إنها لصورة تجمع فى بساطتها قروناً وأجيالاً من التاريخ الاجتماعى للشرق : فى ناحية : شرذمة من الدهاة المداهين ، رجال رينسى ، ويمثلون

فئة الموظفين ، وفي مواجهتهم الفلاح المغبون ، يمثل صيحة أجيال المحرومين يطالبون بالعدالة الاجتماعية .

ولم يثن الفلاح حكم الموظفين ، ولا سطوة المحسوبة ، عن أن يعيد بث شكواه إلى رئيسي في بلاغة وفصاحة ، لا يجد بعدها رئيس الديوان مندوحة عن الذهاب إلى ولي النعم ، نبيـ كاوـ رع ، ليقول له : « لقد وقعت يا مولاي بقروى ذرب اللسان ، فيأض البيان ، وقد استولى واحد من رجالى على أموال له . » فيأمر الملك بأن يستمع رئيس ديوانه إلى الشاكي ، دون أن يظهر استجابة إلى شكواه ، حتى يفرغ ما في جعبته ، على أن تدون أقواله في محضر ، ويأمر الرئيس إلى أهله وأطفاله رزقا ، وأن يوصى حاكم الإقليم بهم خيرا .

وهنا تنهى تلك المقدمة التي أراد بها كاتبها أن تكون إطاراً لتسعة أحاديث ، يضمها حكمه على العهد ، ونقده للرجال المسؤولين ، وهي صفحات كانت تدرس للأولاد كمحفوظات ، وتتلّى عليهم كاملاً ، وينقشونها في ألواحهم تحسباً لخطهم : « جعلت يا سيدى أبا لليتامى ، وعائلاً للأيتامى ، وأخاً للمحرومين . اسمك على رأس شرعة العدل ، ونفسك عالية تكبح جماح الظالم ، وتقيم ميزان الحق . أنصت إلى شكواى ، واستجب إلى دعائى ، ليعود الحق إلى نصابه ، أغثنى وارفع عنى ما ألم بي من جور .

« يا سيدى الرئيس ، أنت الصالح المؤمن ، البار بأرزاق الناس ، كأنك النيل تخضربه الحقول ، ويحيا به موات الأرض . فى حماك يأمن الناس غائلة المعتدين ، ولا يمنع السائل عن بابك . لا تستخف بأمرى ، فى رقبك شكاية الضعفاء . أنزل بالمسئ عقابك ، حتى لا يختل ميزان العدالة فى يديك ، فهبط كفة ذنوبك يوم الحساب . واجبك أن تصنى إلى الشاكي ، وتفصل بين المحتكمين إليك . وظيفتك حمايتى من المعتدى ، لا أن تقف إلى جانبه . أقم من نفسك للفقير سداً يحميه من الفيضان ، ولا تكن كالسيل الذى يجرفه .

« يا سيدى الرئيس ، أرح عنا الجور ، وامنحنا عدالتك . هبنا من لذلك الخير ، تقطع دابر الشر . كن طعاماً للجوهان ، وريراً للظمان ، ولياساً للعريان ، ودقناً لمن عضه القرّ بنابه .

« لقد علمك أهلك ، وأحسنوا تربيتك ، لا لتسرق ، ولا لتساعد السارق ،  
لا لتميل مع المعتدى ، فتكون على رأس المعتدين . حذار أن تصبح البستاني الضال ،  
فترى أرضك بالظلم ، وينبت زرعك البهتان ، ويروج الشر في سوقك .  
« أنت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طمع كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ،  
وهذا يتدفق من فى أنيأ وشكوى .

« أنت منيخ الملهوف ، وموقف النائم ، وملهج لسان الصامت . ليس من  
شيمك أن تحكم مغاليق قلبك ، وأن تضع أصابعك فى أذنيك حتى لا تسمع إلى  
من ينهم رجالك الذين أقمتمهم لإنصاف الناس ، فكانوا عوناً على من لا خلاق لهم .  
« أنصفنى بحق العدالة ، وربة الحق ، يا حامل الطرس والقلم ، كأنك توت  
الحكيم . فالحق بالحق أولى ، و « معات » إلهة الحق والعدل قائمة إلى يوم الدين ،  
تؤازر المنصف ، ومن عمل صالحاً ، وهو يوارى التراب مسجى فى ناووسه ولجده ،  
وتخلد اسمه لأنه رفع شرعة العدالة ، وأصاخ إلى كلماتها إليه : « لا تنيس شفتاك  
بغير كلمة الحق ، ولا تقدم يداك إلا الصالحات ، فالحق عظيم ، قوى ، سرمدى ،  
وثوابه معك حيث تكون » .

« أما الخديعة فلا تورث إلا الندامة ، وريحها الخبيث يدفع بسفينة صاحبها  
إلى حيث لا مرفأ . ومن نكث عهد العدالة ، فقد الصاحب والولد ، وكانت سوداً  
أيامه .

« إيه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فلا تسمع ؟ لم يبق لى إلا أن  
أستجير منك بأنوبيس فى العالم الآخر . »

• • •

ومع أن نهاية هذه البردية الجميلة ، التى يحتفظ بها متحف برلين ، مشوهة  
غير واضحة الكتابة ، فلإننا نتصور أن الوزير رينسى ، وقد سجل شكوى الفلاح ،  
حمل المضر إلى ولى النعم ، فوجد فيه « ما تطيب له نفسه ، ويفرح به قلبه » .  
ويتبين ، مما تمكن قراءته ، أن الملك أمر بفحص حالة الفلاح الفصيح ، ثم  
ترد بضع كلمات غير واضحة ، نرجو أن تكون سجلت قرار الملك بإعادة الحق  
إلى نصابه ، والأخذ من الظالم للمظلوم .

## وقفه الحائر

اللهم قد بلغت النرى ، وتسمت قنات المجد ، وكان طريق الطويل في الليل  
الملم وعراً عسيراً ، يدمى القلب والقدم . بدأت في جحيم التاريخ المصري ، ظلامه  
وحميمه ، جوعه وزقومه ، جوره ومظالمه ، زبانيته الغريباء يعتدون على وطني ، وأهل  
وطني يعتدي بعضهم على بعض .

أقف أملاً رثي من هواء الأعالي المخلخل ، وأرجع البصر حائراً ... مردداً ... وأنا  
من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف عام ، هي التي جعلت اسم بلادى على  
كل لسان ، منذ قلنماء الإغريق إلى اليوم . الحضارة التي رفعتني في أعين العالم  
المتمدن ، قديمه وحديثه ، هي التي نزلت بي إلى الخضم عندما اشتبه العالم في  
أنني غير جدير بأجدادى الأولين ، بل تشكك في شرعية مولدى ، عندما عرفني  
أقل الناس علماً بمجدى الغابر ، وأشدهم إنكاراً لأرومتي .

لست مستحقاً رفعا ولا خفضاً ، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب ،  
وصدق الناس أخيراً أن المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه . لا تحكم لي أو علي ، لأن  
ماضى البعيد كان مجداً مؤثلاً ، وماضى القريب كان ذلة وهواناً . أنظرنى حتى  
تبين حاضري ، وستعرف أن حرفاً واحداً لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى ، والمسيحي  
والإسلامي . فليس من طبيعة المصري أن يتخلى عن تراثه ، تالده وطريقه ، كراكيه  
وتحفه الغالية ، عظيمه وحقيقه .

في قلبي القسيح مكان لكل أسلافى ، عاقلهم وأحمقهم ، غنيهم وفقيرهم .  
« بهو الأجداد » في بيتي لا يعنى بأسماء يتردد صداها في رحاب التاريخ وقاعاته ،  
بقدر ما يعنى بالمجهولين المغمورين منهم ، ذلك الجبار المصري الذي رى وراءه  
ستين قرناً من الزمان ، مكلل الحيين بكل ذلك المجد ، مثقل الكاهل بكل ذلك  
العذاب والقهر .

أقف فوق قمة الجبل الشامخ الأشم ، لأملأ رثي من هذا الهواء المخلخل ،  
يعتريني دوار ، ويتعقد لساني ويتعطل ييائي ، لما هو هذا التاريخ المصري الذي

طال السرى بحثاً عنه ، وطلع الفجر علينا ، فإذا به مائل أمامى من أوله ؟

• • •

عندما سأل هيرودوتس الكهنة المصريين عن عدد الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد ميناء ، أجابوه بأنهم ثلاثون وثلاثمائة ، وادعى أنهم فتحوا له بهواً عظيماً ، اصطفت فيه تماثيل أولئك الملوك الثلاثمائة والثلاثين .

ويقول ديودورس الصقلى بأن المصريين يعتبرونه مقياساً على حكمهم ، وسلامة شرائعهم ، أن يتولى الحكم فيهم قافلة من الملوك تتوالى على مدى سبعمائة وأربعة آلاف عام ، وكان جلهم من أهل البلاد .

وكان سولون يردد قول الكهنة المصريين له : أنتم يا علماء اليونان أبناء يومكم فيما تعرفون ، ويضيف أحمد كمال في ترجمته المسجعة : ليس فيكم كهول في الفضل ولا شيوخ ، ولا من له في المعارف قدم ثابت ولا رسوخ .

• • •

التوغل في العتاقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى . ومن المشكوك فيه جداً أن تكون الحضارات التى قامت في وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية .

ويتراوح التقدير الحديث لتاريخ مصر بين ما يعرف بالتقدير الطويل ، وهو ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وبين التقدير القصير وهو مئتان وثلاثة آلاف عام . وهذا يتناول تاريخ الأسرات وحدها ، أما ما قبل الأسرات فتاريخ يمتد إلى آلاف مؤلفة لا نعرف لها عدداً ولا حصراً .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : هل توصل العلماء إلى الكشف عن تاريخ مصر كله ؟ والإجابة على هذا نفي بات ، فما أبعدنا اليوم عن معرفة هذا التاريخ كاملاً . ولا يظن أن تبلغ منه يوماً مبلغ ما اجتمع للأوربيين عن تاريخهم اليونانى والرومانى . وأمامى الآن كتاب أحمد كمال ، المؤلف منذ نحو ثمانين عاماً ، وكتاب جاستون ماسيرو من أواخر القرن الماضى ، وكتاب أحمد فخرى الصادر عام ١٩٥٦ ، ثم الطبعة الأخيرة من كتاب دريوتون وفاندييه ، المنشورة سنة ١٩٥٢ ، وتحتوى على تصويبات ومناقشات تحاول وضع الأمور في نصابها ، حتى تاريخ تأليف الكتاب ، أو إعادة طبعه .



ولا أتصور أن أدعى بأن هذه الأعوام لم تصنف شيئاً ، بل أضافت الكثير مما يشهد للآثرين والمؤرخين من كل الشعوب بالمتابعة ، والكدح العظيم . ولكن الصفة المميزة للتاريخ المصري القديم ، سواء طالعت في كتابي ماسيرو وأحمد كمال أو في طبقات كتاب برستيد ، أو في أحدث الكتب ، هي إشعارك بأنك تطالع مجلداً قديماً أكلت القرصة صفحاته ، واخترقت الكثير من كلماته ، بالإضافة إلى ما تشعث وتفرك من أوراقه ، فضاعت فيها فصول بأكملها .

ثم أين الأدب المصري في أربعة آلاف عام ؟ أهذا هو كله ، بعصوره الثلاثة ، يجمعه كتاب متوسط الحجم وضعه أدولف إرمان ؟ حقا إن الأدب بكيفية لا يكفه ، ولكن ما بقي لنا من الأدب الفرعوني لا يشتمل على صفحات تراعى من جمالها كما يروعك هوميروس ، أو قصائد الريحيدا . إنما هو أدب فيه فن ، وشعر صادق الرنين ، مصري إلى نخاعه ، كما أحس به وأنا أطلعه في ترجمات باهتة ، دون أن أستطيع تفسير هذه المصرية القمح لشخص أجنبي .

وما هي تلك الآثار الباقية بالنسبة لما ضاع ودال واختفى ؟ أربعمائة أو خمسمائة قبر اكتشفت في وادي طيبة وسفوح تلالها ، هي كل رصيد ألتى عام على الأقل من تاريخ الأسرات ؟

بل ما هي تلك المعابد المتهمة ، والأصنام المشوهة ، التي أخرجها العلماء من وسط القمامة والرمال والتراب ، والعشش . وما هي تلك الأهرامات والمصاطب ، والقبور المحفورة في بطن تلال بني حسن والبرشة وأسيوط ، وما عددها بالنسبة لما كان موجوداً في أخريات التاريخ القديم ؟ هل يمكن أن نتصور مصر القديمة كاملة بمبانيها وأهلها ، وحكوماتها المحلية والمركزية ، ونظمها القضائية والإدارية ، ولاكليسها وجيشها وبوليسها ومهندسيها وأطبائها ؟

وما أضحك له كثيراً سعة خيال زوار الكرنك ، أعظم الآثار القديمة في العالم أجمع دون شك . ولست أنوى الانتفاص مما يبعثه في النفس من أثر عميق جداً ، ساحق ، يكاد يصرع كل حساس بالفن ، مدرك لمعنى التاريخ . ولكن أين هو معبد الكرنك ؟ وأين الصروح العشرة التي يتحدثونك عنها ، ويثبتون موضعها في رسوماتهم القطاعية ؟ إنني لم أعرف للمعبد المصري رأساً من ذنب ، إلا قليلاً بعد زيارة معبد الأقصر ، وكثيراً جداً بعد رؤية معبد سيتي بأبيدوس ، أمثلة لجمال

العمارة بمعناه الكامل ؛ وعندما تشاهد معابد دندرة ، وإسنا ، وإدفو ، ترى أبنية أقيمت في عهود متأخرة ، تحمل في كيانها جرثومة التدهور الفني ، ولكنها احتفظت على الأقل بوضعها وشكلها ، فلا تطالب غيبتك بأكثر من تصور الألوان ، وإضافة بعض السجف هنا وهناك ، ورفع الأعلام ، واستحضار حياة ذلك العالم القديم الذي احتفظ بالكثير من تقاليده ، وطقوسه ، ومثله الفنية والفكرية ، حتى انهارت تحت معاول الهدم ، وسفت عليه رمال الحداث ، وعوادي الزمان .

يجب أن ندرك ذلك وغيره لفهم صعوبة الإحاطة بالتاريخ المصري ، وربما استحالتها ؛ ولا أظن أننا واصفون إلى كتابة هذا التاريخ القديم بطريقة متصلة متناسقة . ومن أحسن الكتب حقاً ، في هذا الصدد ، كتاب جيمس هنري بروسيد ، لأن الرجل ، مع استناده الطيب إلى النصوص التي نشرها في أربعة مجلدات كبيرة ، وإلى غيرها ، لا يفتأ يحدثك حديث الحكاية ، عن ذلك التاريخ ، ويسحرك بأسلوب عفا الآن أمره . هو أسلوب أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ذلك الأسلوب الأزهر الأنيق . ولكي تعرف ما يضطر إليه ذلك المؤرخ العلامة من التخيل والقروض في كتابه ، أضرب لك مثلاً اخترته عفواً ، مما كنت أطلعه ليلة أمس ، في أول الفصل الثامن ، عن « تدهور الشمال ، وارتفاع نجم طيبة » : « وتحول الكفاح الداخلي ، الذي أطاح بالدولة القديمة ، إلى نوبة من الصراع ، كانت فيها يد الدمار هي العليا . أما متى ، وعلى أيدي من نزل ذلك الخراب ، فليس في مقدورنا حتى الآن أن نعرفه . بيد أن المدافن الفخمة ، التي أنشأها أعظم ملوك الدولة القديمة ، خربت تحت معاول الهدم ، حتى لم يبق للكثير منها أثر يدل عليها . والمعابد لم تنهب فحسب ، بل إن ذخائرها الفنية ، كتماثيل الملوك من الصوان ، وحجر الديوريت ، كانت تدك دكاً ، وتتطاير شظاياها شذر مذر ، وتلقى في بر بيوبة طريق الأهرام . . . »

## أو

« وكان النصر حليف أمتهم في تلك المشاحنات ، ولكنه واجه موقفاً ممتعاً في الصعوبة . في كل مكان وقف النبلاء المحليون ، حكام الكور الذين شاهدنا ارتفاعهم في الدولة القديمة ، موقف أمراء مستقلين بإقطاعاتهم ، وكانهم ملوكها .

وكانوا يتأملون قائمة أسجدهم القدامى ، وقد انتهوا إلى جيل آبائهم ، أولئك الذين قضى سلطانهم على الدولة القديمة . فيعملون على ترميم مدافن مؤسسى أسراتهم .

• • •

وفي أول الفصل التاسع : « وكان طبيعياً أن يسكن ملوك الأسرة الحادية عشرة في طيبة حيث عاش مؤسسو الأسرة أيام الحرب الطويلة للتغلب على أهل الشمال . ولكن أمنيحت لم يكن في إمكانه السير على هذا التقليد . ويسهل تصور الأسباب التى حدثت به إلى تقدير ضرورة انتقاله شمالاً حتى يحتفظ بمقامه بين حكام الشمال ، بمن لم ينفكوا عن الميل إلى البيت المالك في هرقلوبوليس . هذا إلى أن جميع ملوك مصر — فيما عدا الأسرة الحادية عشرة ، التى أزاحها أمنيحت — منذ انتهاء دولة طيبة [ طينيس ] ، أى منذ ألف عام ، استقروا هناك . فاختار موضعاً قريباً من النهر ، لبضع أميال إلى الجنوب من منف . وهو موضع لم نوفق بعد إلى تحديده ، والغالب أنه كان قريباً من الموقع المعروف الآن باسم لشت ، حيث اكتشفت أنقاض هرم يحمل اسم أمنيحت . . . وكانت الأمة مؤلفة من مجموعة دويلات ، أو إمارات صغيرة يدين رؤساؤها بالإخلاص للفرعون ، ولكنهم لا يعتبرون موظفين عنده ، أو خداماً له . كان بعضهم من « اللوردات » الكبار ، أى حكام الكور ، والبعض الآخر كانوا مجرد « كونتات » يحكمون على أبعادية ، يتوسطها مركز العزبة الحصين . كانت دولة إقطاعية ، لا تختلف كثيراً عما عرفت أوربا في عصورها الوسطى ، تلك هى الدولة التى ساس أمنيحت أمورها . . . »

• • •

ستجد الكثير من هذا في كتاب برستيد ، وغيره ، وسأنتقل إليك في فصل تال صفحة طويلة من كتاب « موريه » عن « النيل والحضارة المصرية » ، تعرف منها وسيلة مؤرخى مصر القديمة في إنشاء تاريخ يقرأ . فالمؤرخ إما أن يلزم حدود النصوص ، فلا يخرج عن مجرد آلة تسجيل وترجم ، وإما أن يعمل بعقله وقريحته وأسلوبه ، فيستخرج ويعمل ويحلل . ولو لم يفعل ذلك لظل تاريخ مصر « أرشيف » ميتاً . وأصدق ما طالعت في هذا الصدد قول ولسون في مقدمة كتابه عن الحضارة المصرية الذى نشره في طبعته الأولى تحت عنوان « عبء مصر » ، قال :

« والكتاب التاريخى بمعناه يحاول الاحتفاظ بأكبر قسط من الطريقة العلمية ،

والتزام الموضوعية ، ويكون الكتاب مرجعاً للمشاهدات التي سجلت وروجعت ،  
في أحقاب التاريخ المختلفة . وهذه المشاهدات والملاحظات يجب أن تعرض بحيث  
يمكن التحقق منها ، وتحليلها واختبارها بواسطة الآخرين . أما تفسير المشاهدات  
والوقائع ، أي محاولات المؤرخ أن يفسر عليها رواء التسلسل ، ويجعل لها قيمة ،  
فيجب أن يحدد ويوضح ، حتى لا يأخذ به القارئ إذا أراد أن يستنتج بنفسه من  
واقع الحقائق المعروضة . والطريقة المثالية لعرض التاريخ المصري هي في تقديم مكتبة  
تحتوي على الكتب التي تعالج مصر القديمة ، وإلى جانبها المصادر ، والمجلدات  
والدراسات المختصة ، التي تؤدي إلى تاريخ الحضارة . أي أن تعرض للقارئ :  
مجلدات تشتمل على ترجمات لجميع أنواع النصوص والمتون المصرية ، يضاف إليها  
الجديد أولاً بأول ، وأن ترفق هذه الترجمات بتعليق كاف يقنع القارئ بقيمتها  
كترجمة ، ومجلدات تصنف وتحلل البقايا المادية للحضارة المصرية ، ومن ضمنها  
الأعمال الفنية ، مع صور واضحة لها ، ومع تحديد تواريخها ، حتى تمكن القارئ  
من الحكم عليها كمستندات ، ومجلدات تتناول الدراسات الخاصة بالديانة ، والسياسة ،  
والاقتصاد ، والنظام الاجتماعي ، والصناعات ، والعلوم ، والفن والأدب إلخ ،  
والتطورات التي مرت بها كل هذه . ثم تلخيص كل تلك المواد في تاريخ للحضارة  
لا يخرج عن حدود الاعتدال ، يتاح فيه للمواد الأصيلة أن تتحدث بقدر الإمكان  
عن نفسها . وهذا هو الأساس الذي يمكن للمؤرخ من أن يتقدم بتعليقاته التي  
تستهدف ، أو تزعم ، تفسير قصة التاريخ ، وإبراز قيمتها .  
ويعترف ولسون ، وهو يقدم لكتاب من أحسن وأعمق ما كتب دراسة  
للحضارة المصرية ، بأنه وضع فيه « العربية قبل الحصان » فالدراسة الحالية في أغلبها  
هي عربية التعليقات ، والحكم الشخصي للمؤلف ، التي كان يجب أن تسبقها خيول  
من المصادر الأصيلة ، وتاريخ في حدود الاعتدال .  
ثم يقول بأنه وضع العربية قبل الحصان لأن « أغلب خيولنا . . . لا وجود لها  
أو أنها بلغت من الكبر عتياً » ، مشيراً بهذا إلى نقص كبير في النصوص ، وحاجة  
ملحة إلى إعادة النظر في ترجمة ما سبق أن ترجم منها .  
ويتساءل ولسون عما هي « الحقيقة » في التاريخ المصري القديم ، وما هو



السجل التاريخي ؟ يعنى بذلك أن من الخطأ الاعتماد على ما كان المصريون يقولونه عن أنفسهم ، تبريراً لأعمالهم ، عندما يققون أمام الديان ، أو ليرسموا لأنفسهم صورة تاريخية معينة . وقد ثبت مثلاً أن حكاية رمسيس الثانى التى تمدح بها الشعراء ، ورسمها الرسامون ، وسجلها المؤرخون : حكاية وقوفه بعربة الحرب وحده ، يصد جمحافل الخيتا ، ليس لها ظل من الحقيقة ! ولم تكن بحاجة إلى إثبات علمي للزيف فيها . فقد كنت : وأنا غلام يعلمونه التاريخ ، لا أرى فيها إلا ما يشبه وصف بشر بن عوانة للقائه مع الأسد ، في قصيدته المشهورة : وإلا ما يذكرني بأشعار عنزة العيسى يصور نفسه لحبيته وهو في نقيع المعامع ، والسيوف تلمع « كبارق ثغرها المتبسم » . لم أكن أصدق البتة أن بشر بن عوانة كان « هزبراً أغلباً لاقى هزبراً » ، ولم آخذ العيسى مأخذ الجدل لحظة واحدة . وما كان أقسانى تشفياً في المتنبي عندما عرفت أنه كان أى شئء إلا ذلك الفارس المقدام : والأسد الفرغام ، الذى صور به نفسه في شعره الجزل الرائع !

لئن أحيل القارئ على مقدمة الدكتور ولسون ، فهى من أصدق وأعمق ما طالعت تعليقاً على كتب تاريخ مصر القديمة ، والرجل معترف بأن كتابه واقع في المخطور الذى يتحدث عنه .

لقد حاولت مثلاً أن أفهم ولو قليلاً من الديانة المصرية خلال تفسيرات وتخريجات ، ولف ودوران ، فأحسست إحساساً مؤلماً بأن أصحاب هذه التعليقات غير واثقين مما يكتبون ، وأن حقائق الديانة ليست واضحة لهم . وإلا لما صعب عليهم أن يوضحوها لنا . ولست أظن بحال أن تلك الديانة كانت على شئء من التعقيد الذى نعرفه في الديانة الهندوكية - وهى وثنية متعددة الأرباب كالديانة المصرية - ولكنهم أهل التخصص ، مؤرخو مصر القديمة ، هم الذين صوروا الديانة المصرية على شكل ذنب الضب ، أو أعقد .

وليس من عملى في هذا المجال ، ولا في غيره ، أن أوضح معالم التاريخ المصرى ، أو أصف الحضارة المصرية : إنما هى انفعالات يجرى بها القلم هنا وهناك ، ورحلات فكرية في رحاب ذلك التاريخ .

لا أعرف للتاريخ المصرى غير حقيقتين لامرء لهما : الحقيقة الأولى هى النصوص المنقوشة على الجدران ، والمكتوبة في البرديات ، أو فوق الشققات والشظايا ،



مترجمة ترجمة أقرب إلى الصحة . وفي التاريخ المصري نصوص ذات أهمية كبرى ، كنصوص برديات هاريس عن عصر رمسيس الثالث ، وكتون أهرام أوناس وأسرته ، ونصوص كتاب الموتى ، وبرديات إدوين سميث الطبية ، وكل ما يدخل في عداد الأدب من آثار . ولكن هذه النصوص وأمثالها ، إن ألقت ضوءاً على بعض حقائق الحضارة المصرية والتاريخ ، فهي لا تمثل إلا قسماً يسيراً من الحياة المصرية ، وهو القسط الممتاز الذي يخرج في الغالب عن حدود الاعتبار .

فهل صورة مصر الموتى هي صورة مصر الأحياء ؟ وهل كانت فكرة الموت مستحوذة على المصري ذلك الاستحواذ الذي يبدو فيما بقي لنا من آثاره ؟ هل من المحتوم أن أصدق كلام ديودورس وهو يقول : « أولئك الناس كانوا ينظرون إلى الحياة كأنها فترة قصيرة لا أهمية لها ، بينما هم يعنون عناية كبرى بحسن الأندوة التي تتخلف عن فضائل الإنسان بعد موته . لذلك هم يعتبرون بيوت الأحياء نزلاً يقضى فيها المرء بعض الوقت ، ثم يمضي ليقم إقامة دائمة فيما كانوا يسمونه "بيوت الأزل" . فلم يعن الملوك بناء قصورهم ، إنما بذلوا كل مرتخص وغال لإعداد مدافنهم . »

وماذا نقول نحن المسلمين غير ذلك ؟ وهل يقول إخواننا المسيحيون شيئاً آخر ؟ ألسنا نحيا في هذه الدنيا بكل معاني الحياة وكأننا نعيش أبداً ؟ وما أقل ما نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً . ولكن إذا جاء بعدنا من يطالع أمثال هذه الأحاديث القديمة ، وروائع ما يؤثر عنا من كلم ، وما تأمر به الديانات وما تنهى عنه ، هل يستطيع — إذا لم يكن عرف حقيقتنا — أن يتصورنا إلا قوماً . . . نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟ !

يصف العلامة أميلينو الجنس المصري بأنه من أعظم الأجناس بشراً وحباً للحياة ، ويدعى بأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم — أي حتى أوائل القرن الحالى — أطفال كبار ، يحبون البهجة ، ويقبلون على المسرات ، أهل اجتماع وألفة ، يترعون إلى كل مباحج الحياة الدنيا ومتاعها . وما علينا إلا أن نلقى نظرة — ولو عابرة — على الرسومات والتماثيل التي تزين المقابر منذ أقدم العصور لتأكد من صدق ما يقول . والمصري — على حد قول أميلينو — لا يكتفى بحقائق

الحياة وحدها ، مهما كانت مفرحة بهجة ، فهو ما قفى هائماً في خياله بحثاً عن  
الخوارق ، وجرياً وراء المغالاة . . . وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا  
بين عقائدهم القديمة وبين دينهم الجديد ، ولم يتبدوا أساطيرهم العتيقة ، بل كسوها  
لباساً مسيحياً ، فتحوّلت آلهتهم القديمة وجنتهم ، إلى ملائكة وقديسين ، وإلى  
أبالسة وشياطين .

• • •

لقد حسب كبار عدد مقابر طيبة ، فكانت في حدود الأربعمائة ؛ وقدرها  
بالنسبة للقرون التي دفن أصحابها في خلالها ، وعلى أساس خمسة وعشرين عاماً للجيل  
الواحد في الزمن القديم ، فإذا لكل جيل عشرة قبور لا غير . أى أن حسبته  
أوصلته إلى أربعين ميئاً في كل مائة عام ! ثم قال بأن محاولة استخراج الطقوس الجخرية  
من هذه القبور تشبه أن يحاول الناس ، بعد بضعة آلاف السنين من اليوم ، التوصل  
إلى طقوس الفرنسيين والإنجليز في الجحنازات . . . من مدافن البانتيون ودير  
وستمنستر .

ما أصدق قول ماسيرو لسائليه ، عما إذا كان تاريخ مصر القديمة تم ظهوره  
للعيان : « إننا لم نفعل حتى الآن شيئاً أكثر من خدش أحدثناه في ذلك التاريخ ! »  
ماسيرو الذي قارقنا منذ أربعين عاماً وبعض الأعوام ، وكان من أعمق رجال عصره ،  
وأوسعهم علماً بتاريخ مصر والشرق القديم !

ثم هل فهمنا النصوص المصرية ، التي تفرش على أكثر من ثلاثة آلاف  
سنة ، على وجهها الصحيح ؟ أما نلاحظ تطور اللغة على مر القرون ؟ ونحن نعرف  
ما يصيب لغاتنا الحية من تحول في مئات السنين ، حتى مع بقاء ألفاظها دون  
تغيير : تأمل على سبيل المثال كلمة « نكتة » عند الجبرقي منذ أقل من قرن ونصف  
ومعناها « واقعة » أو « كائنة » أو « اختراع » ، وقارن ذلك بمعناها المتداول اليوم :  
تحولت من « واقعة مهولة » إلى « قافية » ، كما انتقلت كلمة « قافية » ، هي أيضاً ،  
من مكانها في النظم ، لتعني شيئاً آخر ، مع احتفاظها بمعناها الأصلي . وكلمة  
« كائنة » ، وهي أيضاً « الواقعة المهولة » ، كانت إلى عهد قريب تستعمل  
فيها لا يخرج عن معناها الأصلي ، في قولك : « ذا كائنة » أى « مصيبة » أو

« داهية » . وتأمل كلمة « داهية » في معناها المزدوج من الدماء ، ومن دمه داهية !

فلنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لتعجب من كلمة مصرية ما زال كل معناها عند جهابذة اللسان البربائي هو : « فعل يعنى حركة أو عملاً عنيفاً » ! ؟ فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة من الكلمات ، إذا به يضيف في ذيل شرحه ؟ « أو ما أشبه ذلك ! » ، كأن تقول : عجلة ، دائرة ، خاتم ، طوق ، حجر رحي . . . أو ما أشبه ! !

وتذكّرني « ما أشبه » هذه بخاتمة الشروح والمباحث والمواشم في كتب العرب ، وهي تحتم بقولهم « والله أعلم » .

كلا ، إن مصر لم تكشف بعد عن كل مخبواتها ، وما برحت نصوص كثيرة تنتظر أن تترجم أو أن تعاد ترجمتها . ويتاحف العالم ما فتئت ملأى بالبرديات والشفقات والشفطايا والألواح والشواهد من الحجر ، لم تفحص بعد ولم تترجم . هل تصدق أن البرديات العظيمة المعروفة باسم برديات إدوين سميث ، منذ سنة ١٨٦٢ ، وهي البرديات التي كشفت عن عبقرية - وأقول عبقرية ! - مصر في الطب ، لم يترجم نصها وينشر بترجمته إلا عام ١٩٣٠ ، على يد جيمس هنري برستيد ، ثم أتى عليه محمد كامل حسين ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، ضوئاً باهراً من علمه وألمعيته الجراحية ؟

وكيف نأمل أن نتوصل إلى صورة أقرب إلى الكمال للتاريخ المصري ، والعواصم المصرية الكبرى في الدلتا - فيما عدا نائيس ! - لا عين ولا أثر . أين بوطو ، وبوباسطيس ، وعاصمة رمسيس الثاني في شرق الدلتا ، وسبينيتوس ( سمند ) ، وزويس ( سخا ) ، بل أين منف ، وإيون ( عين شمس ) ؟

والحقيقة الثانية في التاريخ المصري ، والأخيرة ، وهذه لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هي الفن : فن العمارة ، والرسم ، والتصوير ، والحفر بالبارز - المنخفض [ بارليف ] ، والنحت المستدير . الفن هو العنصر الحى الخالد في تاريخ مصر ، يعيش بين ظهرائنا ، يتحدث إلينا بلغة العقل والشعور . قد نفهم لغته وقد لا نفهمها ، ولكننا في هذا كمن يفهم لغة الموسيقى أولاً يفهمها ، ويتفاوت

تقدير الناس للفنون وتختلف آراؤهم . ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الفن الماثل  
لعيوننا . حقيقة خرجت من تحت يد الفنان المصري ، كأنه انتهى منها ترواً . ولست  
أعني أن التصاوير احتفظت بألوانها وخطوطها كما تركها أصحابها ، إنما أشير هنا إلى  
صفة تختص بها الفنون التشكيلية عامة ، وهي أنك تشاهد العمل الفني — إذا قدر  
له البقاء — بعد ساعة أو بعد ألف عام ، فكأنك تراه وقد انتهى منه الفنان على  
التو ، وانزوى عنك ليسمح لك بمشاهدته ، دون أن يسمع تعليقك عليه .  
وضحت معالم طريقى ، وثبت لرشدى ، بعد ذلك الدوار الذى أصابنى ، وقد  
بلغت الذرى ، وارتقيت فى رحلتى عبر التاريخ إلى القمم العليا . فلا تحدث قليلاً  
عما حققته لنا النصوص من تاريخ عام ، قاعاً للصورة وإطاراً لها ، أقدم فيه الفن  
المصرى .

## ثلاثة آلاف عام

سأحدثك عن تاريخ مصر القديمة في صفحات قليلة ، وهي كل ما أحب أن أتذكره من تاريخ بلادى في العهد القديم . وقد لا يكفىك هذا القليل ، وإنما الذى يجب أن نتفق على إدراكه والإحساس به ، هو الحضارة المصرية ، وأهم مابقى لنا منها ، وهو الفن .

وادی النيل الأدنى ، وقد درجت فيه حياة ما قبل الأسرات ، يحكمه نظام مركزى يقتضيه رخاء البلاد ، واشتراك سكان ضفتى النيل فى حراسة فيضانه ، والاستعداد لتحاريقه . ما إن يروح مينا شطريه البحرى والقبلى ، حتى تنهى العصبية الإقليمية ، ومشاحنات أمراء الكور ، وكانت فى الغالب اشتباكات مصدرها أنانية الأمراء ، مما لم يكن يرضى عنه الشعب ، وهو يحس فى قرارة إلمامه بأن حياته ، المرهونة بالشمس والهواء والأرض والنيل ، لا تتحمل التفرق والتناحر . وعندى أن سلطان الملك على الجميع ، والأساطير التى تتحدث عن الأصل الإلهى للفرعون ، وعن عهود كان ملوك مصر هم الآلهة ، تؤدي معنى واحداً : ذلك أن الشعب هو الذى آله الملك ، ووطد سلطانه .

والحراقة التى أطلقها هيرودتس ، وتصور المصريين عبيداً للفرعون ، قضى عليها المؤرخون المحدثون . فأهرام الملوك ، ومصاطب العظماء ، كما نعرفها ، وما تدل عليه من براعة فى التصميم ، ودقة فى التنفيذ ، وما تحتويه من فن رفيع ، لا يمكن تصور تحقيقها على شعب من الأذلاء . لأن جو الاستعباد الخائق يقضى على الملكات ، ويمنع قيام العبقریات . وإعحوتب العظيم ، الذى آله المصريون فى الدولة الحديثة — وهو من رجال الدولة القديمة — لم يكن ملكاً ولا أميراً ، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى ، ارتفع بشوغه ، وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ . وغير إعحوتب العظيم ، أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة ، ونحتوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع — حوتب والأميرة نفرت ، ورسموا إوز ميدوم ، لا أتصور تيقظهم الفنى ، وحريرتهم فى التعبير ، فى جو عبودية



وكبت . تأمل حياة الشعب المصري على جدران مقبرة في وفتاح — حوتب وميريروكا ،  
وتجول في حرم الهرم المدرج ، وقف بأعمدة اليهو القديم ، تحس بحب الحياة ،  
حياة شعب مطمئن هانئ ، لا شعب يعيش كما صوره هيرودوتس في زمان رأى  
الشعب ذليلاً مستعبداً تحت أقسى حكم عاقاه في تاريخه القديم ، لم يعرف الشعب له  
شبيهاً إلا تحت الحكم العثماني : وهو سيطرة الفرس .

هذه الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة ، هي قمة  
الحضارة المصرية الأصيلة الخالصة ، النابعة من روح الشعب المصري ، دون  
ضغط أجنبي ، أو تأثير بالقرباء . ولا تحسب الأهرامات غروراً ودعاية ،  
بل طالع فيها ما طالعه ذلك الرومانيكي المرهف الحس شاتوبريان حين قال :  
« لم يشيد المصري الأهرام لشعوره بالفناء ، بل لإيمانه بالبقاء . هذه المدافن  
لا تمثل ختام حياة يوم أو بعض يوم ، إنما هي معالم الطريق إلى حياة لا تعرف  
النهاية ، إنها أبواب الخلود ، أقيمت على حدود الأزل . »

لا تصدق من يتحدثون عن الصلف والغرور والدعاية في الدولة القديمة ،  
فلم يعمل ملك أو أمير ، ولم يشيد مهندس ولم يرسم فنان ، ليعرضوا بفصاحة ،  
ولكنهم استجابوا إلى نوازعهم النفسية نحو حياة باقية ، لا تقطعها لحظة الموت .  
تحس أمام آثار الدولة القديمة برخاء البلاد ورغد عيشها ، وإقبالها على  
الحياة بنفس رضية . تأمل أبا الهول ذات صباح عند شروق الشمس ، وطالع على  
سياء صورة صادقة للحياة المصرية في الدولة القديمة : سباحة الوجه ، وابتسامة  
الحيوكوندا ، رأس إنسان بكل معاني الإنسانية ، على جسم حيوان رابض ، رمز  
للهدوء والاطمئنان ، لا تحفز فيه لعدوان ، ولا توقع لعدو طارئ . تلك هي مصر  
الدولة القديمة ، آمنة داخل حدودها الطبيعية : فليست مواقع حرية تلك التي تجري  
في شبه جزيرة سيناء ، إنها حملات بوليسية تأديبية ، لتمنع عبث العابثين هناك ،  
ولتؤمن الطريق إلى المناجم . وحيناً نام الأمير تحوتمس ، من أمراء الأسرة الثامنة  
عشرة ، بين ذراعى أبي الهول رأى في منامه ما تراه أنت في معرك إذا طالفت وجه  
هارماخييس ، يستقبل شمس الصباح : آتوم — رع — هاراختي .  
ويفاجئك المؤرخون بقولهم إنهم لا يفهمون تماماً ما حدث بعد الأسرة السادسة .

ومن حقهم أن يحسبوا البلاد تفرقت شيعاً وأحزاباً ، فكل هذا جائز ، والغالب أن يكون قد حدث كما يظنون . ولا تنس أنها مئات السنين ، لا عشراتها ، انقضت بين بناء الأهرام والأسرة الثانية عشرة . والملك يبي الثاني ، آخر ملوك الدولة القديمة ، حكم نحو مائة عام حكماً صالحاً ، ولكن استطالة ملكه انتهت إلى نهاية محزنة ، من نزوع أمراء الكور إلى الاستقلال ، كما يحدث في الأسرة الواحدة ، حينما يطول عمر كبيرها ، ويمتدّ عهد خدمه معه . ومتى انقرب عقد مصر ، انهار كيانها السياسي والاقتصادي والفني ، ويمكنك أن تتوقع حدوث أى شئ للبلاد . ففي أوقاتها المضطربة ، يكنى أن يتأخر الفيضان ويترأخى ، حتى تنزل بالناس المجاعة ، وتشوطلهم في إثرها الأوبئة . كل ذلك نعرفه عن يقين في مصر العصور الوسطى ، والتاريخ لا شك يكرر نفسه في المكان الواحد والظروف الواحدة ، بل هو يحاكي نفسه في أمكنة متباعدة ، إذا كانت ظروفها متشابهة .

وإذا كانت القوة المركزية مستعدة إلى الدلتا في أكثر من حقبة من أحقاب التاريخ المصري القديم ، فإنه يمكن القول من الآن بأن عهد منف العظمى قد انتهى ، وبدأ الصعيد يرفع رأسه ، على أيدي أمراء مصر الوسطى ، وسيكونون سلماً لمهمة أمراء الصعيد الأعلى في الطيبائيدة . وسيبدأ في الدولة الوسطى عصر التوسع والفتوح نحو الجنوب في بلاد النوبة . ولكن هذه الدولة الوسطى ستكون عهد حضارة أقرب إلى عصر الدولة القديمة منه إلى الدولة الحديثة ، عهد تنظيم الري والزراعة ، وإقامة المنشآت العظيمة ذات الأهداف العمرانية ، وستعود الملكية إلى سلطان ليس كالقديم في إطلاقه ، ولكنه شبيه له في إحكامه وبسطه وعدالته .

ثم يحنى تاريخ مصر في غياهب عثمانية ، عندما يتزل بأرضها كالجراد شعب جائع بربرى ، جاء من الشرق ، من آسيا ، يظن أنا أنه فخذ من أفخاذ إسرائيل ، وأنا آخر أنه يتنمى إلى جنس هندو - أوربي ، وينتهي بعض المحدثين إلى أنهم كنعانيون . وسواء أكان هذا البلاء إسرائيلياً أو قحطانياً أو هندو - أوربياً ، فقد حل معه الخراب والدمار ، ونزلت مصر إلى حضيض لن نعرفه في تاريخها الحديث إلا تحت حكم باشوات آل عثمان . إلا أن الصعيد المصري يظل كما هو - وكما سيظل دائماً - مهد التلاصق وأوى الأحرار . فليبين المكسوس في الدلتا ما شاء لم

جوعهم وعريهم وتبريرهم ، وليقيموا معسكرهم الكبير في أواريس في شرق الدلتا .  
أما أمراء الوجه القبلي ، فلم تخب حميتهم ، ولا بردت نخوتهم ، وما فتثوا يعملون  
حتى نظفوا البلاد من أولئك الهمج الدخلاء .

ويبدأ عهد الأسرة الحيدة ، الثامنة عشرة في حساب الأسرات ، عهد أحمس  
وتحتمس وحتشيسوت وأمينوفيس وأخناتون . تلك هي الإمبراطورية المصرية التي  
رفع عمادها ابن من أبناء الصعيد ، يروق لبعض المؤرخين أن يشبهه بنابليون ،  
وللبعض الآخر أن يقرئوه بيوليوس قيصر : هو تحتمس الثالث . فإذا كانت الدولة  
القديمة هي عهد الأمن والرخاء والاطمئنان ، فقد كان الأمن خداعاً ، ولم تعد  
الحدود المصرية أرساداً سحرية تمنع الأعداء ، وأصبح لزاماً على ملوك الصعيد ،  
وهم يطاردون الهكسوس إلى ما وراء الحدود ، أن يتعقبوهم شمالاً حتى جبال طوروس ،  
وأن يبسطوا سلطانهم جنوباً حتى فوق الشلال الرابع ، وغرباً إلى بلاد برقة . فالدولة  
الحديثة ، اضطرتها ظروف الغزو الهكسوسي ، وقيام القوى الخارجية ، إلى أن تدخل  
في مغامرات هائلة ، مغامرات في الحرب والسلام على السواء ، وفي العقائد والأدب  
والفن . وستدفع مصر غالياً ثمن هذه المغامرات ، وهي أتاوة الشعوب التي تنزع إلى  
التوسع والسيطرة البعيدة ، أيا كانت أسباب هذا التوسع . لن تعود مصر ، بعد طرد  
الهكسوس ، إلى أمنها وطمأنينتها ؛ فقد عرفت قيمة الاعتماد على الحدود الطبيعية ،  
عندما تقوم وراء تلك الحدود دول تطمع في خيراتها . وسيكون طريق الشرق هذا هو  
سبيل الغزو على مدى التاريخ المصري حتى العصور الحديثة ؛ ولن يجيء الغزو من  
الغرب إلا أيام المعز لدين الله الفاطمي ، وإلا في محاولات الأتراك والألمان الفاشلة ،  
في الحربين العالميتين الأخيرتين .

حق لمصر أن تتمثل بالحكمة القائلة : إذا أردت السلام ، فعن طريق الحرب .  
وستحارب إبان الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . وستضطر إلى  
إنشاء جيوش مدربة ، تمارس فنون القتال الحديثة ؛ فلم يعد يكفي تجنيد المواطنين  
لشدة أو لعملية تأديب البدو ، يعودون بعدها إلى زراعتهم وصناعاتهم . وإذا  
ما أنشئ جيش عامل محترف ، فهو يبدأ بالمصريين ، ثم يضم إلى صفوفه كل من تقع  
عليه اليد من أمم العالم القديم المحاربة ، من أمثال الليبيين والنوبيين والإثيوبيين واليونان .

وظاهرة من ظواهر الحرب في كل الأزمان ، أن يعتمد مثيروها على آلهتهم ، يسألونهم العون اعتماداً على عدالة قضايهم في تلك الحروب . وملوك الصعيد بررة بآلهتهم ، وبكبير هؤلاء الآلهة ، آمون . ولن يعزو الملوك انتصاراتهم إلى أسلحتهم وأذرعهم وحدها ، بل إلى مؤازرة آمون هذا ، فهم يصدقون عليه الخيرات ، ويقدمون له الأسرى والغنائم . وبذلك طغى سلطان آمون وكهنته ، في الدولة الحديثة ، على كل سلطان ، وجاءت ثورة أخناتون ، وإخفاؤها بعد موته ، سنداً جديداً لآمون ، وسبيلاً لتضاعف سطوته وبطشه ، ومن ورائه كهنته . ولن يجدى مصر نفعاً فتوحات ومسيس ومغامراته ، ما دام كهنة آمون من ناحية ، والأجناد الأجنبية من ناحية أخرى ، يشعرون بسلطانهم . أى أن مصادر تضعف الإمبراطورية الحديثة كانت داخلية وخارجية : داخلية بسبب هذا الصراع بين كهنة طيبة وبين الملكية ، وخارجية في تلك الدول الأجنبية التي عرفت أن مصر يمكن أن تغزى كما غزاها وحكمها الهكسوس ، وتخضع للقوة كما خضعت لأجناد أورابيس .

وإذا خشعت الشعوب المغاوبة بعض الوقت ، واستكانت للحكم الفرعوني ، فآلها أن تنتقض على السيادة المصرية ، وما عليها إلا أن تربعص بالدولة المستعمرة ، وتلمس تبليل أحوالها ، وضعف حكامها ، لشور عليهم ، وتترع منهم استقلالها .

سيحكم مصر كهنة آمون ، وستحكمها أسر ليبية وإثيوبية ، ولن يرتقى هؤلاء وأولئك عرش مصر كغزاة جاءوا من الغرب أو من الجنوب ، بل كبرؤساء جند بالجيش المصرى ، أو كحكام محليين من قبل فرعون . كل هذه الأسماء ، من أمثال شيشونق وطهارقة ، أسماء لبيين وإثيوبيين ، اقتحموا مرتقى العرش بسواعدهم من بين قواد الإمبراطورية المصرية ، كما سيفعل المماليك فيما يجيء من الزمان . وقد تراود مصر المجد في العهد الصاوى ، فتتخذ مثلها في الفن والإدارة من الدولة القديمة ، وستوهج جذوة الحضارة زماناً غير طويل ، ولن يصون استقلال مصر إلا تعاذل الدول الحديثة حولها ، أما حينما تقوم من بينها دول قوية ، كالأشوريين والفرس ، فما أسرع أن تهاجم مصر وتحتلها . وكان الفرس ، بعد الهكسوس ، وقبل الأتراك العثمانيين ، من أسوأ من عرفهم مصر ظلمة مفسدين . وسيجىء الإسكندر ليخلص مصر من حكم الفرس ، وتنتهى بذلك سلسلة الأسرات المصرية الثلاثين ،



والأسرة الفارسية التي بعدها بعض المؤرخين القدماء الأسرة الأولى بعد الثلاثين ،  
وتدخل مصر في حومة الحضارة الملية .

• • •

أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرب حساب سنوات الاستقلال المصري ،  
بالنسبة لسنوات الاستعداد . وفي هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد  
استقلالها وإن قامت على حكمها أسر أجنبية ، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين  
والفاطميين والأيوبيين والمماليك . إنما مصر تفقد استقلالها عندما تنزل إلى مرتبة  
الولاية والإيالة والإقليم ، ويحكمها ملوك أو إمبراطرة أو خلفاء أو سلاطين ،  
يعيشون في عواصم خارج مصر . ومع أن المكسوس حكموا في أواريس قرب صا  
الحجر ، إلا أنني سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال ، كما أسقط  
حكم الفرس .

فلنبداً من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حسب التوقيت القصير ، حين يتوحد  
الوجهان البحري والقبلي ، ويلبس أول ملوك الأسرة الأولى التاج الأحمر والتاج  
الأبيض ، مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج « بشت » . وعندما ينتهي حكم  
البطالسة ، وتضم مصر إلى أملاك أغسطس قيصر الخاصة ، عام ٣٠ قبل الميلاد ،  
يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام ، كانت فيها دولة مستقلة ، دون نظر  
إلى نوع الأسرات الحاكمة .

ومنذ الحكم الروماني حتى بدء الدولة الطولونية ، مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام  
كانت فيه ولاية لروما ، ثم لبيزنطة ، فالعرب بالمدينة ودمشق وبغداد .  
ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثماني ، عاشت مصر دولة مستقلة نحو  
٦٠٠ سنة .

وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد على استقلالاً عن الدولة العثمانية ، أو تبعية لها —  
ولقد حرصت على أن أدقق في سنوات الاستقلال : حتى أصل إلى نهايتها الصغرى ،  
في سلسلة الاحتمالات ، حتى لا يتطرق شك إلى ما أنا بسبيله ؛ ولهذا راعيت أن مصر  
إيالة تركية ، تابعة اسمياً لتركيا ، حتى زالت عنها تلك السيادة العثمانية عام ١٩١٤ ،  
بإعلان الحماية البريطانية — فلذلك وأصل معي إلى أن مصر ، في تاريخها الذي يقدر



بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة ، منها حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسر مصرية ، ونحو ألف سنة حكمتها أسر أجنبية .

أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رموس الشباب ؟ أمة ألفية ، أطول الأمم تاريخاً ، تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تنتقل بين الحضارات : من حضارة مصرية صميّة ، إلى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية إسلامية .

وذلك بدلا من الادعاء - الذى مجته أسماعتنا منذ الحداثة - بأن مصر فقدت استقلالها نهائياً فى القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيبوس الملك . وما زلت أذكر ، حتى هذه اللحظة ، الألم الذى كان يحز فى قلبى ، وأنا غلام بالمدرسة الابتدائية ، أردد كلمات أمازيس وبساماتيك ونكتانيبوس ، فقد انطبعت تلك الأسماء فى نفسى انطباعاً عجيباً ، لأن أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة : أولهم انهزم أمام جيش قمبيز ، والثالث ختم عهد الأسرة الثلاثين ، وهرب إلى إثيوبيا أمام الزحف الفارسى الأخير .

وعندما انتقلت إلى المدارس الثانوية ، كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ! وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سميرتهم وبلغ شعرهم ، سادرين فى الزعم والتفاخر بأنهم من عائلات تركية . أقول هذا ليعلم شباب اليوم أن جيلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلاً !

## الصفحات الأخيرة

فكرة هذا الكتاب هي أن الحضارة المصرية ، أعني مجموع الحضارات التي تداولت مصر في مدى خمسة آلاف عام ، تلقت ضربتها القاضية في الغزو العثماني ، وأن النهضة المصرية يجب أن تقوم روحياً على استيعاء التاريخ المصري كله ، دون تفضيل عهد على عهد ؛ فكما أن أهل الغرب يخطئون إذ يختصون حضارة الفراعنة بتمجيدهم ، ويعتبرون غيرها دخيلاً على مصر ، فإن فريقاً من مواطنينا لا يعطف عطفاً خاصاً على حضارة مصر القديمة .

ولعل للمتخصصين بالتاريخ المصري القديم العذر في حرصهم على الحقبة الكبرى ذات المقام الرفيع في التاريخ العام ، لقدمها ، وطولها ، وأثرها المباشر وغير المباشر في حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ولأنها أصيلة نبعت من صميم التربة المصرية ، وعلى أيدي أبناء هذه التربة وبناتها وحدهم . ثم أخذت الاتصالات الخارجية في الاتساع والازدياد بعد غزو الهكسوس ، وصحت مصر فجأة لتدرك أنها ليست كثانة آتوم وفتاح وآمون ، تحميها الصحارى والبحار والجنادل ؛ وأن عليها ، كي تعيش في عصرها الحديث ، أن تدفع غائلة هؤلاء الغزاة الآسيويين الذين أذاقوها علقم الاستعباد مائة وخمسين عاماً ، وأن توسع رقعتها بالفتوحات إلى ما وراء حدودها الطبيعية .

وبرغم هذه الصلات الأجنبية ، وتبادل السلع والخبرات ، فإن الحضارة المصرية ظلت محتفظة بخصائصها حتى آخر عهد الأسرات ، بل وبعد غزو الإسكندر ، وقيام البطالسة ، وبعد أن دخلت مصر في حوزة الرومان . ولم تنته هذه الحضارة إلا بنهاية العقائد القديمة ، وتحول السكان من الوثنية إلى ديانة الناصري .

فكل ما يجيء عقب الحقبة الفرعونية ، لا يعتبره إخصائيو تلك الحقبة ، ولا غيرهم ، فناً ولا حضارة مصرية أصيلة . العهد اللاجيدي كان إغريقياً ؛ والعصر القبطي تأثر مكرهاً بما يجري في بيزنطة وأنطاكية وسورية ، والعصر الإسلامي انقاد للحضارة الإسلامية ، فكان طولونياً وإخشيدياً وفاطمياً وأيوبياً ومملوكياً وعثمانياً .

لذلك أردت أن أثبت هنا أقوال بعض مؤرخي مصر القديمة في نهايات كتبهم .  
وأبدأ بجيمس هنرى برستيد ، لأن الرجل فضلاً كبيراً على ، فقد كان أول  
من أشعرنى أنني حقاً من أحفاد ذلك الشعب العريق ، وصحح الأفكار الخاطئة  
الطائشة التي خرجت بها من مدارس وزارة المعارف المصرية ، يسوقها المستشار  
البريطاني دنلوب . كانت محاضرة ألقاها برستيد في مكان بحى المنيرة ، أظنه كلية  
من كليات الجامعة حالا ، وألقاها في وقت هز مشاعر العالم نحو مصر الكشف  
عن مقبرة توت عنخ - آمون . وقد نسيت اليوم ما قاله الأستاذ الأميركي الكبير ،  
ولا أذكر إلا طشاشاً شكل المحاضر ، وأظنه كان رجلاً طويل القامة متصبها ،  
يلبس نظارات تقربه كثيراً من هيئة القسس الأنجليكان . ولكنى أذكر ، كأنه  
بالأمس ، أنني خرجت من المحاضرة شخصاً جديداً ، ويظهر أن الرجل - الذي  
عاش « مجاوراً » للتاريخ المصرى القديم ، وقد وجد نفسه أمام مجموعة من شباب  
المصريين ، في وقت كانت ثورة ١٩١٩ أعلنت للعالم أجمع أن قد صدقت نية  
مصر في أن تنهض - لمح في عيوننا بريق الأمل في مستقبل هذه الأمة ، التي كانت  
عظيمة جداً ، ورأى في لون بشرتنا ، وعلى سيماها ، ما ذكره بصور المعابد  
والمصاطب وتمائيل القدماء ، فراح يبعث روح التاريخ المصرى في نفوسنا ، ويوقظ  
فينا معنى المجد المؤثل ، الجاثم فيما بين صحراء الأهرام ووادي حلما .  
ولا أغلو إذا قلت إن كتابي اليوم - وأنا أولفه فيما بين السنوات ١٩٥٤  
و ١٩٥٩ - هو ثمرة محاضرة جيمس هنرى برستيد عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ .  
يقول الأميركي الكبير ، في نهاية كتابه « تاريخ مصر » ، الذي نشرت  
أولى طبعاته سنة ١٩٠٥ :

« وبسقوط بساماتيك الثالث ، دخلت مصر في عالم جديد ، كانت قد قامت  
بعمل كبير في سبيل تقدمه وتطوره ، ولم يعد لها فيه دور إيجابي ؛ لقد انتهى عملها  
الخليل . ولما كانت لا تستطيع أن تختفى من الميدان ، مثلما فعلت نينوى وبابل ،  
فقد واصلت حياتها المصطنعة بعض الوقت ، تحت حكم الفرس فالبطالسة ، وهي  
تدهور إلى الوهدة ، حتى أمست أهراء غلال روما ، ووزارا لأثرياء الرومان واليونان ،  
يفلون عليها ليتفرجوا على عجائبها ، كما يفعل السواح في أيامنا .

« أما شعبها الذى لا يحب الحرب ، الشعب الذى يواصل إعدادها لتكون متزها للعالم ، فلا يبدو عليه أنه يفيق من غفوته ، وقد صدقت فيه نبوءة حزقيال ، وهو القائل : " لن يقوم بعد ملك من أرض مصر " . »

• • •

وأنا أدعو الله أن تصدق نبوءة حزقيال هذا فى الحاضر والمستقبل ، كما صدقت فى الماضى ، فقد شجعت مصر خلفاء وسلاطين وملوكاً وأمراء ، وشربتهم حتى كبحانها . ونرجو أن تكون حرفة الملوك فى مصر آلت نهائياً إلى البوار ، وأن يواصل أبناء البلاد حكمها ، والتطور بها ، إلى أحدث ما تنادى به مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية .

وأتيس العذر بلخمس هنرى برستيد : فقد ختم كتابه سنة ١٩٠٥ ، ومصر تهوى إلى قرارة يأسها ، إذ تتخلى عنها فرنسا ، نصيرتها ضد بريطانيا فى ذلك الوقت ، وتجري اتفاقها الاستعماري مع بريطانيا على اقتسام مناطق النفوذ فى أفريقيا ! قلن أنسى برستيد ، الذى رأيت وسمعت ، فى أوائل العشرينات ، محباً لمصر ، معجباً بحضارتها القديمة ، والذى ترك لنا آثاره شاهدة على بعض ما صنعه لتنبه أذهان العالم إلى روحانية تلك الحضارة . وأكد أوفن أن الرجل مات قرير العين ، مطمئناً إلى مستقبل أحفاد بناء الأهرام والبرابي !

وأذكر له بالخير فقرة وردت فى الفصل الختامى لكتابه الذى نشر عام ١٩٣٣ ، بعنوان « فجر الضمير » ، قال ، وهو فوق جبل الزيتون بفلسطين ، ينقل ناظريه بين وادى الأردن والبحر الميت ، وخلفهما جبال مؤاب ، ومدينة بيت المقدس : « وكان منظرًا طبيعيًا ، يحقق عملياً وقائع الانتقال المعجب من عالم تعمل فيه قوى الطبيعة وحدها ، إلى عالم تشرق فيه القيم الإنسانية . فذلك حدث فعلاً فوق أرض الشرق الأدنى القديم . »

« وإذا كنا نجلس مطلين على قرية النبی إرميا ، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، وانخرقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء ، إلى أرض وادى النيل ، منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية - تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى - فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكاً

لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس ، وذلك قبل أن يولد النبي إرميا  
بألنى عام ! »

• • •

أما الأب دريوتون والسيد فاندويه ، فيختان كتابهما عن مصر ، فى السلسلة  
التاريخية المسماة « كليو » ، بقولهما :

« ويظهر أن مصر كانت قد استفدت قدرتها على المقاومة ، لأن قبورها عن  
رضى ، واستقبالها لسيدتها الجديد ، الإسكندر ، فيه البرهان على تدهورها .  
ختام تاريخها لم يعد بالمستطاع أن يعالج وحده ، لأن مصر انضوت ، منذ ذلك  
التاريخ ، فى مجموعة العالم الشرقى الذى سيخضع شيئاً فشيئاً للمؤثرات الإفريقية .  
نعم إن الأفكار المصرية العتيقة ستعيش فترة تطول إلى مئات السنين ، ولكن فى  
صين ممسوخة ، ينقل عنها الأغراب ويفسرونها ، فيبدو على لسانهم كأن دور مصر  
لم ينته بعد ، والحقيقة أن ما بقى منها لن يكون إلا خيالا وظلالا تنشرها البلاد العريقة  
فوق صفحة العالم . »

• • •

ويختم جاستون جكييه كتابه : « تاريخ الحضارة المصرية » ، متحدثاً عن  
ظهور الكتابة الديموطيقية ، والاقتصار عليها دون الهيراطيقية ، إبان الحكم الفارسي ،  
فى تسجيل العقود ، ونسخ المخطوطات المختلفة ، أى فيما لا يدخل فى عداد الآثار  
القائم ، ويقول بأن هذا الانتقال من الهيراطيقية إلى الديموطيقية ، يمثل فى رأيه  
خاتمة مصر المستقلة :

« فحين ينزل بمصر ملوك أغراب ، ليحتلوا نهائياً مكان الأسر الفرعونية فوق  
عرش مصر ، نستطيع أن نقطع بنهاية الحضارة المصرية . ومع أنها سوف تعيش  
بضعة قرون أخرى ، بل وستقدم فى بعض النواحي ، كالعمارة مثلاً ، أعمالاً مصرية  
أصيلة ، فإن حياتها لن تزدهر ، بل سوف تتدهور سريعاً .

« فالحضارة التى أشرقت على العالم القديم آلاف السنين ، ووهبت عن طيب  
خاطر كل ما فيها من خير ، سوف تغمرها حضارات جديدة ، والدم الجديد الذى  
ينقل إليها ، سوف يكون غزيراً إلى حد يوردها مورد قضائها ، بدل أن يجدد شبابها .



ومنذ الآن ، لن تكون مصر أكثر من إيالة من إيالات العالم الهلنئى ، وولاية من ولايات دنيا الرومان ، سواء من الناحية السياسية ، أو من وجهة نظر الحضارة .

• • •

وإذا لم تكن الصفحات التالية خاتمة لكتاب جوتييه ، فى مجموعة « مجمل تاريخ مصر » ، الذى نشر بالقاهرة فى ثلاثينات هذا القرن ، فإنها ، فى صدد كلامنا هذا ، ومعنى مختاراتنا ، تعتبر حكمه الأخير على نهاية الحضارة المصرية . قال فى مقدمة الفصل العاشر وهو خاتمة فصوله :

« بقى لنا أن نلقى نظرة خاطفة على مختلف أشكال الحضارة المصرية فى السبعة أو الثمانية القرون ، التى انقضت فيما بين سقوط دولة الرعامسة ، وظهور الإسكندر ، وهى الحقبة التى نطلق عليها اسم " العصر المتأخر " .

« فإذا دققنا النظر فى الملكية ، يفجأنا أن لم تعد سدة قومية . وإذا جانب بعض المؤرخين الصواب فى حكمهم على ملوك الأسرة التاسعة عشرة بأنهم لم يكونوا خلصاء الأرومة المصرية ، بحسبان اختلاطهم ببعض العناصر السامية ، فإن مما لا شك فيه أن الدم الأجنبى اختلط بدم الملوك ، منذ تبوأ العرش أسرة الملوك - الكهنة . ولقد رأينا ، منذ الأسرة الأولى بعد العشرين ، أن الليبيين يتسربون إلى الحياة المصرية ، وأن كبير كهنة آمون يحمل اسماً ليبياً ، وهو مصحرتا ؛ وهذا التسرب لم يتعد الفئة العسكرية . وعندما يتولى الملك زعيم من كبار زعماء « المشاوشة » ، وهو شيشونق ، فى بوباسطس ، تصبح الأسرة الثانية والعشرون ليبية لحماً ودماً . ثم يعقبهم الملوك الملقبون بالإثيوبيين ، وكانوا فى الحقيقة من أصل بوباسطى ، أى لىبى ، يحملون أسماء ليبية ، ولكنهم اقترنوا بأميرات إثيوبيات ، بحكم إقامتهم فى بلاد النوبة ؛ وكانت ملكات الأسرة الخامسة والعشرين نوبيات خلصا ، وسوداوات فى بعض الأحيان . وكان ملوك الأسرات الصاوية - الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين - من أصل لىبى أيضاً ، وآية ذلك أسماءهم ، من أمثال اسم بساماتيك ، احتفظوا بأرومتهم اللبية خالصة ، لأنهم لم يقرنوا بأميرات من النوبة . ويبدو أخيراً أن فراعنة منديس ومننود ، وهم ملوك الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين ، لم يتجلبوا من صلب مصرى غير مهجن .

« واستمر هذا الدم الأجنبي ، وهو ليبي في أغلبه ، ينساب في عروق أبناء البلاد ، وهو قبل أن يجري في أوعية الفراغة ، كان قد جدد قوى الطبقة العسكرية المعروفة بالمشاوشة ، وهي الطبقة التي تحمل أكبر عبء في الحكم بعد الملك . ولقد رأينا المرتزة الليبيين يؤلفون ، على مدى أجيال عدة ، العنصر الأكثر نشاطاً وحيوية في الجيش المصري القديم ، الذي دب فيه الوهن . ولم يتقهقر أثرهم إلا وريداً أمام سيل المرتزة من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى اختفى تماماً بعد الغزو الفارسي . »  
والحق أن هذا التسرب لم ينفذ إلا قليلاً جداً في دم الشعب المصري ، سواء في ذلك صناع المدن أو الفلاحون . إنما الطبقات الحاكمة هي التي تلقت العصارة الأجنبية ، الليبية في غالبيتها ، واليونانية والأناضولية والسامية في بعضها ، فاستطاعت ، بدمها المتجدد ، أن تحفظ على مصر حياتها المستقلة لبضع مئات أخرى من الأعوام .

« والطبقات العليا هي التي كانت في مسيس الحاجة إلى تجديد قواها . أما الطبقات الوسطى ، والدنيا بخاصة ، فلم يعثرها الانحلال الذي دب في الارستقراطية المصرية . وظلت تلك الطبقات العاملة محتفظة بدمها المصري الخالص ، وبخاصة في الريف ، لم تهجن أرومتها الناشطة ، ولم يتبدل عنصرها الموسوم بالاعتدال وذلك على الرغم من حالة الحرب المستمرة ، والثورات الداخلية ، التي كانت تعيش خلالها حياتها المتواضعة القميئة . »

• • •

ويحتم ولسون كتابه عن « الحضارة المصرية » ، أو ما سماه في الطبعة الأولى « عبء مصر » ، بهذه الكلمات :

« وإن انهيار أسلوب الحياة المصرية العميقة في أيامها الأخيرة كان مأساة . ولكن من حق مصر علينا أن نقول بأن هذا الأسلوب عاش نحو ألفي عام ، وصمد كل ذلك الزمن ، لأن مصر حببها الطبيعة مزايا العزلة ، مما حقق لها التطور الداخلي ، والإبقاء على وسائلها في هذا التطور . فكان المصري مستطيعاً أن ينهج نهجه في الحياة في ظل الطمأنينة الجغرافية والروحية ، وهو نهج له من المرونة ما يفسح المجال للتطور التاريخي ، وآية هذه المرونة كانت سلسلة من الموازنات والتوافقات ، سمحت

للقوى المتعارضة أن تعمل دون أن يفنى بعضها بعضاً . . . فثروة الأسلوب المصرى ،  
والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام ، على أساس التوازن بين القوى المتطاحنة ،  
نظهرنا على عبقرية شعب عظيم .

« ولا يصح أن نزعج بأنهم كانوا أعظم الشعوب ، ما دامت سماحتهم قد حالت  
بينهم وبين بحث المشاكل والوصول إلى حلول لها تطبق تطبيقاً عملياً كاملاً . فالمرونة ،  
التي حققت لهم الهناء كل تلك الأحقاب ، كانت رخاوة في تكوينهم ، تقابلها  
حدة العبرانيين التي لا تلين ، أو الصفاء المتأصل في قرارة النفس اليونانية . هذا إلى  
أن المصريين لم يستمسكوا بصفاتهم العالية : ففقدوا في النهاية تسامحهم العملى الموفق ،  
وأمسوا صلاب العود في تمسكهم بظواهر الأمور . ولكن حكمنا عليهم يجب أن  
يتناولهم في أحسن أحوالهم ، وقد عاشوا أحقاباً طويلة من التاريخ البشرى وهم على  
خير حال ، يحققون حضارة رفيعة من النواحي المادية والفكرية والروحية .

« ولقد جاءت كلمات النبي إشعيا ، في مأساة الأيام الأخيرة للتاريخ الفرعونى ،  
دليلاً على أصالة الحكمة القديمة ، ورفعة الشأن : قال إشعيا : « إن رؤساء تانيس  
أغبياء ، حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية » : وذلك مقابل القول القديم :  
« أنا ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء . »

• • •

ونختام كتاب موريه ، « النيل والحضارة المصرية » ، صورة من العقل الفرنسى ،  
وحرصه على التجميع في وحدة فكرية ، مع براعة في التلخيص . ولهذا نقدم فصله  
الختامى بأجمعه ، لأنه سيعيننا على فهم الحضارة المصرية القديمة ، يحللها رجل من  
خير من درسها وفهمها ، وعاش لها ودافع عنها :

« ماضى المصريين هو أطول الأحقاب التى يسجلها تاريخ البشرية . وإذا كان  
تاريخ ما بين النهرين يوازن في قدمه التاريخ المصرى ، فإن حقبة السابقة على  
التاريخ ، ما زالت تستعصى على الباحث . إنما مصر وحدها هى التى تعرض لمن  
يدرسها تاريخياً يمتد من العصر الحجري القديم حتى العهد المسيحى . فإذا لم ندخل  
في حسابنا سوى الحقبة التى تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة آلاف سنة  
من حضارة خلقت آثارها المدونة . ولكن من يستطيع حساب آلاف السنين التى

عاشها المصري في الانتقال من عصر الحجر المشطى ، حتى بلغ عصر التنظيم  
الاجتماعى والسياسى ، إبان حكم المملكة الطينيسية ؟

فلنلخص ، في إجمال ، الحقبة التى عابها هذا المجلد ، والمجلد الذى سبقه ،  
مع بيان أوجه النقص في معارفنا :

١ - عهد أول ، يتقلنا من أبعد الأصول حتى الآثار التاريخية الأولى ؛ وهنا  
يعد الحساب كله تقريبياً ، فنقول مثلاً : الحقبة السابقة على الألف الخامسة ،  
حين كان الإنسان يستعمل أدوات من الطران . ولكننا نجهل كل شئ عن تقدمه  
في العصر الحجري الوسيط ، لا ندري كيف حقق أولئك الناس ما ظهر من جديد لهم  
في عصر ما قبل الأمرات : الحجر المصقول ، والفخار ، واستخدام المعادن  
[ النحاس والذهب ] ، وصناعة النسيج ، واستئلاف الحيوان والزراعة . إنما نعرف  
أن المصريين في ذلك العهد كانوا مبدعين ، دون منازع ، في فنون الحجر والمعادن ،  
وأنهم يعيشون في مجتمع مؤلف من عشائر ، تقودها الطواطم والأرصاد السحرية .  
٢ - وباستقرار العشائر ، يبدأ عهد ثان ، تظهر فيه الكور ، وآلاتها المحلية ؛  
وزعمائها وارثو الطواطم . ولكن أنى جاء فيها بعد المحاربون المؤسسون للممالكتين المركزيتين  
في الصعيد والوجه البحري ، عباد هوروس ، وآلهتهم العالميون ، وملوكهم ، وكتاباتهم  
المصورة ، وفنهم ذو الأسلوب الواضح ؟

تقول أساطير العهد التالى بأن هذا النظام نشأ في الدلتا ، وأن آلهة الطبيعة ،  
هوروس وسيت وأوزيريس ، لقنوه للناس . إلا أن مناخ الدلتا - بعكس مناخ  
الصعيد ، حيث الآثار غير قليلة - عفى بقايا ذلك العهد ، ومن ثمة لا نملك أثراً  
مباشراً من تلك المنطقة ، حيث نشأت الأفكار والمذاهب التى ازدهرت في العصور  
التالية . وإن " متون الأهرام " هى التى مكنت لنا من محاولة رسم صورة عامة لتلك  
المذاهب ، وذلك عن طريق الاستدلال بها عما حققته الأزمان السالفة . وما زال  
أمامنا مجال واسع للبحث في هذا الموضوع . وقد أعلن القارئ ، في حينه ، بأن تلك  
الحقبة كانت حقبة الإعداد ، وأنها كانت طويلة ، وذات أهمية عظيمة ، وفيها بدأ  
العمل بالتقويم [ عام ٤٢٤١ قبل الميلاد ] ، وأنها تنهى بتولى الملك مينا [ حوالى عام  
٣٣١٥ ] .

٣ - والآثار العديدة التي تخلفت عن الأسرة الطينية، وما تلاها حتى نهاية الدولة القديمة [ ٣٣١٥ - ٢٣٦٠ ق . م ] ، تصور لنا طبيعة المجتمع المصرى وتقاليد ونظمه ؛ وتوحد مصر تحت سلطان ملكية مركزة مطلقة مستبدة ، ذات حق إلهى ، وتصبح الأهمية الاجتماعية مقصورة على شخص الملك حياً وميتاً ، فمصر ملك خاص للأسرة المالكة . وتنتهى دولة بناء الأهرام بنهاية الأسرة السادسة . وإلى عهد قريب ، كان المؤرخ يتخبط فى ظلام المجهول حيال انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٣٦٠ ، دون أن يجد لاختفائها تفسيراً . فقد عفت الآثار الملكية ، وتراجعت مصر إلى أسلوب حوشى فى الفن ، وعمت فيها الحروب الأهلية ، وحلت بها الضيقة الاجتماعية ؛ ولكن كيف ، ولماذا ؟

لقد كشفت الحفائر الحديثة عن مراسم أصدرها آخر ملوك منف ، جعلتنا نتابع نهجم الكهنة والموظفين والشعب على سلطة الملك ، يهدمون حصن الملكية شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهى إلى الخراب التام . وحاولنا ، من واقع نصوص منشورة منذ أمد بعيد - لم يتضح معناها التاريخى حتى الآن - أن نغزو الأمر إلى ثورة شعبية تحت حكم الأسرات الهرقليوبوليتية ، فيما بين عام ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ، حدثت إبانها وقائع دموية وحوادث غريبة ، أوضحنا أثرها ، وهو حصول الشعب على حقوقه الدينية والسياسية ، وما زالت بعض نقاط تنتظر التفسير ، ولكن الثابت ، على ما يبدو ، هو أن استبداد الملوك قد زال بزوال دولة منف القديمة .

٤ - ويظهر مجتمع مصرى جديد ، بظهور الدولة الطينية [ ٢١٦٠ - ١١٠٠ ] ، وسوف نحفظ هذه الدولة بكل سماتها الأساسية حتى زوال الاستقلال القومى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وذلك خلال تطورات وأحداث سياسية . ولا غرو أن تظهر لنا فجوات وفراغات فى دنيا الآثار ، خلال هذه الحقبة الطويلة التى دامت خمسة عشر قرناً . فجوة فيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة الطينية ، إبان الاحتلال المكسوسى ، وفجوة انهيار الإمبراطورية المصرية فى آسيا انهياراً سريعاً بعد مرفتاح ، وفجوة انحلال الرعامسة ، وفجوة تشتت شئون الحكم وانقراض عقده ، إبان دولة بوپاسطة ؛ وبعدها يحىء عهد الإحياء الإثيوبى والصاوى . كل تلك فترات دقيقة ، وحقبات غير معروفة تماماً ، نقر فيها بنقص معلوماتنا نقصاً بالغاً . ولكن الاضطرابات



التي وقعت في مصر كانت من نتائج قارعات السياسة الخارجية وأحداثها ، أي أنها تناولت الأسرات الملكية ، لا المجتمع المصري ، الذي ظل حياً برغم الغزوات ، يتابع حضارته المتناسقة ، ويتطور داخل إطار مبادئه الثابتة .

وتحولت فكرة السيطرة الملكية المطلقة إلى ناحية إنسانية ، بفعل إصلاحات ملوك مشرعين ، حكموا بعد الملوك المستبدين . كان سلطان الملك في الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، نقلها الفراعنة في دقة وصرامة ، ورضى بها المحكومون دون تردد . . . . ولكن هذه العقيدة تتحول تحت حكم الأسرة الثانية عشرة إلى مبدأ ومذهب في الحكم ، أي إلى تعاليم تحاول أن تكون إنسانية ، تقوم على حكم العقل ، ويصبح دار الملك مثابة القانون ، ولم يكن مجرد قانون تعاقدى ، يطبق في العلاقات السياسية والتجارية [ فإن بابل شرعت في هذا تشريعاً أكثر أصالة من التشريع المصري ] ، وإنما هو قانون اجتماعي ، ينشئ العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الإلهية في العالم الآخر . فلا يحسب الملك أنه مضعف من سلطانه إذا أشرك الشعب في إدارة أملاكه . وبذلك يتطور نظام الحكم إلى شيء قريب من نظام اشتراكي في الدولة . نعم إن الفرعون يظل مالكا للأرض وما عليها ، ولكن بشرط أن يكون للجميع هدف واحد ، هو « خير المجتمع » . فالملك يؤدي خدماته في الدولة ، كما أن الشعب ، خاصته وعامته ، رعيته ووضعته ، يعمل من أجل المجموع ، في الأرض ، وفي الحرف ، وفي وظائف الدولة . بل إن القوى الإلهية ، والطبيعة ذاتها ، تدرج هي أيضاً وتحشد في عداد الآخرين .

ودليلنا على قولنا هذا نتلمسه في برديات من أواخر الدولة الطيبة ، يعدد نصها قائلاً : « هذا بلاغ للناس ، جاهلهم وعالمهم ، بما خلق فتاح وأبدع ، وما سجل توت وأثبت ، من كل ما يوجد تحت قبة السماء ، أو على ظهر الأرض ، : أولا العوالم : السماء وقرص الشمس والقمر والنجوم . . . والعواصف والزعد والفجر والظلمات والنار والماء والفيضات والبحر والبحيرة والأرض والرمال والزرع ، ثم الأحياء : الرب والربة ، والروح « آخ » [ الميت المؤله ] ، والملك القائم ، والزوجة الملكية ، والملكة الأم ، وأولاد الملك ، والأمراء ، والوزير وأمير الصحبة . . . إلخ . ويتبع ذلك موظفو الدولة المركزيون ، وموظفو الأقاليم [ الشئون المالية والعدل والجيش

والمعابد] ، وتنتهى القائمة بالكعبة وأصحاب الحرف الفنية ، والطهاة والتجارين  
والحفارين وعمال المعادن وصانعى أحذية الملك . . . [والبردية ناقصة] .

وهكذا يبدو لنا المجتمع المصرى مجتمعاً مجتهداً للخدمة العامة ، يضم ما حوله  
من العناصر إلى المخلوقات : الكل مسجل مدون ، كأنهم البنيان المرصوص يشد  
بعضه بعضاً . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى معاهدة الصلح<sup>١</sup> بين رمسيس الثانى  
وملك الحيثا ، حيث يستشهد على توقيعها بالسماء والأرض والرياح والسحاب :

• • •

تلك إذن كانت الأدوار التى مرت بها نظم الحكم : مجتمع على الشيوخ أيام  
العشائر ، وحكم مطلق مؤسس على الحق الإلهى أيام الدولة القديمة ، واشتراكية  
ملوكية بعد الثورة . . .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها ، فإن النظام الذى ظل المصريون مخلصين  
له - وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم - أظهر بحيويته ، وطول بقائه ورنخاته ،  
قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستنداً إلى محكومين جبلوا على النظام .  
فالحضارة المصرية ، بأوضاعها المتعاقبة ، توحى إلينا بصورة شعب مهاسك  
متناسق فى أصله ومنبته وروحه ، شعب ، وإن قل عدده ، يبنى بالقوة فيما أبدعته  
عبقريته الخارقة المدبرة ، وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وإيمانه بالبعث ، ومثله  
فى العدالة .

ومرد هذا النظام إلى ظروف المعيشة التى فرضتها عليه القوى المسيطرة على البلاد :  
النيل والشمس . وإلى أنه - من ناحية أخرى - وريث مباشر للمجتمعات البدائية .  
أى أنه فى حالته الراهنة ، كما كان فى عصور البداوة ، يخضع الفرد للجماعة ،  
ويعيش على اتصال دائم بالأرواح ، واحترام بنوى للتقاليد .

والمجتمع المصرى ، فى نظام الحكم ، وفى طباعه وأخلاقه وعاداته ، يظل حتى  
النهاية فى صف المجتمعات الخاضعة للمقدرات ، وهو فى هذا متخلف عن المجتمع  
الإغريقى الرومانى . تأمل المعابد المصرية يرعاها أمباطرة روما ، ويتوج الكهنة فى  
داخلها ملوكهم الأجانب ، ليدعموا ويطلبوا سلطانهم وحياتهم بممارسة الطقوس .  
ويدفع هؤلاء الكهنة عن الآلهة والناس غائلة الموت ، وذلك بتلاوة التعاويذ وإجراء

الطقوس التي وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، من أجل الفراعنة القدماء ، عباد هوروس . فلا غرو أن نقرأ ، في مؤلف مكتوب في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس ، هذا القول :

« مصر ظل الإله على الأرض ، وهي قدس أقداس العالم ، وحاضرة الأديان . »  
فالعنصرية القديمة ، على الرغم من الجهود المواتمة ، ظلت تتحكم في مصر المتطورة ؛ والمصري لا ينجح إلى الحرية ، ولا إلى تكوين الشخصية الفردية ، إلا في فترات نادرة من أزمانه الاجتماعية . وإنما هو استعداد للكمال ، دفع به إلى التجديد في فنه وصناعاته . أما التحرر ، الذي يضمن للفرد حقوقه في مواجهة مطالب المجتمع ، ويطلق المرء من عقال العقيدة الدينية ، والفنان من قيود الأساليب المرسومة ، والمؤمن من حدود الطقوس الجامدة ، والمفكر من التقاليد ، ذلك التحرر لم يظهر في مصر بوجه عام ، بل إن فلاسفة اليونان ومشرعهم هم الذين سوف يحررون الفرد من ربة هذه القيود كلها .

وعندما يفتح ملوك العهد الصاوي أبواب البلاد للأغريق ، يجرى أول من يجيء الأغارقة الذين تربوا في بحبوحة الديمقراطية المعروفة بالمدن اليونانية ، أولئك المتشككون ، أبناء دولة العقل ، الفنانون الذين أبدعوا أسلوباً إنسانياً ، يجيئون إلى مصر ، فتثير دهشهم تلك الآثار الماثلة ذات الطراز الثابت ، وتلك الحيوانات تؤله ، والملوك - الآلهة يحكمون دولة عظمى دون منازع ، وتلك الإدارة المركزية تتغلغل في كل شيء ، والشعب المستكين لآلهته وملوكه وأمرائه ! ما أشبه بها دهشتنا ونحن نشاهد حفريات الحيوانات الضخمة ، المنقرضة منذ عهود سحيقة ! فلا هيرودوتس ، ولا الآخرون ، فهموا عقلية المصريين . ولكنهم ، مع هذا ، أدركوا أنهم حيال مشهد كله روعة ، فريد فذ في دنيا العالم المعروف إذ ذاك ، يستوجب منهم أن يفهموه ويتمثلوه جيداً ، قبل أن يضيع في عباب التطور والتقدم . ظهرت لهم مصر وكأنها الكثر الحافظ لحضارة الإنسان منذ مهاتها وأصولها . فهي عندهم أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، تحيا حياتها وقد آذنت بالأفول ، وتحتفظ بآثارها منذ عصور واغلة في القدم ، تحت سمعهم وبصرهم ، عبرة وأمثلة للمجتمعات الجديدة . » وهنا أقبل الأغارقة ، أهل الشك ، في رجعية فكرية غريبة على العقل

البشرى ، يسائلون كهنة هليوبوليس ، لعلمهم يتعرفون على أقدم التقاليد وأعرافها .  
هنا يبدأ دور مصر ، معلمة الأجانب ، عندما يقبلون عليها أفواجاً : يجيئها  
المشرعون والفلاسفة يستوحون تجاربيها الاجتماعية ، وفلسفتها فيما وراء الطبيعة ،  
ويؤمنونها من يتلمسون عقيدة تطمئن إليها النفس ، محاولين فهم أسرارها الروحية .  
ويدخلها الفاتحون يتلقون عليها مبدأ من مبادئ السلطان ، ويأخذون عنها أساليب  
الإدارة . فأى مثل يفوق هذا المثل ، يضرب لمؤسسى الإمبراطوريات ، وهم يرون  
سلطة الملك ممثلة فى وظيفة مرصودة للخير والنفع العام ، قائمة على وحي الآلهة ،  
يرضى عنها الناس . لذلك يتحرق الإسكندر سباسب ليبيا ، يطلب إلى آمون  
واحة سيوة أن يضفى عليه أبوته ، ويخرج المقلونى للناس فى صورة آمون وابن آمون ،  
ويتأثر البطالسة بخطاه ، ويتلقى عنه قباصرة روما هذه الأمثلة ، فيتحولون وشيكاً ، فى  
إمبراطوريتهم ، إلى أرباب يعبدون .

أما عن تلك الأداة المتكاملة فى الإدارة المصرية ، وهى أس عمل المجموع من  
أجل الدولة ، فقد عرف البطالسة قدرها وميزاتها العماية ، فحولوا مصر إلى مصنع  
كبير للإنتاج ، واستغلوا ثروتها الزراعية وصناعتها استغلالاً تاماً لفائدة المقيمين  
على ضفاف بحر الروم كلهم . وعندما تحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية ،  
تمسى مصر لا مخزن خلال العالم اللاتينى فحسب ، وإنما الولاية النموذجية فى نظام  
الحكم الإمبراطورى ، يحتفظ بها قبصر ملكاً لشخصه .

ومع كل هذا ، فإن الرخاء والعمل المنظم والإدارة الحكيمة لا تكنى لإطالة  
عمر أمة ، لأن الشعوب بحاجة إلى عقيدة ومذهب . ولقد ابتدع الفراعنة مبدأ الحق  
الإلهى لسلطة الملك ، ومذهب التعاون الاجتماعى ، وسادته الكهنة آلافاً من السنين ،  
وآزرته قوى الشعب الروحية والمادية . ثم جاءت الأجناد المرتزقة والغرباء يستولون  
من المصرى على مثله الاجتماعية العليا ، ويسلبونه إيمانه بالسلطان ، وعقائده وعاداته  
وتقاليده وكتابات . فالحق أن الفكرة الفرعونية للمجتمع كان قد انتهى زمانها ، وقضى  
عليها بالعفاء ، وأمست مصر فى قول أحد نصوصها : « جسمها بلا روح ، ومعبد  
بلا إله » ، وانطوت أسرار كتابتها عندما طارد المسيحيون السلالة الباقية من كهانها ،  
وانزوى حتى اسم مصر وكلمتها المقدس .

فلنستمع إلى الميثية التي تقطع نياط القلب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة الإسكندرية . وعند هذا الحكيم أن زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها إلى اليوم ، يفيض بها الوداع الذي يودع به أسكلييوس [ في القرن الرابع الميلادي ] حضارة كانت في زمانها خيرة مجيدة ، وهي تسير دون رجعة في طريقها المحتوم إلى الزوال :

« سيجيء زمان يظهر فيه كأن المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقوس الآلهة ، بروح العبادة البررة ، والصلاح المؤمنين . وما دام الصلاح والعبادة والإيمان لم تؤد إلى شيء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوت واليأس . سترفع الآلهة عن أرض مصر ، وسنهجرها إلى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات ، وتغلو يتيمة من آلهتها . لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . ولن تهمل أركان الدين فحسب ، بل إن المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التي تجعل من إيمانهم وصلاتهم وعبادتهم أمراً محظوراً ؛ وهذا أقسى ما يرزوها به القدر . حينئذ ستتحول تلك الأرض القلمية ، مثنى المعابد ومعش الآلهة ، إلى أجداث وأرماس .

يا مصر ، أى مصر ! لن يبق من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة إيمانك ، لا يأخذها الخلف مأخذ الجدد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى . »

• • •

فلذا كان هؤلاء الأقطاب من المؤرخين الأجانب يقفون بتاريخ مصر وحضارتها القديمة عند حدود تخصصهم ، ويعتبرون موت الحضارة الفرعونية نهاية لتاريخ مصر ، فإن تلاميذهم المصريين - وهى ظاهرة طبيعية ، ولكنها جديرة أن ينوه بها - كان من غير المعقول أن يقفوا منها هذا الموقف . لذلك أختتم هذا الفصل بما انتهى إليه مؤرخان مصريان ، أولهما أحمد بدوى ، صاحب كتاب « في موكب الشمس » ، ولن ننقل آخر كلماته ، لأن كتابه فى حكم غير المنتهى ، فقد وقف منه عند آخر الرعامسة ، وإنما نقتبس الكلمة التي اختتم بها ما سماه « نظرة عابرة » ، في آخر مقدمته ، قال :



« الميلاد اليومي للشمس ، والميلاد السنوي للنهر يشكلان قسبات الطبيعة المصرية . كانت مصر غنية ولكن في غير إسراف ، ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمراً جتياً ، ليختنمه زراع كسالى . الشمس والنيل يشتركان في إعادة الوادي إلى الحياة ، ولكن بفضل جهاد الشعب المصري ضد الموت ، فالشمس تدفئ ، ولكنها في حمارة القيظ تلوح وتلفح ، والنيل يحمل إلى مصر المياه والطمي والخصب ، ولكن فيضانه السنوي قلب ، لا تنفع فيه نبوءة ، فالفيضان العالي يغرق الأرض والحراث والنسل ، والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء ، عالياً كان أم واطئاً ، فهو يبيء دفعة واحدة ، وينتهي عاجلاً ، مما يلزم سكان الوادي بالعمل المضني لحزن مياهه ، وتنظيم الري نوبة بعد نوبة . والصحراء عدو متحفز ، يقرض الأرض المزروعة ، ويحيل الخصب محلاً ، وهي إلى ذلك موطن الأفاعي والضواري والغيلان والسعالي . وبطائح الدلتا وقد تحولت أجسام ومستنقعات ، تتطلب الري الدائم حتى تعود حقولاً مزروعة . والبلاد تشرف على الفناء في ربيع العام تلفحها الرمضاء ، وتلوحها الشمس ، وتهدها التحاريق ، حتى يعود الفيضان ، فيعتدل الجو ، ويبارك الله أرض الكنانة ، ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين . ولكن ذلك لم يكن يعني أهلها من الكفاح الدائم والحرمات ، أوليحميها من الأخطار ، مما يجعل ظفرها الموسمي أروع أثراً وأصدق ، إذ لم يبيء نعمة سابغة ، وإنما حققه التعب والنصب .

« وثمة صفة أخرى لوادي النيل تنعكس في أخلاق أهلها : وحدة المناظر ، واتزان عناصرها : الشاطئ الشرقي يوازن الضفة الغربية ، وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا . وسواء أكان هذا التقابل فعالاً أم غير فعال ، فإن المصري كان شديد الإحساس بالاتزان والنظام والهندسة ، يتجلى إحساسه ذاك في فنونه وآدابه ، وتتسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع :

أصنع إلى أقوالى ، أهزى سمعك ،  
 إننى ألقى إليك بالكلم لتعرف أننى ابن رع ،  
 خلقت من صلبه ، لأجلس هائناً على عرشه ،  
 مكن لى فى الأرض ، سيداً على الوادى ،

## الحضارة المصرية

بالفصل السابق مختارات مما ختمت به بعض كتب التاريخ ، ونريد الآن أن نفهم لماذا يجمع المعجبون بمصر القديمة من المؤرخين الأجانب على القول بأن مصر انتهت بانتهاء الحضارة المصرية ، ويهملون أمر مصر كله بعد ذلك . ولا يمكن أن يتهموا بسوء القصد ، أو الخطأ في التعبير ، وجلهم يحنمون كتبهم بما يشبه ما جاء في أحدها ولم أسجله في الفصل السابق ، احتقاراً لشأن كتب عن مصر القديمة ليس في العير ولا في النفير ، إذ يقول : « جاءت الساعة المرصودة في لوح القلندر ، وأن لمصر أن تموت » ، كذا !

لا أظن هذا مجرد إجماع على الخط من شأن أمة عاشت في عين الدهر ، بعد نهاية الأسرات ، نيفاً وألني عام ، وما تزال حية ، وفي عنفوان الشباب ، وكأنها خلقت خلقاً جديداً . وأذكر في شباني أول لجنة دولية جلست فيها مندوباً عن بلادي ، وكانت اللجنة تضم ممثلين لبلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان موضوع اجتماعها علمياً محضاً ، لا علاقة له بتاريخ حضارة قائمة أو بائدة ، وكنت أصغر الحاضرين سنّاً ، فجاءت في خطابي إشارة إلى مصر « الدولة الفتية » ، وإذا بأولئك الشيوخ الأعلام حولي يتبادلون النظرات ، ويعلق أكبرهم على كلامي قائلاً : كنا نظن قبل أن يتكلم المندوب المصري أن مصر أقدم البلاد وأعرقها ! فأجبت على التو بأنني لم أقل الأمة ، أو البلاد ، وإنما قلت « الدولة الفتية » .

ولم يكن في تعليق المندوب الكبير ما يتعدى مداعبة شيخ لشاب ، وفي حدود الاحترام لبلادي القديمة والحديثة . هذا وأغلب العاملين في الدراسات المصرية القديمة من أصدقاء مصر . لذلك أحب أن أضع على لسانهم فيما يلي ما أحسبه منحي تفكيرهم :

إننا نرى الحضارة المصرية القديمة شيئاً رائعاً حقاً ، وما حدث على ضفاف النيل من انتقال الإنسان من البداوة إلى تلك الحضارة الرفيعة ، وقبل كل الشعوب ، وذن

مساعدة من الآخرين ، هو ما أردنا أن نقص عليك أحسن قصصه ، بعد أن قضينا حياتنا ، وأسأتدتنا من قبلنا ، نتقب عن آثار مصر ، وننقل وترجم ، ونسجل ونقارن . فإذا انحدرت شمس تلك الحضارة نحو المغيب ، شعرنا بالحزن يملأ قلوبنا ، وأحسنا بأن أروع صفحة من صفحات التاريخ البشرى تطوى نهائياً .

أى نعم ، ستعرف بلادك حضارات ، ولن تغرب شمس الفن والعرفان عن بلادك . فلسنا نحن الذين ننكر حضارة الإسكندرية ، ولا ما أدته مصر للمسيحية الأولى ، ولا أن مصر قلب الحضارة الإسلامية الخفاق منذ أكثر من ألف عام . ولماذا نذهب بعيداً ، وإليك ما قاله أستاذنا أوجست مارييت :

« مصر لا تشرق بضع لحظات ثم تغيب في ليل طويل ، كما حدث في بلاد أخرى ، بل العكس هو الصحيح ، فإن بمن طالعها العجيب أراد لها أن تواصل عملها سبعين قرناً . وأن تترك أثرها في ناحية من النواحي واضحاً جلياً ، فيها يكاد يشمل جميع حقبات هذا التاريخ الطويل . ففي العصر الفرعوني ظهرت مصر ، في غابر الزمان ومطالع الدهور ، جدياً أعلى لجميع الأمم ، بملكها خوفو ينشئ بناء لا يتفوق عليه الفن الحديث ، وبملكها تحوتمس ، وأمنحوتب ، ورسيس ، يسحبون خلف عرباتهم الحربية أسرى من جميع الأجناس التي عرفها ذلك الزمان . وإبان الحكم اليوناني والروماني نرى مصر تتحكم في عالم الفكر ، كما تحكم من ذي قبل بأسلحتها ، فهم فلاسفة الإسكندرية الذين تولوا الحركة الفكرية في غضون أزمة من أشد الأزمات الروحية ، وهي الحركة التي تمخضت عن العالم الحديث . وفي القرون الوسطى شاد الفن العربي بالقاهرة منشآت التي تعز على التقليد ، ووقفت مصر سداً منيعاً أمام الصليبيين ، وأمرت عاهلهم لويس بالمنصورة . وفي أيامنا تجيء الحضارة الحديثة لتعيش على ضفاف النيل ، فتستأنف مصر سيرها بخطوات واسعة في ركب التقدم ، وإذا العالم أجمع يتتبع إليها . »

ونحن نؤمن على ما يقول مؤرخ من مؤرخي مصر الحديثة ، إدوارد داريو :  
« ليست مصر طريقاً ، ولا معبراً ، ولا هي ورقة كوتشينة ، في الألاعيب المعقدة بين الدول ، ولا يمكن أن تكون مصر مستعمرة للاستغلال ، أو لاستيطان الغرباء . »

« مصر جذوة إنسانية ، من أقدم الجذوات اشتعالا ، وأروعها وأظهرها للعيان ، في كل ما أوقد حول البحر الأبيض المتوسط من مشاعل الحضارة على مدى الأجيال .

« مصر صنعها رواسب حضارات لا يعادها في الثراء إلا طمى نهرها الإلهي ، وامتزجت في تربتها ملايين من الأجساد : أربعة آلاف عام من حكم الفراعنة : منف ، طيبة ، الكرنك والأقصر . ضفاف النيل أجداث ألفية ، طابقاً فوق طابق ، تنطوي على كنوز من الفكر والفلسفة .

« وألف عام من الحضارة العربية ، أضافت كنوزاً إلى العلوم والآداب ، إلى جانب تلك الآثار الفنية من جوامع ومساجد ، بوحى القرآن ، تتخلق حول الجامع الأزهر . »

ولكن ما حققتموه في عصوركم التالية لعصر الأسرات ، حققه غيركم في أصقاع أخرى من العالم ، ولم تعد لكم ميزة التفرد والتفوق ، وهي الميزة التي كانت لكم في فجر الإنسانية .

وهنا يضيف العلامة كورت لانجه :

« لتكني برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيرة من الشعوب — منها مصر وسومر والصين — استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة في الأزمان السحيقة ، وأن تنهج لنفسها أسلوباً في الحياة يعد من أغنى وأصح ما حققه الجهد البشري في هذا السبيل ، وهو أسلوب لا تدين به لغير نفسها ، ورجاحة عقلها ، وصدق شعورها ، وتنسجم به ذروة رفيعة من ذرى التقدم ، وبهذا تمهد للبشرية طريقها إلى الرقي . وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر في الحضارات التالية لحضارتها — وما أكثر من ينكرون عليها هذا الأثر — ولكن الرأي مجمع ، حتى عند هؤلاء الجاحدين ، على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل إلى اليوم . »

فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة ، وإذا لم تنفعلوا بتاريخكم الأول مثلما نفعل نحن الغرباء ، فلا تلومن إلا أنفسكم !

• • •

قال ولسون في كتاب « قبل الفلسفة » :

« وبعد ، فهذه صورة عاجلة من تاريخ مصر ، ومن سيرة حظها العجيب ،  
ترينا كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل . كل  
عرض يفنى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى ، فخالدا لا يموت . »

• • •

وثانيهما أحمد فخرى ، فى كتابه « مصر الفرعونية » ، وهو يعتمد بهذه الكلم :  
« لقد سكنت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى  
العازين ، ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبياتها وحجراتها ، يهتف بمجد  
مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب  
الكبير الضخم ، الذى سطره المصريون بأنفسهم . »

« إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .  
« لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت  
الدول وزال الغزاة ، وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليدته منذ آلاف السنين ،  
وستظل للمصريين تقاليدهم الهجيدة ، طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه ، يفيض  
بالخير والبركات ، وهو باق بإذن الله إلى أبد الأبدين . »



سديد رأي ، يتحقق على الأيام تدبيرى ،  
أنا حامى الحمى ، أنا المدافع عن مصرى ،

• • •

لا شك أن وحدة الشعب المصرى أقدم وحدة تمت لأمة ظهرت على وجه  
البسيطة ، وأقواها . سواها النيل وطميه ، وأحيها الشمس المشرقة . فالشعب  
المتحضر ، أى الشعب الذى يفلح الأرض ، اضطر إلى ترتيب معاشه حسب ارتفاع  
النيل وانخفاضه ، ونظم تقويمه على حركات الشمس والفصول ، وضم شمله ليستطيع  
أن يحقق أعظم النفع من طمى النيل وشمس مصر ، وليدفع عنه غوائل الفيضان ،  
أو خطر القحط والأوبئة إذا ما أصيب بفيضان منخفض . لذلك نفهم أن تتجمع  
العشائر المصرية الأولى حول وادى النيل فى مراكز أو مديريات عرفها الإغريق  
باسم « نومس » وهى الكورة ، ولكل كورة إلهها ، وربما مجموعة آلهها ، وقد تكون  
مجرد طواطم ، ولكن تجمع الكور فى أقاليم ، ثم فى إقليمين كبيرين ، قضى بتجميع  
تلك الآلهة ، وتغلب بعضها على بعض . بيد أن أساس ديانة المصريين كان عبادة  
الشمس والنهر ، وكما تعود الحياة إلى الأرض الموات بعودة الفيضان وبقوة الشمس ،  
فإن المصرى الأول بنى عقائده على فكرة النشور ، أى الحياة بعد الموت ، وبذلك  
يمكن القول بأن الإله الأكبر الذى اشتركت فى عبادته الأقاليم كان رع -  
الشمس ، وكان أوزيريس ، الذى بدأ معبوداً للوجه البحرى ، إله النشور ، والعالم  
الآخر .

والهندوكية أيضاً - وهى وثنية متعددة الآلهة ، ما تزال قائمة إلى اليوم - تقول  
بعودة الميت إلى الحياة ، لا فى العالم الآخر - فليس للهندوكى عالم آخر - بل فى  
هذه الدنيا ، وفى صورة متناسخة ، صعوداً فى سلم المخلوقات - إن كان المتوفى  
من الصلاح - وانحداراً إن كان طالحاً ، ولكنه فى الحالين معذب ، فالحياة  
عذاب . وينتهى عذاب هذا التناسخ بعد سلسلة من العود إلى الحياة فى صور  
متشكلة من إنسان أو حيوان ، عندما يبلغ الهندوكى مرتبة القداسة القصوى ، فينتهى  
بموته إلى التلاشى التام فى البراهمان .

فالهندوكى ، نسجين التناسخ ، شقى خزين ، كل ما يأمله أن يتخلص من

هذه الحياة ويفنى . . . في الثرثالثا !

أما المصريون القدماء فقد دفعهم حب الحياة إلى الحرص على امتدادها بعد الموت . ألا يكون تفسير هذا أن المصري السعيد يعيشه الرغد : كان لا يطلب إلا أن تطيل الآلهة عمره في الدنيا ، وفي الآخرة ؟

• • •

يتقدم البشر من الفطرة إلى البداوة ، ومن البداوة إلى الحضارة ، أو قل إنهم ينتقلون من التوحش إلى التبربر . ومن التبربر إلى التحضر . والإنسان الأول صياد قناص ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يكون وحشاً ضارياً يضرب بمخالبه ، ويمزق بأنبابه وأظلافه كالأوباد . فهو حيوان ضعيف البنية بالنسبة لسكان الغاب والأحراج ، ثالم الأسنان ، مفرطح الأظافر ، يدرج في زمرة أهل الحيلة والمكر من الحيوان . هيأته الطبيعة ليأكل من خشاش الأرض ، وأوراق الشجر وفواكهها . . . ومن لحوم الحيوان والسمك . هدته حيلته إلى مخترعات هائلة في بساطتها : اكتشف طريقة لإشعال النار ، وصنع البومرانج والنشاب والقوس والسهم ، واخترع الشص والجوية لصيد الماء ، وحذق « المقلب » يحفرها لأخيه الحيوان . . . والإنسان ، دون أن يقع هو فيها ، وقد يقع . ثم حول قطاع جذع شجرة يتدحرج ، إلى عجلة تدور ، واستألف الحيوان يقتنيه لغذائه ، ويروضه لمعونه ، وعرف الزراعة ، مقلداً الطبيعة : وصنع الأواني ليخزن فيها الحبوب . وكان قد ترك سكنى الكهوف وأعلى الأشجار ليحفر في الأرض مأوى ، أو قبراً ، تعلم كيف يكسوه بأغصان الشجر ، ثم يجذوعها ، وكيف يجدل سوق النبات حصيراً ، ثم عرف كيف ينشئ من جذوع الأشجار وأغصانها كوخاً مسقوفاً : أى أنه انتقل من حياة الهائم يطارِد ويطارَد ، إلى نوع من الاستقرار انتهى إلى النجع والمحلة والقرية .

والمصري مر بكل تلك الأدوار : وقد عرفنا بعض آثاره فيها : درس العلماء « حضارة » عصوره الحجرية ، وظهر أنه اتجه قبل الأسرات بزمان طويل اتجاهات اجتمعت فيها خصائصه الإنسانية كيفها طبيعة بلاده . وفي آخر عهده الحجري الحديث ، قبيل الأسرات ، ابتكر رموزاً مصورة يسجل بها بعض كلامه . وعرفناه

بواصل صناعة الطران طويلاً ، حتى في عهد الأسرات . وإذا كان استعمال النحاس مبكراً ، فلن يصل إلى الحديد إلا متأخراً ، وربما في العهد اليوناني ، أو قبل ذلك بقليل .

بلغ الإنسان المصري قبل عهد الأسرات « حضارة » فيها النحاس ، وفيها الكتابة ، ولها نوع من التفكير الديني بالخلق ، وبالحياة قبل الميلاد ، وبعد الموت . وفيها فن بدائي استودعه انفعالاته بشيء سماه « نقر » ، ربما عني به « الجمال » وربما « الخير » ، وربما كل شيء طيب .

والمصري ، في الأسرات الأولى ، حقق ما أخطأ العالم الأوروبي في وصفه بالمعجزة ، كما سبق له أن وصف حضارة الإغريق بهذا الوصف . وليست هناك معجزات في تكوين الحضارات ، مصرية أو سومرية أو يونانية .

ولسنا مرتبطين في هذا الكتاب بخطة جمع المعارف وحشدتها ، إنما نحن رحالة في رحاب التاريخ نشاهد آثار الحضارة المصرية حولنا ، ونقرأ عنها ، ونقلب صفحات الكتب التي تسجل صورها ، لتذكر وتنمغن فيها رأينا منها بين الركام ، وفي هجير الحر ، تحت الأرض وفوقها ، نسف التراب والرمال ، ونهش الذباب والهوام . . . والأدلاء . وينادي علينا من باب المقبرة ونحن في أسفل سافليها بأن الأنوار ستطفأ ، و « الأسطي عاوز يروح الأقصر » ، و « ابور الكهريبا حايقف ! » . فهي الكتب بصورها تجدد الانفعالات التي انطبعت في نفوسنا أمام الأصول . ثم نسجل ما وعته ذاكرتنا عندما نأوى إلى مخادعنا بعد يوم عناء للجسد ، وغذاء للروح . وخطأ الرحالة أنه يريد أن يشاهد كل شيء ، فينهي به الإجهاد إلى ثلم إحساسه . ولقد عرفت ، كرحالة قديم ، كيف أختار ، وكيف أقنع بالقليل من الكثير ، لأحتفظ برواء الأثر الفني وجدته .

وما زلت أتصور متحفاً للآثار المصرية تكفي ساعة أو ساعتان لارتياحه ، لتخبر له القطع القذة من فن المثال والحفار والرسام ، وتنسقه بطريقة فنية تحيط كل تحفه بما يبرز محاسنها ، ويؤكد خطوطها وأقواسها ، وانبعاجاتها وتكورها . ينتقل الإنسان في ذلك المتحف الصغير وكأنه يترى في « نزهة الفن والروح » ، ناعماً بما يرى ، لا يستعجل الزمان خطاه ، ولا تشغله مئات المتحف بمئة ويسرة ،

تزوج بينها عيناه ، وتتصلب رقبته ، فهو يتلفت كأن يخشى مباغتة طارئ مهاجم ، يرفع الرأس ويخفضها ، ويميل بها ، يركع ويسجد ، يصوب النور إلى عينه هنا فلا يرى شيئاً ، ويضايقه الظلام حيث يجب أن يشاهد ويتأمل .

المتحف الذى أتصور ، بناء مستقل عن دار الآثار المصرية ذات التاريخ المجيد ، ردهاته محدودة ، ويا حبذا لو استوحى المهندس فى بنائه ذلك المعبد الصغير الجميل الذى أعاد بناءه هنرى شثرييه فى ساحة الكرنك حديثاً ، وهو من آثار سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كان يودع فيه تمثال الإله آمون الفحل ، وسفينة المقدسة .

ولست هنا متخيلاً أو حالماً ، فقد نشأت فكرتى هذه منذ ابتدئ متحف اللوفر ، قبيل الحرب الكبرى الثانية ، بدعة الزيارات الليلية ، وخصص لها قاعات صغيرة فى بديرون القصر ، واختار لها قطعاً ممتازة من مجموعات الغنية التى انتهت فى الأخرى فى الطوابق العليا إلى ما يشبه « سوق الكانتو » المعروف عندنا قديماً باسم « الأتكمخانة المصرية » . هناك فى ذلك البديرون على ضفة السين اليمنى أحسست ، وربما لأول مرة ، بروعة جمال الفن المصرى . وبذلك رحم اللوفر زواره من الإرهاق ، يمثل ما نرهق به زوار متحف القاهرة .

والفنان المصرى لم يكن « أرتست » بالمعنى الذى نعرف . لم يصور ولم يخفر ولم ينحت تماثيله لتراها العين فى معرض ، أو ليقطنها الأثرياء فى دورهم . إنه يعمل للأبدية ويشغل فى نطاق الطقوس الدينية ، فهو والمحنط والكاهن الذى يتلو التعاويذ والبناء والمبيض ، يعدون « للمرحوم » — باعتبار ما سيكون — مثواه فى الآخرة .

ونحت التماثيل نشأ فى أول أمره حلاً لمشكل بقاء الجثمان ، فإن المصرى لم يضمن مع التحنيط ، الاحتفاظ به ، وعفريت الميت ، أو قرينه « كا » فى الأصح ، بحاجة إلى جسد يتمثل فيه بشراً ، فإذا ما اختفت المومياء ، راحت على الميت حياته الأزلية . فتماثيل الأسرات الأولى بدأت غالباً كبديل للجثمان ، أو احتياطى لها .

ومجموعة التماثيل التى انحدرت إلينا من تلك الأسرات لا تمثل الفن المصرى فى ذروته فحسب ، بل إنها تضعه إلى جانب آثار الفنون العالمية التى عرفها التاريخ فى أجمل عصوره ، بعد قرون من انهيار الحضارة المصرية .

فلنؤم المتحف المصرى لنشاهد بعض هذه التماثيل ، ولتصور تحقيق فكرتنا فى متحف « المختارات » فنقتصر على قلة منها . إنك ستعرفها كلها واحداً واحداً ، وتكاد تقرئ « شيخ البلد » ، السيد كا - أبر ، السلام فى شيء من الألفة ، وتحديج الأميرة نوفرت بنظراتك وأنت تحسد زوجها رع - حوتب على حسن ذوقه فى اختيار رفيقة حياته ، جمالا ودعة . وللعثور على هذين التمثالين الجالسين قصة أحب لك أن تذكرها وأنت ترى الوجوه المزججة ، والعيون البراقة ، والألوان المشرقة ، يكاد بهم صاحبها بالتحدث إليك . فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كان العمال القائمون بالعمل فى حفائر المدعو دانيئوس باشا يفتحون مصلى مقبرة مكتشفة حديثاً لأمر من أمراء الأسرة الرابعة ، بوادى ميدوم ، وإذا بهم يتراجعون مدعورين ، وهم يؤكدون للعلامة المشرف على الحفر أنهم رأوا عيون الأرصاء السحرية التى تحرس الكثر ، تلمع غضباً ، وتهدهم بالويل والثبور !

هذه أعمال النحات المصرى تصور الإنسان أميراً ، أو كاتباً ، أو موظفاً عمومياً ، كلا على سجيته . ولكن فى تشخيصه للملك استطاع أن يحقق أعجوبة ببيكولوجية . فلنلق نظرة على أعظم قطعة فنية فى التاريخ المصرى كله ، ومن أجمل وأقوى ما حققه فن المثال فى العالم أجمع : تمثال الملك خفرع ، من حجر الديوريت الأسود مجزعا بياض . لن تما لك من الشعور بأن هذا الجالس أمامك إنسان رفيع المقام ، والألفة بينك وبينه ليست ميسرة ، تلك الألفة التى شعرب بها أمام الأميرة نوفرت ، والخنرال رع - حوتب ، والسيد كا - أبر . لم يصنع المثال شيئاً خارقاً يعلن أنك بحضرة ملك عظيم ، لأنك إذ تنظر إلى التمثال من أمام ، لن ترى علامة ملكية واحدة ، إذا لم تثبين رأس الصل فوق جبينه . إنما هى النظرة الجانبية تقدمك إلى الإله هوروس فى صورة باشق يحمى رأس الملك يحتاجه . وستطالع على جانبي المقعد رمز مصر العليا والسفلى . فأنت إذن فى حضرة ابن هوروس - رع - هاراختى ، صاحب الهرم الثانى ، أجمل الأهرامات فى عيني ، يزهر على جواره الأكبر بتاجه الهرمى الكامل . لم يصوره المثال فى جلال الملك ، وقوة السلطان ، جباراً عاتياً . ولكننا نواجهه ، من دون شك ، شخصية بارزة ، رافعة الرأس فى ثقة بنفسها ، واطمئنان إلى قوتها . ولست أدرى من أين جاءتني فكرة قديمة فى شبابي



— عرفت تفسيرها فيما بعد — وهى أنى كلما رأيت وجه أبى الهول ملأت فراغاته ، وأكلت سيئه وتقاطيعه برأس خضر هذا . كم أحب أن يوضع تمثاله الهائل فى مكان منفرد بمتحف المختارات فى صدر المكان ، يبلغه الزائر بعد أن يتم مشاهدة روائع الأسرات الخمس الأولى . ومن رأى أن الزائر الفنان ، إذا أحب أن يحتفظ فى نفسه برعدة الفن ، يجدر به أن يكتفى من يومه بزيارة مختارات فن الدولة القديمة ، وأن يعود إليها مثنى وثلاث ورباع ، لأنه سيكون حينئذ قد تشرب روح الفن المصرى فى أرقى وأخلص أعماله .

وليس فى نيتى ، بطبيعة حال هذا الكتاب ، أن أعدد الأعمال التى أقترحها لمتحف « المختارات » . فلن يعسر على حسنى الإرادة ، إذا ما استقر رأى على تنفيذ مقترحي ، أن يدلهم من هم أقدر منى على ما يختارون ، وكيف ينسقون مواضع مختاراتهم .

• • •

هل ساءلت نفسك إن كان المصريون عرفوا كلمة « فن » ؟ وما علامتها  
الهيروغليفيه ؟

يقول فقهاء اللغة البربائية إن الرمز الهيروغليفى الذى يمثل « مثقاباً للصخر » معناه هذه الكلمات : فن ، صنعة ، حرفة ، فنان ، صانع . فلم يكن لدى المصريين — ولا عند اليونان فى هذا الشأن — كلمات تميز الفنون عن الصناعات . والمثال الذى صنع تمثال « شيخ البلد » من خشب ، أو نحت تمثال « نى » من الحجر الجيرى ، لم يكن إلا صانعاً فى « شركات المقاولات المتحدة لبيوت الأبدية » ، أى أجيراً لنقابة الحانوتية . فتى يتحول هذا الصانع إلى فنان ؟ لا شك أن عنايته أولاً و آخراً — وهذا شىء يميز الصانع المصرى فى كل عصوره الفنية الزاهرة ، من عهد الأسرات وما قبلها ، حتى قضت على فنه حضارة القرن التاسع عشر الآلية ، والتفريج الذى طمس على عيوننا ، وهى بقايا اللوق الفنى من نفوسنا — أقول إن عناية الصانع المصرى كانت فى إجادة عمله فحسب ، حتى يجيء تمثاله مطابقاً للأصل . لأن فى هذا ضماناً لنجاح التحول السحرى عندما تنفخ « كا » فى التمثال حياة صاحبه ، أى عندما يلبسه عفريت المرحوم . ولكن الفنان ، فى محاولته

المطابقة ، تتداخل في نفسه تلك العوامل المجهولة التي تقود يده إلى اللبسة الروحية اللامحة ، فيجىء التمثال صورة للواقع ، وصورة لانتفاعات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك ، كما بحثت أنا طويلا ، عن مركز هذا الصانع الفنان في المجتمع المصرى القديم ؟ لأننى حقاً غلوت في الدعاية عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفر بجواب ، لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك في الصعيد شيئا غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق ، وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطل عتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراهن مفتشو الآثار ونخفراؤها ، أو من واتاهم الحظ والثراء فصعدوا النيل في ذهبية أو باخرة .

لو أننى في ذلك اليوم البعيد ذلت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت في أية فلاة أترك السيارة ، لتوصلت إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثالها الأكبر « توتموزى » ، ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتموزى الخاص ومرسمه ، وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبياناه . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه ، ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصه وحده ، لأن بيت المثال توتموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التي فازت منها متاحف برلين بالنصيب الأوفر ، ومن هذا النصيب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التي صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صنع قالب من حمة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء في أوربا على ما يعرف « بالقناع الجنازى » . وفي متحف القاهرة رأس لنفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامك من هذا الرأس المصبوب ، حتى ذلك الرأس الجميل لزوجة أخناتون الموجود حالياً ببرلين . وقد زعمت ألمانيا قبل

الحرب أنها على استعداد لرده إلى أهله ، لولا أن المصور الفاشل ، مبيض الجدران ، المدعو أدولف هتلر ، زعيم ألمانيا في ذلك الوقت . . . وقع صريع هوى . . . ففرتيبي ! هذا ما أردتلك أن تعرفه : الفنان المصري القديم ، مع ما تقيد به من محاولة نقل الطبيعة ، ومن التزام قواعد وتقاليد مرسومة منذ عهد الأسرات الأولى ، استطاع ، على الرغم من تلك القيود ، أن يفعل بوجيه الداخلي ، وهو يترجم عن الطبيعة . ولعلك أن تعود إلى تمثال خفرع لتحاول لهذه الأعجوبة الرائعة تفسيراً .

. . .

الحضارة المصرية ، إن لم تكن أثرت تأثيراً مباشراً على الأمم التي اتصلت بها ، كما لا يزال ينكر ذلك عليها بعض المؤرخين ، فلأنها على الأقل عملت عمل الحماير في العالم القديم والحديث ، بما قدمت من أمثلة على ما يبلغه جهد الإنسان العقلي والخيالي والاجتماعي . وهي حضارة يمكن أن تجد فيها العناصر التي تثير عجبك وإعجابك ، من أية زاوية نظرت إليها ، وأية ناحية طرقت دراستها ، بشرط أن تكون ملوكاً لحالة البشر في العهود الأولى لتلك الحضارة : في العلوم التطبيقية ، لا سيما الهندسة والطب ، في المعاملات ، تنظيمها التقاليد والتشريعات ، في نظم الحكم ، في الري والزراعة وتربية الحيوان ، أو في تلك النواحي التي لا يكابر فيها مكابر ، وهي هندسة البناء ، وفي فنون العمارة والحفر والنحت والتصوير والصناعات الزخرفية ، وأخيراً ، وليس آخراً ، في تلك المغامرات الروحية للإنسان بحثاً عن الخالق ، وتحديداً لعلاقاته بما وراء الكون والطبيعة ، وما بعد الحياة الدنيا .

كما أن للطاعن في حضارة أجدادنا أن يكشف عن أوجه الضعف فيها ، سواء في نظره إلى روحانياتها أو إلى حياتها المادية : توقف الفردية وجمودها عند حلول لم تتغير مدى الثلاثين قرناً التي لبثتها تلك الحضارة ، وقصور في مجال الفكر المطلق والمغامرات الذهنية التي تميزت بها الحضارة اليونانية أو الهندية . والتغيرات التي حدثت لم تتجاوز حدوداً مرسومة أملتها العقائد الراسخة ، ووضعها المبتكرات الأصلية التي تفتقت عنها أذهان شعب الدولة القديمة .

والحضارة المصرية غريبة عنا — حتى نحن أحفادها الأصالي — إلى درجة أن حكمنا عليها يصح أن يكون موضوعاً بحثاً ، فنمتدحها أو نقدح فيها ، تبعاً

لحكم العقل وحده ، دون العاطفة . فلا تعجب أن ترى الناس يتنا فريقين أو ثلاثة :  
الجيل القديم المحافظ ، وما تزال نظرتهم إليها موصومة باحتقار « تلك الكفريات » ،  
والجيل الحديث يشمل القادح والمادح ، والمدح والقدح يتسمان بالمبالغة والمغالاة .  
والواقع أن هذه الموضوعية تباعد بين الناس وبين إدراك معنى الحضارة المصرية ،  
لأنها ليست موضوعية متزهة ؛ فنحن نتأثر دون شك بظروفنا الحاضرة وبفكرنا  
الحديث ، كما نتأثر بما تلا الحضارة المصرية من حضارات ما بين النهرين واليونان  
والرومان والإسلام والريسانس وما بعده . فلا تحسبن أنك واصل إلى قلب الحضارة  
المصرية بانتهاج موضوعية زائفة . إنما الموضوعية المثمرة أن تحاول الاندماج في الحياة  
المصرية القديمة ، وأن تحاول التفكير كما كان يفكر أسلافك في سنة ألفين أو سنة  
ثلاثة آلاف قبل الميلاد ، وأن تعمل ، في كل ناحية من نواحي الكشف عن هذه  
الحضارة ، بنصيحة ناقد فني كبير تخصص في فن الرسم عند المصريين القدماء  
قال : يجب أن نبدأ بنسيان معارفنا الحديثة في فن الرسم ، حتى نستطيع فهم الصور  
المصرية والحكم عليها .

• • •

قلت منذ لحظة إنك حين تلتقي بتماثيل الدولة القديمة بالمتحف المصري ، ستقبل  
عليها في شيء من الألفة ، وستحس كأنك أمام أشخاص تعرفهم جيداً ، وكنت  
أود أن أضيف : حتى أو التقيت بأحد هذه التماثيل في بلاد الغرب ، مثل لقائي  
بتمثال « الكاتب المتربع » بمتحف اللوفر .

لقد حدثت في حياتي الطويلة ببلاد الغرب ظاهرة ربما لم أنتبه لها في وقتها .  
ولعل أغلب من سافر مثلي شاباً ليقضي سنوات في الخارج ، خبر إحساس الحنين إلى  
الوطن الذي يعرف في لغات الغرب بالنوستالجيا ، وهو شعور يستولي عليك بحدة  
في الأشهر الأولى من إقامتك ، ولكنه لا يفارقك طوال إقامتك بعيداً عن أرض  
« كيمي » .

ومع أنني سافرت إلى أوروبا كلناً بحضارتها — وما زلت ، بما جكيت بعضه  
في كتابي « سندیاد إلى الغرب » — فإن انصرافي التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك  
الحضارة وأصولها ، لم يحمنى من نوستالجيا أرض كيمي ، وكان الحنين إلى الوطن

يعاودنى فى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيداً عن بلادى . ويرى بعض المواطنين علاجاً له فى أن يجتمعوا للاستماع إلى أسطوانات المطربات والمطربين المصريين ، أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم .

وعرفت ، إلى مثل هذه العقاقير ، علاجاً كنت أمارسه دون قصد أو وعى ، إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى . كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة . وأذكر جيداً زيارتى « للكاتب المترجم » الذى يعتز به متحف الاوفر ، لأنه حقاً من أجمل أعمال الدولة القديمة . وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذة لا تتجه إلى محدثه ، خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى « لفظ » ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى ، وأنى أسمع هذا اللفظ الموسيقى يتزل على قلب النازح عن وطنه برداً وسلاماً . كما لا أنسى زيارتى الأولى للمتحف البريطانى ، وكانت أول مرة أسمع فيها أن لنا تاريخاً وآثاراً سابقة على عهد الأسرات ، حين رأيت أميناً كهلاً من أمناء المتحف يشرح لمجموعة صغيرة من شباب البريطانيين حياة ما قبل الأسرات المصرية ، أمام قبر من قبور أهلها . لحظ الرجل ذلك الشاب الغريب الدخيل على محاضراته ، وكنت أعطى رأسى ببيرييه من بلاد الباسكيين ، فبدأ حديثه قائلاً : « نحن هنا ندرس حياة أعرق الشعوب حضارة . . . ( ثم يحدجنى بنظرة المنبرم بى ) . . . لسنا بمجرد عابرى سبيل . . . نحن هنا نتفحص ونعود إلى كتبنا لنذكر . . . ( نظرات كأنها تقول : سامع يا بارد ؟ ) . . . لسنا من أولئك الأشخاص السطحيين الذين يمرون بهذه الآثار العظيمة ، وكأنهم يشاهدون قريبات بوند ستريت . . . ( فهل فهمت يا بنى آدم ؟ ) . . . »

ولما يش الرجل قطعاً من صرقى عن جماعة الدارسين ، بما كان يحسبه « صنعة لطاقة » ، بدأ محاضراته التى استمعت إليها وكل آذان ، ولولا البرود الإنجليزى ، وما أعرفه من طبع هؤلاء الناس ، ولومهم لمن لا يكتب عواطفه ، لقصدت الرجل بعد المحاضرة لأؤكد له بأنه لن يجد بين تلاميذه من كان أشد إحساساً ، وأعظم حماساً لكل كلمة قالها . . . من ذلك الشاب الدخيل الغريب !

• • •



فلنستأنف رحلتنا ، ونغادر المتحف المصري لنذهب إلى سقارة ، أعجوبة التاريخ المصري كله ، خرجت من رأس عبقرى واحد حفظ لنا التاريخ اسمه : إمحوتب . ربما كان مهندساً أو كاتباً أو طبيباً أو فناناً . فالمصريون القدماء يذكرون اسمه محاطاً بهالة من الإكبار والإجلال ، حتى لقد رفعوه إلى مرتبة الآلهة في عهد متأخر . هذا هو الرجل الذى يقرن اسمه بروائع سقارة التى تحيط بهرم زوسر ! فلندخل حرم المعبد ، ولنتأمل أعمدة ذلك البهو الأبيض . أتعرف أنها أول أعمدة أقيمت في تاريخ العمارة ؟ ومنها العمود المضلعة ، وإن لم تستقل بعد عن حوائطها . تأمل نحت قطاعاتها الحجرية ، ودقة صنعها ، ورقة إحساس صانعها . لقد حسب الأثرى إنجلباك دقة نحت عمود من الصوان الأحمر من الأسرة الخامسة ، فوجد أن الخطأ في كل قطاع سمكه ٢٦٠ سنتيمتراً ، يتدرج بين قطاعات قطرها من ٩٢,٢ سنتيمتراً إلى ٧٩,٨ سنتيمتراً ، لا يتعدى ثمانى مليمترات . وقد رفلندرز يرى الخطأ في ناوس من الجرانيت لسيزوستريس ( سنوسرت ) الثانى ، فلم يكتشف أكثر من ثمن المليمتر في أسطحه الجانبية ، وهى صقيلة كأنها لوح زجاج مصنفر .

ولنتزل إلى مقابر قى ، وفتاح - حوتب ، وميريروكا . وهناك ستعرف أن حياة أسلافك في الأسرات القديمة هى حياتك الحاضرة . هنا ، لأول مرة وربما لآخر مرة ، ستحس بأنك حقاً حفيد أولئك الفلاحين والصيادين والصناع ، وستفهمهم كفاحهم ، وتشاركهم في مشاحناتهم ، وتتعرف على أسماك نيلك ، وتسمع خوار ثيرانك ، وشوشة هيشك وقصبك . سيعيد فنان الحفر بالبارز - باريليف - أمام عينيك حياة الشعب في الدولة القديمة . ويقول الأثريون إن مصري الأسرة الخامسة قد تنبهوا إلى نقش مقابرهم لا للزينة ، ولكن للغرض الذى عمل له المثال في الأسرات السابقة ، أى لتتقمص « كاوات » الشعب صور نشاطه في الحقل والمصنع ، وعلى ضفاف النهر ، وفوق صفحة مستنقعات الدلتا ؛ كى ينعم المتوفى بكل ما حوله من مباهج الحياة . فجاء الفنانون يحفرون على الجدران صوراً أمينة لحياة الشعب المصري في جده أكثر من لوه . . . وسيجىء فنان الدولة الحديثة ليصور المصريين في لوههم وجددهم وعبادتهم . لا أعرف كيف أصف لك هذه المحفورات البارزة وتنسيقها في صفوف مترابطة - لأن الفنان المصري لم يكتشف المنظور ولا حتى

بإثباته - والكتابات الهيروغليفية تملأ فراغات الصورة بطريقة الموازنة والمقابلة ، بحيث تحس وأنت ترى هذه الصفوف الرتيبة كأنك تسمع موسيقى بعينيك ، موسيقى ذات إيقاع هادئ ، وتكاد تسمع أصوات أولئك الصناع والزراع والمراكبية والصيادين في سكون صحراء منف .

ولست أنسى أنني دخلت هذه المصاطب آخر مرة مع بعثة ثقافية أجنبية ، من ضمن أعضائها موسيقى محترف . ما كان أشد عجبى إذ رأيت الشاب يتعجب منا مكاناً قصياً ، ويخرج من جيبه دفتره الموسيقى ، ليدون ألحانا أوجت بها إليه صور المقبرة . وكان الرجل من تلك الشعوب الجديدة التي لا تعنى بتعلم اللغات الأجنبية ، فاستحييت أن ألبأ إلى المترجم لأتبادل مع الموسيقى حديثاً يتصل بمصادر الوحي الفني . المهم أن الرجل سمع بعض الموسيقى التي كنت أسمعها بعينى منذ فجر شباني !

وما بنا حاجة إلى الانتقال من منف إلى طيبة لنطمئن إلى أن هناك تجوراً كثيراً فيما يقال عن جمود الحياة الفنية في مصر القديمة . وإنما يفتر الناس بالشبه العام بين مظاهر الحضارة المصرية ، وهو الشبه الذي نراه بين نماذج كل مدرسة فنية : في الفن الكلاسيكي اليوناني ، أو في فن الرينسانس ، أو الفن الهندي أو الفارسي . إنها القرابة العائلية ليس غير . فما لم تتفحص تفاصيل فن من الفنون ، وتعرف مؤثراته ، شيئاً مما وراءه من تاريخ ، تظل نظرتك إليه نظرة سطحية ، ترى فيها جميع الصينيين واليابانيين يشبه بعضهم بعضاً . . . كأنهم التوائم !

أما ترى الفارق العظيم بين معبد أبي الهول ومعبد زوسر ؟ ألا تلاحظ تطور بناء الأهرامات خطوة خطوة ؟ ألم يعمل المثال المصري في الخشب والصوان والديوريت وحجر الجير ، وفي كل مرة تملأ عليه المادة خطوط تطوره الفني ؟ إذا امتدت أمامه صفحة حجر جيري متماسك ، رسم عليها ، ثم أعمل فيها إزميله على طريقة الحفر البارز . وإذا لم تطاوعه مادة الجدار للحفر ، طلائها بطبقة من الجير ، أو من ملاط الطين المخلوط بالقش ، وصور عليها بريشته وألوانه ، كما فعل في صور إوز ميدوم من أعمال الدولة القديمة ، وفي جميع مقابر وادي طيبة في الأسرات الأولى للدولة الحديثة .

ما هو الهرم بضمخامته الشامخة إلا تاج مسلة مكبر إلى اضعاف اضعافه ، لما عرفت المسلات فيما بعد ، رمز عبادة آتوم - رع ؟ أو أنه مصطبة فوق مصطبة ، حتى يرتفع هرمًا مدرجًا ، ثم هرمًا هندسيًا ؟

إننا نتابع خطوط التطور حتى في ذلك القليل الباقي من آثار الدولة القديمة . أين آثار مدينة إينون بعين شمس ، بل أين مدينة منف ذاتها ومعبد فتاح بها ؟ وهل هذا الذي نرى هو كل ما بقي من آثار دهشور وأبو صير وميت رهينة وسقارة ؟ كلا ! لم يكن الفن المصرى جامدًا ذلك الجمود المزعوم .

جامدًا ؟ ألا لينه ثبت طوال هذه القرون ! فما إن تنتصف الألف الثانية بعد الأسرة السادسة ، حتى ينهار كل شيء ، وتقلص الأهرامات ، وفي ظلها المنكمشة تنحل أربطة الحكم المفرد المتناسك ، وتنهيار الملكية القديمة . فهل كانت ثورة هبت من أسفل لا تبقى ولا تذر ، حتى اختفت في أتونها ثلاث أسر ملكية أو أربع ؟ أو أن هناك تسربًا أسيويًا ، أو غزوًا شبيهاً بغزو الهكسوس فيما بعد ؟ ما معنى أن تضمر أهرام الملوك ، وتنفسح جنبات مصاطب الوجهاء والأعيان ؟

جاء فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى عصر غامض يعرف بالفترة المتوسطة الأولى ، يعتقد المؤرخون أنه كان عهد ثورات واضطرابات عنفية وتسرب أجنبي . ولا تنس أن مصر مجموعة من الكور وحتدها إيمان أهلها بأن الفرعون ابن إله الخير والفيضان والشمس ، بل وحتدها آلهة عظام ، وأنصاف آلهة ، قبل أن يوحدتها أول ملوك الأسرة الأولى . فإذا اعتقد كبار الموظفين وحكام الأقاليم أن الأهرامات والمعابد أنشئت على أكتافهم ، وبفضل سلطانهم على الشعب ، وإذا استطال حكم الملك يبيي إلى نحو مائة عام ، ألا تتوقع أن يدرك أولئك الرؤساء بأن حقهم هضمه الفرعون فينتفضوا عليه ؟ تأمل حين عاد ملوك الأسرات الأولى في الدولة الحديثة من مغامراتهم الحربية ، وتوسعهم الإمبراطورى ، يغدقون على معبد آمون وكهنة آمون بطيبة أسلاب فتوحاتهم . أفلا تتوقع ، عندما تتقاعس مهمة الرعامسة ، أن يزحزحهم كهنة آمون عن عرشهم ؟ وهذا ما حدث فعلاً عندما تولى كبير الكهنة ، هيريهور ، عرش مصر في نهاية الأسرة العشرين .

أما في المرة الأولى ، بعد استطالة حكم يبيي ، فإن الذين تولوا الحكم كانوا

مجموعة من الأشراف والأعيان ، كل يستقل بكورته أو مجموع كوره . ومصر  
لا تعيش هائثة دون التعاون الوثيق بين أجزائها ، ولذلك راحت البلاد تتخبط أجيالا  
في المجهول المظلم الذي كان يعرف في وقت ما باسم عهد الإقطاع ، ويفضل المؤرخو  
الآن تسميته بالفترة المتوسطة الأولى ، تمييزاً لها عن الفترة المتوسطة الثانية ، بعد انتهاء  
الأسرة الثانية عشرة ، والتي فيها نزل البلاء الهكسوسى بمصر .

والفترتان ستزيجان الغشاوة عن أعين المصريين المؤمنين إلى آخر حدود الإيمان  
بالبقاء والخلود ، المطمئنين إلى منعة حدودهم الصحراوية والبحرية . الفترة الأولى  
أطاحت بفكرة أن هناك وسائل مادية تحقق الخلود ، والغزو الهكسوسى أطاح  
بفكرة أمة لا تغزى ولا تغلب . استمع إلى أثر الفترة الأولى في نفس الشاعر المغنى :  
« لقد ترائى إلى ما جرى على أسلافى عندما تخربت بيوتهم ، واهت أسواقهم ،  
وكان لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئاً مذكوراً .

« لا تفكر بما بعد هذى الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك ، حيث تغرب  
الشمس .

« أى جدوى لما يشره على الأرض كهان يلبسون جلد النمر ، أو لما يقدمون من  
قرايين ؟

« افرح بيومك المشرق ، وتمتع بما توحى به إليك نفسك ، فليس من دأب  
القدر أن يكرر أيامه .

« وكل ما هو آت آت ، ولم نر من الداهيين إلى هناك من عاد .  
لكأنى به قس بن ساعدة القائل :

في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر  
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر  
ورأيت قوى نحرها يسعى الأصاغر والأكابر  
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقيين غابر  
أيقنت أنى لا عمالة حيث صار القوم صائر

يقول هيرودوتس ، وقد زار مصر في أواخر سنى حضارتها وهى ترزح تحت  
النير الفارسى ، بأن رجالا يدورون فى المآدب على المدعوين يحثونهم على التمتع

بمباهج الحياة الدنيا ، ويعرضون لعيونهم دمي صغيرة تمثل ميتاً مدرجاً في أكفانه .  
وقد نهى ذلك إلى عادة متبعة في الريف ، وهي ترك خشبة الميت مكشوفة في العراء  
إلى جوار المسجد أو الزاوية من ناحية الميضة . أذلك لعدم وجود مكان خاص ،  
أم ليعتبر الناس ويذكروا أنهم كلهم ، وبعد عمر طويل أو قصير ، راحلون إلى  
هناك فوق تلك الآلة الحدياء ؟

أما الفترة الثانية ، فطالع ما تركته من أثر في نفس المؤرخ المصري مانيتون  
السمنودي ، الذي ألف تاريخ أسلافه باللغة اليونانية ، أيام بطليموس الثاني ،  
وسماه « إچيسياكا أبومنماتا » ، أي « مذكرات مصرية » :

« وفي حكم الملك ديدوميس استشاطت الآلهة غضباً علينا لسبب لا أعرفه ،  
فرزأتنا دون سابق إنذار ، بفئة من الناس لا نعرف لهم جنساً ، وتجراً على اقتحام  
وطننا قوم جاءوا من الشرق ، فامتلكوا البلاد عنوة دون ممانعة منا أو قتال ، وقبضوا  
على الزعماء ، وأحرقوا المدن دون رحمة ، وقوضوا معابد الآلهة ، وأذلوا أهل البلاد ،  
وذبحوا الرجال وسبوا النساء والأطفال .

« ثم أقاموا على مصر ملكاً اسمه صاليتس ، سكن منف ، وفرض الجزية على إقليم  
الصعيد والوجه البحري ، ووضع الحاميات العسكرية حيث راق له ، وحصن القطاع  
الشرقي بخاصة ، توقعاً أن يتقوى الأشوريون يوماً فيطمعوا في المملكة ويغيروا عليها .  
ومنف عاصمة الدولة القديمة لن يعود إليها مجدداً ، وإن ظلت تحتفظ بمركزها  
كمدينة المجد القديم ، حتى جارت عليها العوادي ، وتاه الخلف في معرفة مكانها  
زماناً طويلاً . ولو أن الطبيب البغدادي عبد اللطيف وقف بآثارها وتحدث عن  
عزها ملياً ، وكان ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي . وستظل مثل الدولة القديمة  
نصب عين المصريين القدماء حتى آخر أيامهم .

وحان الوقت لقرية حقيرة بالصعيد أن يرتفع نجمها في فلك التاريخ ، هي  
طيبة . ولن يكون ذلك قبل أن يقوم أمراء الصعيد بالقضاء على فوضى الفترة الأولى ،  
ويؤسس أحدهم : متوحوب - نب - رع أسرة جديدة ، ويحيى سنوسرت  
الأول ليكبح جماح الأمراء ، ثم يمهّد من جاء بعده من المتوحوبيين الطريق للأسرة  
الثانية عشرة ، أسرة أمينمحت ، وستختار تلك الأسرة عاصمة عند مدخل الفيوم في



هرقليوبوليس ، غير المعروف مكانها الآن ، وإن قيل بأنها على مقربة من لشت ،  
أو بين لشت ودهشور .

والأسرة الثانية عشرة هي أمجد أسرات السلام بعد الدولة القديمة في التاريخ  
المصرى ، هي أسرة البناء والإنشاء ، وملوكها طاردوا الأسويين أمامهم حتى سورية ،  
وتوثقت العلاقات التجارية بين ملوك مصر وأمراء بيلوس [ جبيل ] كما يظهر ذلك  
في قصة « سنوهى » ، ولو أننا لا نعرف على اليقين إن كانت هذه مجرد قصة ،  
أو أنها مذكرات من واقع حياة رجل البلاط سنوهى .

وفي أبيدوس لوحة تشير إلى حرب في آسيا ، أيام الملك سنوسرت الثالث ،  
وهو البطل الذى يتحدث عنه هيرودوتس فيما يشبه الأساطير ، تحت اسم سيزوستريس  
إنما الواضح أن ملوك الأسرة الثانية عشرة أعادوا لمصر مقامها فى النوبة ، حيث  
يذكرنا نص لأمينمحت الأول بانتصاره فى كوروسكو على شعب « واوات » .  
وللأسرة آثار عند الشلال الثانى . وأعيد فتح طريق قفط – وادى الحمامات حيث  
مناجم الذهب ، وقد أمن سنوسرت البلاد ، وأقام التحصينات فى الجنوب ، وأوقف  
زحف السود على مصر ، إلا من دخل منهم بتجارة الجنوب .

ولكن أعظم ما تذكره ملوك الأسرة هي مشروعات الرى الكبيرة ، وما قاموا به  
فى منخفض الفيوم ليكون ميزانا لمياه الفيضان ، تخزن فيه المياه العالية وتطلق منه  
لرى الشرافى ، تبعاً لحاجة البلاد ، وتمشياً مع حالة الفيضان .

ولقد اختفت معظم أعمال جبايرة الدولة الوسطى ، لولا أن هيرودوتس وديودورس  
واسطرابون وبلينيوس تحدثوا عنها فيما يكاد يدرجها فى عداد الأساطير . ولم يكن  
معقولا أن يجمع كل هؤلاء على خرافات ، وبعضهم رأى بعينه قصر اللابرانت  
عند مدخل الفيوم . وقد عثر الأثريون على بقايا منشآت خزان المياه الكبير فى  
منخفض الفيوم ، وتتبعوا أسماء ذلك الخزان فكان « هونت » ، أى « المياه التى  
تفيض » و « ميرى » أى البحيرة و « فلوم » أى البحر . ومن كل هذا خرجت أسماء  
الفيوم ، وويريس – وهو الاسم القديم لبحيرة قارون حسب طبوغرافيتها القديمة –  
أما القصر فكان معبدأ ، وبه مدفن لأمينمحت الثالث . وقد عرف فى اللغة المصرية  
باسم « لوبى – رو – هونت » أى « المعبد عند مدخل المياه التى تفيض » ، وهو

الاسم الذى حرفه اليونان إلى ما يقرب من قصر مينوس بجزيرة كريت المسمى « لايرانت » .

وكان « قصر » لايرانت يقع إلى الشرق من البحيرة ، على مرتفع من الأرض في مواجهة مدينة التمساح [ الفيوم ] . وقامت البعثة البروسية ، برئاسة ريشارد ليسيوس ، بقياس أبعاد ما تبقى من آثاره ، فكانت مائتى متر في عرض ١٦٠ مترا . وقد بنى قائماً ، رآه في القرن الخامس قبل الميلاد أولئك الزوار من الشمال ، وكان من أسباب إعجابهم بحضارة المصريين ، قال هيرودوتس :

« رأيت اللايرانت ، فكان مرآه يفوق كل ما سمعته عنه ، ولو أننا جمعنا كل ما بناه الإغريق لما تطاول ، عملاً وتكاليفاً ، إلى اللايرانت . هذا مع أن معبد إفسوس عظيم ، هو ومعبد ساموس . ولقد رأيت الأهرامات فكانت هى أيضاً أعظم من شهرتها ، وواحد منها يساوى أعظم منشآت اليونان ؛ فإذا باللايرانت يفوق في نظرى الأهرامات ذاتها . أما خزان موريس فهو عجيبة تفوق اللايرانت نفسه . »  
وبرغم تلك الشوامخ ، وما تحدث به المصريون عنها إلى الرحالة الإغريق ، فقد اختفى اسم أمينمحت . فن قائل إن منشأها هو بساماتيك أو موريس — وقد عرفنا مصدر الاسم من « ميرى » أى البحيرة — ومن قائل إنه منيتس أو إمنديس أو غيرهم ، وكلها أسماء ملوك مجهولين لا أثر لما في قوائم مانيتون ، ولا في غيرها . ولم يكشف اسم منشأ الحقيقي ، أمينمحت الثالث ، في خرابات آثاره إلا في القرن الماضى .

ولا تعليل لاختفاء أعظم آثار الدولة الوسطى ، بل أعظم آثار الشعب المصرى القديم ، إلا فيما نكبت به البلاد من أولئك البرابرة الأسويين الذين نزلوا بمصر نعمة . ولما طهر ملوك الدولة الحديثة البلاد منهم ، أخذوا في حمل أطلال الدولة الوسطى ، ليستعينوا بها على إنشاء معابدهم . وقد اكتشف الآثريون في بقايا صرح للملك أمينوفيس الثالث بالكرنك ، حجارة معبد صغير من الحجر الجيري ، أنشأه الملك سنوسرت الأول مقاماً لتمثال آمون وسفينه المقدس . واستطاع المعمارى النابغة هنرى شفريه ، بعد جهود مفضنية ، أن يعيد بناء ذلك المعبد في ساحة الكرناك . وكذلك ظهرت تحت أنقاض قرية مدامود بقايا من مبانى الملك سنوسرت الثالث .

ومسلة المطرية من آثار سنومرت الأول أو « أوسرت - سن » ، كما كان يكتب اسمه في القرن الماضي ، وهي أقدم المسلات المعروفة .

وكل هذا قليل بالنسبة لما اختفى من آثار دولة الأمينمحتيين والسوسريتيين في تانيس وهليوبوليس والفيوم وقفط وطيبة ، ولا تعوضنا إلا قليلا عن زوال معبد أمينمحت الثالث ، الذي عرفه اليونان باسم قصر اللايرانت .

بل إن أسرة المنتوخوتيين كان من حقها على التاريخ أن يبقى معبد ملكها بالدير البحري ، لا لأن منتوخوتب قد وحد الإقليمين ، وافتتح العهد الذهبي الثاني للحضارة المصرية فحسب ، بل لأن أسلوب بناء ذلك المعبد كان شيئا جديداً في العمارة ، تأثرته الملكة حتشبسوت عندما أقامت معبدها في بطن جبل طيبة ، إلى جوار معبد سلفها الكبير .

وكان هذه الدولة الوسطى محكوم على آثارها بالعناء ! فقد حفظت الأجيال منها مجموعة قبور في سفح الجبل عند قرية بني حسن ، أمام المنيا ، وفي البرشة ومير وأسيوط ، وبالقرب من أسوان . وتفطر قلبي أسى وأنا أزور مقابر بني حسن ذات يوم في مطالع عام ١٩٥٥ ، فإذا هذه الروائع من فن الدولة الوسطى مهملة ، يسطو عليها ما هو أقوى من اللصوص . . . يحوها الزمن محو من فوق جدران المغارات ذات العمد السابقة على الطراز الدوريكى ، والعمد ذات التيجان اللوتسية . وهي قبور أمراء الكور في الدولة الوسطى ، صورة من فن الريف المصرى بعيدا عن العاصمة القديمة منف ، والعاصمة الجديدة هرقليوبوليس ؛ تصور ، كالعادة ، حياة الزرع والضرع ، ولكنها تصور أيضاً شيئا جديداً على الحياة المصرية . وهو إعداد الشباب بكل أنواع التمرينات الرياضية والعسكرية للقيام بواجب الدفاع عن الوطن . تفطر قلبي لأن تصاوير بني حسن مستحقة حتماً في بضع سنوات إن لم نتداركها . ولأن تصاوير مقابر سقارة مآلها هي أيضاً إلى الزوال ، وبخاصة الواقع منها في ممرات المداخل ، ولأن تصاوير الدير البحري مآلها هي أيضاً أن تمحى . ولا أعرف على من تلقى اللوم يوم يعلن في العالم محو صور بني حسن ، أو بعض صور سقارة أو الدير البحري ، كما لم أعرف إلى من وجهنا اللوم عندما أثار صرح من صروح الكرنك في أوائل عام ١٩٥٩ ، وتفركت صور مقبرة نفرتارى !

وماذا يفيد اللوم بعد أن خرج من مصر الكثير من تماثيل هذه الدولة الوسطى ،  
وهي كنوز غالية تحتفظ بها متاحف العالم المشهورة . فمن المسئول عن خروج رأس  
للملك سنوسرت الثالث من زجاج الأبيديان الأسود ، وتمثاله في شكل أسد رابض  
من حجر الديوريت ، وتمثال الأميرة سنوي ، أميرة أسيوط ، وكان زوجها حاكماً  
على النوبة من قبل سنوسرت الأول ؟

وبالمتحف المصري مجموعة تماثيل وصور حائطية للملوك الأسرة الثانية عشرة ، أرجو  
أن يخرج بعضها إلى « متحف المختارات » يوماً ، حتى لا تضيع وسط المخزن العام  
الذي ضاق بسكانه العظماء . فهي صور ناطقة بالتحول الذي انتقل بالمصري من عهد  
الطمأنينة والسلام والمنعة ، إلى عهد عرفوا فيه ثورات لا تبقى ولا تلبس ، وذاقوا مرارة  
تسرب الأسيويين البرابرة إلى وادي الحضارة .

وقاعة الحلى بالمتحف المصري احتفظت لنا بأجمل ما أنتج صاغة الجواهر في  
الدولة الوسطى . تلك العقود والخواتم والغوايش والتيجان والصدريات الملكية لأمينسحت  
الثالث وسنوسرت الثالث ، تلك النفائس التي كشفت عنها حفائر دهشور ، ليست  
بمجرد ذهب وزمرد وياقوت ولا زورد ، ليست بمجرد صور للبلخ والثراء أغدقه المصريون  
على موميات أميراتهم وملوكهم ، وإنما هي نماذج لفن حضارة رفيعة ، تعنى بالجمال  
في الأثاث واللباس والصعاف والأواني ، من أية مادة صنعت ، حتى لنعجب اليوم  
بتلك العقود « الفالصور » التي يقتنيها السياح ، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز  
وزجاج وقطع الميناء ، لا شيء إلا لأنها تقلد ، وتحتل إلهام ذلك الصانع المصري  
العجيب .

• • •

وفي الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الأسرة العظيمة ، الذي دام أكثر  
من قرنين ، أخذ يغشى مصر ظلام تاريخي وإيهام لم يكشف عنه بعد ، والغالب  
أن يكون الجمع الأسيويون قد عادوا إلى التسرب في شرق الدلتا ، أو تكون موجات  
الهجرة قد تحركت من أواسط آسيا فاكتمحت الشرق الأدنى ، ودفعت أمامها ذلك  
الشعب المجهول الأصل والنسب ، فترل بمصر ، وقضى على استقلالها وحضارتها .  
هي فترة مجهولة ، لأن حكم المكسوس في المائة أو المائتي عام التي أناخ فيها بكل كلكه



على مصر ، لم يترك لنا من آثاره . . . إلا مجموعات من الجمارين !  
وهذا الغزو الماحق أزاح عن عيون المصريين نهائياً غشاوة الاطمئنان داخل  
الحدود ، فلم تفد بشى حصون الأسرة الثانية عشرة التى تذكرنا بمآل خط ماچينو  
الفرنسى ، عندما تحول إلى مصيدة هائلة لحماته ، خرجوا منها إلى معسكرات الاعتقال  
الألمانية مباشرة !

تعلم المصريون ، فى الألف الثانية قبل الميلاد ، أنه غير كاف أن تطرد اللخيل  
إلى خارج بلادك ، وتقيم وراء حصون حدودك ؛ بل يجب أن تطاردهم إلى ما وراء  
تلك الحدود ، حتى تطمئن إلى البلاد الواقعة وراء حدودك ، سواء باستعمارها أو  
بضمان صداقتها وحيادها .

يفسر لك هذا الدولة الحديثة كلها ، أو الإمبراطورية المصرية العظمية ،  
ضعفاً وقوة . فضعفها نشأ عن قوتها ؛ تعتدى على جيرانها لتؤمن حدودها ، فتضيف  
إلى الخطر الذى يهدد نظامها فى الداخل ، كلما ضعفت أداة الحكم ، خطراً جديداً ،  
وهو تحفز الدول المحكومة ، أو الدول التى تخضع بطريقة أو بأخرى ، وتربصها  
بمصر ، وتحركها للانفصال عن الدولة المسيطرة ، بل والاتقضاض عليها ، كلما  
أحست بتدخل الضغوط واضطراب الملك . سيحدث ذلك كلما قامت فى الشرق  
الأدنى دولة جديدة ، حتى يقضى القضاء الأخير على استقلال مصر الفرعونية ،  
تحت سنايك الجحافل الفارسية ، ثم تحت أقدام كتائب المقدونيين المترامصة ،  
التي اقتحمت كل شىء أمامها منذ خرجت من بلادها ، بقيادة الإسكندر ،  
حتى بلغت حدود الهند .

وما أكثر ما خلفت لنا الدولة الحديثة من آثار ، وآثار عظيمة ، ولكنها لا تقارن  
فى قيمتها الفنية ، ولا فى أصالتها ، بآثار الدولة الوسطى ، ومن أولى ، بآثار الأسرات  
القديمة . لئننى أستجمع فى خيالى كل ما تركته آثار الدولة الحديثة ، سواء ما رأيته  
منها على طول الوادى ، أو ما تزدحم به قاعات المتحف المصرى ، ومتاحف العالم  
الخارجى ، فأحس حياها بشىء من القلق ، لا تفسير له عندى إلا فى أن أصحاب  
هذه الآثار يتكالبون على الدنيا ، ويحاولون إقناعك شخصياً بأنهم خير أمة أخرجت  
للناس . وترتفع فى هذه الدولة جمجمة الملوك ، وتصطبغ دعاويهم الطويلة ،



ويسردون عليك حكايات هي إلى القشر أقرب ، من أمثال حكاية رمسيس الثاني الذى وقف وحده أمام جيوش الحيثيين كلها ، فى العام الخامس من حكمه ، إبان موقعة قادش ، وهى القصة التى تكررهما معابد الرمسوم والأقصر وأبي سمبل ، وغيرها ، كأنها بلاغات رسمية ، ويترنم بها شاعر العهد ، المدعو بتتاؤور ، فإذا ببردية فى متحف تورينو تسرد الحكاية بتفاصيلها ، ووقفه الملك وجيئداً أمام أعدائه يدعو إله آمون ، فيهب إلى نجدته ، ويرتد الأعداء فى هرج ومرج من عرباتهم الحربية تتحطم ، ويتساقطون غرقى فى نهر العاصى . . . ولكن هذه البردية تصف الحادث على أنه وقع للملك . . . تحوتمس الثالث ، وهو الملك الفاتح ، فى الأسرة السابقة على أسرة الرعامسة ، ولا يبعد أن تكون أمثال هذه الحكايات أكليشيات شعرية تعارلمن يستعير .

ورمسيس الثاني ربما كان أصعب الشخصيات تحليلاً لدى المؤرخ ، ومؤرخ الفنون بالذات . لقد تولى العرش شاباً ، ومات بعد أن حكم سبعة وستين عاماً ، وحكم على إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأنشأ من المباني ما لا يكاد يدخل تحت حصر ، وبعضها من أعظم ما أبى التاريخ عليه من آثار الأعم الماضية . ماذا دهم ذلك المتكالب على الدنيا والآخرة ، المسعور بالسطو على آثار غيره ، ومنها بعض آثار ملوك الدولة القديمة ؟

كنت أطلع ، بمحض الصدفة ، وأنا أكتب هذا الفصل ، «سفر يشوع» [يشوع] من أسفار العهد القديم ، — أتذكر قصيدة شوقى : أيا شمس يشوع خبرينا إلخ ؟ — وهو سفر من أكثر أسفار التوراة إثارة للملل والضج ، فكله طعنة وشنشة تشبه ما عرفته من أخازم الأسرة التاسعة عشرة . وإذا كان رب الجيوش ، «الأدوناي» الذى وعد إسرائيل بامتلاك الأرض وما عليها ، هو الذى يأمر يشوع بأن ينفخ فى الصور فتندك حصون أريحا ، وهو الذى يستجيب ليوشع فيوقف له الشمس فى مسارها ، فإن رب الجيوش فى مصر ، المدعو آمون ، يتكفل بتحقيق الكثير مما يشبه تلك الأساطير العبرانية .

إنما الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هى أن الدولة الحديثة — بإهمال أمر القوة الفردية للملكها التى تذكرنا بضرورة المشط : «قد الكف» ، وبقتل مائة ألف «أ» — هى قمة من قنات الحضارة المصرية فى كل ما عرف عنها ، بل هى اجتماع تيارات

العصور السالفة في مجرى حضارى هائل — أفكر به دائماً كلما اقتربت من شاطئ النيل في عنفوان فيضانه — حتى ولو اتسمت أعمالها الفنية بالقلق ، كما في عهد التحوُّتسين ، أو بالمرض والعقد النفسية كما في عهد أخناتون ، أو بالعنجهية والطنطنة كما في عهد رمسيس الثانى . ولنا أن نعتر بالعاصمة المصرية في زمانها ، إذ كانت طيبة حاضرة العالم المعروف في عهد الدولة الحديثة ، كما كانت الإسكندرية في عهد البطالسة ، وكما كانت القاهرة ، كبرى العواصم الإسلامية في القرون الوسطى ، وفي العصر الحاضر .

كادت طيبة ، عاصمة آمون ، تجعل من إلهها رب العالم ، وإننا لنسمع صدى طيبة في أشعار هوميروس ، وهو يقول في الإلياذة : « طيبة حيث القصور المنيفة تنظم على الكنوز ، وأبوابها المائة يخرج من كل منها مائتا فارس مغوار مدجج بالسلاح » .

طيبة أعادت مجد منف إلى مائة ضعف وأكثر ، وستصور قبورها حياة المصريين ، فإذا هي حياة متاع وبذخ ورقص ومآدب ، لم نعهد لها كثيراً في قبور الدولة القديمة ، فيريروكا ، من الأسرة السادسة ، الجالس إلى مائدته ، هو التقشف بعينه إذا قيس ذلك بالحفلات الراقصة في الدولة الحديثة ، والغواني تتولى الوصيفات زينهن ، وعازف الصنج الأعمى ينشد قصائده ، وفتيات يعزفن على آلات وترية ، أو ينغفن في مزامير رقيقة مثل قدودهن . وذلك إلى جانب صور الحياة الجادة للزارع والصانع والصيد كما في عهد الدولة القديمة . إنمسا الحديد حقاً هو تصوير حياة الملاحم والوقائع الحربية تتساقط فيها الرؤوس ، وتتطاير الأكف ، وتلك المعازل ، وذلك في كل شبر على جدران المعابد وصروحها ، لا تحتله صور الأسرى الآسيويين والجنوبيين ، أو تشغله لحنى الأغراب وأنوفهم المعقوفة وشعرهم الأجعد . ولتصور حياة طيبة عاصمة العالم القديم إذ ذاك ، وقد تراحمت في طرقاتها وساحاتها ومغانيها ومعابدها أجناس وأخلاق من الشعوب ، تتلى ألسنتها عجبا ، ويرتد منها البصر وهو حسير ، أمام صروح الكرنك والأقصر ، ومعبد سيتى بالقرنة ، والرمسيوم ، وقصر أمينوفيس الثالث ، ثم معبده الجنائزى ، وعلى أبوابه قام تمثالان هائلان ، عرفا فيما بعد باسم « جبارى ممنون » ، وكانت شمس الصباح وهى تدق عصورهما ، فيتبعخر عنهما ندى الليل ، تحدث ذبذبات عجيبة ، ينبعث عنها من أحد

التمثالين صوت كالصغير أو الرتين .

ولكى تعرف ضالة ما بقى من تلك الآثار بالنسبة لما كانت عليه ، اذكر فى عودتك من مدينة هابو أن قصر أمينوفيس الثالث كان قائماً قرب معبد رمسيس الثالث ، إلى الجنوب الغربى منه ، وأن معبده الجنائزى كان أمامه ، ممتدا إلى الشرق حتى تمثالى أمينوفيس الثالث [ جبارى ممنون ] . ثم تأمل تمثالى الملك الآن ، مشوهين تشويهاً كاملاً ، وقائمين وحدهما وسط المزارع الواسعة كأنهما خيالا مقائة أقامهما أبناء العملاق عوج بن عتق .

ويقابل صور هذه الحياة الصاخبة فى مقابر الأشراف والوجهاء ، بقرية الشيخ عبد القرنة ، عناية سكان بيان الملوك بالحياة الآخرة ، وحرصهم على أن يقفوا بمحكمة أوزيريس وثبت وقفة البراء طاهرى الذيل . ألم يملأوا خزائن آلهتهم بخيرات الدنيا ؟ ألا تستحى عيون أولئك الأرباب وقد أطعمت أفواهها ذهباً وجواهر ، وأقيمت لها الهياكل والنصب والمعابد ، من ضفاف الفرات حتى ما فوق الشلال الرابع ؟

وكان التمسك بالدين فى الدولة الحديثة لم يعد هو أيضاً ذلك الإحساس الصادق ، النابع من روح شعب متدين دائماً ، وكأنى به وقد أصيب بحمى الإعلان والدعاية ، والتوكيد بأن الملوك كانوا من الصلاح المتقين .

لست أنسى ذلك الصديق الكاتب المبدع محمود طاهر لاشين ، ونحن نزور المتحف المصرى ، أيام أرخى شبل إسماعيل لحيته ، وهرض على الأنظار مبعثته ، وإذا بطاهر يشير إلى تمثال ملك لست أذكره الآن ، وقد تدلت من ذقنه لحية مستعارة ، ويقول : ما من جديد تحت الشمس ! ألا ترى أن هؤلاء أيضاً كانوا يضحكون بذقونهم على دقن شعبهم ؟

وتلفتنا حولنا . . . ولكن بعد أن أطلق صديقى دعابته الصادقة فردد صداها هو المتحف الكبير ، وأتبعها بضحكاته المعهودة التى تمثل صراحة طاهر لاشين وصدقه أحسن تمثيل .

ومهما كان من أمر فتوحات تحوتمس ، وهى ضرورة قومية ، وكان الرجل يجمع إلى عبقرية السيامى قدرات رجل الحرب ، فإن طبيعى المصرية لا تميل إلى تلك

المغامرات البعيدة وراء الحدود ، إذ أنها ستأق إلى بلاط فرعون بالأغراب من أمراء  
يشأون على التقاليد المصرية ، وأميرات أجنبيات يثرن في حريم القروون ما المرأة  
أعرف به ، وستأق بالأجناد المرتزة من كل حوب ، يلتمسون العيش أينما كان ،  
وبالتجار والمغامرين يهربون إلى داخل البلاد سمومهم الخلقية . طبيعى المصرية  
المحافظة تخشى ما سيحل بالشعب المصرى الأصيل عندما يختلط بالغرباء اختلاطا  
يتعدى المدى القديم ، وقد عاش تاريخه بمنأى عنهم ، وكأنه أقام « كردون » صحيا  
بينه وبينهم !

وعندى أن فن العمارة الجذاب يحمل جرثومة الانحلال من أثر هذا الاختلاط ،  
فقد يتوه أنحاتون في بوادى فلسفته الدينية ، ويدور في أبهاء قصره يتغنى بأشعاره ،  
متغزلا في ربه القرص ، أو فوق درج معبده المفتوح إلى السماء . ألم يتح الفرصة  
لما يجيء به الغرباء من أفكار في الفن والأدب ، يدلسون بها على المصريين ، تحت  
ستار تمجيد الثورة وصاحبها ؟

ينخيل إلى أنى تماميت حتى تورطت في الخطأ المعروف بالحكم الجراف على  
هذه الدولة الحديثة . فكيف أنسى آثار سبى الأول في أبيدوس وطيبة ، وبهو  
أمينوفيس الثالث بالأقصر ، وبعض آثار رمسيس الثانى في شبابه ، كيف نسبت  
كل ما نشاهده في ببيان الملوك والملكات ، ومقابر عبد القرنة ، ومعابد الرمسوم  
وهايو والدير البحرى ، من قرائن على قوة الخلق في حياة هذا الشعب الفنان ، وتمسكه  
بمثله العليا في الجمال والخير ؟

ورميسس الثانى هو اللغز الذى لا أفهمه ، وهو المسئول عن جموح رأى .  
فكلما قارنت بين البهو الخاص به في معبد أبيدوس — وأبيدوس عندى ، هو  
والأقصر ، أجمل المعابد المصرية كلها ، قديمها وحديثها — وبين البهو الخاص  
بأبيه سبى الأول ، ظهر الفارق العظيم بين فن الأب وفن الابن . فن سبى عريق  
رائع ، يرتفع إلى مقام فن الأسرات القديمة ، وتشغف به النفس شغفها بأجمل  
الآثار ؛ بينما فن رمسيس متعجل ، مكلفت ، يذكرك بما خرج في حكمه الطويل  
من أعمال تتميز بالفضخامة والجمعجة ، وحب الدعاية والتفاخر . كيف حدث  
هذابين عهدين يتلو أحدهما الآخر ؟ فن غير المعقول أن يكون جيل الفنانين



الكبار في عهد سبتى الأول قد انقرض هكذا سريعاً ، ولا سيما أنك ترى في بعض آثار رمسيس جمالاً ورقة وعمقاً لا تعهدا في آثاره الأخرى : تمثاله الجائى وهو يدفع قارباً ، وصور مقبرة زوجه نفرتارى ، جيل فنانى سبتى لم ينقرض ، وإنما بواعث العهدين اختلفت ، كما أن تميز ملك عن آخر في حسن اختيار مهندسيه وفنانيه ، لا دخل فيه لقرب أو بعد في الزمان أو في المكان . وعندى أن سبتى الأول كانت تغلب عليه نزعتان : النزعة الدينية العميقة ، وتمثل في السبعة المحاربين التى أنشأها بمعبد أبيدوس لكل واحد من كبار آلهة المصريين : أوزيريس وإيزيس وهوروس وفتاح وهوروس — هاراختى ، وعراب الملك المؤله ، ويتوسطها محراب آمون . وبها أجمل الصور بالحفر البارز في تاريخ الفن المصرى كله . النزعة الثانية عند سبتى إحساسه التاريخى بالماضى — في مقابل اهتمام ابنه السوقى باسمه ، ومستقبل اسمه فيما يجرى من الزمان — وهو الإحساس الذى أطلع أثره في القوائم الملكية التى أمر بنقشها على جدران « قاعة الأجداد » ، وقد صور فيها نفسه يحمل مبخرة ، وأمامه ولّى عهده ، بشوشة الغلمان المصفورة ، يتلو من لفافة بردى ، وهما بمجدان ستة وسبعين ملكاً نقشت أسماؤهم على الجدران ، من أول مؤسسى الأسرات حتى سبتى ، الأمر بأن تكتب هذه الكلمات فوق القوائم الملكية :

« فروض الصلاة على أرواح الداهيين ، يؤديها الملك سبتى ، ويقدم لأرواحهم القرابين : ألف رغيف ، وألف دن من البضة ، وألف رأس من الماشية ، وألف كيلة أذرة ، وألف وزنة من البخور . . . فليضاعفها فتاح — سوكر — أوزيريس ، رب القبر الذى يسكن ، في معبد سبتى . »

ولم يأخذ الصبى ذو الصغيرة عن أبيه هذا الدرس الأخلاقى ، بل راح يعتدى على آثار الأجداد يدعيها لنفسه ، تغلب عليه نزعة التفاخر ، ويتملكه جنون العظمة . اندفع يذرع أرجاء الإمبراطورية طولا وعرضاً ، كمن به من ، يستحث المهندسين والبنائين ، كمن يتعجل تخليد ذكراه ، فإذا به يحكم سبعة وستين عاما ! لم يكن يعنى كثيراً باختيار مهندسيه وفنانيه ، وهو شبيه في ذلك بجميع الملوك والحكام الذين حلّوا من الإعلان ، فما أسهل أن يدخل عليهم الفنانون السوقيون بالمنجل والمنجل ، فيزيحوا الفنانين الأصالي الصادقين ، كما يطرد النقد الرديء ، النقد



الجيد . ولعل رمسيس ، لتعجبه ولفته ، حشد الجميع حشداً دون تمييز فخرجت  
في عهده أعمال تتفاوت تفاوتاً كبيراً في تعبيرها الفني ، ويغلب عليها التعاضد والتضخم ،  
والضرب في العالى . ولهذا جمالها ، وجلالها دون شك ، فإن بهو الأعمدة الكبير في  
الكرنك يأخذ عليك أنفاسك . وصدق شامبوليون وهو يقول عنه : « هؤلاء الناس  
كانوا يبنون لعمالة طولم مائة قدم ! »

• • •

أما العهد المتأخر فقد كان موضع إشفاق المؤرخين والأثريين إلى عهد قريب ،  
حتى جاء رجال أكثر إحساساً بالفن ، وأقل تأثراً بوقائع التاريخ ، فأدركوا أن هذا  
العهد مرّ بحقبات فنية هامة ، تقف إلى جانب الأحقاب السالفة رأساً برأس . ومرد  
ذلك تياران : الأول تيار التطور ، ولم يكن تطوراً قاصراً . فقد اعتنى فيه بإجادة  
تمثيل الجسم الإنساني . أما التيار الثاني فهو التزام الفنان للقوالب والطرز المعهودة .  
ونشأ عن التيارين أسلوب فيه من الحيوية ما حدا باليونانيين إلى التأمل والدرس ،  
فاستطاعوا أن يتطوروا بفن المثال عندهم ، ويحققوا ما بدا لنقاد الفن كأنه « المعجزة  
الإغريقية » . عنى الفنان المصري في العهد المتأخر بشيآت القمائن الرقيقة فوق  
الجسم العارى ، مما يحول كساءه عرياً ، نتيجة تأثر الفنان المصري باللمسة الحسية ،  
سابقاً في ذلك زميله الإغريق .

وفي متحف القاهرة تمثال من الصوان لكاهن من كهنة آمون في العهد الإثيوبي ،  
ارتقى إلى منصب حاكم الإقليم ومحافظة طيبة . و بمتحف برلين تمثال صغير للكاهن  
فتاح - أمينوفيس جالساً القرفصاء ، وضاماً ذراعيه فوق ركبتيه ، ورأس تمثال  
يعرف بـ « الرأس الأخضر » من أواخر ما أنتج الفن المصري . و بمتحف اللوفر رأس  
كاهن من الصوان فيه ثورة واضحة على فن النحت القديم ، توحى بالتساؤل عن  
مدى تأثر الفن المصري بالفن الإغريق ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نتساءل  
إلى أى حد تأثر فن المثال الروماني في آخر عهد الجمهورية بهذا الفن المصري  
المتأخر ، النابض بالتعبير النفساني .

وفي الوقت الذي كان فيه الإسكندر يستولى على مصر ، كان كاهن مصري  
اسمه بتوزيريس يأمر بأن تنقش على مقبرته هذه الحكمة : « سعادة المرء في مراعاة

العدالة . . . وإذا كنت قد بلغت إلى هنا ، حيث الحياة الباقية ، فبفضل ما قدمت  
يداي من خير على الأرض ، ولأن قلبي سلك طريق الهداية إليه تعالى . . . عملت  
هذه الصالحات حتى أبلغ ربي بعد موتى ، ولأننى لم أفتر عن ذكر أسياى العدالة ، فياصل  
الخير والشر . سعيد من أحب الرب ، وسيلبغ مثواه الأخير مبراً من كل ذنب .  
ومقبرة هذا الكاهن ، القائمة فى منطقة توتة الجبل ، من الفن المصرى المتأخر ،  
ولست من الفن المتدهور . أعجب ما فيها صورها الحائطية : صميمة فى مصريتها  
عندما تصور الطقوس الدينية ، فالفنان يلتزم هنا الفن الكلاسيكى التراما ، ولكنك  
تحس فى التصوير بيقظة وحركة لا يفسرها إلا الصنف الأخير من تلك الصور ،  
حيث ترى واضحاً جلياً تأثر الفنان المصرى بالفن الإغريقى .

والتأثر غير التهجين الذى نراه فى مقبرة كوم الشقافة ، وهى من آثار القرن  
الثانى بعد الميلاد ؛ تهجن الفن المصرى بالفن الغربى قورومانى ، فكان كالغراب  
الذى حاول أن يقلد الطاووس ففقد شخصيته الغرباية ، فلا هو يخطر كالطاووس  
ولا هو يخطو كالغراب .

مقبرة بتوزيريس هى الفن المصرى يتأثر فيتحرر ، لا يتحول .

. . .

ثلاثون قرناً من الفن المصرى تحيا برغم الاضطرابات والثورات والغزوات المحسوسى  
والرزة الفارسى والحكم المقلونى والرومانى . أليست هذه هى الأعجوبة الحقة فى تاريخ  
الفنون الإنسانية ؟

وإن احتفاظ المصرين بتقاليد مجتمهم وحكومتهم ، وأهم من ذلك : تمسكهم  
بعقائدهم ، هو الذى يفسر لنا ذلك الاستمرار ، بل تلك العودة إلى التفتح والازدهار ،  
لا فى العهد الصاوى وحده ، فى الأسرة السادسة والعشرين — وهو عهد معروف  
بالحرص على إنتاج الأعمال الممتازة ، واستيحاء فن الدولة القديمة — بل حتى الأسرة  
الثلاثين آخر الأسرات المصرية . فلا يمكن أن يعيش الفن طوال ثلاثة آلاف عام  
إلا إذا كانت نظرة المصرى تتجه دائماً إلى ماضيه ، يتمثل بتاريخ أجداده وأسلافه ،  
ويرى فى أعمالهم ، وأعمال الأسر الأولى بخاصة ، أن « ليس فى الإمكان أبدع  
مما كان » . وحب المصرين لماضيهم ذلك الحب ، وتمسكهم به حتى آخر رفق من

حياة حضارتهم ، هو في الحق عجيبة الأعاجيب . فإلى ما حفظته لنا الآثار من قوائم الملوك وسلسلة الأسرات ، نجد قوائم ، أو شجرات نسب ، لآحاد من الناس ، مثل ذلك المهندس المعماري الذي نقش على منحور بوادي الحمامات شجرة نسبه ، من عهد رمسيس الثاني حتى أيام حكم داريوس الفارسي . وفي متحف برلين صور من الحفر البارز لستين تمثالا لأسرة خرج من بين أفرادها عشرون كاهناً من رؤساء كهنة فتاح ، وذكرت مع أسماء ستة وعشرين من أعضائها أسماء الفراعنة الذين عمل هؤلاء الأشخاص إبان حكمهم . فهذه وثيقة تبدأ في الأسرة الحادية عشرة ، وتختتم في حكم الأسرة التالية . ووجدت لوحة بمقبرة المدعو « تونروي » ، المعاصر لرمسيس الثاني ، وتبدأ باسم « آجب » وهو من يظن أنه منشيء مدينة منف . وفي مقبرة أوخ - حوتب ، بقرية مير ، جدار نقش عليه قائمة أجداد صاحب المقبرة ، وكانوا يتولون وظيفة حاكم كورة القوصية ، من الأسرة الخامسة حتى الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان أوخ - حوتب نفسه معاصراً للملك سنوسرت الأول : أي أنها شجرة نسب تسجل تسعة وخمسين جيلاً .

إن مجرد التفكير بالارتقاء في شجرة الأسرة كل تلك الآلاف من السنين ظاهرة بسيكولوجية تؤيد ما نحن بسبيله . وإذا تأملنا الحضارات العظيمة في التاريخ ، استوقفنا دائماً علامتها المميزة : الاستمساك بالأجداد وما صنعه الأجداد . استمع ما يقوله ، في مقدمة تاريخه ، شيخ من شيوخ التاريخ ، وأب من آبائه العظام : نيتوس ليفيوس ، مؤرخ روما الأكبر :

« موضوعي فسيح الرحاب انفساحاً هائلاً ، فهو يرقى إلى سبعمائة عام . بدأ بدايات متواضعة ، ثم أخذ يتسع على ، حتى لأخشى أن أضيق في رحابه ، هذا إلى أن الكثيرين من قرائي لن تهتمهم في قليل أو كثير أصول روما ، ولا مطالع دورها في التاريخ ، وسيتعجلون تحدثي إليهم بتاريخهم المعاصر ، حيث نشهد بأعيننا كيف يسير قومنا إلى العفاء ، وهم يقضون بأنفسهم على مصادر ثروتهم . أما أنا ، فخير ثواب لي أن أريح بصرى ، طوال الوقت الذي أصرفه مسدداً غرضي نحو استحضار الماضي البعيد ، وأن أريح بصيرتي مما حل بأهل هذا الجيل من شقاء وهوان . »

• • •

يبقى بعد كل هذا السؤال المعلق ، والذي سيظل معلقاً زمناً طويلاً : هل تعتبر مصر أم الحضارة الحديثة ؟

وسأجيب عليه بسؤال آخر : هل فهمنا الحضارة المصرية على وجهها الصحيح ؟ إننى واحد من عامة قراء التاريخ أحس بضعف العلماء المفسرين لديانة مصر القديمة ؛ وما لم نؤمن من فهمنا الصحيح لهذه الديانة ، ستظل روح الحضارة المصرية تحاورنا وتداولنا . وشعورى بضعف تفسير العلماء لديانة أجدادى مرجعه التعقيد الذى أصابوها به ، وهو تعقيد لا أحس بوجوده فى طبائعتنا نحن المصريين . اعتنقنا الإسلام فى بساطة وسماحة ، لأن الإسلام عقيدة بسيطة سمحاء ؛ وعندما تقبل أجدادنا المسيحية ، حولوا أوزيريس إلى السيد المسيح فى يسر ، ولأيزيس إلى سيدتنا مريم ، ورفضوا تعقيدات اللاهوتيين القائلين بطبيعة ناسوتية وطبيعة إلهية لابن مريم ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة ، الإلهية ، كما تمسك نحن المسلمون ، فى الناحية الأخرى ، بطبيعته الواحدة ، البشرية ، وبأن خالقه هو الله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

كنا فى تاريخنا القديم — وما برحنا فى ظنى — رجالاً عمليين . وإذا كان أسلافنا قد آمنوا بالتعاون والتماثل والسحر ، فلأنهم وقفوا عاجزين عن تفسير ما وراء حسهم ، ولم يندفعوا فى تلك المغامرات الفلسفية التى عرفتها شعوب أخرى ، كالإغريق والمندلسون .

ويعجب أطباء اليوم من طب المصريين القدماء ، إذ جمع بين الملاحظة الدقيقة والممارسة العميقة والمهارة العملية ، وبين الاعتماد على السحر والتماثل والتعاويد ، وهى تؤلف شطراً لا يتفصل عن الشطر العلمى فى المؤلفات الطبية . فإلى جانب وصفاته من الأملاح والأشربة والعجينات والمراهم ، قوائم من الأحجية وما إليها من وصفات « الطب الروحاني » . ولكن اللورد دوسون ، فى فصله الموجز الواقع عن طب المصريين فى كتاب « تراث الحضارة المصرية » ، فهم مأزقهم أحسن الفهم حين قال : « وقد يحى » ، فى يوم واحد ، إلى طبيب فى منف أو طيبة ، شقيقان : أحدهما يشكو جرحاً قطعياً من ضربة خنجر فى صدره ، والآخر يلتبس العلاج لطفح منتشر فوق صدره . علة الأخ الأول واضحة ، أما الثانى فأمره سر مستغلق ، وبذلك يختلف علاج



الاثنين . ونفهم حيثل كيف يسير العلاج الطبي والعلاج الروحاني — أو السحري — جنباً إلى جنب . وكان دوسون قبل ذلك قد أتى على ذكر الأمراض غير الواضحة العلة ، ونسبها إلى سيطرة أرواح شريرة على الجسد ، ومحاولة المصري القديم التغلب عليها ومطاردتها . ونفهم إذن أن يبقى لنا من ذلك العصر بردية إدوين سميث ، وبردية جورج إبيرز ، على ما بينهما من اختلاف في وسائل العلاج . وهنا لا أرى خيراً من أن أحيل القارئ على فصل ممتع لحمد كامل حسين ، في كتابه « منوعات » ، يشرح فيه ممارسة الجراح المصري لفنه ، تبعاً لنص بردية إدوين سميث ، ممارسة تكاد تكون من خصائص عصرنا الحديث . أما بردية إبيرز فهي الطب الروحاني يمارسه الطبيب القديم كلما تعرّح حيال فهم أسباب المرض الخفية . ولقد بلغ من حرص المصري على « طرق كل وسائل العلاج » ، أن لا يتخلّى عن تعاويذه وتماثمه ، إلى جانب ما يصفه من علاج مادي ، ويقول دوسون في هذا : « ومع ذلك فإن بردية إدوين سميث الجراحية ذاتها ، تحتوي على رقى وتعاويذ سحرية ، نسخها الناسخ على ظهر البردية ، فيما يشبه ما يملأ صفحات وصفحات من البرديات الطبية الأخرى » وكأنه طالب طب في إحدى جامعاتنا الحديثة ، يضيف إلى المذكرات التي يدونها في كلبته ، فصولاً مختارة من طب الركة ، وكتاب أبي معشر !

الروحانية المصرية لم تكن من النوع الهندوكي المستغلق ، التائه في بوادي الأسرار الفلسفية ، إنما هي روحانية الواقف بباب المجهول يحاول اقتحامه ، أو تفسيره ، عن طريق تصورات مادية . ولا نعرف شعباً صور كل شيء ، عرفه أو تخيله ، بالقدر الذي بلغه آباؤنا الآلى . وكان المصري منطقياً مع طبيعته ، وحسب منطق خاص به ، لا حسب المنطق الذي أورثنا إياه اليونان والعرب من بعدهم .

لذلك أرجح أن ديانة المصريين كانت أبسط بكثير مما يحاول أن يفسرها به العلماء المحدثون . وعندما أراد ذلك المؤرخ العظيم بلوتارك أن يفهم ناحية من نواحي تلك الديانة ، لم يجد صعوبة في أن يصور لنا قصة « إيزيس وأوزيريس » ذلك التصوير اليوناني البلوري الشفاف ، على الأقل في الفصول الأولى من كتابه . أما هيرودوتس فكان مثال الخبير الصعق الكبير ، بعيوبه ونقصاته ، يعنى بظواهر الأمور ، لا يحاول النفاذ إلى أعماق مما يراه ؛ جل همه أن يثير انتباه القارئ لكل عجيبة ، حتى ولو لم تكن



كذلك ! ولقد ذهب في هذا إلى حد أن يرى في المصريين عكس ما رآه في الشعوب الأخرى كافة . ولا كان المصريون قد وجلوا في جو يخالف الأجواء الأخرى ، ويعيشون على ضفاف نهر تخالف طبيعته طبائع الأنهار الأخرى — كأن يجرى من الجنوب إلى الشمال ، وكأن يفيض في الصيف لا في الربيع — فإن طبائع المصريين وتقاليدهم وقوانينهم يجب أن تخالف طبائع الشعوب الأخرى وقوانينها ! . . ثم يذكر رجالة هاليكارناس تفاهات وترهات انساق إليها ليثبت ما ذكره في أول الكلام ، كأن يقول بأن المصريين يسعين إلى الأسواق بينما الرجال قعيدو البيوت ، يتزلون وينسجون ؛ وأن الرجال يحملون الأثقال على رؤوسهم ، بينما النساء يحملنها على أكتافهن ؛ ورجال الدين في البلاد الأخرى يرسلون شعورهم ، أما الكهنة المصريون فيحلقون شعر رؤوسهم زلطة ! أمثال هذه « اللغات » من هيرودوتس يمكن أن تفسر لك مقدار عجز الرجل عن فهم حقائق ذلك الشعب الذي شاخ وهرم ، سياسة حكم ، واجتماعاً ، وديانة ، وفناً .

ولعل كورت لانجه لم يخطئ كثيراً عندما ادعى أن مصر ، في واقع تاريخها القديم ، لم تخرج عن العصر الحجري حتى آخر أيامها . ويذكرني هذا بمن يزعم أن مصر المعاصرة لم تخرج بعد عن عصرها الوسيط ، لأن الجبل المتأصلة في قرارة هذا الشعب ، هي شدة تمسكه بالماضي ، وحرصه عليه ، برغم كل مظاهر التحول والتطور التي تلوح على سطح حياته .

يقول كورت لانجه بأن من خصائص ذلك العصر الحجري : اتصال الإنسان المصري روحياً بالحيوان ، إلى درجة أثارت إعجاب الإغريق وعجبهم ، واستنكار الرومان . وقد دعى أكتافيانوس قيصر ذات مرة في مصر إلى الاشتراك في عبادة العجل أبيس فقال ، من طرف أنفه : « لقد درجت على عبادة الآلهة لا الثيران ! » . من خصائص العصر الحجري قوة ملاحظة الطبيعة ، والاعتماد على الخبرة العملية ، دون الاندفاع في المغامرات الفلسفية ؛ ومن خصائص العصر الحجري تمسك المصريين بالسحر .

وسواء أكان ما يقوله لانجه صواباً ، أو مجرد رجم بالغيب ، فإن الخصائص التي يشير إليها حقائق لا شبهة فيها ، وقد برزت عيوب تلك الخصائص في العصر

المتأخر ، عندما أغرق المصريون في عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد ممن عاشوا في أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويبصره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أخفى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التي ارتضاها ، سواء قد من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الحدول الصغير قد يطمسه الطمي ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه . »

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التي عرفناها في عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا في صورة جامدة متصلة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول : تفضل أن تموت في جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الجمود في ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتسك مصر بعقيدتها الجديدة حفاظاً لقوميتها ، ولو تابعت الحركة الفكرية التي شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثاناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تسير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى في مسيحيتها ، أن تنهج نهجها الخاص في عقيدتها ، خوفاً على قوميتها أن تذوب في القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحي نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهبة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والجمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام ، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براعة خاصة في الفلسفة ولكنها — كما كان شأنها من قديم — حذقت فنون العمارة والزخرف ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وصيت بالدراسات الدينية

المتأخر ، عندما أغرق المصريون في عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد ممن عاشوا في أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويصبره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أنحنى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التي ارتضاها ، سواء قد من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الجدول الصغير قد يطمسه الطمي ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه . »

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التي عرفناها في عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا في صورة جامدة متصلة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول . تفضل أن تموت في جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الجمود في ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتمسك مصر بعقيدتها الجديدة حفاظاً لقوميتها ، ولو تابعت الحركة الفكرية التي شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تسير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى في مسيحيتها ، أن تنهج نهجها الخاص في عقيدتها ، خوفاً على قوميتها أن تذوب في القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحي نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهينة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والجمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام ، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براعة خاصة في الفلسفة ولكنها — كما كان شأنها من قديم — خلقت فنون العمارة والزخرف ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وعينت بالدراسات الدينية

## خاتمة

لا يعنى كثيراً إن كانت مصر أثرت على حضارة أوربا ، أو أن أوربا هي بنت التوراة ويونان وروما والإنجيل فحسب . كما لا يحدى الادعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم ، فهي غير باقية ، وانتهى الأمر . إنما الذى يعنى ، ويجب أن نهتم به كل الاهتمام ، هو أن نعيد تلك الحضارة إلى الحياة في نفوسنا ، وذلك بأن نحاول فهمها ، وأن ندرس حكمها وعلمها وفنها ، إلى جانب دراستنا للحضارة العربية ، والحضارة الأوربية ، حكمها وعلمها وفنها . وليس معنى هذا الفهم وتلك الدراسة أن نعود إلى أساليب الفن القديم ، فتلك أفكار سطحية مشوشة ، ودعوة تنقصها أقل خبرة بالحياة الفكرية .

إنما الشعب الحى يجب أن يعيش دائماً على اتصال وجدانى بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء ، التاريخ مثل حية تضرب للناس ، فإذا كنا اليوم نعى بتاريخ الحضارات التى انتهت إلى العالم الحديث ، فلا أقل من أن نجعل من حضارتنا المصرية نموذجاً ، لا للاحتذاء ، وإنما للإلهام . والتاريخ رياضة فكرية عجيبة ، كما أن التاريخ القوى لأهله عصب أخلاقى ، يحرك فينا نشاطاً جديداً ، وتعلم منه الشيء الكثير دون وعى . ولا أقصد أن يدرس تاريخنا على طريقة تلك آثارنا ، ، أو « نحن أول من . . . » ، أى لجود التفاخر والغطرسة ، بل يدرس ونصب عين القائم على تدريسه السهر على بقاء خمسة آلاف عام من تاريخنا حية في نفوسنا ، ماثلة لخيالنا . وبرامج تدريس التاريخ يجب أن تصاغ صياغة جديدة ، بحيث يتابع التلميذ دراستها أطول مدة ممكنة ، وتشرح له في أطوارها كلها ، ببساطة سهلة في المرحلة الأولى ، ثم يعود إليها في المراحل التالية بشيء من التفصيل . ولا داعى لحشد ذاكرة التلاميذ في المرحلة الأولى بأسماء ملوك لم يبق منهم غير اسمهم في الأغلب ، ولا بأرقام سنوات يعترف المؤرخون أنهم يخطئون في بعضها بالمائة وبالحسائة سنة . ولماذا نضطر التلميذ إلى معرفة الثلاثين أسرة فرعونية ؟ أما يكنى لفهم الحضارة المصرية أن يعرف عصر بناء الأهرام والمصاطب : ثلاث أسر ،

وأسرة أمينمحت ، والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ؟ ست أسرات في أول الأمر ؛ ثم تملأ بعض الخانات : أسرة أو اثنتين من العهد المتأخر ، ويمكن أن نعبر سريعاً العهد البطليموسى والرومانى ، كى نعطى عناية خاصة بدراسة العهد المسيحى في مصر . وبعد الفتح العربى تتجه الدراسة اتجاهاً توسعياً ، لما لتاريخ مصر الإسلامية من صلة بحياتنا الحاضرة ، وبمركزنا في العالم العربى . ويراعى في تدريس كل تلك العهود أن يشاهد الطالب أمثلة من الفن المصرى كله ، من الدولة القديمة ، حتى الفن العثمانى ؛ وأن يطالع نماذج ومختارات من الأدب المصرى ، مترجماً من النصوص القديمة ، ومن اللغة القبطية . يجب أن توضع بين أيدي الطالب ترجمات عربية جزلة الأسلوب لذلك الأدب القديم ، في تصرف يخلصها مما يغتور النصوص من غموض أو نقص ، أو خروج على العرف العام .

أما اللغة العربية فهي دعامة صرحنا الثقافى كله ، وتعمقنا دراستها ، نحراً وصرفاً وأساليب ، يزيد من اطمئناننا إلى صديق حياتنا ، ورسوخ قواعدها . ولست ممن يطالبون بتدريس اللغة المصرية القديمة ، ولا اللغة القبطية ، إلا لمن يتخصصون في حقباتها التاريخية . وإذا كان الأدب العربى المصرى في بعض العصور يقصر عن البلاغة الكلاسيكية ، فليس معنى هذا النكوص عن دراسته ، ولا سيما أن أدبنا المصرى المعاصر تطور على أساس من كل عصور العربية في مصر ، وخارج مصر ، ومن المؤثرات الغربية .

وعنايتنا القويمة بالحضارة العربية لا تعفينا من أن نحى في نفوسنا تاريخ حضارتنا السالقة ، في قالب عربى بليغ . إذ يجب أن يتكون المصرى عقلاً وشعوراً بما يوحى به تاريخه الحضارى كله ، فيتمثل حضارته جميعها في إطار من لغته العربية . يجب أن يدعم قوامه الفكرى والخلقى بكل ما هو مصرى ، حتى تكون له شخصية مصرية واضحة ، تعمل في الآداب والفنون والعلوم . ثم ليصور الرسام ، وينحت الحفار ، ويؤلف الموسيقى ، ويكتب الكاتب ، في كل ما يوحى به إليه عصره وبيئته وثقافته وجدانه . وليتأثر ما شاء له التأثر بمدرسة هنا ، ومدرسة هناك ، دون خوف ولا وجل . فإن وجدانه المصرى سوف يطبع تأليفه وتصاويره وتماثيله وموسيقاه بالروح المصرى المتأصل .



ولقد مسكنا أخيراً جلدنا بخيوط من خيوط « أريان » يهدينا إلى مصريتنا ، ألا وهو التراث الشعبي . ولكنه واحد من خيوط الهدى ، أسهلها رؤية وأبسطها وجوداً . إنما التاريخ الحضارى كله — وما الفلكلور إلا قطعة منه — فهمه ، وتمثيله ، هو مستودع خيوط « أريان » الأخرى ، الأصعب مثلاً . وبمجموع هذه الخيوط ، يهتدى المصرى إلى أركان شخصيته وأغوارها ، فيتمكن من أن يقدم للإنسانية شيئاً جديداً ، وجديراً بالبلاد التى وهبت العالم مثلاً فى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفنون وفى العلوم ، ما تزال مصدر وحى ودرس وإعجاب لا حد له فى سائر العالم المتمدن .

• • •

أردت لهذا الكتاب أن يكون ملحمة للشعب المصرى ، فإذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الأزمان ، وإذا به ، وأنا أؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، وأشير إلى ما أداه من خدمات للحضارة ، أتوكأ على آلامه وهزائمه .

أترى فى هذا معنى من المعانى المتأصلة فى النفس المصرية ، وهل كنت معبراً عن ذلك الروح الحزين ، روح المصرى يضحك بملء فيه وحنجرته ، ثم يقول فجأة « اللهم اجعله خير » ؟ لا أدرى ، وإنما أعرف أننى أعيش مثل مواطنى ، نظرننا يحدق فى الماضى المجيد ، يستوحيه أملاً فى المستقبل ، وموقن بأن ما أبى على المصرى خمسة أو ستة آلاف سنة من تاريخه المهل ، هو إيمانه بشمسه ونيله وأرضه السمراء ، وقوة الخير التى تدبر أموره من عل ، فهو مؤمن بأن المدبر الأعلى لا ينسى كائناته ، وأن من أرادها بسوء قصصه الله ، وأن بعد العسر يسراً . وهو يحب أن يردد « رب تم بالخير » . وإن أعمق الكلمات التى سمعتها تردد على لسان الناس فى أحياء القاهرة القديمة هى كلمة « الفرج » ، فالمصرى ، مهما نزلت به التوازل ، يأمل فى الفرج بعد الشدة . ولست متأكداً إن كنت هنا قد نفذت إلى سر قوة هذا الشعب العجيب ، أتكون حقاً فى إيمانه بكلمة « تفرج » ؟ أمى فى أنه لم ييأس يوماً واحداً فى ستة آلاف عام ، من رحمة مفرج الكرب ؟

هأنذا وقد بلغت ذروة المجد فى عصر الجلود الأوائل ، أختتم كتابى بكلام لم ، فيه

صورة من نفسيهم ، ومن نفسيتنا نحن أحفاد الأحفاد . فقد عرفوا الشدة والآلام والاضطراب والحرب ، على الأقل في فترتين من تاريخهم الوضاء : الفترة الأولى بعد نهاية الأسرة السادسة ، وهي فترة طويلة ، في حياة أربع أو خمس أسر ، يخرجون منها متصربين على أنفسهم ، في عهد الأسرة الثانية عشرة ، والفترة الثانية عندما تقع مصر بين برائن شعب لا يرحم ، وهم الهكسوس ، أى ملوك الرعاة ، في ترجمة مانيتون ، والملوك اللصوص في ترجمة أخرى ، والغرباء حسب آخر النظريات في ترجمة الاسم . وسيدوق المصريون صاب الذل بعد ذلك أحقاباً فوق أحقاب ، بعد أن فتحوا بلادهم للغرباء ، فطمع هؤلاء في أرض الجود والعطاء ، وفي الموقع المتحكم المسيطر وسط العالم القديم بين ثلاث قارات . سيخضعهم بعد الهكسوس ، الآشوريون واللوبيون والإثيوبيون والفرس والمقدونيون والرومان وعرب تدمر في ملك زنوبيا ، والروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة على الشرق الأدنى من أجناس الترك ، سيحكمهم الغمانيون والفرنسيس والأرنؤد والبريطانيون . أى أن مصر ذاقَت حكم الأجنبي على كل لون تراه فوق خريطة أوربا وآسيا ، لم ينقصها إلا حكم الحنود والصينيين واليابان ، حتى يمكن القول بأن مصر ليست بأقدم الأمم حضارة وأعرقها فحسب ، بل قد تكون الوحيدة من بلاد الله عانت خلق الله جميعاً .

أقول هذا دون تحرج ولا خجل ، لأن بلادى خرجت من محنتها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطباعتها السمحاء ، مقبلة دائماً على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شيء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان .

• • •

آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة في الزمان ، إلى ركنى من هذه الأرض ، وزمانى من تاريخها ، فهل أقول بلغة الجذات : توتة توتة ، فرغت الحدوتة ، وادبنى كنت عندهم وجيت ، وان ماكانشى طاقيى مخروقة ، لجبت لكم معايا فتنة ومسلوقة ؟

ولكن الجدة كانت تعود من عندهم في عالم القصص والأساطير ، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسب بوجييه كما أحس به في دمه ولحمه ساكن نحن

وبوطو ومنف وطية وتاقيس والإسكندرية ومصر والقاهرة .

أنا الذى بدأت رحلتى بالسرى فى ظلام العبودية ، وانتهيت من رحلتى إلى ضياء العصور القديمة ، وتقصى تشرق بنور الأمل فى العصر الحديث . حاشا وكلا ، أن أعود من رحلتى شاوى الوقاض !

ولأنما حملت لكم ، ممن كنت عندهم ، حديث رحلين عاشا منذ أربعة آلاف عام ، يتدبان عصر الاضطرابات فى الفترة المتوسطة الأولى ، التى كانت تعرف بعصر الإقطاع . وهما مثلك أيها المصرى ، لا تتكس أعلامهما التكببات ، بل يحملوهما الأمل الواسع العريض . لأنك يجب أن تعرف نفسك على حقيقتك ، أنت المصرى البهبوح الطرير ، السارح فى بوادى الخيال ، المغرم بأغاني الحب وألحان الصباية . أنت أيضاً ، مثل الكاتب الذى عاش منذ أربعة آلاف سنة ، ومثل هذا الضعيف الذى يضع كتابه وديعة بين يديك : فى طبعك سوداوية وحزن كظيم ، تقول فى عز أفراحك « اللهم اجعله خير » . وكما أنك لا تنسى البأساء فى السراء ، فإنك لا تفقد الأمل مهما عز الأمل ، وتؤكد بأنها ، فى ليلة اليأس الليلاء : تفرج !

أصبح إلى ما يقوله جد من جدوك الأولين ، المدعو ليو - وير :

« اسمع يا قلبى ، وانذب حظ البلاد التى فيها نشأت . . . فقد خربت ، ولا حياة لمن تنادى . ابك يا قلب وحدك ، فليس ثمة من يواسيك . انظر يا قلبى الشمس وقد غيبتها الغياهب ، فلا هى مشرقة ولا هى غاربة ، انظر إلى نيل مصر وقد غاص ماؤه ، تخوضه بأقدامك إن شئت ، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسيفيتك ، فتجد مجراه شطنانا ، وضافه ماء جاريا .

« كل طيب ولى ، والبلاد حليفة الشقاء ، تن تحت أقدام الغرباء ، اقتحموا علينا ديارنا ، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان ، وقد وقع وقوع القأس فى الرأس . « قال ابن علو لأبيه ، والأخ يضرب أخاه ابن أمه ، ويدير له وجهه وهو يذبح . كل طيب ولى ، والبلاد تموت ، والأرض تترع من يد صاحبها ، ويقتصبها الغرباء . تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل ، لأن أعداء البلاد أقفروا صناعتها ، والحاصد لا يملك ما حصد ، تأمل من لم يحرق الأرض ، ويملا بالغلال أمراءه ، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجة ، والغريب يملا كرشه .

« انظر الماشية السائمة ، لا راعى يرعاها ، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا ، وأصابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائع والغادى ، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولايب صانع الفخار . فاللصوص صعدوا الحدود واستطالوا ، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا . ومن لم يكن يملك زوج ثيران ، يحتكم اليوم على قطيع منها . لم يبق من العدالة غير اسمها ، وباسمها تقترف المظالم . سكن هرج الأفراح ، وعلا صوت العويل والنواح ، والصغير يقول قبل الكبير : لبنى كنت تراباً ، ويكاد الطفل يتدب بجيئه إلى هذا العالم .

« أليست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح ، من لا يعرف قلبه الموحدة ، الذى إذا قلت مواشيه ، قضى يومه يجمع شملها ، ويروى ظمأها ، ويداوى عللها . ألا متى يحىء فيجث الشر من أصله ، وينسحق البذرة الفاسدة قبل أن تثبت ؟ أين هو اليوم ، هل راح فى غيبوبة النوم ؟ »  
وإذا بعم من أعمامك الأولين ، المدعو نقر - وهو ، يحياه :

« كلا ، لم تأخذه سنة ولا نوم . سيأتى من الجنوب ، اسمه آمينى (أمينمحت) ؟ أبوه من الصعيد ، وأمه من النوبة . وسيضع على رأسه التاج الأبيض ، ثم يضع على رأسه التاج الأحمر ، ليوحد الإقليمين ، وينشر السلام فى ربوع الوجهين . وسيفرح به أهل زمانه ، وسيخلد اسمه فى العالمين .

« أما الذين دبروا الشر ، ونشروا الفساد ، فسيفض فوهم من خشيته ، ويسقط الأسيريون تحت ضربات حسامه ، ويكتوى الليبيون بنار انتقامه ، ويصيح الناثرون لحكمته ، أو سطوته ، ويطأطئون رءوسهم لرأس الصل الذى يطل من جيبته . »  
« وعندما تطارد " معات " الظلم من سطح الأرض ، سيعود الحق إلى نصابه ، والعدالة سيرتها الأولى .

« فليفرح قلب كل من قدر له أن يشهد ذلك الزمان . »

انتهى

## منجمل تاريخ مصر

فلنرجع هنا أيضاً الفضل للنويه ، دون أن نحملهم تبعة ، اقتبست هذه الخلاصة عن نبذة للأستاذ جورج شتايندورف ، بتصرف شخصي ، وإجمال . وقد وردت هذه النبذة في مقدمات دليل « كارل بديكر » ، النص الإنجليزى ، طبع لايزج سنة ١٩٢٩ .

واتبعنا فيها التوقيت القصير : بدء تاريخ الأسرات في آخر القرن الأربعين قبل الميلاد ، سنة ٣٢٠٠ . ولا يمكن الاعتماد على هذه التواريخ قبل حكم بساماتيك الأول ، أى في مطالع الأسرة السادسة والعشرين . أما قبل ذلك ، فقد يخطئ المؤرخون التقدير ، وبخاصة في الحقبات الأولى ، بضع عشرات ، أو مئات من السنين .

والتقسيم إلى أسرات من عمل الكاهن مانيتون السمنودى ، الذى عاش لثلاثمائة عام قبل الميلاد ، والغالب أن كان من كهنة هليوبوليس ، وألف تاريخه في ثلاثة كتب ، أيام بطليموس الثانى [ فيلادلفوس ] ، ألفه باليونانية وسماه مذكرات مصرية « إچيسياكا أبومنانا » . ولم يكن المصريون يؤرخون إلا لحكم الملك الواحد ، حسب أعوام حكمه ، ولا يتابعون تاريخهم في سلسلة متصلة . أما التقسيم إلى عهود ، أو دول ، أو إمبراطوريات فمن عمل المؤرخين المتأخرين ، لجهد حسن العرض ، وسهولة المراجعة .

## الدولة القديمة

[ ٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م . ]

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٢٠٠ — ٢٢٨٠

الأسرة الأولى والأسرة الثانية تؤلفان العهد الطينى ، أو الطينيسى ، نسبة إلى العاصمة القديمة في طينة أو طينيس ، التى يقطن أن موقعها إلى الشمال



الغربي من جرجا ، مكان قرية البرباء ، شمالي بيت خلاف ، والمحاسنة .  
أول الملوك منيس ، أو منا ، أو مينا ، منشي « السور الأبيض » - حائط  
العجوز ؟ - وهو حصن أنشئت في موضعه مدينة منف فيما بعد . وعثر الأثريون  
على قبور لبعض ملوك الأسرتين في أبيدوس [ العراة المدفونة ] قرب البلينا .

#### الأسرة الثالثة ٢٧٨٠ - ٢٧٢٠

نقل زوسر عاصمته إلى منف ، وبنى في موضع سقارة الهرم المدرج ليدفن  
فيه . وفي عهده أنشئت أقدم المصاطب . سنفرؤ [ سوريد العرب ؟ ] باني  
هرم ميدوم ، وهرم دهشور .

#### الأسرة الرابعة: ٢٧٢٠ - ٢٥٦٠

خوفو ، أو خيوبس ، صاحب الهرم الأكبر .  
ددف - رع ، هرمه في أبي رواش  
خضرع أو خفرن ، باني الهرم الثاني بالجيزة  
منقرع ، أو منقرورع ، صاحب الهرم الثالث بالجيزة  
شيسسكاف : مدفون بما يعرف بمصطبة فرعون ، إلى الجنوب من سقارة ،  
في الطريق إلى دهشور .

#### الأسرة الخامسة: ٢٥٦٠ - ٢٤٢٠

أوسر كاف : هرمه في سقارة  
سهورع

نيوسر رع

أوناس أو أونيس أو أونوس : آخر ملوك الأسرة ، هرمه في سقارة ،  
واكتشف فيه ماسبرو أول متون الأهرام .

#### الأسرة السادسة: ٢٤٢٠ - ٢٢٧٠

نتي ، أو أطويس

أهرامهم بسقارة

فيوبس الأول

مرنرع

نفر كارع

## الفترة المتوسطة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة: ٢٢٧٠ - ٢١٠٠

مجهولة التاريخ ، ويظن أن الأسرة الثامنة حكمت في منف ، ولكن ملوكا آخرين ، من الأسرة التاسعة والعاشرة حكموا في هرقليوبوليس . ومكانها ، فيما يظن ، إهناسيا المدينة ، أو أم الكيان . اسمها المصري هات - تن - نسوت ، والقبطي إهنس ، وتبعد نحو ستة عشر كيلومتراً إلى الغرب من بني سويف .

## الدولة الوسطى

[ ٢١٠٠ - ١٧٠٠ ق.م. ]

الأسرة الحادية عشرة: ٢١٠٠ - ٢٠٠٠

عصر أمراء طيبة ، امتدوا بسلطانهم إلى الكور المجاورة ، ثم إلى كل الكور شمالاً وجنوباً ، والاسم الغالب على ملوكها : متوحوتب ، ملوكها تغلبوا على ملوك هرقليوبوليس .

الأسرة الثانية عشرة: ٢٠٠٠ - ١٧٩٠

عصر بناء ، وفنون وآداب ، أعظم العهود المصرية رخاء

أمينمحت الأول : مدفون بهرم في لشت

سنوسرت الأول : أو سيزوستريس الأول ، دفن في هرمه بلشت

أمينمحت الثاني : دفن في هرمه بدعشور

سنوسرت الثاني : صاحب هرم اللاهون

سنوسرت الثالث : هذا هو سيزوستريس العظيم في تاريخ هيرودوتس ،

وهرمه في دعشور .

أمينمحت الثالث : صاحب هرم هواة ، وباني المعبد الكبير بمدخل

منخفض القيوم ، وسماء الإغريق اللابيرانت .

ومنظم خزن المياه بالقيوم .

أمنحت الرابع  
الملكة سبك - تقرو

الأسرة الثالثة عشرة ١٧٩٠ - ١٧٠٠  
يحمل ملوكها اسم سبك - حوتب ؟

### الفترة المتوسطة الثانية

الأسرات من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة: ١٧٠٠ - ١٥٥٥  
مأساة التاريخ المصرى القديم . أسرات غير معروفة ، ربما كانت تحكم  
في وقت واحد في أمكنة مختلفة . ويغلب أن يكون ملوك طيبة من الأسرة السابقة  
استطاعوا أن يتابعوا حكمهم في الجنوب ، بينما كان يحكم ملوك الأسرة الرابعة  
عشرة في خويس ( سخا ) .  
وقضى غزو الهكسوس على الأسرتين . وحكم البرابرة الآسيون مصر بالحديد  
والنار ، من عاصمتهم في أواريس ، في موضع صان ، إلى الشمال من فاقوس .  
ويؤلف الهكسوس الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، ويبدو أن  
أمراء من طيبة ظلوا يحكمون في الجنوب كأتباع للهكسوس ، وقبورهم اكتشفت  
في دراع أبي النجا ، بوادى طيبة .  
أما الأسرة السابعة عشرة فهي التي أنجبت محرو مصر من الهكسوس الملك  
أحمس [ أحموزى ] ، فاتح أواريس . وأحمس هذا هو ابن أول ملوك هذه  
الأسرة المسمى سكنن - رع ، وأخو ملكها الثانى كيموزى .

### الدولة الحديثة

[ ١٥٥٥ - ٧١٢ ق . م ]

عهد الإمبراطورية العظمى ، والفتوحات الآسيوية ، والتوسع في بلاد أعالي  
النيل . تأثرت الحضارة في حكم تحوتمس الثالث بمؤثرات أجنبية نتيجة اتصالاتها  
بشعوب الشرق الأدنى . عصر ملطان طيبة وثرائها وبلدخها .

## الأسرة الثامنة عشرة: ١٥٥٥ — ١٣٥٠

أمينوفيس الأول ، أو أمينحوتب  
تحوتمس الأول أو تحوتموزى ، قاهر أعالي النوبة . قبره فى ببيان الملوك ،  
وأول قبور ملوك الأسرة هناك .

### تحوتمس الثانى

حتشبسوت ، سيدة الدير البحرى

تحوتمس الثالث ، قيصر اللولة القديمة ، أعظم ملوك مصر قاطبة

أمينوفيس الثانى ، أو أمينحوتب

تحوتمس الرابع ، أول من عنى بتمثال أبى الهول بالجيزة ، وأزال عنه الرمال تحقيقاً  
لما رآه فى حلمه ، وهو مضطجع بين ذراعى من كان يظنه إله الشمس هارما خيس :  
أمينوفيس الثالث ، أو أمينحوتب : لهذا هو « ممنون » الإغريق ،  
وزوجته « نى » أم أخناتون ، وصاحب الصلات الوثيقة مع أمة « الميتانى » ،  
على ضفاف القراب الأعلى . باني معابد الأقصر والكرنك والنوبة ومعبد  
الخناترى كان بمدينة « هابو » ، لم يبق منه سوى « القولوسات » المعروفة باسم  
صنمى ممنون .

أمينوفيس الرابع وزوجته نفرتيتى : هذا هو الثائر الأول فى التاريخ ،  
وصاحب ديانة الواحد آتون ، ومحطم أصنام طيبة . غير اسمه الآمونى إلى  
آخن — آتون [ عبد قرص الشمس ] ، وبني عاصمته الجديدة فى موقع تل  
العمارنة حالا أمام ملوى ، واسمها آخت — آتون [ أفق قرص الشمس ] .  
توت عنخ — آمون : الملك الشاب المرتد إلى ديانة الأجداد ، العائد إلى  
طيبة .

## الأسرة التاسعة عشرة: ١٣٥٠ — ١٢٠٠

هورعب قائد الجيوش ونائب الملك ، أعاد السلام إلى الربوع ، وأكمل  
القضاء على آثار عبادة الشمس ، أخناتون .

رمسيس الأول

سيتى الأول : حارب الليبيين والحيثيين ، وثبت أقدام الإمبراطورية .

باني معبد أبيدوس ، ومعابد بالقرنة والكرك .  
رئيس الثاني : أشهر ملوك مصر القدماء . عاد إلى حرب الحثيين ،  
وصالحهم على اقتسام سورية ، محتفظاً بفلسطين .  
يكاد تصف المعابد المصرية القائمة حالا ينسب إليه بناؤها ، وأعظمها معابد  
أبي سنبل والكرك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس . عاصمته  
في تانيس ، ولكن طيبة لم تنهقر عن عظمتها .  
مفتاح أو مرفتاح : حارب الليبيين وشعوب البحر والإثيوبيين ، وله معبد  
جنازى في طيبة .

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ - ١٠٩٠

ست - نخت : أعاد السلام إلى الربوع  
رئيس الثالث : قاهر الليبيين ، والمدافع عن الحدود ضد البرابرة من  
آسيا ومن البحر . ثم قضى بقية حكمه ، نحو واحد وعشرين عاماً ، في سلام .  
باني معبد مدينة هابو وقصورها . بالغ في إغداق العطايا والخيرات على معبد  
آمون .

رئيس الرابع - حتى رئيس الثاني عشر : سلموا ذقونهم لكهنة آمون  
هريهور ، كاهن طيبة الأكبر : استولى على الملك بعد موت آخر الرعامسة .

الأسرة الأولى بعد العشرين : ١٠٩٠ - ٩٤٥

قاوم أمراء تانيس حكم هريهور المنتصب ، وأسسوا الأسرة الأولى بعد  
العشرين [ أسرة بسوسنس وأمينمحبوت ] . عهد مضطرب ، خرجت فيه  
النوبة وفلسطين على الحكم المصري . وفي أيام هذه الأسرة تمكن كاهن من  
أشباه هريهور من السيطرة على مصر كلها بعد زواجه بأميرة من الأسرة  
التانيسية .

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ - ٧٤٥

ملوك هذه الأسرة من أصل ليبي ، من أفخاذ المشاوشة ، وهي قبيلة ليبية  
من أهم القبائل التي كانت تؤلف فرقاً من الأجناد المرتزقة في الجيش المصري .  
وانزوت طيبة أمام العاصمة الجديدة في بوباسطيس .



شيشونق ، وهو شيشاك التوراة : قهر الثانيسيين ، واستولى على اورشليم ،  
ونحرب معبد سليمان حوالى ٩٣٠ قبل الميلاد . ثم أسوركون ، وشيشونق الثانى إلخ .  
الأسرة الثالثة والعشرون . ٧٤٥ — ٧١٨ .

أسرة لا يعرف عنها إلا القليل : تف — نخت ، أمير صا ومنف ، حاول إقامة  
حكمه فى الدلتا ، ولكنه غلب على أمره أمام بعانخى ملك إثيوبيا الذى  
أغار على مصر ودخل منف .  
الأسرة الرابعة والعشرون ٧١٨ — ٧١٢ .

حاول واحد من نسل ملوك تانيس ، هو بوكوريس بن تف — نخت ،  
أن يستقل بالدلتا ، ولكن ملك كوش ( إثيوبيا ) قهره وأسره وأحرقه حيًّا ،  
وبذلك تم للكوشيين الاستيلاء على مصر وتأسيس الأسرة الإثيوبية .

### العصر المتأخر

[ ٧١٢ — ٣٣٢ ق . م ]

الأسرة الخامسة والعشرون الإثيوبية : ٧١٢ — ٦٦٣  
شباكو أو سباكون ، ثم شبأتاكا  
طهارة ، وهو ترهاقة التوراة : ساعد أمراء سورية وفلسطين ضد الآشوريين ،  
ولكن هؤلاء استداروا إليه وقهروه ، بقيادة ملكهم أسارهادون سنة ٦٧٠ ،  
واستولوا على منف ، وخضع لهم أمراء الصعيد . بيد أن انشغال الآشوريين  
بحرب بابل وإيلام ، كانت فرصة انتهزها بساماتيك أمير سايس [ صالحجر ] ،  
بمساعدة المرتزقة الإغريق ، وطرد الآشوريين ، ووجد المملكة تحت حكمه .  
الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ — ٥٢٥

عود إلى الرخاء وبعض العز القديم ، بفضل الاتصالات التجارية بالإغريق  
وعناية الملوك والشعب بالمثل العليا فى الفن والأدب ، كما تلقوها عن عصر  
الدولة القديمة والدولة الوسطى .

بساماتيك الأول : أمير صا ، الذى قاد الثورة ضد الآشوريين وطردهم  
نخاو : غزا سورية وهزم جيش يوشع ملك اليهودية فى موقعة مجدو ، ثم انهزم

المصريون في موقعة كركيمش على الفرات عندما استدار إليهم يختصر ملك بابل فأجلاهم عن سورية وفلسطين . ونخاو صاحب البعثة البحرية التي قامت من البحر الأحمر وخرجت إلى بحر الهند ، ودارت حول الطرف الجنوبي من أفريقيا ، واتجهت شمالا إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق [ أعمدة هرقل عند اليونان ] . ثم عادت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض . وقد جاءت أخبارها في كتاب هيرودوتس .

وبدأ نخاو حفر قناة تصل بين الفرع الشرق للنيل وخليج السويس .  
بساماتيك الثاني

أبريس أو وه - إب - رع ، أو « هو فرات » التوراة . حاول استرجاع سورية ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام يختصر الذي فتح أورشليم سنة ٥٨٧ .  
أمازيش : قائد لبني أقصى الملك أبريس عن العرش ، وتزوج ابنة لبساماتيك الثاني ، وكانت سبيله إلى الملك . وأسكن أمازيش الإغريق مدينة نوكراتيس التي نمت بسرعة حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية في الشرق الأدنى  
بساماتيك الثالث : هزمه قمبيز ملك الفرس في فيلوزيوم [ الفرما ] على الحدود المصرية ، سنة ٥٢٥ ق . م .

الأسرة السابعة والعشرون [ فارسية ] : ٥٢٥ - ٣٣٨

حكم الفرس : وجه قمبيز حملة في الصحراء الليبية ، فابتلعها الصحراء ، وحملة أخرى ضد الإثيوبيين .

داريوس الأول : أتم قناة نخاو من النيل إلى البحر الأحمر . بنى في عهده معبد لآمون بالواحات الخارجة .

ثار المصريون على الحكم الفارسي بعد أن وصلت أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق في موقعة ماراثون ، ولكن أكسرسيس الأول أخذ الثورة ، وولى أخاه أميراً [ شربة ] على مصر .

وفي حكم أرتاكسرسيس الأول نشبت ثورة مصرية جديدة لم تنجح ، واصل إناروس زعيم الثورة ، وكان أمير منطقة مريوط .

زار هيرودوتس مصر بعد سنة ٤٤٩

داريوس الثاني : تدهور الحكم الفارسي ، وثار المصريون للمرة الثالثة ، واستقلوا من عام ٤٠٤ حتى ٣٤١ ، وحكمهم ملوك منهم ، أدرجهم مانيتون في الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين .

الأسرتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون : ٤٠٤ — ٣٧٨

أمورطيوس حكم في « صا » حكما قصيرا ، وكانت أسرات أخرى تتنازع الحكم في البلاد ، ثم جاءت أسرة من منديس [منديد في القرون الوسطى ، قرب ندى الإمديد ، بموضع يعرف بتل القصر] ، وتولت الحكم بمساعدة المرتزة الإغريق . وملوكها قفيريئس وأخوريئس وبسافوتيس إلخ .

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ — ٣٤١

نكتانيبوس الملك : عاصمته سبينيتوس [سمنود] ، وكان ملكاً قوياً ، بنى معابد في فيلي ، ومدينة هابو ، وصرحا في الكرنك .

نكتانيبوس الثاني : بنى معبداً كبيراً لإيزيس في [ببيت الحجارة ، قرب ميت عساس] وهي « هيب » في لغة القدماء ، وأقام صرحا في الكرنك . عودة الفرس : ٣٤١ ق . م

وعاد الفرس إلى مصر ، فهرب آخر ملوكها ، نكتانيبوس الثاني إلى إثيوبيا وانهال الفرس في هذه المرة على مصر تخريباً وسلباً ونهباً .

## العصر الإغريقي

[٣٣٢ — ٣٠ ق . م]

عرف إدوارد ماير هذا العهد بقوله : « في حكم البطالسة عاد وادي النيل الأدنى ، ولادة ثلاثمائة سنة ، مركزاً لمملكة من أغنى الممالك وأقواها وأكثرها رخاء ، يحكمها ملوك موهوبون ، في أول الأمر . بيد أن حلفهم الطالع المنحل ، يحارب الأخ منهم أخاه ، نزلوا بها إلى الحضيض ، ولم يكن لمصر حياة إلا بفضل روما ، حتى وجدت نفسها وسط معترك العالم الروماني ثم انتهت كلولة مستقلة » .

الإسكندر الأكبر : أبدى تسامحاً نحو الديانة المصرية ، وسافر إلى واحة سيوة ، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله .  
 وأنشأ الإسكندرية إلى جانب قرية صيادين تحمل اسم « رقودة »  
 [ راكوتيس ] ، فاعتمدت حتى أصبحت - بفضل البطالسة الأوائل -  
 مركزاً للثقافة الإغريقية وللتجارة العالمية . وبعد موت الإسكندر ، تفككت  
 الإمبراطورية المقدونية ،

وتفاسمها قواده ، فكانت مصر من نصيب بطليموس الأول [ سوتر ] ،  
 أبوه لاجوس ، وتعرف أسرته باسم الأسرة اللاجيدية . بدأ حكمها « شربة » ،  
 أى نائباً للملك ، حتى موت الإسكندر الثانى سنة ٣١١ ، وارتقى عرش مصر  
 سنة ٣٠٥ . منشئ الموزيون [ مدرسة الإسكندرية ] ، ومدينة بطوليمائس بالصعيد ،  
 ومكانها الحالى قرية المنشا ، أو المنشية ، فيما بين سوهاج وجرجا .

بطليموس الثانى [ فيلادلفوس ] : بلغت مصر فى عهده ذروة توسعها  
 الخارجى ، وسميت مديرية الفيوم باسم أخته - زوجته ، الملكة أرسينوى .  
 استجلب الفيل من الصومال ، واستولف لأغراض عسكرية . ألف الكاهن  
 المصرى مانيتون السمنودى تاريخ الأسرات الفرعونية ، باللغة اليونانية .

بطليموس الثالث [ إورجيتس ] : غزا مملكة السلوقين فى آسيا الصغرى ،  
 وتقدم لفتح بابل ، ولكنه قفل راجعاً إلى مصر ليعالج ثورة محلية ، فاسترد  
 السلوقيون ما فقدوه . وفى عهده حاول الكهنة المصريون تصحيح التقويم بإضافة  
 يوم كل أربع سنوات ، ولم يتم لم ذلك ، كما ظهر فيما يعرف بمرسوم كانوب ،  
 الذى عثر عليه سنة ١٨٨١ ، فى كوم الحصن [ بين دمنهور وإيتاى البارود ]  
 وفى تانيس سنة ١٨٦٦ . وهو مكتوب باللغة المصرية فى صورتها الهيروغليفية  
 والديموطيقية ، وباللغة اليونانية . أصدره مجمع الكهنة فى كانوب فى السابع

عشر من شهر طوبة سنة ٢٣٨ ق . م ، في حكم إورجيتس هذا ، لمجدوا اسم الملك الذي أعاد الأستانم المصرية من آسيا ، ونشر السلام فوق الربوع ، ويقترحون في المرسوم تعديل التقويم حتى يقع عيد إورجيتس في اليوم الأول من العام ، كما اتفق له سنة إصدار المرسوم .

٢٢٢ - ٢٠٣

بطليموس الرابع [ فيلوپاتور ] : بدأ انحلال الدولة في عهده ، مع أنه هزم أنطيوخوس الأكبر في موقعة رفع ، وكان هذا الملك يهدد الحدود المصرية .

وتزعم أمراء طيبة في عهده ثورات جعلتهم في حكم المستقلين في الجنوب .

٢٠٣ - ١٨١

بطليموس الخامس [ إيفانس ] : تولى العرش طفلاً ، تحت وصاية شرذمة من الأوغاد ، فانهزها فرصة ملكا سورية ومقدونية [ أنطيوخوس وفيليب الخامس ] ، واقتطعا من مصر أملاكها ، فلم يبق لها غير برقة وقبرص . ووضعت الأسرة بطليموسها الصغير تحت حماية مجلس شيوخ روما [ السناتو ] ، وعمت الثورات ، واضطربت شئون الحكم .

١٨١ - ١٤٦

بطليموس السادس [ فيلوميتور ] : تولى الملك تحت وصاية أمه كليوباترة ، وغزا أنطيوخوس مصر ، ودخل منف ، ولكن الرسول الروماني اضطره إلى الجلاء . واستدعى الشعب بطليموس التاسع [ أبا كرش ] ليحكم إلى جانب فيلوميتور ، فدب الخلاف بينهما ، وهرب فيلوميتور إلى روما ، وأعاد مجلس الشيوخ الروماني إلى العرش وحده ، وأعطيت لأبي كرش ولاية برقة .

١٤٦ - ١١٧

بطليموس السابع ، ابن السادس : حكم ثم ترك الحكم لخلفه .

بطليموس التاسع ( أبو كرش ) : حكم وحده ، باسم إورجيتس الثاني ، ثم طارده ثورة ، فذهب إلى قبرص ، وحكمت زوجته كليوباترة ، ثم عاد إلى العرش ، وبعد وفاته سنة ١٢٧ ، حكمت أرملة وابنها .



بطليموس العاشر [سوتر الثانى] ، وهذا هو بطليموس لاتيروس [حمص] ،  
وطورد فقام بدله :

١٠٦

بطليموس الحادى عشر (إسكندر الأول) .

٩٦

وقُدِّمت برقة هدية إلى روما ، فتحولت إلى إياالة رومانية .

٨٨

وعاد بطليموس حمص بعد أن طاردت الثورة إسكندر الأول . وفى عهده  
ثار أمراء طيبة وفشلوا ، فدمرت طيبة .

٨٠

بطليموس الثانى عشر : كان يعيش فى روما ، فلما علم القائد سيلا بأن  
كليوباترة — برنيقة تولت العرش ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، أوعز إلى  
الأمير بالسفر إلى الإسكندرية ليتزوج الملكة ، فتزوجها وقتلها بعد أسبوعين  
من الزواج ، وحكم وحده ، وثار الإسكندريون عليه فقتلوه فى الملعب الكبير .

٨٠ — ٥١

بطليموس الثالث عشر ، أو ديونسيوس الجديد ، المكى بعازف الناي  
[ أوليتس ] ، أى الزمار . وهو أبو كليوباترة المشهورة . اقتطعت روما قبرص  
من مصر ، فطارد الإسكندريون الملك الزمار ، وأعادته روما إلى العرش .  
وفى عهده تم إنشاء معبد إدفو ، وبدئ فى إقامة معبد الإلهة هاتور فى دندرة .

٥١ — ٤٧

تولت كليوباترة الشهيرة ، وأخوها بطليموس الرابع عشر العرش ، تحت  
وصاية مجلس شيوخ روما . ولكن الغلام طرد أخته ، وحكم وحده بمعونة ثلاثة  
من الأوغاد . والتجأ القائد بومبيوس الأكبر ، بعد هزيمته فى فارساليا ، إلى  
مصر . فاستقبله أمام فيلوزيوم هذا الغلام وأوصياؤه الأشرار . وذبح بومبيوس فى  
القارب الذى حمله من السفينة ، قبل أن يصل إلى الشاطئ ، وعلى مرأى من  
زوجته ورجاله على السفينة ، ومن الغلام الغادر وأوصيائه فى البر .

نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية ، وناصر كليوباترة على أخيها ، الذي حاول العودة إلى عرشه ، فقهرته جتود قيصر وغرق في النيل . وعندما عين قيصر دكتاتوراً في روما ، عين أختاً ثانياً لها شريكاً في الحكم هو :

بطليموس الخامس عشر ، وهو حدث ابن أحد عشر عاماً ، وقتل هذا بتدبير أخته ، التي أقامت طفلها من قيصر ( قيصار يون ) شريكاً لها ، وهو :

بطليموس السادس عشر .

قتل الجمهوريون يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ الروماني .

استدعى مارك أنطونيوس كليوباترة إلى طرسوس بكليكييا ، بحجة تقديم حساب سياسي له ، ووقع أسير غرامها ، وعاشاً حياة استهتار وتبذل أعواماً طويلة ، حتى انتهى الأمر بأن أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، وقرر مجلس الشيوخ أن أنطونيوس عدو الوطن . وقاد أكتافيانوس قيصر ، حفيد يوليوس ، جيش روما وأسطولها ، وهزم أسطول أنطونيوس في موقعة أكتيوم ، وبعد عام ، ابتولى على الاسكندرية ، وانتحر أنطونيوس بالسيف ،

## العهد الروماني

[ ٣٠ ق . م - ٣٩٥ ميلادية ]

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصاً للإمبراطور أغسطس قيصر [ أكتافيانوس ] يوفد إليها مندوباً من قبله . وتابع الإمبراطور سياسة البطالسة في عمالة الكهنة المصريين ، وما كان أسرع هؤلاء إلى اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة . وكان أول الولاة الرومانيين الشاعر كورنيليوس جالوس ، وبدأت ولايته بثورة مصرية في الصعيد . وفي عهد أغسطس قيصر بدأ

العمل بالتقويم المصرى المعدل [ اليولياني ] .

٢٤ - ٢٣ ق . م .

غزت كنداسة ملكة الإثيوبيين مصر سنة ٢٤ ق . م ، وطاردها الوالى  
الرومانى بطرونيوس .

١٤ - ٣٧ ميلادية

الإمبراطور طباريوس : وفى عهده رفع المسيح إلى السماء ( ٣٠ م )  
٣٧ - ٤١

كاليجولا ، الإمبراطور المجنون .

٤١ - ٥٤

كلاوديوس [ أقلاديوس ] : بدئ فى عهده بناء معبد إيسنا ومعبد فى فيلى  
٥٤ - ٦٨

نيرون

٦٩ - ٨٠

فسباسيان : أعلن إمبراطورا فى الإسكندرية ، ومن هناك قام ابنه طيطس  
بفتح فلسطين ، وهدم أورشليم ومعبد الكبير .

٨١ - ٩٦

دومطيانوس قيصر : أقام عبادة إيزيس وسيرايس فى روما

٩٨ - ١١٧

ترايانوس : أعاد فتح قناة نخاو - داريوس ، بين النيل والبحر الأحمر ،  
باسم « آميس ترايانوس » .

١١٧ - ١٣٨

أدريانوس : زار مصر عام ١٣٠ م . واصطحب صفيه الأمرد أنطونوس ،  
وغرق الشاب فى النيل ، فأنشأ الإمبراطور مدينة أنطوبوليس أو أنطنوى  
[ فى موضع الشيخ عبادة حالا على الشاطئ الشرقى للنيل ، فى مواجهة الروضة ،  
إلى الشمال من ملوى ] . وزارها مرة أخرى بصحبة الإمبراطورة ، وكانت معهم  
السيدة بليلة ، شاعرة البلاط ، فسجلت زيارة الأسرة الإمبراطورية لقولسات

ممنون بقصيدة حفرت على ساق احد العنثالين .

١٣٨ - ١٦١

أنطونيوس بيوس : في عهده كان بطليموس العالم الفلكي والجغرافي [صاحب  
المجسطى] يتابع دراساته بالإسكندرية (حوالى سنة ١٥٠ م) .

١٦١ - ١٨٠

ماركوس أوريليوس ، الإمبراطور الفيلسوف الرواقى : في عهده قامت  
ثورة « رعاة البقر » فى « بوقوليا » ، إلى الشرق من الإسكندرية . وزار أوريليوس  
الإسكندرية سنة ١٧٦ م .

١٨٠ - ١٩٢

قومودوس : أنشأ الأقباط فى عهده المدرسة الكانثائية أو الديلمسقية [ سنة  
١٩٠ ] وقد اشتهرت فى العالم المسيحى بفضل أساتذتها الأوائل بنطائينوس ،  
واكليمانضس ، وأوريجانوس .

١٩٣ - ٢١١

سبتيميوس ساويرس : انتشرت المسيحية فى الوجه البحرى ، وبدأت  
الاضطهادات

٢١١ - ٢١٧

كاراكلا : زار مصر ، ودارت المذابح فى الإسكندريين .

٢٤٩ - ٢٥١

دقيوس : اضطهاد المسيحيين مستمر .

٢٦٠ - ٢٦٨

جالينوس : خف الاضطهاد ، وأصبحت مصر بواباً . وفى عهده أعلن  
الجنود الروماني بالإسكندرية ماكزينوس إمبراطوراً ، ثم هزم وقتل ، وأعلن  
الجنود مرة ثانية بالإسكندرية إميليانوس إمبراطوراً ، فهزم وقتل .

٢٦٨

وجدت الملكة زنوبيا ، أميرة قنصر ، فرصة مؤاتية لغزو مصر ، فدخلتها  
واحتلت الوجه البحرى .

كما احتل البليميون [ أجداد البجاوين ومن إليهم ] بعض الصعيد .

٢٧٠

ولكن القائد بروبوس أعاد مصر إلى الحضيرة الرومانية .

٢٧١

أنبا أنطونيوس ، منشئ الرهبة القبطية .

٢٨٤ - ٣٠٥

دقلديانوس ( ديوقليسيانوس ) : ثار الصعيد في عهده : وهاج شعب الإسكندرية ، فجاء الإمبراطور بنفسه ، وتولى أقسى اضطهاد روماني للمسيحيين المصريين . عصر الشهداء يؤرخ من وقته .

٣٢٠

أنبا باخوم ينشئ أول دير قبطي في طبانا .

٣٢٤ - ٣٣٧

قسطنطين الأكبر ، أول الإمبراطرة الحانين على المسيحية ، وقد اعتنقها .

٣٢٥

وفي عهده نشأت هرطقة آريوس ، ونفى عليها مجمع نيقيا .

٣٢٨

أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ، هازم الأريوسية .

٣٣٠

بيزنطة تصبح عاصمة الإمبراطورية ، باسم روما الجديدة ، أوقسطنطينية بدء استيطان رهبان القبط لوادي الإسقيط وبرية شبات [ بوادي النطرون ] .

٣٥٠

تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية حوالي هذا التاريخ .

٣٦١ - ٣٦٣

الإمبراطور المارق يوليانوس : ارتد عن المسيحية ، والغالب أنه لم يعتنقها ، إذ ربي تربية هيلينية ، فما إن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته .



تتبع البطريك العظيم أنثاسيوس .

٣٧٩ - ٣٩٥

ثيودوسيوس الأكبر : أعلن المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، واضطهد الوثنيين ، والمسيحيين الأريوسيين . وبدأ هجوم الأقباط على المعابد المصرية القديمة بهدم الصنم الكبير بمعد سيرايس بالإسكندرية .

٣٩٥

انقسام الإمبراطورية الرومانية : أركاديوس على الشرق ، وأونوريوس على الغرب .

### العهد البيزنطى

[ ٣٩٥ - ٦٤٠ م . ]

٤١٢

كيرلس الأول : يرقى كرسي الكرازة المرقسية . ويغلب أن يكون هو المحرض على قتل أجمل أستاذة للفلسفة في التاريخ : هيباسيا بنت الرياضى ثيون . تربص بها الرهبان والصيوات وقتلوا رجلاً ، وسحلوها حتى صحن الكنيسة ، حيث قطعوا جسمها إرباً إرباً ، انتقاماً من تعمقها الفلسفة الوثنية !

٤٣١

كما هزم أنثاسيوس أريوس ، هزم كيرلس هرطقة نسطوريوس ، بطريك القسطنطينية في مجمع إفسوس الأول [ المجمع المسكونى الثالث ] .

٤٤٩

مجمع إفسوس الثانى : يكرمه الكاثوليك ، ويطلقون عليه اسم « مجمع اللصوص » ، لأن البطريك المصرى ديوسقوروس انتصر على معارضيه بوسائل يعدونها غير كريمة . وبذلك فازت عقيدة الطبيعة الواحدة القبطية ، لوقت قصير ، في العالم .

المطابقة ، تتداخل في نفسه تلك العوامل المجهولة التي تقود يده إلى اللمسة الروحية اللامحة ، فيجىء التمثال صورة للواقع ، وصورة لانتفاعات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك ، كما بحثت أنا طويلا ، عن مركز هذا الصانع الفنان في المجتمع المصري القديم ؟ لأنني حقاً غلوت في الدعابة عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفر بجواب ، لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك في الصعيد شبتاً غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق ، وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطل عتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراهن مفتشو الآثار وخفراؤها ، أو من واتاهم الحظ والثراء فصعدوا النيل في ذهبية أو باخرة .

لو أننى في ذلك اليوم البعيد ذلت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت في أية فلاة أترك السيارة ، لتوصلت إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثلها الأكبر « توتموزى » ، ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتموزى الخاص ومرسمة ، وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبيانته . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه ، ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصه وحده ، لأن بيت المثال توتموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التي فازت منها متاحف برلين بالنصيب الأوفر ، ومن هذا النصب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التي صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صنع قالب من حاة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء في أوربا على ما يعرف « بالقناع الجنازى » . وفي متحف القاهرة رأس لتفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامك من هذا الرأس المصبوب ، حتى ذلك الرأس الجميل لزوجته أخناتون الموجود حالياً ببرلين . وقد زعمت ألمانيا قبل

٦٣٧

انتصار المسلمين الساحق على الفرس في موقعة القادسية ، وسقوط المدائن  
[ اكتسيفون ] ، ونهاية الأكاسرة الساسانيين .

٦٣٨

فتح بيت المقدس ، واستقبال منشي قبة الصخرة ، ثاني الخلفاء الراشدين ،  
عمر الفاروق .

### مصر الإسلامية

[ ٦٤٠ م — إلى ما شاء الله ]

٦٤٠

فتح مصر بسيف عمرو بن العاص وفرسان العرب .

٦٤١

تسليم المقوقس قوروش حصن بابلون [ قصر الشمع ] للقائد العربي المنتصر .  
وإنشاء جامع عمرو .

٦٤٢

إنشاء القسطنطينية معسكراً للعرب ، وحاضرة للمصر الإسلامية الجديدة ، وسقوط  
الإسكندرية في أيدي العرب بعد حصار طويل .

٦٤٥

عودة الإسكندرية إلى الروم .

٦٤٦

أعاد عمرو فتح الإسكندرية .

٦٥٦

مقتل ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان ، على إثر ثورة بدأت في  
مصر .

٦٥٦ — ٦٦١

خلافة علي بن أبي طالب ، وقيام الحرب بينه وبين معاوية ، ودخول مصر

في حكم الأمويين سنة ٦٥٨ .

٦٥٨ — ٧٥٠

دولة بني أمية وعاصمتها دمشق ، وقد حرصوا على أن لا تخرج ولاية مصر من أعضاء الأسرة الأموية .

٧٤٤ — ٧٥٠

التجاء مروان الثاني ، آخر الأمويين ، إلى مصر ومقتله فيها ، ودفنه بأبي صير الملك ، إلى الشمال الغربي من أشمنت .

٧٥٠ — ٨٦٨

دولة بني العباس في بغداد . وهروب عبد الرحمن الأموي إلى الأندلس ، وخلافته بقرطبة [ سنة ٧٥٦ م ] . ثورات المصريين الأقباط .

٨١٣ — ٨٣٣

المأمون في مصر لإخماد ثورة المصريين الأقباط وعصيان البدو . بدء انتشار اللغة العربية بين المصريين جميعاً .  
تغلب الأجناد الترك في بلاط العباسيين .

استقلال مصر الإسلامية

[ ٨٦٨ — ١٥١٧ م ]

الدولة الطولونية

[ ٨٦٨ — ٩٠٥ م ]

٨٦٨ — ٨٨٣

أحمد بن طولون يستقل بمصر وسوريا حتى حدود العراق . المسجد الجامع الذي بناه ابن طولون فريد في العمارة الإسلامية .

٨٨٣ — ٨٩٥

خارويه بن أحمد بن طولون . لم يقر خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلال مصر

فعادت إلى حكم العباسيين [ ٩٠٥ — ٩٣٥ ]

٩٢٥

هجوم فاشل للفاطميين على مصر .

## الدولة الإخشيدية

[ ٩٣٥ - ٩٦٩ م ]

٩٣٥ - ٩٤٦

محمد بن طغج الإخشيد ، حاكم من أصل فرغانى : استقل بمصر .

٩٦٦ - ٩٦٨

كافور الخصى الحبشى يحكم مصر وصياً على أولاد الإخشيد ، ثم يحكم باسمه تابعاً للعباسيين ، فى مصر وفلسطين وسوريا . وبعد موته يحكم أحمد الإخشيد ، حفيد مؤسس الأسرة ، ولم يبلغ سن الرشد ، وينتجزها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها .

## الدولة الفاطمية

[ ٩٦٩ - ١١٧١ م ]

٩٦٩

جوهر الصقلى ، قائد المعز ، يفتح مصر وينشئ القاهرة عاصمة لمصر بعد الفسطاط والعسكر والقطايع .

٩٧٠

إنشاء الجامع الأزهر .

٩٧٣ - ٩٧٥

وصول المعز إلى القاهرة ومعه رفات أسرته ، ونقل خلافته إليها ، ووفاته بها .

٩٧٥ - ٩٩٦

العزیز بن المعز ، صديق العلم والعلماء . رخاء مصر فى عهده .

٩٩٦ - ١٠٢١

الحاكم بأمر الله ، ابن العزيز من أم نصرانية : ملك مجنون متعصب



سفاح . انتحل لنفسه نحلة درزية وتآله ، وأسس داعيته ، درزي ، طائفة  
الدروز . مقتل الملك المشعوذ ، وهو في تجواله الليلى يجبل المقطم ، بتدبير  
أخته ست الملك ، وإخفاء رمتة . مما اتخذته الدروز ذريعة في نشر خرافة  
ارتفاعه إلى السماء ، هروباً من شرور هذا العالم [ والعالم هو الذى تخلص  
من شره وإجرامه ! ] وسيعود إلى الأرض يوماً ، قل أعوذ بالله من الشيطان  
الرجيم !

١٠٢١ - ١٠٣٦

الظاهر ابن الحاكم : تولى الخلافة الفاطمية وهو ابن ستة عشر عاماً ،  
تحت وصاية عمته ست الملك ، حتى عام ١٠٢٤ .

١٠٣٦ - ١٠٩٤

المستنصر : إمعة ، سيئ الطالع . غاب النيل عن مصر سبع سنوات ،  
فتزلت بمصر أشد المجاعات ، وتداولها القحط والطواعين ، وثار الجند من الترك  
والبربر ، وعاثوا فساداً ، ودمروا القصر ، ونهبوا تحفه ، وأفنوا مكتبته .  
واستطاع الأرمني بدر الجمالى ، وزير الخليفة الإمعة ، إعادة الهدوء  
والنظام ، وبنى أسوار القاهرة وأبوابها ومسجد الجيوشى .

١٠٩٤ - ١١٠١

المستعلى ابن المستنصر : فتح بيت المقدس وبلاد الشاطئ السورى . ثم  
انترعها منه جيش الصليبية الأول .

١٠٩٩

الملك بلدوين الصليبي ، صاحب مملكة أورشليم المسيحية : حاول غزو  
مصر وفشل ، ومات بالوباء على رمال شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالى  
سيناء . ويسميه مؤرخو العرب « بغدوين » و « بردويل » ، وهو أصل اسم  
بحيرة البردويل المشهورة إلى اليوم بمصايد سمك البورى ، وتحضير البطارخ  
من حيتانه .

١١٦٠ - ١١٧١

العاقد آخر الفاطميين : تنازع على الوزارة بين خمرغام وشاور . والتجأ

شاور إلى نور الدين صاحب دمشق ، فأعادته إلى مركز الوزارة ، بمعونة الأجناد الكرد ، تحت قيادة شيركوه وصلاح الدين يوسف آل أيوب . ولما اختلف شاور مع الأكراد ، استعدى عليهم أمالريق [ أمورى ] الأول ، الملك الصليبي فدخل هذا مصر ، وطارد الأكراد وحاول - كما هي عادة رجال العصابات - أن يستغل وساطته في الاستيلاء على مصر . فاستجار الأخرق الخائن شاور بنور الدين ، وأحرق القسطنطينية [ نوفمبر ١١٦٨ ] حتى لا يستولى عليها أمالريق أو أمورى [ وهو عمورى المؤرخين العرب ] .

وجاء شيركوه وصلاح الدين فطاردا الصليبي إلى خارج البلاد ، وقضيا على شاور بالموت ، وتولى شيركوه الوزارة حتى وفاته ( ١١٦٩ ) . فتولاها بعده صلاح الدين يوسف ، وحكم باسم آخر خلفاء الشيعة حتى وفاة هذا الخليفة ، ثم ارتقى عرش مصر وأسس دولة جديدة ، أعادت إلى مصر حكم السنة .

## الدولة الأيوبية

[ ١١٧١ - ١٢٥٠ م ]

١١٧١ - ١٢٠٠

أعظم ما يلفت النظر في حياة صلاح الدين الأيوبي ، أنه وهو سلطان مصر ، باني قلعة الجبل ، وأسوار القاهرة ، والذي اجتث المذهب الشيعي من مصر وأقام علوم السنة ، لم يزد لبثه بقاعدة ملكه أكثر من ثمان سنوات . أما العشرون عاماً الباقية فما كاد يغمد فيها حسامه ويترل عن جواده ، مقاتلاً في سبيل عقيدته . يندفع كالشهب بين فلسطين وسورية وما بين النهرين ، يحرق المعتدين بناره ، ويضرب الصليبيين في بطولة وأريحية كانت مضرب المثل ، بين الأعداء قبل الأصدقاء ، في فروسية العصور الوسطى .

١٢٠٠ - ١٢٩٨

الملك العادل ، أخو صلاح الدين : استطاع المحافظة على تماسك الدولة

بعد ما حدث من تنازع ومشاحنات عقب موت البطل الأعظم . ويجب أن يذكر السلطنة ، أم ابنه الملك الكامل ، ذلك الأثر الجميل من آثار القاهرة : مقام الإمام الشافعى .

١٢٩٨ - ١٢٣٨

الملك الكامل : صاحب المنصورة أنشأها سنة ١٢٢١ ، بعد أن دافع عن دمياط ضد الصليبيين الجرمان والنيرلنديين [ الصليبية الخامسة ] ، الذين استولوا على ذلك الثغر ، وكان يقع إلى الشمال من موقع دمياط الحالى ، وباعوا سكانها بيع الإماء ، ونهبوا متاجرها وآثارها ، وحولوا مساجدها إلى كنائس . ثم اضطروهم الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١ . فلما نزل لويس التاسع إلى البر ليحتلها سنة ١٢٤٩ [ الصليبية السادسة ] ، غادرها سكانها عن بكرة أبيهم ، ودخلها فرسان الصليب خاوية على عروشها ، وكانهم يدخلون جبانة لا مدينة أحياء . وقد دفعوا ثمن صليبيتهم غالبا فى المنصورة ، وكان إجلاؤهم عن دمياط ، أو إجلاء من بقى منهم حيا ، بعض الثمن الذى دفعوه فدية للقديس المحارب ، المحبوس فى بيت لقمان .

١٢٣٨ - ١٢٤٠

الملك العادل الثانى .

١٢٤٠ - ١٢٥٠

الصالح أيوب ، صاحب قلعة الروضة ، مهد المماليك البحرية : توفى عندما بدأ فرسان الصليبية السادسة [ بقيادة لويس التاسع ] يتحركون من دمياط متجهين إلى المنصورة . وأنخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته عن جيش المماليك الصالحية ، حتى لا يتفashلوا ؛ وواصلوا المعركة بقيادة أبطاهم بيبرس وقطر وفارس الدين أقطاى . ثم وصل :

١٢٥٠

طورانشاه . فسلمته شجرة الدر سلطنة أبيه . وقاد المعركة إلى نهايتها الظافرة . ولكنه بعد الحرب لم يعرف الطريق إلى قلب ممالك أبيه ، فقتلوه .

## دولة المماليك البحرية

[ ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م ]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والدة خليل » ابن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوماً ، ثم تزوجت واحداً منهم هو :

١٢٥٠ - ١٢٥٧

عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية . ولاقى حتفه بتدبير أم خليل ، ولاحقته فى العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ - ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقدارى : قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صادات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريقة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « لعمل برقك » ، فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك . ونخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوماً ، فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلاً : عزلت نفسى ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه . . . . . كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبني الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه ، سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ - ١٢٩٠

المنصور قلاوون : حارب المغول وصدهم ، وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به ، وكانوا من أعظم البناة في تاريخ مصر منذ عهد الأسرات .

١٢٩٠ - ١٢٩٣

الأشرف خليل : قضى على آخر حصن صليبي في الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا ، سنة ١٢٩١ .

١٢٩٣ - ١٣٤٠

الناصر محمد بن قلاوون : أعظم سلاطين المماليك ؛ تولى الملك وهو ابن تسع سنين ، وطورد من الملك أكثر من مرة ، وعاد إليه أقوى سنداً ، وأكمل شخصيته . وأشهر أمراء هذا السلطان هو الأمير عماد الدين أبو الفداء ، صاحب حماة ، العالم المؤرخ والجغرافي الأشهر في تاريخ العلوم العربية [ توفي سنة ١٣٣١ ] . وكان الناصر بناء عظيماً . وجميع ما ترك من آثار تعد في مقدمة كنوز القاهرة . هذا والسور المائى الكبير ، فيما بين فم الخليج والقلعة ، المعروف بسور السبع سواقي ، من آثار الناصر محمد .

١٣٠٣

حدثت زلزلة مشهورة ، هدمت غير قليل من مباني القاهرة .

١٣٤٧ - ١٣٦١

السلطان حسن هو الابن السادس للناصر محمد . ربما نسي الناس الوباء الفظيع الذى نزل بمصر إبان حكمه ، فيما بين سنتي ١٣٤٨ و ١٣٤٩ ، ولكنهم يذكرون له أعظم أثر مصرى في القرون الوسطى : وهو مسجده ، بأول سوق الخيل . وإذا سألتنى عما أضع من الآثار المصرية في أول القائمة أجبتك : معبد سبتى الأول بأبيدوس [ العرابة المدفونة ] ، ومسجد السلطان حسن أمام قلعة صلاح الدين .

ومات صاحب المسجد قتيلاً شر قتلة . وستطالع كثيراً من مقتلات هؤلاء السلاطين ، وقل من مات منهم على فراشه ، وبعضهم ألقى جثته في ساقية ، أو فوق تل من القمامة !



## دولة المماليك الجراكسة

[ ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ]

١٣٨٢ - ١٣٩٩

آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحرية كان الغلام حاجي ،  
وسنه ست سنوات . وكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسي برقوق ، فأزاح  
الغلام عن كرمي المملكة ، وغضب الأمراء وطردها برقوق ، ولكنه عاد بعد  
سنة . وكانت السلطنة المصرية بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، لأن جنساً جديداً من  
برابرة أواسط آسيا ، من المغول بقيادة تيمور الأعرج ( لك ) بدأ يزحف على  
الشرق الأدنى . فدفع برقوق غائلته ، ثم أتبع ذلك بمحاربة الغازي بايزيد  
الأول ، خان العثمانيين . وكان برقوق بناء عظيماً .

١٣٩٩ - ١٤١٢

السلطان فرج : حدث في الثالثة عشرة من عمره ، ابن برقوق : تولى  
السلطنة ، والعمانيون يهددون ولايات مصر الشمالية ، وسافر فرج حتى بلغ  
دمشق ، وإذا بأمرائه الثائرين يضطرونه إلى العودة إلى القاهرة . وفي هذه الأثناء  
يكون تيمورلنك قد هزم العثمانيين في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ . وتلجأ السلطنة  
المصرية إلى مفاوضات ومصانعة . ولكن أيام الفتى فرج أصبحت معدودة ،  
حتى قضى عليه الأمراء ، وعلى رأسهم الأمير شيخ محمودي .

١٤١٢ - ١٤٢١

السلطان المؤيد شيخ ، صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة ، بداخل  
باب زويلة : وكان المؤيد من أشد الملوك اضطهاداً لغير المسلمين ، وقد حكم  
عليهم بلبس ملابس من لون خاص ، وعمامات سود ، وبحمل صلبان أو كرات  
كبيرة من الخشب تغل في رقابهم . وكانت أكثر تجريداته ضد أمرائه في سورية .

١٤٢٢ - ١٤٣٨

الأشرف برسباي : أزاح الطفل ابن المؤيد شيخ ، وسافر يحارب في قبرص ،  
ويجاهد ضد المغول .

١٤٦٨ - ١٤٩٦

قايتباي : آخر السلاطين العظام سياسة وجهاداً ، قاوم قوى العثمانيين الصاعدة المتقضة - أيام سلاطينها الغزاة محمد الفاتح وبايزيد الثاني - بفضل قائد عسكره الأمير أزيك . وجامع أزيك كان يقوم على حافة منخفض الأزيكية ، وقد أنشئ في ذكرى انتصاره على العثمانيين . هدم هذا المسجد سنة ١٨٦٩ ، في حكم إسماعيل . وما أكثر ما هدم من مساجد أثرية في عهد إسماعيل ! ونظم مسيو بارييه ، مدير حدائق باريس حديقة الأزيكية في مساحة عشرين فدانا . وهي الحديقة التي عرفناها في أواخر عزها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال ، فنذور في الحديقة نقض أطرافها ، وننتف ريشها ، ونقتلع أشجارها ، حتى أمست أشلاء خضراء ، وسط خضم من السيارات والأتوبيسات ولقايتباي أكثر من مسجد ، ولكن مدفنه بالقرافة تحفة من أروع التحف ، حرصنا على أن تبقى تربة ضمن التراب !

١٥٠١ - ١٥١٦

ها نحن نقرب بقلوب واجفة من نهاية تاريخ مصر المستقلة : يعتلى العرش السلطان الشهيد قانصوه الغوري ، الوحيد من بين كل أولئك السلاطين يموت في حومة الوغى ، مدافعاً عن سلطته في مروج الشام ، إلى الشمال من حلب . لقد صعد إلى الكرسي بعد أن أوفى على الستين ، وكان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الطويل إلى الهند ، حول جنوب أفريقيا ، فقفزوا على المركز التجاري الممتاز الذي كان لمصر ، وأخذوا يهددون بلاد المحيط الهندي وجنوبي البحر الأحمر ، بيد أن السلطان الشيخ لم يقف مكتوف اليدين ، بل جهز أسطولاً يحارب البرتغاليين في بحار الهند ، ويكسرهم في موقعة « شول » إلى الجنوب من بومباي سنة ١٥٠٨ . وهذا الخطر الجنوبي لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لخطر الشمال : فسلم بن بايزيد زاحف على حلود الإمبراطورية المصرية في شمال سورية . وقد خرج الغوري لمحاربتة . فاندحرت الجيوش المصرية في « مرج دابق » ، وساعد على اندحارها خيانة بعض أمراء السلطان . وإبان المعركة ، مات السلطان وهو على جواده . وقبته ومسجله بالغورية يتيان من جثمانه ، إذ لم تعرف له جثة من بين الآلاف الذين قتلوا في المعركة .

ولم يبق لطومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، إلا أن يقاتل حرب الساقة بأرباض القاهرة ، وأن يثيرها على سليم حرباً فى شوارع القاهرة ، وينتهى أمره بالأسر فالشقة على باب زويلة .

وتحول مصر إلى إيالة عثمانية ، « عثمانلى باشاليك » ، يحكمها ، نائباً عن السلطان سليم ، الأمير خاير بيك أو تخاين بيك فى لغة المصريين . وينقل الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى إسطنبول حيث يبقى حتى موت سليم سنة ١٥٢٠ ، ويعود « المسكين لله » إلى القاهرة ، وفيها يلاقى ربه ، بعد أن أقام العثمانيون فى إسطنبول خرافة تنازله عن الخلافة لآل عثمان وهى الخلافة التى بها كمال أتاتورك أثرها من فوق الأرض فى مارس سنة ١٩٢٤ .

### مصر الحديثة

[ ١٥١٧ - ١٩٥٦ م ]

لفهم الحكم العثمانى يجب إدراك حقيقة أساسية ، وهى أنه تدهور سريعاً جداً فى مصر ، بسبب نظام فى الإدارة هو الاختلال بعينه ، ولأن الباشوات الولاية كانوا فى غالبيتهم قليلي الخبرة ، طماعين ، ملوثين خلقياً ، حتى من كان منهم على شيء من الخلق اضطرت طريقة « تقديم الحساب » ، بعد نهاية ولايته القصيرة — من عام إلى عامين ، ولا حساب هناك يعتد به — عند ما تحمل ذمته بمبالغ ليست فى الحساب ، ولم تدر فى خلد ، أن « يعمل حساب » المستقبل بما يقبضه شر النابات .

ولأن أمراء المماليك استعادوا سلطانهم الفعلى على البلاد دون أن يخضعوا لمصلحة عليا .

لهذا استحال الباشوات وأمراء المماليك وجيش الاحتلال العثمانى [ الوجاقات ] إلى منسر من قطاع الطرق . وكان البيكوات المماليك هم كشاف الأقاليم [ أى مديريها ] وجامعى ضرائبها ورؤساء الجند فيها . ويتولى زعامة المماليك كبار منهم :

شيخ البلد وأمير الحج . واختلطت الوجاقات العثمانية بأخلاط من أجناد  
المماليك وغيرهم من خثالات الشرق الأدنى ، بل كان الأغاوات ، أى قواد  
الفرق ، يدرجون فى قوائم وجاقاتهم أسماء لا وجود لها ، طمعاً فى زيادة العلوفة  
والحماكى .

والصورة التى بقيت لنا من تلك « العصور المظلمة » حقاً ، صورة مهزوزة  
سوداء فى احمرار داكن ، تبدو فيها من هنا وهناك أضواء جهنمية ، تؤكد  
حقيقة الحياة المصرية فى ذلك الزمان . كانت شيئاً أشبه بجحيم دائى فى أقصى  
طوابقه .

١٧٦٨

على بيك الكبير ، البروفة الأولى لمحمد على باشا : مملوك استقل تماماً بحكم  
مصر عن السلطنة واستولى على سورية ،

١٧٧٣

حتى نخانه مملوكه محمد بيك أبو الذهب ، ونجح فى القضاء عليه ، واستولى  
على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشامانية .  
وبعد موته ، تقاسم السلطة زعيان كبيران وشيخان من شيوخ المنصر  
المملوكى : مراد بيك المحمدى ، وإبراهيم بيك المحمدى ، نسبة إلى محمد بيك  
أبى الذهب .

١٧٩٨

وفى بين أول يولية والثانى منه ، سنة ١٧٩٨ ، اقتحم جيش « الجمهور  
الفرنساوى » بقيادة سارى عسكر بونابارته ، أسوار الإسكندرية دون مقاومة  
تذكر ، وتقدم إلى شبريس وهزم مراد بيك ، وبلغ إنابة وكسر جموع  
المماليك فى موقعة إنابة المشهورة باسم موقعة الأهرام ، فى الواحد والعشرين  
من يولية ، ودخل القاهرة ، وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصى الصعيد ،  
حتى تم « للجمهور الفرنساوى » - أى الجمهورية الأولى للثورة الفرنسية -  
الاستيلاء على الإيالة المصرية فيما بين يناير ومايو ١٧٩٩ .

١٧٩٨

ثورة القاهرة الأولى ضد فرنساوية : نشبت وأخذت فيما بين ١٣ و ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وجاء اندلاع لها عقب تحطيم تلسون للأسطول الفرنسي في جونة أبي قير في أول أغسطس ١٧٩٨ .

١٧٩٩

وبعد عام من معركة أبي قير البحرية ، عاد بونابرت سرًا إلى فرنسا في ٢٤ أغسطس ١٧٩٩ .

١٨٠٠

وجاء العثمانيون بساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين ، وهزمهم كليبر في العشرين من مارس سنة ١٨٠٠ ، بالمطرية . ثم قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر في حديقة بيته في ١٤ يولية ١٨٠٠ ، وتولى القيادة الجنرال عبد الله منو ، لينتهي بتسليم .

١٨٠١

القاهرة والإسكندرية في سبتمبر ١٨٠١ ، وبالحسلاء هو وجنده نهائياً عن مصر . وقد عاد الفرنسيون إليها في نوفمبر ١٩٥٦ لبضعة أيام قضوها في بورسعيد ، ثم خرجوا منها على وجوههم عفرها الخزي والشنار . وكان في ضباط الحملة العثمانية ضابط مقلوني من قولة ولد سنة ١٧٦٩ ، وكان يفخر بأنه من مواليد العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت بأجاكسيو من أعمال كورسيكا .

وعينه الوالي خسرو باشا كولونيل [ سرشمة ] ؟ للفرقة الألبانية حتى يعينه على أجناد المماليك . ولكن محمد علي لم يجيء إلا لمعونة نفسه ، على حساب المماليك ، والباشوات العثمانيين ، والشعب المصري نفسه فيما بعد . وانتهى به الحال إلى أن يلبسه الشيخة المصريون كرك الولاية ، وعلى رأسهم الرجل الطيب أكثر من اللازم ، نقيب الأشراف عمر مكرم .

١٨٠٥

وصعد محمد علي إلى القلعة سنة ١٨٠٥ ، وبدأ حكمه بطرد السيد عمر



مكرم من القاهرة ، ثم بمصالحة المماليك حتى يتخلص من الاحتلال البريطاني  
للإسكندرية .

١٨٠٧

ولما حاول الإنجليز العودة إلى مصر ، عن طريق احتلال رشيد ، أجلاهم  
شعب هذه المدينة الباسلة في أبريل سنة ١٨٠٧ .

١٨١١

وقتل محمد علي ٤٨٠ أميراً مملوكياً في داخل القلعة ، وقد دعاهم للاحتفال  
بسفر ابنه طوسون إلى الحجاز لحرب الوهابيين . وإذا بأبواب القلعة تقفل ،  
وفرسان المماليك محصورون في المنحدرات الضيقة المتجهة إلى الباب . وطاح  
الألبانيون فيهم ضرباً بالرصاص فالسلاح الأبيض ، وذلك في أول مارس  
سنة ١٨١١ .

١٨١٩

وقضى محمد علي على سلطة الوهابيين سنة ١٨١٩ ، وقد تولى قيادة الحملة  
المصرية ابنه طوسون أولاً ، ثم ابنه ، وقيل ابن زوجته ، إبراهيم ، وحان الوقت  
ليتخلص محمد علي من عصاياته الألبانية ، فأرسلها للحرب في فيافي النوبة  
والسودان . وقد بدا له أن « النظام الجديد » في الجندية يسمع له بمشدد أولاد  
الفلاحين تحت قيادة ضباط أجانب من كل ملة ولون وجنس . وأثبت هذا  
الجيش بقيادة إبراهيم — وبشهادته — قدرة فائقة على القتال . ولكن أول المواقع  
التي خاضها أول جيش مصري منذ عهد الأسرات

١٨٢٤ — ١٨٢٧

كانت لمساعدة العثمانيين على مقاومة الشعب اليوناني الباسل ، هب في وجه  
مستعمره البرابرة ، يتترع منهم استقلاله . وانتهت تلك المواقع — ولا فخر —  
بإخماد ثورة التحرير اليونانية !  
ودمر الأسطول المصري في موقعة نافارين ، وقد انحصر بين أساطيل روسيا  
وبريطانيا وفرنسا .

١٨٣٢ - ١٨٣٣

وانقلب الذى كان يساعد أسياده حتى سنة ١٨٢٧ ، إلى علو لم يضرب ظهورهم ، بعد هزيمتهم الكبرى أمام الروس فى حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ .  
فقد خرج الجيش المصرى يفتح سورية وآسيا الصغرى بقيادة إبراهيم باشا ،  
وتألبت الدول العظمى على مصر ، وفرضت على محمد على معاهدة كوتاهية  
سنة ١٨٣٣ .

١٨٣٩

ثم قام السلطان محمود - الذى أطلق محمد على اسمه على ترعة المحمودية -  
لمحاربة محمد على ، عندما رآه يتوغل فى جنوبى الجزيرة العربية .  
وإذا إبراهيم ينقض على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، ويهزمهم فى موقعة  
« نزيب » إلى الغرب من نهر الفرات الأعلى .

١٨٤١

وتعود جيوش إنجلترا والنمسا لتملى إرادتها على محمد على . وقد خضع وسلم  
للباب العالي سنة ١٨٤١ ، وذهب فى أحسن بزة إلى إسطنبول يركع ويسجد ،  
ويقبل يد سيد المايين ، وخليفة رب العالمين ، ظل الله على الأرض !  
ولا يبقى للألبانى المغامر سوى مصر ، شفاللك له ، ولأكبر أفراد أسرته من  
بعده ، إلا بعض شروط تبعية ، منها جزية سنوية قدرها ثمانون ألف كيس  
[ أى ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ ألف جنيه ] . ويصاب الجبار بالعتة فى  
أخريات أيامه ،

١٨٤٨

فيتولى الحكم ابنه ، أو ابن زوجته ، إبراهيم لبضعة أشهر ، حتى وفاته  
قبل أبيه سنة ١٨٤٨ .

١٨٤٩ - ١٨٥٤

يتولى عباس الأول باشوية مصر ، وهو ابن طوسون بن محمد على . ويموت  
محمد على فى صيف ذلك العام ، ويكون حفيده قد شرع فى تبطيط ما حرثه

جده ، والقضاء على بواقي الخير من أعماله وإصلاحاته . وبنى إلى السودان  
باعث النهضة الفكرية في مصر رقاعة الطهطاوى ورفاقه ، ومنهم قايمة نوابها ،  
بيوى أفندى .

ويموت عباس الأول مقتولا بيد جماعة من أخصائه ، ورفقاء متعته ، فقد  
كان مصابا ببلوثة جنسية .

١٨٥٤ - ١٨٦٣

ويتولى سعيد ، الشاب السمين المترف ، هاوى المظاهرات العسكرية في البر  
والبحر ، وقد تربى تربية بحرية . وكان شابا عصريا ، بدأ في زمانه زحف  
المغامرين الأوربيين وغيرهم ، وعلى رأسهم فردينان دى لسبس الشاب الأنيق  
الممشوق القوام ، الذى كان يجيد الرقص وركوب الخيل ، واستغلال صداقة  
الباشا . وقد حصل من سعيد على امتياز الشركة العالمية لقناة السويس .  
ويمتد خط القاهرة الإسكندرية الحديدى ، ويعود الجيش المصرى لمساعدة  
الباب العالى في حرب القرم .

١٨٦٣ - ١٨٧٩

اسماعيل الأفخم ، الابن الثانى لإبراهيم ، وقد أوفد إلى فرنسا ليتعلم ، فكان  
كأبناء اللوات القاسدين ، بروقة أولى لحفيده الملك المعظم . لم يحصل في فرنسا  
إلا على قشور الحضارة الغربية ، ولذلك اتسمت أعماله بالتظاهر والفتخفة ،  
وبذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد . وينجح في الاستيلاء على خمس  
الأراضى المنزرعة لنفسه ، دون أسرته . ويشتري سنة ١٨٦٦ ، بفلوس المصريين ،  
حق بقاء كرسى الولاية في أولاده . وفي السنة التالية يشتري ، من نفس المصدر ،  
لقبا فارغا أهم ما فيه لكنته التركية « خديو » . أما معناه فلا يتعدى قولك نائب  
السلطنة في مصر !

وينثر الذهب كأنه « ملحقة في عين اللى ما يصلح عالنبى » على حفلات  
افتتاح قناة السويس ، بطريقة لم يعرف لها التاريخ شها في السفه . ثم يشتري  
قسطا من استقلال مصر يسمح له بشىء هام جدا : وهو حق استدانة ما يشاء  
من شاء . وترتفع البخرية المصرية إلى ٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، ويبلغ بمجيئه ثلاثين

## دولة المماليك البحرية

[ ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م ]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والدة خليل » ابن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوما ، ثم تزوجت واحدا منهم هو :

١٢٥٧ - ١٢٥٠

عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية . ولا فى حثفه بتدبير أم خليل ، ولا حثفه فى العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ - ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقدارى : قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صادات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريقة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « إعمل برقلك » فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك . وخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوما ، فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلاً : عزلت نفسي ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه . . . . . كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبني الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه ، سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ - ١٢٩٠

المنصور قلاوون : حارب المغول وصدهم ، وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

اللورد كرومر ، بطل دنشواى السفاح . وكان رجلاً مصلحاً من النوع الذى عرفته مصر منذ عهد محمد على ، أى عبقريةً ينظم شئون البلاد كأن أهلها قطعان من الماشية ، يعملون لحساب حضرة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا ، وإمبراطورة الهند ، وحساب الدائنين .

١٩٠٢

وكان كل هم كرومر أن يزيد من حصيلة البلاد ، باعتبارها شفا لك للمستعمرين . وكان أعظم عمل قام به ، بعد تنظيم المالية والإدارة هو بناء خزان أسوان ، الذى احتفل بافتتاحه فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ . ولم يبق على فى استعراض هذه الصفحة السوداء من تاريخ مصر إلا أن أشير إلى جهاد بطلين من أبطال الوطنية المصرية ضد الاحتلال : مصطفى كامل ومحمد فريد . وقد مات الأول فى عنفوان رجولته ، وحمل محمد فريد راية الجهاد ، وذهب بها إلى أوروبا وقد أعلنت الحرب العظمى الأولى . وسقط بطل الوطنية الثانى بعيداً عن وطنه . وكانت الظواهر كلها تنبئ بأن الوطنية برد أوراسيا ، وقد تمت البلاد من أبطالها صرعى ومنفيين . وأعلنت بريطانيا زوال السيادة التركية عن مصر : وأقامت بلطا الحماية البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وفى اليوم التالى ، قررت عزل الحديو عباس حلمى بن محمد توفيق ، وأعلنت عمه حسين كامل سلطاناً على مصر .

١٩١٧

وبعد وفاته تولى أخوه باسم حضرة صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد .

١٩٢٢

وفى ٢٨ فبراير أعلنت بريطانيا زوال الحماية ، واعترفت باستقلال مصر [ كذا كذا كذا ! ] وعندما وافق البرلمان البريطانى على ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير ، وكان ذلك فى ١٥ مارس ، رقى فؤاد من سلطان إلى ملك ، باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول .

١٩٢٣

وفى أبريل سنة ١٩٢٣ ، منح جلالة « شعبه العزيز » دستوراً ، لم يقبته (٢٥)



الناس حيثئذ إلى صلوره في شهر . . . . أبريل .

• • •

١٩١٨

لقد سئمت الخوض في تلك الأحداث ، وآن لى أن أختم هذه العجالة متلمساً ضوء الأمل ، أشرقت به نفوس المصريين عندما تولى سعد زغلول ، ابن فلاح من مطوبس ، زعامة الوطنية المصرية ، وجاهد في سبيل استقلال مصر من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى وفاته في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وقد دفعته

١٩١٩

إلى الأمام ، ودفعها ، ثورة الشعب المصرى عن بكرة أبيه ، في مارس سنة ١٩١٩ . والقليل الذى حصلت عليه مصر في الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة . أما الذى حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية ، هو جامعها المصرية ومصرفها الوطنى أسسه محمد طلعت حرب ، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثالون ، هم ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، ورأى بعينه ، وأحس بكل جوارحه ، كيف بادت تلك الثورة بالحقبة على أيدي الملك وأعوانه ، وأصحاب المصالح ، من كل لون وصنف ، يتواطئون مع المحتل ومع رأس المال الأجنبي ، ويسرون بتلك النهضة الحضارية الرائعة في الدرب الضيق الذى أقاموا له حدودا وسدودا باسم « التقاليد » ، حتى وقفوا في مدى ثلاثين عاما إلى أن يخضعوا أعظم حركة شعبية في تاريخ مصر الحديثة لأغراضهم ، ويسخروها لمنافعهم . فأنتهت إلى مهزلة في شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع ، على يدي آخر ملوك أسرة محمد على .

١٩٥٢

ثم تطلع الشمس ، بعد ذلك الفجر البعيد في مارس سنة ١٩١٩ ، ذات صباح من يولية ١٩٥٢ ، فيعرف المصريون أن ثورة من الضباط الأحرار ضد الملك قامت بعد منتصف ليل ٢٣ يولية ، ويندفعون لمؤازرتها بقوة روحية عارمة ، تنتهى بطرد آخر أفراد أسرة الأرنؤدى ، وتولية طفل يحمله أبوه في قماطه ، موليا الأدبار إلى كعبة كبرى ، ثم إلى روما .

١٩٥٣ وما يلبث زعماء « ثورة البعث الكبرى » أن يعلنوا نهاية الملكية الزائفة ،  
وليدة الاحتلال البريطاني ، وقيام الجمهورية المصرية الأولى في التاريخ ،  
وذلك في يونيو سنة ١٩٥٣ .

١٩٥٦ ويخرج آخر جندي بريطاني من مصر في ١٣ يونيو ١٩٥٦ ، وتعود قناة  
السويس إلى أهلها في ٢٦ يولية ١٩٥٦ .

## ثبت المراجع

- إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى .  
القاهرة د . ت [ = دون تاريخ ] .
- إرمان (أدولف) ودانكة (هرمان) : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ؛  
ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . القاهرة د . ت .
- ابن إياس (محمد) : بدائع الزهور في وقائع الدهور . القاهرة ١٨٩٦ - ١٨٩٨ .  
بلوى (أحمد) في موكب الشمس ؛ جزءان . القاهرة ١٩٥٠ .
- بلوى (أحمد أحمد) : رفاة الطهطاوى بك . القاهرة د . ت .
- تبای (رفائيل) : قوى التفرنج في الشرق الأوسط . « المجلة » ، عدد سبتمبر ،  
القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء  
التي صدرت .
- الترك (نقولا) : ذكر ملك فرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية . باريس  
١٧٣٩ .
- الجبرتي (عبد الرحمن) : عجائب الآثار ، في التراجم والأخبار . القاهرة ١٩٠٤  
( طبعة أهلية ) .
- ابن جبیر (محمد) : رحلة ابن جبیر : تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ .
- حبشى (بانوب) : شنودة الأنربى ؛ من رسالة مارميثا المعجايبى ، الرابعة .  
الإسكندرية ١٩٥٠ .
- حسن (سليم) : مصر القديمة . الأجزاء التي صدرت . القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٥٧ .
- حسن (على إبراهيم) : مصر في العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح  
العثمانى . القاهرة ١٩٥٤ .
- حسن (على إبراهيم) : دراسات في تاريخ الممالك البحرية . القاهرة ١٩٤٨ .
- حسين (محمد كامل) : منوعات . القاهرة ١٩٤٧ .
- حمزة (عبد القادر) : على هامش التاريخ المصرى القديم . مجلدان . القاهرة  
١٩٤٠ - ١٩٤١ .
- الرافى (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم في مصر ،  
ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٩ .

- الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، جزآن . القاهرة ١٩٣٢ .
- روفيلا (يعقوب نخلة) : تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٨٩٨ .
- ابن زبيل الرمال : رسالة مشتملة على غزوة السلطان سليم خان مع السلطان أبي النصر قانصوه الغورى . القاهرة ١٨٦١ .
- سامى (أمين) : تقويم النيل ؛ ثلاثة أجزاء وملحق . القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ .
- سرور (محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر . القاهرة ١٩٣٨ .
- السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٨٨١ .
- الشرقاوى (محمود) : مصر فى القرن الثامن عشر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- شكرى (منير) : أثناسيوس الرسول ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- شكرى (منير) : المسيحية وما تدن به للقط . من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٥١ .
- صالح (عبد العزيز) : التاريخ فى مصر القديمة ، مفهومه ، عناصره ، بواعث القومية فيه . القاهرة ١٩٥٧ .
- صالح (عبد العزيز) : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة . القاهرة د . ت .
- صالح (عبد العزيز) : قصة الدين فى مصر القديمة ؛ المجلة ، عدد نوفمبر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- صبرى (محمد) : كتاب القناة ، أسرار قضية التلويل ، واتفاقية ١٨٨٨ . القاهرة ١٩٥٧ .
- الطهطاوى (رفاعة رافع) : تخليص الإبريز ، فى تلخيص باريز . القاهرة ١٩٥٨ .
- طوسون (عمر) : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول

- وسعيد . الإسكندرية ١٩٣٤ .
- طوسون (عمر) : الجيش المصري في الحرب الروسية ١٨٥٣-١٨٥٥ . الإسكندرية ١٩٣٦ .
- طوسون (عمر) : صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ، الجيش المصري البري والبحري . القاهرة ١٩٤٠ .
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن) : كتاب فتوح مصر والمغرب . نيوهيفن ١٩٢٢ .
- ابن العبري ( غريغوريوس أبو الفرج) : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
- عبد المسيح ( يسي ) : اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- عبد المسيح ( يسي ) : ساويرس بن المقفع ؛ وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- عبد النور ( راغب ) : أوريجانوس ؛ وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- عبد الوهاب ( حسن ) : تاريخ المساجد الأثرية ؛ جزآن . القاهرة ١٩٤٦ .
- فخرى ( أحمد ) : مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٥٧ .
- فوزى ( حسين ) : سندباد عصرى . القاهرة ١٩٣٨ .
- » : حديث السندباد القديم . القاهرة ١٩٤٣ .
- » : سندباد إلى الغرب . القاهرة ١٩٥٠ .
- القمص ( منسى ) : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ .
- كامل ( مراد ) : القبط في ركب الحضارة العالمية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- كامل ( مراد ) : يوحنا النقيوسى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة الإسكندرية ١٩٥٠ .
- كمال ( أحمد ) : العقد الثمين ، في محاسن أخبار ، وبدايع آثار ، الأقدمين المصريين . القاهرة ١٧٧٢ .
- ليب ( باهور ) : الآثار القبطية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤ .



- مجدى (صالح) : حلية الزمن ، بمناقب خدام الوطن . نشر جمال الدين الشيال .  
القاهرة ١٩٥٨ .
- المسعودى (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الفضة . القاهرة ١٩٣٨ ( طبعة  
أهلية ) .
- المقريزى (تقى الدين أحمد) : المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .  
القاهرة ١٨٥٣ .
- المقريزى (تقى الدين أحمد) : كتاب السلوك ، لمعرفة الملوك ، نشر محمد مصطفى  
زيادة ، جزآن . القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .
- ابن المقفع (ساويرس الأشمونين) : رسالة فى الرد على أفتخيوخس بن بطريق .  
مكرم (موريس) : ابن كبر ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية  
١٩٥٠ .
- الملاخ (فتحي يونان) : كيرلس الرابع ، رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة .  
الإسكندرية ١٩٥٠ .
- ابن ممتى (شرف الدين أبو المكارم) : قوانين الدولة ، نشر عزيز سوريال عطية .  
القاهرة ١٩٤٣ .
- ميخائيل (فايق) : كيرلس الكبير ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة .  
الإسكندرية ١٩٥٠ .
- ميخائيل (ملاك) : باخوميوس ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية  
١٩٥٠ .
- النابلسى (فخر الدين عثمان) : تاريخ القيوم . القاهرة ١٨٩٨ .
- ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ،  
الإسكندرية ١٩٥٤ .
- ولسون (جون) : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى . القاهرة د . ت .

- Albright (W.F.) : From the Stone Age to Christianity; "Anchor"; New York, 1957.
- Amélineau (E.) : Contes et romans de l'Égypte chrétienne; 2 vol., Paris, 1888.
- Amélineau (E.) : Vie de Schnoudé [Moines égyptiens]; Paris 1889.
- Arberry (A.) : The Contribution to Islam; "The Legacy of Egypt"; Oxford 1942.
- Atiya (A.S.) : The Crusades in the Later Middle Ages; London 1938.
- Aveline (C.) et Al. : Egypt; "Hachette World Albums"; Paris 1955.
- Aymard (A.) : La civilisation égyptienne; "Hist. gén. des civilisations; dir. Crouzet"; T. I; Paris 1953.
- Baedeker : Egypt and the Sudan, Handbook for Travellers; Leipzig 1929.
- Bainville (J.) : l'Expédition française en Égypte; "Précis de l'hist. d'Égypte" T. III; le Caire 1933.
- Band (M.) : Egypte; "les guides bleus"; Paris 1950.
- Bell (H.I.) : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest; Oxford 1948.
- Bell (H.I.) : Egypt and the Byzantine Empire; "The Legacy of Egypt."
- Blackman (W.S.) : The Fellahin of Upper Egypt; London 1927.
- Bloch (R.) : Histoire d'Égypte de Makrizi; Paris 1908.
- Boreux (C.) : Département des antiquités égyptiennes; "Musée du Louvre"; 2 vol.; Paris 1932.
- Bouvier — Lapierre (P.) : L'Égypte préhistorique; "Préc. de l'hist. d'Égypte"; T. I; le Caire 1932.
- Breasted (J.H.) : A History of Egypt; New York 1905 et 1909.
- Breasted (J.H.) : The Dawn of Conscience, New York 1933.
- Breccia (E.) : Alexandria ad Ægyptum; Bergame 1922.
- Butcher (E.L.) : The Story of the Church of Egypt; 2 vols; London 1897.
- Butler (A.) : The Ancient Coptic Churches of Egypt; 2 vols; Oxford 1884.
- Butler (A.) : The Arab Conquest of Egypt; Oxford 1902.
- Capart (J.) : La Beauté égyptienne; Bruxelles 1943.
- Capart (J.) : Egyptian Art; "The Legacy of Egypt."
- Capart (J.) et Contenau (G.) : Histoire de l'Orient ancien; Paris 1936.
- Canivet (R.) et Fort (M.) : l'Égypte, pages littéraires et d'histoire, Paris 1923.
- Carré (J.-M.) : Voyageurs et écrivains français en Égypte; 2 vol.; le Caire 1933.
- Champdor (A.) : Saladin, le plus pur héros de l'Islam; Paris 1956.
- Charlesworth (M.P.) : The Roman Empire; "Home University Library"; Oxford 1951.

- Charles-Roux(F.): L'Egypte de 1801 à 1882 et de l'occupation française à l'indépendance; "Hist. de la nat.ég." dir. Hanoteaux,T.Viet T.V et VII; Paris 1936 et 1940.
- Chauvin (V.) : La légende égyptienne de Bonaparte; Mém. Soc. Arts et lettres du Hainaut; T. IV; Mons 1902.
- Childe (G.) : What Happened in History; "Penguin"; London 1942.
- Childe (G.) : The Prehistory of European Society; "Penguin"; London 1958.
- Colvin (A.) : The Making of Modern Egypt; London 1911.
- Combe (E.) : L'Egypte ottomane; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
- Contenau (G.) et Chapot (V.) : L'Art antique; "Hist. universelle des arts", dir. L. Réau; Paris 1930.
- Cowell (F.R.) : Cicero and the Roman Republic; "Penguin"; London 1956.
- Creed (J.M.) : Egypt and the Christian Church; "The Legacy of Egypt".
- Creswell (K.A.C.) : A Short Account of Early Muslim Architecture; "Penguin"; London 1958.
- Creswell (K.A.C.) : Islamic Architecture in Egypt; "Baedeker's".
- Cromer (E.B.) : Modern Egypt; 2 vols; London 1908.
- Cromer (E.B.) : Abbas II; London 1915.
- Dawson (C.) : The Making of Europe; London 1932.
- Dawson (W.R.) : Medicine; "The Legacy of Egypt".
- De Burgh (W.G.) : The Legacy of the Ancient World; "Penguin"; 2 vols; London 1953.
- Dehérain (H.) : L'Egypte turque, du XVI<sup>e</sup>. au XVIII<sup>e</sup>. S. L'Exp. de Bonaparte; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. G. Hanoteaux; T. V.; Paris 1934.
- Desroches-Nodlecourt (C.) : Le style égyptien; Paris 1942.
- Devonshire (Mme.) : L'Egypte musulmane et les fondations de ses monuments; Paris 1926.
- Didier (C.) : Les nuits du Caire; Paris 1860.
- Dienl (C.) : L'Egypt chrétienne et byzantine; "Hist de la nat. ég.", dir. Hanoteaux; T. III; Paris 1933.
- Driault (E.) : Mohammed Ali et Ibrahim; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
- Drioton (E.) : Pages d'égyptologie; le Caire 1957.
- Drioton (E.) et Lauer (J.-P.) : Sakkara; le Caire 1939.
- Drioton (E.) et Vigneau (A.) : Le Musée du Caire; Paris 1949.
- Drioton (E.) et Vandier (J.) : L'Egypte; "Clio"; Paris 1952.
- Drower (M.S.) : The Political Approach to the Classical World; "The Legacy of Egypt".

- Ebers (G.) : *An Egyptian Princess.*
- Ebers (G.) : *Uarda*; Stuttgart u. Leipzig 1879.
- Egypte (L') : *Aperçu hist. et géogr. Gouvern. et instit. Vie écon. et sociale*; le Caire 1926.
- Engelbach (R.) : *Mechanical and Technical Processes. Materials; "The Legacy of Egypt"*.
- Erman (A.) : *A Handbook of Egyptian Religion*; transl. from German; London 1907.
- Erman (A.) : *The Literature of the Ancient Egyptians*; transl. from German; London 1927.
- Flaubert (G.) : *Tentation de Saint Antoine.*
- France (A.) : *Thais.*
- Frankfort (H.) et Al. : *Before Philosophy*; "Penguin"; London 1954.
- Gardiner (A.H.) : *Writing and Literature. "The Legacy of Egypt"*.
- Gauthier (H.) : *L'Egypte pharaonique*; "Préc. de l'hist. d'Eg.", T. I; le Caire 1932.
- Ghallaab (M.) : *Les survivances de l'Egypte antique dans le folklore égyptien*; Paris 1929.
- Ghorbal (M.S.) : *The Beginning of the Egyptian Question & the Rise of Mehemed Ali*; London 1928.
- Ghorbal (M.S.) : *The Making of Egypt*; Cairo s.d. (1957 ?).
- Gibbon (E.) : *A History of the Decline & Fall of the Roman Empire.*
- Glanville (S.R.K.) éditeur : *The Legacy of Egypt*; Oxford 1942.
- Grousset (R.) : *L'Egypte des Croisades*; Paris 1939.
- Hammer-Purgstall (J. von) : *Geschichte des Osmanischen Reiches*; Neue Ausgabe; Pesth 1840.
- Hanoteaux (G.) : *Introduction générale*; "Hist. de la nation égyptienne". T. I; Paris 1931.
- Hénaut (de) : *Manuel d'histoire de l'Egypte, de Ménès à nos Jours*; le Caire 1927.
- Herbelin (A.) : *La fresque égyptienne aux tombeaux des nobles à Thèbes*; Rev. conf. fr. en Orient, le Caire 1949.
- Herodotus : *History*; Rawlinson's translation.
- Herriot (E.) : *Sanctuaires.*
- Herz (Max) : *Catalogue raisonné du Musée national de l'art arabe*; le Caire 1906.
- Heyd (W.) : *Histoire du commerce du Levant au Moyen-Age*; 2 vol.; Leipzig 1886.
- Hocart (A.M.) : *The Legacy of Modern Egypt*; "The Legacy of Egypt."
- Jéquier (G.) : *Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquête d'Alexandre*; Paris 1913.



- Joinville (J. Sire de) : Histoire de Saint Louis; transl. from old French by F.T. Margials; London 1908.
- Jones (A.H.M.) : Egypt and Rome; "The Legacy of Egypt".
- Jouguet (P.) : L'Egypte gréco-romaine; Préc. de l'hist. d'Egypte", T.I.; le Caire 1932.
- Jouguet (P.) : L'Egypte ptolémaïque; "Hist. de la nat. ég."; T. III. Paris 1933.
- Kayser (E.) et Roloff (E.M.) : Histoire d'Egypte; trad. de l'allemand; Paris s.d.
- Kingsley (C.) : Hypatia.
- Lambrino (M.) Encyclopédie par l'image : l'Egypte; Paris 1930.
- Lane (E.) : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians; London 1836.
- Lane-Poole (G.) : The Art of the Saracens in Egypt; London 1886.
- Lane-Poole (G.) : Cairo, sketches on its History, Monuments & Social Life; London 1898.
- Lane-Poole (G.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London 1898.
- Lane-Poole (G.) : A History of Egypt in the Middle Ages; London 1900.
- Lange (K.) & Hirmer (M.) : Egypt; "Phaidon" Press; London.
- Legrain (G.) : Louqsor sans les Pharaons; Paris 1914.
- Leibovitch (J.) : Ancient Egypt; transl. from French; Cairo 1938.
- Lot (F.) : La fin du monde antique et le début du Moyen-Age; Paris 1927.
- Loti (P.) : La mort de Philae.
- Lucan : Pharsalia; transl. from Latin; "Penguin"; London 1956.
- Lyons (H.) : Geographical & Ethnographical Notes; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Maillet (B. de) : Description de l'Egypte; Paris 1735.
- Marcel (J.) : L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française; Paris 1848.
- Maricette (A.) : Voyage en haute Egypte; Paris 1893.
- Martin (H.) sous la dir. de : L'Art égyptien, grammaire de style; Paris 1929.
- Maspero (G.) : Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique; 3 vol.; Paris 1895-1899.
- Maspero (G.) : L'Archéologie égyptienne; Paris 1907.
- Maspero (G.) : Les contes populaires de l'Egypte ancienne; Paris 1911.
- Maspero (G.) : L'Egypte; "Ars Una"; Paris 1911.
- Maspero (J.) : Histoire des patriarches d'Alexandrie; Paris 1923.
- Maspero (J.) : Horapollon et la fin du paganisme égyptien; le Caire 1914.
- Mekhiterian (A.) : La peinture égyptienne; éd. Skira; en Suisse 1954.
- Migeon (G.) : Manuel d'art musulman; Paris 1927.



- Milne (J.G.) : *A History of Egypt under the Roman Rule*; London 1924.
- Montet (P.) : *La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès*; Paris 1946.
- Moret (A.) : *Mystères égyptiens*; Paris 1922.
- Moret (A.) : *L'Egypte pharaonique*; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. Hanoteaux; T. II, Paris 1931.
- Moret (A.) : *Le Nil et la civilisation égyptienne*; Paris 1926.
- Moret (A.) et Davy (G.) : *Des clans aux empires*; Paris 1923.
- Munier (H.) : *L'Egypte byzantine de Diocletien à la conquête arabe*; "Préc. de l'hist. d'Eg."; T. II; le Caire 1932.
- Musée du Caire : *Description sommaire des principaux monuments*; le Caire 1932.
- Nasiri-i-Khusru : *Sefer-Namch*; trad. du persan; Paris 1881.
- Nerval (G. de) : *Voyage en Orient*; 2 vol.
- Nikiou (Jean de) : *Chronique*; trad. Zotenberg; Notices et extr." des manusc. de la Biblioth. nat. et autres; T. XXIV, Paris 1883.
- Oesterley (W.) : *Egypt & Israel*; "The Legacy of Egypt".
- O'Leary (de Lacy) : *The Coptic Church and Egyptian Monasticism*; "The Legacy of Egypt".
- Paton (A.A.) : *A History of the Egyptian Revolution from the Mamlukes to the Death of Mohamed Aly*, 2 vol., London 1870.
- Perroy (E.) et Al. : *Le Moyen-âge*; "Hist. gén.d. civilis.", dir. Crouzet; T. III; Paris 1954.
- Petrie (F.) : *Social Life in Ancient Egypt*; London 1923.
- Petrie (F.) : *Arts et métiers de l'ancienne Egypte*; trad. de l'anglais; Paris 1925.
- Plutarque : *Vies des hommes illustres*; trad. D. Ricard, Paris 1837.
- Poliak (A.N.) : *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine & the Lebanon*; London 1939.
- Quatremère (E.) : *Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines*; 2 vol. Paris 1811.
- Quatremère (E.) : *Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte*; 2 vol., Paris 1837-1844.
- Rhoné (A.) : *L'Egypte à petites journées*; Paris 1910.
- Roberts (C.H.) : *The Greek Papyri*; "The Legacy of Egypt."
- Roncière (C. de la) : *Géographie de l'Egypte à travers les âges*; Hist. de la nat. ég. dir. Hanoteaux, T. I, Paris 1931.
- Runciman (C.) : *History of the Crusades*; 3 vols.
- Sabry (M.) : *L'empire égyptien sous Ismail*; Paris 1933.
- Sacy (S. de) : *Relation de l'Egypte par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad*; Paris 1810.

- Samivel : Trésor de l'Egypte; Paris 1954.
- Sammarco (A.) : Les règnes de 'Abbas, de Sa'id et d'Isma'il; Préc. de l'hist. d'Eg. T. IV, le Caire 1935.
- Savary (C.E.) : Lettres sur l'Egypte; 3 vol.; Paris 1785-1786.
- Seidl (E.) : Law; "The Legacy of Egypt".
- Sewell (J.W.S.) : The Calender & Chronology; "The Legacy of Egypt".
- Simaika (M.H.) : Guide sommaire du Musée copte; le Caire 1937.
- Slcley (R.W.) : Science; "The Legacy of Egypt".
- Smith (W.) : History of Rome.
- Smith (G. Elliot) : The Ancient Egyptians & the Origin of Civilization; London 1923.
- Sottas (H.) et Drioton : Introduction à l'étude des Hiéroglyphes; Paris 1922.
- Steindorff (G.) : Outline of the History of Egypt. Hieroglyphics. Religion. Art; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Suetonius : The Twelve Caesars; "Penguin"; London 1957.
- Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation. London 1930.
- Thurman (Cap.) : Bonaparte en Egypte; Paris 1902.
- Vandier (J.) : Egypte; peintures des tombeaux et des temples; U.N.E.S.C.O., Paris 1954.
- Vattier : L'Egypte de Murtadi, fils de Gaphiphe trad. de l'arabe; Paris 1656.
- Vaux (Carra de) : L'Abregé des merveilles; trad. de l'arabe; Paris 1898.
- Villard (M. de) : Christian Art in Egypt; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Volney (C.F.) : Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785; 2 vol., Paris 1787.
- Weigall (A.) : The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt; London 1923.
- Weigall (A.) : Alexandre le grand; trad. de l'anglais; Paris 1934.
- Wertheim (O. von) : Cléopâtre; trad. de l'allemand; Paris.
- Wiet (G.) : L'Egypte arabe, 622-1517 A.D.; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux; T. IV; Paris 1937.
- Wiet (G.) : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane; Préc. de l'hist. d'Eg. T. II; le Caire 1932.
- Wiet (G.) : Guide sommaire du musée national de l'art arabe; le Caire 1939.
- Wilson (J.A.) : The Culture of Ancient Egypt (orig. "The Burden of Egypt") Chicago 1958.
- Worrel (W.) : A Short Account of the Copts; Michigan 1945.







## هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التي تفجرت في ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ولما كان تاريخنا الوطني الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبي والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التي تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطني، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين، ولتصلهم بتراث الفكر المصري الحديث والمعاصر، والتراث العالمي على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيي ثورة الشباب فتقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزي - ومعرفيا يذكى معارك النهضة والتحرر لبنى معاصر جديدة وطننا للحرية والعدالة كما كانت عبر تاريخها المجيد



دار الكتب والوثائق القومية

مَطْبَعَةُ دَارِ الْكُتُبِ وَالْوُثَايِقِ الْقَوْمِيَّةِ بِالْمُهَلَاةِ